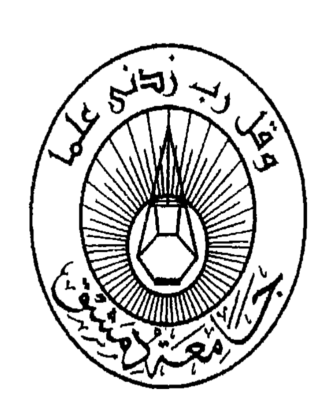
وزارة التعليم العالي
جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ



رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب الحديث والمعاصر

بعنوان:

السياسة البريطانية في بلاد الشّام
(١٧٩٩ - ١٨٧٨م)

بإشراف

أ. د. محمد حبيب صالح

إعداد الطالب

أحمد علي الخلف الحمد

العام الدراسي ٢٠١١-٢٠١٢م

الإهـــــداء

إلى المعلم الأول... إلى الرحمة المهداة للعالمين، إلى أسوة

حسنة ...بها أقتدي ... **سيدنا محمد "صلى الله عليه وسلم "**

إلى من أعطت بلا حدود، إلى من عانت بلا نهاية، إلى من بذلت زهرة حياتها لتتبرعم وتتفتح زهرة حياتنا... إلى من يحار في وصفها قلبي وتعجز عن الوفاء بحقها طاعتي... إلى أيدٍ ضارعة وشفاه لاهجة بالدعاء ... **أمـــــــي (نايفة أحمد العابر)أطال الله بعمرها**

إلى من شاء الله أن أحرم منه... إلى من رحل باكراً ،إلى من ترك لنا سمعة طيبة ... إلى النفس التي أعطت ولم تبخل **أبـــي (علاوي محمود الخلف الحمد) رحمه الله**

إلى من نشأت معهم على الود والمحبة وأعتز بهم أدامهم الله ذخراً لي... **إخوتي وأخواتي**

إلى من يملؤون بيتي سعادة ودنياي عزيمة وتفاؤلاً ،إلى فلذات كبدي:

(اليمامة ـ أسامة ـ الخضر)

إلى من شاركتني حياتي، بحلوها ومرها ،إلى من تعد نجاحي نجاحها وتقدمي فخراً لها : **زوجتي**

إلى من قاسموني همومي وشاركوني أفراحي ،إلى من تحلو الأيام برفقتهم : **أصدقائي الأحباء**

الفهرس

المقدمة:

تأتي أهمية البحث من كونه يتناول دراسة السياسة البريطانيّة في بلاد الشام بين عامي (١٧٩٩-١٨٧٨م)،أي من حملة نابليون بونابرت على بلاد الشام عام ١٧٩٩م، حتى مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م، وهي فترة مهمّة جدّاً على الصّعيد التّاريخيّ، شهدت اندفاع الدّول الأوروبّيّة الكبرى المحموم للسّيطرة على العالم بشكل عام، وعلى المنطقة العربيّة بما فيها بلاد الشّام بشكل خاص، حيث تتمتّع هذه البلاد منذ القديم بأهمّيّة استراتيجية واقتصاديّة خاصّة، فاتّبعت الدّول الغربيّة الكبرى أساليب مختلفة للتّدخّل فيها من أجل تحقيق مصالحها، وساهمت الهيئات الدّبلوماسيّة، وأصحاب المصالح الاقتصاديّة والإرساليّات التّبشيريّة، والبعثات العسكريّة والثّقافيّة، في توسيع نفوذها المادّيّ والمعنويّ، وتمهيد السّبيل للسّيطرة السّياسيّة والعسكريّة عليها.

وهكذا أُدخلت المسألة الشّرقية في دور جديد يستهدف الدولة العثمانيّة، من حيث إبقائها أو القضاء عليها، واقتسام أراضيها بين المتنافسين، وتدخلت الدول الأوروبّيّة الكبرى في قضايا الدولة العثمانية لتقف في وجه روسيا وتطلّعاتها للوصول إلى البحار الدّافئة عن طريق السّيطرة على شرقي المتوسط، وبشكل خاص بريطانيا وفرنسا المتمسكة بادعاءاتها التّقليديّة في بلاد الشام، أمّا النّمسا فقد صار تأثيرها في الجزء الجنوبيّ الشّرقي من أوروبّا من العوامل السّياسيّة الدّائمة في حوض البحر المتوسط . وتبنت ألمانيا منذ ظهورها كقوة عالمية كبرى بعد أن أكملت اتحادها عام١٨٧١م سياسة الزحف نحو الشرق، وأخذت تلعب دوراً مهماً في المنطقة باستغلال مكانتها في الدولة العثمانية.

تفوّقت مصالح بريطانيا بسبب اعتمادها على قوّتها البحريّة، واهتمامها بطريق التجارة الدولية إلى الهند، ورغبتها في البحث عن أسواق لتصريف إنتاجها الصناعي الهائل، وعن مصادر جديدة للموادّ الأوّليّة اللازمة للصّناعات المختلفة بعد ثورتها الصّناعية، وكذلك حاجتها إلى المنتجات الزراعية التي كانت تنتجها الولايات العثمانية في المشرق العربي.

غير أن بريطانيا لم تكن مهتمة بوضع يدها مباشرة على هذه البلاد طالما مصالحها مضمونة فيها، لكن هذا لا يعني أنها كانت تنظر بارتياح إلى محاولات أيّ دولة أخرى لفرض نفوذها فيها، واستخدامها كقوّاعد للإضرار بالمصالح البريطانيّة في المشّرق. لذلك بنّت سياستها على قاعدة الاحتفاظ بالحالة الرّاهنة في بلاد الشّام الّتي تخدم مصالحها حتى مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م. وتعدّدت أزمات المسألة الشّرقية، وخاصّة في بلاد الشّام، ومنها:

– حملة نابليون على بلاد الشّام عام ١٧٩٩م الّتي شكّلت نهاية تاريخ الوطن العربيّ الحديث وبداية تاريخه المعاصر. حيث فتحت الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام باب التدخل الأجنبي على مصراعيه، واستغلتها بريطانيا، من أجل فرض سيطرتها على المنطقة الواقعة على طريق الهند.

– توسّع محمد علي باشا في بلاد الشّام بين عامي (١٨٣١-١٨٣٣م) الذي أدّى إلى ازدياد نفوذ الدّول الأوروبية في الدّولة العثمانيّة، حيث اضطر السلطان العثماني إلى طلب مساندتها من أجل الوقوف في وجه توسع محمد علي باشا الذي خرج على إرادته، فأخذ يبحث عن حليف له يمكّنه من الانتصار على جيشه الرابض قرب الأستانة، ويفتش عن أي من الأوروبيين أكثر صلاحية لذلك، بريطانيا أم روسيا، طالما أن فرنسا كانت تنصح الطرفين باللجوء إلى الحل السلمي والاتفاق الثنائي، وحصدت هذه الدّول نتائج ذلك وتمثلت بحصول روسيا على اتفاقية هنكارأسكلة سي عام ١٨٣٣م، وبريطانيا على اتفاقية بلطة ليمان عام ١٨٣٨م. ثم نجحت بريطانيا في دفع الأمور إلى قيام حرب الشام الثانية، وإجبار قوات محمد علي باشا على الخروج من بلاد الشام، وأقنعت بريطانيا كلاً من النمسا وروسيا وفرنسا بتوقيع اتفاقية المضايق في ١٣ تموز ١٨٤١م، فأبطلت اتفاقية هنكار أسكلة سي.

– حوادث لبنان بين عامي (١٨٤١-١٨٦٠م)، وتشكيل اللجنة الدولية الخاصة، وزيادة التّغلغل الأجنبيّ فيه.

– مشكلة الأماكن المقدّسة في فلسطين،حيث أدت تطوّراتها إلى حرب روسيّة عثمانية (حرب القرم) عام ١٨٥٣م، والتي تحولت إلى حرب أوروبّيّة واسعة، مع أنّ

حروباً روسيّة عثمانيّة عديدة سبق أن وقعت دون أن تتطوّر إلى مثل ما تطوّرت إليه حرب القرم.

- من جهة أخرى قامت الدّولة العثمانيّة بإصلاحات متعدّدة (كلخانة عام١٨٣٩م ـ خط الهاميون عام ١٨٥٦م) بتأثير الهزائم الّتي لحقت بها داخليّاً وخارجيّاً، وبفعل الضّغط الأوروبّيّ الّذي كان يطمع في الحصول على المزيد من التسهيلات لنشاط الرّعايا الأوروبّيّين في الدّولة العثمانيّة.

ونقطة الانتهاء كانت عند مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م، نظراً لأهمّيّته في تاريخ المسألة الشّرقية بشكل عام وعلى السّياسة البريطانية تجاه المنطقة بشكل خاص، حيث يُعدّ بداية تخلّي بريطانيّا عن سياستها التقليدية في الحفاظ على سلامة الدّولة العثمانية.

- **سبب اختيار البحث:**

مما دفعني لاختيار موضوع البحث أنني لم أجد دراسات كثيرة حول العلاقات التي قامت بين الدولة العثمانية وبريطانيا، وآثارها على بلاد الشام منذ حملة نابليون بونابرت على بلاد الشام عام ١٧٩٩م، التي فتحت،باب التدخل الأجنبي على مصراعيه للتدخل في شؤون بلاد الشام، وعلى مختلف المستويات، وحتى مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م، لأنه بالغ الأهمية في تاريخ المسألة الشرقية، ولأن المرحلة التي تناولتها الدراسة تركت آثاراً سيئة على واقعنا العربي آنذاك، وما نزال نتعرض لمكائد السياسات الدولية التي تتبعها القوى العظمى منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا. لذلك لابد من دراسة شاملة لهذه الأحداث، ووضعها في إطارها التاريخي والعلمي والمنهجي، لتصبح مادة علمية متجانسة في متناول القراء والباحثين.

إشكاليّة البحث وأهدافه:

تركز معظم الدّراسات التّاريخية عن ولايات بلاد الشّام في ظلّ السّيطرة العثمانيّة في المرتبة الأولى على دراسة تاريخها وتاريخ ولاتها، ودرست بعضها الجوانب الاقتصاديّة والاجتماعيّة، غير أن الدّراسات المتخصصة المتصلة بسياسات كل دّولة من الدّول الأوروبّيّة العظمى بما فيها بريطانيا في هذه الولايات نادرة أو تكاد لا تكون موجودة،بالرغم من أهميتها الكبيرة في فهم حقيقة التّطورات التي شهدتها بلاد الشّام في

المرحلة التي تناولتها الدّراسة، وبالتالي فإن الهدف الأساسي للبحث هو دراسة هذه الإشكالية، والإجابة عن الأسئلة التي تطرحها وأهمها:

١- لماذا وقفت بريطانيا إلى جانب الدّولة العثمانية ضد حملة نابليون على بلاد الشّام عام١٧٩٩م؟ هل لأنّها تهدّد طريقها إلى الهند ومصالحها في المنطقة، أم كان هناك أسباب أخرى؟

٢- لماذا أرسلت بريطانيا الضابط تشيسني إلى بلاد الشام؟ هل من أجل استكشاف الطرق النهرية وتطوير طرق مواصلاتها إلى الهند بإيجاد طريق يصل البحر المتوسط بالخليج العربي عبر نهر الفرات؟ أم كان له مهمات أخرى سياسية وتجسسية تتمثل في مراقبة الأوضاع الجديدة التي نتجت عن سيطرة محمد علي باشا على بلاد الشام، وازدياد نفوذ روسيا في الدولة العثمانية، وولاياتها بما فيها بلاد الشام، بعد ما قدمت المساعدة للسلطان العثماني ضد محمد علي باشا، ووقعت مع الدولة العثمانية على اتفاقية هنكار أسكلة سي عام ١٨٣٣م؟

٣- لماذا كانت بريطانيا أقرب للحياد في مواقفها، ولم تتدخل عسكريّاً في حرب الشّام الأولى ؟هل كان لديها أسباب منعتها من التدخل؟ أم أنها رغبت في عدم التدخل لتحقيق غاياتها المتمثلة في إضعاف الطرفين؟ وما الأسباب التي جعلت بريطانيا تسمح لروسيا في التّدخل إلى جانب السّلطان العثماني ضدّ محمد علي باشا في حرب الشّام الأولى (١٨٣١-١٨٣٣)م وحصد نتائجها؟ ولماذا حدث تبدّل في مواقف السّياسة البريطانيّة في حرب الشّام الثانية (١٨٣٩-١٨٤٠)م.

٤- هل أفرزت مشكلة الأماكن المقدّسة وحرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)م، وإن كان بعدما يزيد عن عقدين من الزمن، المقدّمات الموضوعيّة للتّفاهمات والاتّفاقيّات الّتي تمّ التّوصّل إليها لاحقاً بين الدّول العظمى قبل انعقاد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م؟ وهل دفعت بالدّول العظمى نحو تبنّي سياسة دوليّة جديدة تقوم على تنفيذ المرحلة الأولى من حلّ المسألة الشّرقية بتقاسم ممتلكات الدّولة العثمانيّة، وتأجيل قضيّة تحديد مصير بلاد الشّام إلى أن تفرز المتغيّرات الدّولية معطيات جديدة، وكلّ دولة تأمل بأن تكون في مصلحتها على حساب الدّول العظمى الأخرى؟

يهدف البحث أيضاً إلى دراسة هذه الإشكالية من جوانبها المختلفة من خلال العودة إلى المصادر والمراجع ذات الصلة، وخاصة الوثائق البريطانية ــ العثمانية المفرج عنها، وتقديم دراسة موضوعية جديدة للسياسة البريطانية بعيداً عن الأهداف والميول السياسية.

وهناك أهداف أخرى نذكر منها:

١- دراسة المتغيرات التي طرأت على السياسة البريطانية في بلاد الشام في القرن التاسع عشر، والتحولات الخطيرة التي شهدتها المنطقة، وكانت حملة نابليون نقطة البداية فيها.

٢- كشف حقيقة السياسة البريطانية تجاه محمد علي باشا في بلاد الشام بين عامي (١٨٣١-١٨٤١)م، وأسباب حياد بريطانيا في حرب الشام الأولى، وأسباب تدخلها العسكري المباشر في حرب الشام الثانية؟ هل كان تضامناً مع الدولة العثمانية أم خوفاً من تنامي قوة محمد علي باشا، أم لأنها تنظر إلى وجود إبراهيم باشا في بلاد الشام على أنه يعني ازدياد نفوذ فرنسا المنافسة لبريطانيا، أم للحيلولة دون انفراد روسيا بالسلطان العثماني؟!

٣- التوصل إلى حقيقة أهداف الإرساليات التبشيريّة البروتستانتيّة البريطانيّة، هل اختلفت مهمّة البعثات التبشيريّة البروتستانتيّة البريطانيّة في المشرق العربيّ عن مهمّة البعثات الأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة، أم أنها أخفت أيضاً أهدافاً سياسية واقتصادية تحت ستار التّبشير والعباءة الدينيّة؟ وكشف طبيعة العلاقة البروتستانتيّة ــ اليهودية.

٤- كشف حقيقة تدخل بريطانيا في حوادث لبنان، ومشكلة الأماكن المقدسة. هل سعت الدبلوماسيّة البريطانيّة إلى استغلال ظروف الحرب الأهليّة اللبنانيّة كما فعلت فرنسا وروسيا لتكريس نفوذها في المشرق العربيّ أم أن الدوافع الإنسانية والأخلاقية كانت وراء المساعي التي قامت بها الدّبلوماسيّة البريطانيّة لإطفاء نار الفتنة واقتتال الأخوة على أرض لبنان؟

منهجيّة البحث:

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التاريخي في دراسة الأحداث، والمنهج التحليلي في قراءة الأحداث وتحليلها وربطها بمسبّباتها،والالتزام بقواعد المعرفة التّاريخيّة المنظمة، القائمة على الرّؤية الشّموليّة، والمعالجة الموضوعيّة المستندة إلى التحليل والتّوثيق والنّقد للمصادر والمراجع العربيّة والأجنبيّة وبعض والدّوريّات ذات الصّلة بالموضوع. والخروج بنتائج علميّة إن شاء الله، ومحاولة تقديم قراءة موضوعية للسياسة البريطانية في بلاد الشام بشكل يخدم قضايانا القومية والمصيرية.

- أهم المصادر والمراجع التي استخدمت في البحث:

اعتمد البحث على عدد من الوثائق:

- وثائق محفوظات مديرية الوثائق التاريخية بدمشق:

أ- سجل الأوامر السلطانية لولاية دمشق.

ب- سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب.

- اعتمد البحث على عدد من الوثائق البريطانية والعثمانية، والفرنسية، ومحافظ عابدين، وتجدر الإشارة إلى أنه لم تكن هذه الوثائق التي اعتمد عليها البحث النسخة الأصلية، وإنما عن طريق وجودها في كتب ومنشورات ذات صبغة وثائقية ومن هذه المنشورات:

١- مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان، جمع وترجمة فيليب وفريد الخازن، وقد صدرت بثلاثة أجزاء، وهي مأخوذة من الكتاب الأزرق البريطاني وفي المحررات أوراق رسمية أخرى مأخوذة من بعض الكتب والنشرات العربية والأجنبية، أو من ضبوط البرلمان الفرنسي، طبعت في جونية،١٩١١م.

٢- الوثائق الحكومية المنشورة في كتابين كبيرين قام بتصنيفهما الدكتور أسد رستم، وهما المحفوظات الملكية المصرية، والأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا.

٣- عدد من محافظ عابدين نشرت في أواخر كتاب، تاريخ مدينة دمشق وعلمائها خلال الحكم المصري ، لخالد أحمد مفلح بني هاني، صدر في الأوائل دمشق، ط١، ٢٠٠٥م.

وفي أواخر كتابين للدكتور فندي جدعان أبو فخر هما سورية والصراعات الدولية (١٨٣١-١٨٤٠)م محمد علي باشا والحسابات الخاطئة، السويداء، سورية، ط١، ٢٠٠٠م.،وانتفاضات الشام على مظالم محمد علي باشا١٨٣١-١٨٤٠م، دار الينابيع، دمشق، سورية، ط١، ٢٠٠٤ م.

٤- كما اعتمد البحث على وثائق في الأرشيف البريطاني، وفي محفوظات المديرية العامة للآثار في بيروت، وفي محفوظات المركز الوطني للمعلومات والدراسات في بعقلين، وفي محفوظات البطركية المارونية، موجودة في مؤلفين للدكتور رياض غنام وهما: مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر (دراسة وثائقية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي)، بيسان، بيروت، لبنان، ط١ ، ٢٠٠٠م. والمقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين (١٧٨٨-١٨٦١)م، (دراسة وثائقية في تاريخ جبل لبنان السياسي)، بيسان، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٨م. بآخره صفحات وثائق متنوعة. وكتاب بعنوان التاريخ السياسي للأمارة الشهابية في جبل لبنان ١٦٩٧-١٨٤٢م، مؤلفه عباس أبو صالح بيروت ط١٩٨٤،١م.

٥- نوار، عبد العزيز سليمان، وثائق أساسية من تاريخ لبنان، جامعة بيروت العربية، بيروت، لبنان، ط١٩٧٤،١م.

٦- هشي، سليم حسن، المراسلات الاجتماعية والاقتصادية لزعماء جبل لبنان خلال ثلاثة قرون (١٦٠٠-١٩٠٠) ، ج١(وثائق تاريخية تنشر لأول مرة)، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨١-١٩٨٢م، ٥ج.

٧- وثائق التدخل الأجنبي. الوطن العربي في ظل الاحتلال العثماني، د. م،ن، ط١، ١٩٧٥م. موجودة في مكتبة الأسد في دمشق.

٨- ملف وثائق فلسطين (مجموعة وثائق وأوراق خاصة بالقضية الفلسطينية) من عام ٦٣٧ إلى ١٩٤٩م، وزارة الإرشاد القومي، موجودة في مكتبة الدراسات العليا كلية الآداب، جامعة دمشق.

٩- أصف، يوسف بك: المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوروبية، ترجمة: يوسف بك أصف، المطبعة العمومية بمصر، القاهرة، ط٢، ١٨٩٦م.

١٠- بازيلي، قسطنطين: سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، تم الاعتماد على ترجمة: طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، الاتحاد السوفييتي، ط١، ١٩٨٩م، وهناك ترجمة أخرى لـ ياسر جابر، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٨م لا تختلف في المضمون عن ترجمة طارق معصراني التي اعتمدها البحث لكن تختلف فقط في شكلها وعنوانها حيث تحمل عنوان: سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي.

١١- أما كتاب السياسة الدولية في الشرق العربي لـ عادل إسماعيل، وأميل خوري المكوّن من أربعة أجزاء، حصلت على الجزء الأول من مكتبة المعهد الفرنسي للشرق الأدنى في دمشق، وعلى بقية الأجزاء من مكتبة الدار الوطنية في بعقلين في لبنان، وتجدر الملاحظة بأن كل جزء له تاريخ طبعة مختلف عن الآخر. والأجزاء كما يلي:

أ- إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي ، (من القرن السادس عشر إلى مؤتمر فيينا عام ١٨١٥م)، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م، ج١.

ب- إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩م إلى سنة ١٩٥٨، (من مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥م إلى معاهدة المضائق ١٨٤١م)، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، لبنان، ١٩٦٠م، ج٢.

ج- إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩م إلى سنة ١٩٥٨، (من معاهدة المضائق ١٨٤١م إلى فرمان ١٩ آذار ١٨٦٦م)، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، لبنان، ١٩٦١م، ج٣.

د- إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩م إلى سنة ١٩٥٨، (من فرمان ١٩ آذار ١٨٦٦م إلى نهاية الحرب العالمية الأولى١١ تشرين الثاني ١٩١٨م)، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، لبنان، ١٩٦٤م،ج٤.

يضاف إلى هذه المصادر عدد كبير من كتب ومؤلفات المؤرخين والباحثين المعاصرين، التي ساعدتني في رسم صورة عامة لتلك الفترة الزمنية من تاريخ بلاد الشام وعلاقتها بالدولة العثمانية والدول الأوروبية. ولا بد من الإشارة هنا إلى أهمية الشبكة العنكبوتية (الانترنيت) في الاستدلال على بعض الكتب والمصادر، حيث آثرت العودة إلى الكتاب في أغلب الأحيان والحصول عليه بشكل مباشر، إذا أمكن ذلك، وهي موجودة في قائمة والمصادر والمراجع.

- خطة البحث:

١- المقدمة:

٢- التمهيد: ويتضمن السّياسة البريطانيّة في بلاد الشّام قبل حملة نابليون على بلاد الشام عام ١٧٩٩م.

٣- الفصل الأول: السياسة البريطانية في بلاد الشّام بين عامي (١٧٩٩-١٨٣٣م):

تناول البحث في الفصل الأول موقف السياسة البريطانية من حملة نابليون بونابرت (Napoleon I) على بلاد الشام عام ١٧٩٩م، وإجراءات السياسية البريطانية لمواجهتها، حيث سجلت الدبلوماسية البريطانية انتصاراً كبيراً في مواجهة نابليون بونابرت، وتمكنت من حمل الباب العالي على إعلان الحرب على فرنسا، فقد أدرك بعض رجال السياسية البريطانيين, وفي طليعتهم هنري دنداس(H. Dundas) وزير الحربية ووزير الشؤون الهندية في الحكومة البريطانية،والأميرال نيلسون Horatio (Nelson) ، أن هناك خطراً على المصالح البريطانية في الهند وفي الشرق لا يقل في شيء عن الخطر الفرنسي، وهو الخطر الروسي. كما يتناول هذا الفصل نتائج حملة نابليون بونابرت على بلاد الشام عام (١٧٩٩م) وأثارها على السياسة البريطانية،حيث فتحت حملة نابليون في سجل بريطانيا الاستعماري في المشرق العربي صفحة جديدة. ورأت الحكومة البريطانية أن تستعين بالبخار لتقصير طريق الهند، فأرسلت الضابط

فرانسيس رودن تشيسني(F. R Chesney) إلى بلاد الشام لدراسة صلاحية نهر الفـرات للملاحة، فرسم الخرائط الدقيقة، واتصل بقبائل وسكان المنطقة، مـن أجـل تجنيـدهم لخدمة السياسة البريطانية، ومراقبة ازدياد النفوذ الروسي إثر سيطرة محمد علي باشـا على بلاد الشام عام ١٨٣١م، وتوقيع معاهدة كوتاهية عام ١٨٣٣م بين السلطان ومحمد علي باشا، وتوقيع اتفاقية هنكار أسكلة سي بين روسيا والباب العالي عام ١٨٣٣م.

٤- الفصّل الثّاني: تطور السياسة البريطانية في بلاد الشّام بين عامي (١٨٣٣-١٨٤١م):

تناول البحث في هذا الفصل دور بريطانيا في زعزعة الاستقرار والأمن الـداخليّ في بلاد الشام خلال حكم إبراهيم باشا بين عـامي (١٨٣٣-١٨٣٩م)، حيـث لعبـت بريطانيا دوراً كبيراً في إشعال الثورات ضد حكم محمد علي باشا في بلاد الشام، مـن خلال الجواسيس والتجار والقناصل البريطانيين، كما أن بريطانيا لم تسمح لمحمد علي باشا في إعلان الاستقلال، وحالت دون نجاح مفاوضات محمد علي باشا المباشرة مـع السلطان العثماني، ودفعت الأمور باتجاه حدوث حرب الشام الثانية، التي أعقبها توقيـع مذكرة ٢٧ تموز ١٨٣٩م بين الدول الأوروبية باستثناء فرنسا، و اتفاقية لندن فـي ١٥ تموز١٨٤٠م، بين الدول الأوروبية، والثّورة اللبنانيّة عام١٨٤٠م، وجلاء قوات محمـد علي باشا عن بلاد الشام ، وقضت بريطانيا نتيجة ذلك على اتفاقية هنكار أسكلة سـي، وحصدت اتفاقية بلطة ليمان التي وقعت عليها عام ١٨٣٨م.

٥- الفصّل الثّالث: دور السياسة البريطانية في حل المشكلات التـي واجهتهـا بـلاد الشام بين عامي (١٨٤١-١٨٧٨)م:

تناول الفصل الثالث دراسة حوادث لبنان بين عامي (١٨٤١-١٨٦٠)م وانعكاساتها على السياسة البريطانية في بلاد الشام، حيث أشعلتها الدسائس البريطانيـة والفرنسـية والروسية، ولم تكن الدولة العثمانية بمنأى عنها، وجاءت بريطانيا من خلال مشـاركتها في اللجنة الدولية للتحقيق في الحرب الأهلية في لبنان عام ١٨٦٠م فـأحرزت نصـراً مؤكداً، بتحركها المرن ودفاعها عن مواقفها ومحاولاتها زرع الشقاق، داخل أعضـاء اللجنة الدولية، وخاصة حلف الخصوم المتمثل في روسيا وفرنسا، ونجحت في إبعـاد الخطر الرئيس بالنسبة إليها، أي رؤية لبنان تحت وصاية فرنسا، والحفاظ على لبنـان

ضمن حدود الدولة العثمانية كان منسجماً مع أغراض سياسة بريطانيا التقليدية، وفي أغلب الأحيان حصل دوفرين(Duffrin)على تأييد غالبية أعضاء اللجنة، لأن معظم هؤلاء لا يرتاحون إلى وجود الحملة الفرنسية في بلاد الشام، وباستثناء المفوض البريطاني دوفرين، لم يستطع أعضاء اللجنة الآخرون فرض أي تأثير جوهري على قرارات اللجنة، وانحصرت مشاركتهم في الجلسات في تقديم النصح والمشورة. وحققت بريطانيا نصراً مزدوجاً في حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)م، واستثمرتها للقضاء على الخطر الفرنسي والروسي في الوقت نفسه، فأبعدت الخطر الروسي عن الأستانة والبلقان، إضافة إلى إضعاف الجيش الفرنسي الذي تحمل أعباء الحرب، التي انتهت بهزيمة روسيا والتوقيع على معاهدة باريس عام ١٨٥٦م، التي كانت بمثابة هدية لبريطانيا. ونجحت بريطانيا في إفشال المحاولة الروسية الثانية بعد حرب القرم لحل المسألة الشرقية لصالحها عندما شنت حرب عام ١٨٧٧م، وهزمت الدولة العثمانية، وفرضت عليها معاهدة سان ستيفانوعام ١٨٧٨م، لكنها لم تلق ترحيباً من جانب بريطانيا، لأنها تهدد مصالحها في المشرق العربي على طريق الهند، كما أنها تخل بالتوازن الدولي، مما أدى إلى تأزم العلاقات بين الدولتين، فدعا ذلك إلى عقد مؤتمر في برلين عام ١٨٧٨م، فكان المؤتمر بالغ الأهمية في تاريخ المسألة الشرقية، تخلت من خلاله بريطانيا عن سياستها في الحفاظ على سلامة الدولة العثمانية.وفي الوقت ذاته فقدت الدولة العثمانية الجزء الأكبر من ممتلكاتها الأوروبية، لكنها أنقذت مرة أخرى من الانحلال والانهيار التام.

٦ً - الفصل الرابع: البعثات التّبشيرية البروتستانتيّة (البريطانيّة) وأثرها على السياسة البريطانية في بلاد الشّام بين عامي (١٧٩٩-١٨٧٨)م:

نظراً للدور الكبير الذي أدته الدول الأوروبية، وخصوصا بريطانيا، في فرض الانسحاب من بلاد الشام على محمد علي باشا، وإعادتها إلى الحكم العثماني، فقد زاد تبعاً لذلك تدخلها في شؤون الدولة العثمانية عامة، وفي بلاد الشام خاصة، وبينما كانت المصالح الاقتصادية والاستراتيجية تملي على دول أوروبا سياستها في بلاد الشام، فإنها وجدت في الأقليات الدينية وحقوقها المدنية الذريعة للتدخل في شؤون الحكم العثماني، في العاصمة كما في الولايات. ولما كان التبشير في حقيقته الجوهرية مظهراً من

مظاهر الصراع الأوروبي من أجل إيجاد مرتكزات سياسية واقتصادية وقواعد اتصال وتواصل بين الدول الأوروبية والسكان عبر قناصل هذه الدول، فقد كانت المصالح البريطانية لا تقل أهمية عن تلك الخاصة بالفرنسيين، إلا أنها لم تستند إلى فئة من السكان نظراً لضعف العنصر البروتستانتي في بلاد الشام، لذلك عملت بريطانيا على إيجاد طائفة بروتستانتية تستطيع من خلالها التدخل في الشؤون الداخلية لبلاد الشام، فامتطت التبشير لهذه الغاية، مما أدى إلى ازدهار الحركة التبشيرية في بلاد الشام في القرن التاسع عشر،وقام بهذا الدور، جمعية المُرسلين الكنسية، والجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود، ومطرانيّة القدس البريطانيّة ـ البروسية المشتركة التي تأسست عام ١٨٤١م.

٧- **الخاتمة:** وتتضمن أهم النتائج التي تم التوصل إليها أثناء الدراسة.

وإذا كان إسداء الشكر، في مثل هذا العمل، يتطلبه الواجب،فإنه هنا يقتضيه الحق والأمانة والاعتراف بالجميل والمعروف، لأستاذي الكريم الدكتور محمد حبيب صالح، الذي أحاطني برعايته، وغمرني بفضله، وساعدني في اختيار هذا البحث، وحثني على إنجازه، وزودني بتوجيهاته، ونصائحه، وأشكره على صبره في متابعته الدقيقة جداً للبحث، فله مني جزيل الشكر والمحبة والاحترام.

كما أتقدم بالشكر والعرفان للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة،الأستاذة الدكتورة نجاح محمد ،والدكتور عبد المنعم الأحمد لتفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة. وإلى الأساتذة الذين ساعدوني في إنجاز هذا البحث.كما أشكر القيمين وكل العاملين في مديرية الوثائق التاريخية في دمشق، ومكتبة الدراسات العليا في كلية الآداب، في جامعة دمشق، ومكتبة الأسد الوطنية في دمشق، ومكتبة المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، ودار المكتبة الوطنية في بعقلين في لبنان. ومكتبة الجامعة الأردنية، وأخص بالشكر العميق كل من ساهم أوساعد في إنجاز هذا البحث.

والله ولي التوفيق

٢٢ شباط ٢٠١٢م الميادين

- التمهيد السياسة البريطانية في بلاد الشام قبيل عام ١٧٩٩م:

لفهم السياسة الأوروبية عامة والسياسة البريطانية خاصة في بلاد الشام، لابد من العودة إلى نشوء الامتيازات الأوروبية، نظراً لما حققته من نفوذ أوروبي متزايد في الدولة العثمانية وولاياتها بما فيها بلاد الشام.

بدأت الدولة العثمانية بإعطاء الامتيازات التجارية في المنطقة منذ عهد السلطان العثماني سليمان القانوني(١)، حيث قدمت لفرانسو الأول(٢) (francois I) ملك فرنسا عام ١٥٣٥ م (٣). ثم حصلت بريطانيا على امتيازات مشابهة في عام١٥٧٩م، والتي جرى تأكيدها في عام١٥٨٠م، ثم جددت في عام١٦٠٤م(٤). وفي وقت لاحق حصلت جميع الدول الأوروبية تباعاً على مثل هذه الامتيازات، التي اقتضت ازدياد فعاليات التجار الأجانب وتدخّلاتهم(٥).

ولإدراك ملامح هذه الامتيازات ومعرفة صورتها الحقيقية، وفهم مدى تأثيرها السياسي والاقتصادي في تاريخ المنطقة لابد من تحديد نقاطها الأساسية التي تتركز حول الأهداف الآتية:

- توفير المناخ المناسب للتجارة الأوروبية، وإعفاء الرعايا الأجانب من الضرائب.
- تأمين حرية العبادة، وحرية تأدية الشعائر الدينية، وحرية التنقل وعبور الأراضي للرعايا الأجانب.

---

(١) سليمان القانوني(١٤٩٠ــ ١٥٦٦)م: سلطان الدولة العثمانية (١٥٢٠- ١٥٦٦) م،اجتهد في نفي الزنادقة والمبتدعين في الدين، قضى على تمرد جانبردي الغزالي في بلاد الشام عام ١٥٢٠ م، قضى على الأمير إسكندر في اليمن، فتح جزيرة رودس، حارب النمسا وألمانيا، والمجر، وإسبانيا، واستولى على بلاد قارص، ومآثره الخيرية في بناء المساجد والمدارس وغيرها لاتحصى. انظر: حليم، إبراهيم باشابك :تاريخ الدولة العثمانية العلية (التحفة الحليميّة في تاريخ الدولة العلية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٤ م، ص ١٢٧-١٣٦.

(٢) فرانسو الأول (١٤٩٤-١٥٤٧) م: ملك فرنسا (١٥١٥-١٥٤٧) م بلغت النهضة الفرنسية في عهده أوج ازدهارها. انظر: بعلبكي، منير: معجم أعلام المورد،دار العلم للملايين، بيروت،١٩٨١م ، ص٣٤.

(٣) المحامي، محمد فريد :تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، ط٥،١٩٨٦م، ص٢٢٣-٢٣٠.

(٤) صباغ، ليلى :الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين ١٦ و١٧، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩م،ج١، ص١٥٧.

(٥) خوري، جورج :المصالح الاستعمارية البريطانية والحفاظ على الإمبراطورية العثمانية،(مجلة دراسات تاريخية، العددان ٤١ و٤٢ السنة الثالثة عشر آذار ــ حزيران ١٩٩٢ م)، ص٨٨.

- حصر الدعاوي المدنية بين الأوروبيين في المحاكم القنصلية[١].

وأمام ضغط القوى الأوروبية المتزايد اضطر الباب العالي إلى منح المزيد من الامتيازات، فأخذت بريطانيا تنسج خيوط سياستها الاقتصادية لتجد لنفسها موقعاً مميزاً في البلاد التي تحتضن طريق التجارة الدولية مع الهند[٢].

بدأت العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية وولاياتها، بما فيها بلاد الشام، عندما أُنشئت شركة الليفانت عام١٥٨١م للمتاجرة مع البلاد المطلة على البحر المتوسط بما فيها بلاد الشام[٣] التي ارتبط اسم الشركة بها، حيث أن الليفانت تعني الشرق أو المكان الذي تشرق منه الشمس، وهو مصطلح قديم يشير إلى بلاد الشام[٤].

وقد تأسست شركة الشرق الأدنى بعد حصول وليم هاربورن (W. Harborn) ـ الذي كان يمثل مجموعة تجار لندن على فرمان من السلطان العثماني مراد الثالث[٥] في حزيران ١٥٨٠م منح بموجبه التجار البريطانيون حق ممارسة النشاط التجاري في الأراضي العثمانية بما فيها بلاد الشام[٦].

وبموجب هذا الفرمان انطلقت شركة الليفانت في عام١٥٨١م، وعملت جادة في بلاد الشام، وبعثت عملاءها من أجل اكتشاف طرق التجارة، لتكون على بينة من

---

(١) أصف، يوسف بك :المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوروبية، ترجمة: يوسف بك أصف، المطبعة العمومية بمصر، القاهرة، ط٢، ١٨٩٦م، ص٦٥-٨٧.

(٢) أبو فخر، فندي جدعان: بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا ١٨٣١-١٨٤١ م (دراسة في التاريخ الإداري والاقتصادي والاجتماعي والسياسي)، رسالة ماجستير، بإشراف: ذوقان قرقوط، جامعة دمشق، ص١٦٥ .

(٣) شريف، إبراهيم:الشرق الأوسط، دراسة الاتجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ م في العراق، (السلسة السياسية ٨) وزارة الثقافة والإرشاد شركة دار الجمهورية، بغداد، العراق، ط١،١٩٦٥ م، ص٤٧.

(٤) النائب، محمد فراس: العلاقات السورية البريطانية: وقائع وآفاق، رسالة ماجستير لنيل درجة الماجستير في العلاقات الدولية، إشراف :محمد سعيد فرهود، جامعة حلب، ٢٠٠٣ م، ص٣١.

(٥) مراد الثالث : هو مراد بن السلطان سليم بن سليمان القانوني ولد عام ١٥٤٦م، وتولى السلطة عام ١٥٧٤ م بعد وفاة والده، وبعد أن تولى السلطة أمر بمنع شرب الخمر،لكن ثورة الإنكشارية أجبرته على ترك هذا القرار.اهتم بفنون الأدب، كان يميل إلى علم التصوف ، أشتهر بالتقوى، عمل على تنفيذ السياسة التي انتهجها والده، ففي عهده قام بعدة حروب في أماكن مختلفة، وجدد الامتيازات مع فرنسا ، والبندقية، وحصلت إليزابيث ملكة إنكلتراعلى امتياز خصوصي لتجار بلادها، في عام ١٥٧٧م أرسل حملة عسكرية وصلت إلى القوقاز والكرج ، دخل بعدها العثمانيون تبريز عام١٥٨٥م وسيطروا على أذربيجان، توفي في ١٦ كانون الثاني١٥٩٥م، ودفن في آيا صوفيا. انظر: الصلابي، علي محمد محمد : الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط٣، ٢٠٠٨ م، ص٣٢٣-٣٢٦.انظر أيضاً : www.marefa.org/index.php/مراد_الثالث

(٦) محمد، صالح خضر: الدبلوماسية البريطانية في العراق، دار الزمان، دمشق، ط١، ٢٠٠٨ م، ص١٥.

أمرها، فالتجارة البريطانية في بلاد الشام لم تُترك لمغامرات الأفراد وتصرفاتهم، وإنما وجُمعت في شركة من التجار، كما لم تترك الظروف الاقتصادية تعمل بها مـــا تشـــاء، وإنما نظمتها الشركة تنظيماً دقيقاً وصارماً، وفي عام ١٥٩٢م دمجت شركة الليفانـــت مع شركة البندقية وأُعيد تنظيمها من جديد، وأخذت شكلها النهائي في عهد الملك جيمس الأول[١](James I) عام ١٦٠٥م[٢].

بالإضافة إلى شركة الليفانت، تم تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانيـــة، حيـــث أصدرت الملكة إليزابيث [٣] (Elizabeth I) في عام ١٦٠٠م المرسوم الخـــاص بقيـــام شركة مديري وتجار لندن للمتاجرة مع جزر الهند الشرقية البريطانية[٤].

وبفضل هاتين الشركتين بدأت حركة النشاط التجاري البريطاني فـــي ســـواحل الـــبلاد العربية بما فيها بلاد الشام في القرن السادس عشر الميلادي[٥].

---

(١) جيمس الأول (James I)(١٥٦٦-١٦٢٥م): ملك إنجلترا (١٦٠٣-١٦٢٥م)،ملك اسكتلندا(١٥٦٧-١٦٢٥م). ولد في ١٩تموز١٥٦٦م، في قلعة ادنبرة (Edinburgh)، اسكتلندا(Scotland)،الإبن الوحيد لماري(Mary)، ملكة الاسكتلنديين، أول ملوك أسرة ستيوارت،وهو ابن عم الملكة إليزابيث تيدور، في عام١٥٨٦م شكل تحالفاً مع قريبته، الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنكلترا، وفي السنة التالية، وبعد إعدام والدته، نجح في تقليص نفوذ النبلاء. أدى زواجه من آن في عام ١٥٨٩م إلى علاقة وثيقة مع البروتستانت .ولكن موقفه تجاه البرلمان، استنادا إلى اعتقاده في الحق الإلهي، أدى إلى الصراع الطويل مع هذه الهيئة. وتجاهل الملك الدستور وفرض الضرائب، استعاض عن السلطة الإقطاعية من النبلاء بجود حكومة مركزية قوية، والحفاظ على الحق الإلهي للملوك، في ١٦٠٤م أنهى الحرب في انكلترا مع اسبانيا،توفي في٢٧ آذار١٦٢٥م. انظر: Microsoft ® Encarta ® 2009. © 1993-2008 Microsoft Corporation. All rights reserved.

(٢) صباغ، ليلى: الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين ١٦ و١٧، ص٥٠٧.

(٣) إليزابيث الأولى (Elizabeth I): (١٥٣٣-١٦٠٣م) ملكة انكلترا وايرلندا (١٥٥٨-١٦٠٣م) يعد عهدها من أزهى العهود في التاريخ البريطاني،ابنة الملك هنري الثامن(Henry IIIV). أول امرأة تشغل بنجاح العرش الإنكليزية. تتمتع اليزابيث، بشعبية هائلة خلال حياتها، وأصبحت أسطورة أكبر حتى بعد وفاتها. وشهد عهد إليزابيث الاستخدام الفعال للبرلمان ومجلس الملكة الخاص، وهو هيئة استشارية صغيرة من المسؤولين في الدولة ، وتطوير المؤسسات القانونية في المقاطعات الإنكليزية. إليزابيث رسخت البروتستانتية في انكلترا، وعملت على تشجيع المشاريع والتجارة الإنكليزية، وانتصر في عهدها الأسطول الإنكليزي على الأسطول الإسباني(الأرمادا). ورافق حكمها لعصر النهضة الإنجليزية، من الشعر والدراما وليم شكسبير (William Shakespeare) ،و ادموند سبنسر (Edmund Spenser)، وكريستوفر مارلو(Christopher Marlowe). كانت آخر ملوك تيودور.انظر: Microsoft ® Encarta ® 2009. © 1993-2008 Microsoft Corporation. All rights reserved.

(٤) فارس، علي عبد الله: شركة الهند الشرقية البريطانية ودورها في تاريخ الخليج العربي، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، الأمارات، ط٢،٢٠٠١ م، ص٤٧.

(٥) النائب، محمد فراس: المرجع نفسه، ص٣١.

على الرغم من أن الأعمال التجارية البريطانية لم تلفت نظر دارسي العصور الحديثة، الذين ركزوا أبصارهم على تكوين المستعمرات فيما وراء المحيطات في أمريكا وآسيا، إلا أنها كانت ذات أهمية كبيرة لحياة الدول الغربية، لاسيما بريطانيا، كما كانت استعماراً اقتصادياً بطيئاً وخفياً في بلاد الشام، لم يأخذ طابع استعمار الهند وكندا، إلا أنه كان استعماراً يحمل الروح نفسها، وإذا كان الصراع بين الدول المتنافسة على سوق بلاد الشام بقي بارداً نسبياً حتى القرن الثامن عشر فلأن الدولة العثمانية كانت لا تزال تحتفظ ببعض قوتها وهيبتها في تلك الفترة[١].

ولم تقتصر المصالح البريطانية في بلاد الشام قبل القرن التاسع عشر على التجارة فحسب، بل كانت هناك مصلحة أخرى، ربما فاقتها أهمية، ونعني بذلك كون بلاد الشام صلة وصل أساسية في الاتصالات البريطانية مع الشرق عموماً، والهند على نحو خاص، من خلال استخدام طريق حلب الصحراوي ــ البصرة أو طريق (حلب ــ بغداد ــ البصرة) منذ عام١٥٨٣ م[٢].

وقد تضمنت الرسائل والتقارير التي كانت ترسل إلى بريطانيا أخبار السوق والطلبات المتوقعة ومواعيد مغادرة السفن أو وصولها بين أوروبا والشرق لأغراض تجارية. وكانت أهميتها تزداد كثيراً في وقت الحروب، لما توفره من وقت له أهميته بالنسبة للمبادرات العسكرية. حيث كانت الرسائل التي تبعث عن طريق رأس الرجاء الصالح يستغرق وصولها أحد عشر شهراً، في حين تصل الرسائل التي تبعث عن طريق البصرة ــ حلب ــ الأستانة[٣] ــ فيينا ــ لندن في وقت يتراوح بين ثلاثة عشر وأربعين يوماً، ومن خلال هذه الموازنة بين الطريقين نجد إشارة كافية للدلالة على أهمية بلاد الشام في نقل البريد البريطاني[٤].

---

(١) صباغ، ليلى: الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين ١٦ و١٧، ص٥٢٣-٥٢٤ .

(٢) محمد، صالح خضر: المرجع نفسه، ص١٩-٢٠-٢١.

(٣) الأستانة: عاصمة الدولة العثمانية (قديماً القسطنطينية) أسسها قسطنطين الكبير في٣ تشرين الثاني ٣٢٤ م،هاجمتها قبائل الهون ٥٥٨م، والفرس عام٦٢٦، والعرب ٦٦٣م و٦٧٧م، والروس٩٤١م، وأخيرا استولى عليها العثمانيون عام ١٤٥٣م وجعلوها عاصمة الدولة العثمانية، وبقيت كذلك حتى عام ١٩٢٣م حين عمد مصطفى كمال أتاتورك مؤسس الجمهورية التركية إلى نقل العاصمة إلى أنقره. انظر:هشي، سليم حسن: المراسلات الإجتماعية والاقتصادية لزعماء جبل لبنان خلال ثلاثة قرون (١٦٠٠-١٩٠٠)، ، بيروت لبنان، ط١٩٨١،٢-١٩٨٢ م،ج١، ص١٢٣.

(٤) شريف، إبراهيم: المرجع نفسه، ص٤٨-٤٩.

كانت السيادة في البحر المتوسط بيد الدولة العثمانية حتى عام١٥٧١م، ثم اغتصب الإسبان هذه السيادة، وبقيت بأيديهم إلى أن دمر البريطانيون أسطولهم في موقعة الآرمادا (Armada)[١]، التي حدثت عام١٥٨٨م، ولم يكن للبريطانيين حتى ذلك التاريخ قوات بحرية في البحر المتوسط، إذ كان نشاطهم فيه قاصراً على نشاط شركة الليفانت، لكنهم تفوقوا في البحر المتوسط بعد القضاء على الأسطول الفرنسي في موقعة لاهوج[٢] البحرية عام ١٦٩٢م.

وقد استطاعت بريطانيا بتلك الانتصارات أن تسود البحار وتحتكر التجارة في هذا الجزء المهم من العالم، وأن تسيطرعلى الطرق البرية المؤدية إليه، حيث كان هناك عامل مهم سهّل على البريطانيين مهمة المحافظة على طرق الإمبراطورية، تجلى في عدم اتجاه الاستعمار الأوروبي آنئذ إلى البلاد الواقعة على الطرق البرية الموصلة إلى الهند في مصر وبلاد الشام، فكان من مصلحة بريطانيا أن تبقى الحال في هذه المنطقة كما كانت عليه، أي تبقى مياه البحر المتوسط خالية من أي حرب أو اضطراب يمكن أن يثير مشكلات لبريطانيا هي في غنى عنها[٣].

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر شعر البريطانيون بخطر النفوذ الروسي في البحر المتوسط، وخاصة بعد انتصار الأسطول الروسي على الأسطول العثماني في ٥ تموز ١٧٧٠م. وقيام روسيا بمساندة الأمراء المحليين ضد الدولة العثمانية[٤]، لاسيما حركةضاهر العمر[٥] في عكا.

---

(١) موقعة الآرمادا (Armada): الآرمادا اسم الأسطول الإسباني الذي لا يقهر، لكنه مني بهزيمة كبرى على يد الأسطول البريطاني في هذه المعركة الشهيرة (الآرمادا) التي حدثت عام ١٥٨٨ م.انظر: اللحام، ماجد: معجم المعارك الحربية، دار الفكر دمشق، المطبعة العلمية، ط٢، ٢٠٠٠ م، ص٢٧.

(٢) موقعة لاهوج البحرية: معركة حربية انتصر فيها الأسطولان البريطاني والهولندي مجتمعين على الأسطول الفرنسي، حدثت في عام ١٦٩٢م. انظر: الشريف،إبراهيم باشا:المرجع نفسه، ص٤٨.

(٣) العطار، نادر: تاريخ سورية في العصور الحديثة (دور حكم السلاطين الفعلي في العهد العثماني ١٥١٦-١٩٠٨م)، مطبعة الإنشاء، دمشق، ١٩٦٣ م،ص٩٨.

(٤) ضاهر، مسعود: الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية، معهد الإنماء العربي ، بيروت،ط٣، ١٩٨٦م،ص٢٧٧ .

(٥) ضاهر العمر : في عام ١٦٩٨م ورث الشيخ عمر الزيداني عن والده التزام سهل البطوف والقرى المحيطة به، وفي عام ١٧٠٣م توفي الشيخ عمر وخلّف وراءه أربعة أبناء، وكان ضاهر أصغرهم سناً (١٤ عاماً). ورفض الأخوة الثلاثة الكبار أن يتحملوا مسؤولية الالتزام نظراً لكثرة الديون التي كانت قد تراكمت على والدهم، فسجلوا الالتزام باسم أخيهم الأصغر ضاهر. وهكذا أصبح ضاهر العمر الملتزم الرسمي لمنطقة البطوف من قِبَل والي صيدا العثماني، في=

وإزاء هذه الانتصارات الروسية وبقاء الأسطول الروسي في البحر المتوسط، أخذ البريطانيون ينظرون بحذر إلى محاولات روسيا التوسعية وإلى خطرها على مصالح بريطانيا في البحر المتوسط والهند والطريق البري الموصل إليها بما فيها بلاد الشام[١]. فاشتد التنافس والزحام على هذا الجزء المهم، وتفوّقت مصالح بريطانيا بسبب اعتمادهاعلى قوّتها البحريّة، واهتمامها بالمرور إلى الهند، ورغبتها في البحث عن أسواق لتصريف إنتاجها الهائل، وعن مصادر جديدة للموادّ الأوّليّة اللازمة للصّناعات المختلفة بعد الثورة الصّناعية، وكذلك حاجتها إلى المنتجات الزراعية التي تنتجها الولايات العثمانية، لاسيما بلاد الشام[٢]، غير أن بعض مناطق العالم شهدت تطورات زعزعت السيادة البريطانية في البحر المتوسط، كقيام حرب الاستقلال الأمريكية ضدها، بالإضافة إلى المنافسة الروسية والفرنسية التي بلغت ذروتها في أثناء حملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٨م وبلاد الشام عام ١٧٩٩م، وكانت نقطة تحول كبيرة في السياسة البريطانية اتجاه المناطق الواقعة على طريق الهند بما فيها بلاد الشام[٣].

=عام ١٧٢٢م خرج ضاهر العمر مع الشيخ محمد بن نافع شيخ صفد، على رأس قبائل بني صقر لمحاربة وإخضاع قبائل بني صخر في منطقة مرج بن عامر، فانتصر عليهم وأخضعهم لحكمه، ثم استمر في مهاجمة القبائل الأخرى إلى أن خضعت له كل القرى والقبائل البدوية في الجليل وامتد حكمه على كل شمال فلسطين. في عام ١٧٢٥م جرى صراع على السلطة في مدينة طبريا بين الحاكم العثماني للمدينة وبين الزعيم المحلي الشيخ محمد النصار. ولما طلب هذا الأخير مساعدة ضاهر، رحل ضاهر إلى طبريا على رأس جيشه البدوي ، وعينه الوالي حاكماً عليها، في نهاية عام ١٧٣٧م أخذ ضاهر العمر بالاعتداء على آل ماضي وآل جرار في منطقة نابلس، فجرّد والي دمشق سليمان باشا عدة حملات للقضاء عليه،ولكنه توفي في آب ١٧٤٣م، وخَلَفه أسعد باشا الذي انتهج سياسة سلمية تجاه ظاهر. وفي عام١٧٥٣م وقّع الفرنسيون على اتفاق تجاري مع ضاهر العمر لتنظيم التجارة بين البلدين، وفي نفس الوقت حصل على التزام حيفا وقرى نابلس. تمرد أبناؤه عليه. وفي عام ١٧٤٦م نقل ضاهر العمر مركزه إلى عكا، تحالف مع علي بيك الكبير وروسيا، ضد العثمانيين، احتل الأسطول العثماني حيفا في آب ١٧٧٥م ثم عكا ، وحاول ضاهر الفرار فقتله جنوده المرتزقة في أواخر آب ١٧٧٥م. وهكذا انهار حكم ضاهر العمر، ثم قُتل أبناؤه جميعاً على يدي أحمد باشا الجزار.انظر: *forum.qalamoun.com/showthread.php?10483...*

(١) حجر، جمال محمود: القوى الكبرى والشرق الأوسط (في القرنين التاسع عشر والعشرون)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ١٤٠٩ هـ (١٩٨٩ م)، ص١٤.

(٢) رستم، أسد :بشير بين السلطان والعزيز،(١٨٠٤، ١٨٤١)، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ١٩٥٦-١٩٥٧ م، ج١، ص٢٢٥.

(٣) شريف، إبراهيم:المرجع نفسه، ص٤٩.

الفصل الأوّل

السياسة البريطانية اتجاه التطورات التي شهدتها بلاد الشّام بين عامي (١٧٩٩-١٨٣٣م)

الفصل الأوّل:

السياسة البريطانية اتجاه التطورات التي شهدتها بلاد الشّام بين عامي (١٧٩٩-١٨٣٣م):

أولاً: موقف السياسة البريطانية من حملة نابليون بونابرت (Napoleon I) على بلاد الشام عام١٧٩٩م:

١- أهداف حملة نابليون بونابرت والتنافس البريطاني ــ الفرنسي.

٢- إجراءات السياسية البريطانية لمواجهة حملة نابليون بونابرت.

٣- المنافسة الروسية ــ البريطانية في التصدي لحملة نابليون بونابرت.

٤- دور بريطانيا في التصدي لحملة نابليون بونابرت على بلاد الشام عام١٧٩٩م وجلاء الحملة الفرنسية عام١٨٠١م.

٥- نتائج حملة نابليون بونابرت على بلاد الشام عام١٧٩٩م وآثارها على السياسة البريطانية.

ثانياً: بعثة الاستكشاف البريطانيّة بقيادة فرانسيس روودن تشيسني (F. R Chesney) في نهر الفرات بين عامي (١٨٣٠-١٨٣١)م.

ثالثاً: موقف بريطانيا من حرب الشّام الأولى بين عامي (١٨٣١-١٨٣٣م):

١- زحف قوّات محمد علي باشا إلى بلاد الشّام عام١٨٣١م.

٢- موقف السياسة البريطانية من زحف قوّات محمد علي باشا إلى بلاد الشّام عام ١٨٣١م.

٣- معاهدة كوتاهية عام١٨٣٣م.

٤- موقف بريطانيا من معاهدة كوتاهية عام١٨٣٣م.

٥- اتفاقية هنكار أسكلة سي عام١٨٣٣م (1833 unkiar skeleassi) موقف بريطانيا منها.

٦- إجراءات بريطانيا في التصدي لاتفاقية هنكار أسكلة سي عام١٨٣٣م.

أولاً: موقف السياسة البريطانية من حملة نابليون بونابرت على بـــلاد الشـــام عـــام ١٧٩٩م:

١- أهداف حملة نابليون بونابرت والتنافس البريطاني ــ الفرنسي:

لا يتسع لنا في هذا البحث أن نُفَصِّلَ حوادث الحملة الفرنسية على بلاد الشـــام لأن ما يهم عرضه في هذا المجال هو موقف السياسة البريطانية منها.

كان ملوك فرنسا يحلمون منذ عهد لويس الرابع عشر[١] (١٦٣٨-١٧١٥)م (Louis XIV) بالاستيلاء على بلاد الشام، إلا أن الظروف السياسية حالت دون ذلك. وعندما قامت الثورة الفرنسية عام١٧٨٩م، وقضت على النظام الملكي، وأعلنت حكومة الجمهورية الحرب على بريطانيا ظهر القائد الفرنسي نابليون(Napoleon I) [٢] كأنه المخلّص للجمهورية بما حققه من انتصارات عسكرية في أوروبا على أغلب دولها، باستثناء بريطانيا التي ساندت القوى المضادة للثورة الفرنسية عام١٧٨٩م،ومن الواضح أن ذلك كان له شأن في توقيت الفرصة لتنفيذ فكرة احتلال مصر ومحاولة احتـــلال بلاد الشام الواقعة على طريق الهند[٣].وقدكتب نابليون بونابرت(١٧٦٩-١٨٢١م) إلى

---

(١) لويس الرابع عشر (Louis XIV): (١٦٣٨-١٧١٥م): ملك فرنسا (١٦٤٣-١٧١٥م)، وسع رقعة الدولة، شيد قصر فرساي، تتميز فترة حكمه من الحكم الملكي المطلق في النصف الثاني من القرن السابع عشر. ورث لويس المملكة التي كانت مقسمة داخليا، واستنفدت عسكريا، وأفلست تقريبا. ترك لخلفائه أعظم قوة في العالم الغربي. وكانت الانجازات الرئيسة له توسيع فعالية الحكومة المركزية، وزيادة حدود فرنسا إلى الشمال والشرق، ووضع أحد أحفاده على عرش إسبانيا.ولكن تكلفة هذه النجاحات كانت على الأمة الفرنسية غاليا. نتيجة لزيادة الضرائب في الاقتصاد، وعانت خلال سنوات طويلة من الحرب، وترك الريف عرضة للمجاعات.انظر: بعلبكي، منير: المرجع نفسه،ص٥٦.وانظر أيضاً:.Microsoft ® Encarta ® 2009. © 1993-2008 Microsoft Corporation. All rights reserved

(٢) نابليون الأول (Napoleon I): (١٧٦٩-١٨٢١م) إمبراطور فرنسا (١٨٠٤-١٨١٥م)،واحد من أعظم القادة العسكريين في كل العصور، دوخ بفتوحاته أوروبا، واحتل جزء كبير منها. ولد نابليون في١٥ آب ١٧٦٩م، في كورسيكا (Corsica) بعد الثورة في عام١٧٨٩ م، أصبح نابليون في عام١٧٩١ م كولونيل في الحرس الوطني الكورسيكي، ثم هرب إلى فرنسا مع أسرته. وتم تعيينه، كنقيب، ونتيجة لدوره في الإستيلاء على طولون تم ترقيته الى رتبة عميد رغم أن عمره كان أربعة وعشرون عاماً.في عام١٧٩٦ م تزوج من جوزفين دي(Joséphine de) أرملة أرستقراطية.في تشرين الثاني١٧٩٩م استولى نابليون ورفاقه على السلطة وقاموا بتأسيس نظام جديد في فرنسا (القنصلية).تم تنقيح الدستور في عام ١٨٠٢م لجعل نابليون قنصل مدى الحياة.هزم هزيمة حاسمة في معركة واترلو الشهيرة عام١٨١٥ م فنُفي إلى جزيرة سانت هيلانة (Saint Hillen).

انظر:.Microsoft ® Encarta ® 2009. © 1993-2008 Microsoft Corporation. All rights reserved

(٣) برجاوي، سعيد أحمد :الأمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعســكري،الأهلية للنشـــر والتوزيـــع، بيـــروت، ط١، ١٩٩٣م، ص١٩٦.

حكومة المديرين ما يأتي: «من الضروري لحكومتنا حتماً أن نعمل على سحق الملكية البريطانية في القريب العاجل، فإن لم نفعل، فعلينا أن نوطن أنفسنا على أن يسحقنا هذا الشعب الجزري المجدّ، ويقضي علينا بدسائسه، واللحظة مناسبة، فلنوجه قوانا جميعاً إلى تكبير أسطولنا ونقضي على بريطانيا ونُخضع أوربا»[١].

بقيت بريطانيا في حالة حرب مع فرنسا، ونظراً لعدم إمكانية نزول القوات الفرنسية على السواحل البريطانية بسبب قوة الأسطول البريطاني فقد اقترح نابليون بدعم من تاليران (Talyran) أن على حكومة المديرين نقل الحرب إلى شرق البحر المتوسط أي إلى مصر وبلاد الشام، والتي يمكنها أن تصبح مستعمرة فرنسية، فتكون قاعدة حربية للهجوم على الهند[٢].استمر التنافس البريطاني ــ الفرنسي في الشرق سنوات عديدة[٣]. وتجلى ذلك في الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م على مصر، وعلى بلاد الشام عام ١٧٩٩م المرتبط مصيرها بمصير مصر منذ القدم. فوافق مجلس المديرين على مشروع نابليون وأوكل إليه القيادة، ومده بكل مساعدة، وصدرت الأوامر بتعيينه قائداً لجيش الشرق[٤] لاحتلال مصر ومحاولة احتلال بلاد الشام، نظراً للأسباب التالية:

١- إدراك فرنسا أن الدول الأوروبية العظمى وبخاصة بريطانيا انتقلت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر إلى مرحلة جديدة من مراحل الصراع الدولي هدفه بناء الإمبراطوريات الاستعمارية والاستحواذ على السلطة والثروة بأساليب مختلفة، والحصول على المزيد من الامتيازات الاقتصادية نتيجة الثورة الصناعية التي شهدتها القارة الأوروبية. و اعتقد الفرنسيون أن بريطانيا تعمل على تثبيت أقدامها في المشرق العربي وبخاصة في بلاد الشام ومصر، من خلال تحالفها مع المماليك، فضيقوا الخناق على المصالح الفرنسية فيها[٥]. وبالتالي كان الهدف الرئيس من الحملة هو محاولة استباق البريطانيين، وبسط السيطرة الفرنسية المباشرة على بلاد الشام ومصر، وتشكيل

---

(١) مراد، محمد عدنان: تاريخ الاستعمار البريطاني في الوطن العربي، دار طلاس، دمشق، سوريا، ط١،١٩٨٩ م، ص١١١.

(٢) المرجع نفسه،ص١١١.

(٣) صالح خضر، محمد: الدبلوماسية البريطانية في العراق، دار الزمان، ط١، ٢٠٠٨، ص٢٣.

(٤) مراد، محمد عدنان:المرجع نفسه،ص١١١.

(٥) عمر، عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، (١٥١٦، ١٩٢٢)م، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،ط١ ،١٩٨٥،ص٢٣٢.

نواة إمبراطورية استعمارية فرنسية في المشرق العربي، غنية وقريبة منهـــا، بعـــد أن فقدت مستعمراتها في أمريكا الشمالية وكندا والهند[١]. في وقـــت كانـــت فيـــه الدولـــة العثمانية تعيش في حالة وهن وضعف شـــديد أصـــابها نتيجـــة الحـــروب الخارجيـــة والمشكلات الداخلية[٢].

٢- رغبة فرنسا في إحياء طريق التجارة الدولية بين الشرق والغرب عبر مصـــر وبلاد الشام نظراً لقصر مسافته وقلّة تكاليفه، مقارنة بطريق رأس الرجاء الصالح الذي كان تحت السيطرة البريطانية، إضافة ضرب المصالح البريطانية في المشرق العربـــي والهند. وهذا ماجاء صراحة على لسان تاليران عام ١٧٩٧م حيث قـــال: «إن مصـــر بوصفها طريقاً تجارياً، سيعطيننا تجارة الهند، لأن المعوّل في التجارة علـــى الوقـــت، وبالاستيلاء على مصر نستطيع أن نقوم بخمس رحلات، مقابل ثلاث رحـــلات علـــى طريق رأس الرجاء الصالح»[٣].

٣- نقل الصراع بين فرنسا وبريطانيا من القارة الأوروبية إلى المشـــرق العربـــي بعد ما عجز نابليون خلال حروبه الأوروبية في المرحلة الأولى عن غزو بريطانيـــا، وعدم قدرته على حسم الصراع معها بالقوة بسبب امتلاكها قوّة بحرية ضاربة كانـــت الأقوى في العالم في حينها، والعمل على تعطيل التجارة البريطانية المزدهرة في شرقي البحر المتوسط، وتحويل البحر المتوسط إلـــى بحيـــرة فرنســـية، وحرمـــان التجـــار البريطانيين من استخدام موانئ بلاد الشام[٤]. وقد أشار نابليون إلى ذلك صراحة فـــي الخطاب الذي وزعه على جنوده قبل يومين من وصول الحملة إلى الإسكندرية، وجـــاء فيه: «إنكم موشكون على فتح له آثار بعيدة المدى فـــي حضـــارة العـــالم وتجارتـــه، وستطعنون بريطانيا طعنة تؤذيها لا محالة في أضعف مواطنها انتظاراً لليـــوم الـــذي تسددون فيه الطعنة القاتلة»[٥].

---

(١) جرار، حسني أدهم: أسرار حملة نابليون على مصر والشام، دار الضياء، عمان،١٩٩٠م. ص١٦.

(٢) حسون، علي :الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، المكتب الإسلامي، ط٢،١٩٩٤ م،ص١٠٩.

(٣) عمر، عمرعبد العزيز: المرجع نفسه، ص٢٣٣.

(٤) جرار، حسن أدهم: المرجع نفسه، ص١٦، وانظر أيضاً :حسون، علي :المرجع نفسه، ص١٠٩.

(٥) عمر، عمرعبد العزيز: المرجع نفسه،ص٢٣٤.

في الخامس من آذار ١٧٩٨م وافق المجلس على خطة نابليون القاضية بخداع البريطانيين بأن هدف الحملة هو إنزال فرنسي على السواحل البريطانية فيكثف البريطانيون قواتهم لصد الهجوم المتوقع عليهم، وفي هذا الوقت يزحف الفرنسيون إلى المشرق العربي لاحتلال مصر وبلاد الشام[١]. ثم تحقيق الهدف الأساسي للحملة وهو قطع طريق الهند على بريطانيا، إذ في غمره الصراع الاستعماري يوم ذاك بين فرنسا وبريطانيا، رأت حكومة المديرين الفرنسية أن احتلال مصر وبلاد الشام سيعيد التجارة الفرنسية في الشرق إلى مجدها السابق من القوة والازدهار، ويوقع ضربة قاسية باقتصاد منافستها بريطانيا[٢].

وفي الحقيقة، إن هذا التهديد لم يكن غائباً عن الساسة البريطانيين، حتى قبل أن يغادر الأسطول الفرنسي ميناء طولون، فقد رأى هنري دونداس (H. Dundas) ــ رئيس مجلس السيطرة[٣] ــ أن الهدف المباشر للحملة هو مصر، أما هدفها النهائي فهو تدمير القوة البريطانية في الهند، وسيجد نابليون أمامه عند وصوله إلى شرق البحر المتوسط عدة طرق يمكن من خلالها قيادة جيشه إلى الهند، وبعد دراسة إمكانية استخدام أي من هذه المسارات توصل دونداس إلى أن استخدام الفرنسيين للمسار الذي يبدأ من مصر ويتوجه شرقاً عبر صحراء بلاد الشام ــ بغداد[٤] ثم الخليج العربي فالهند أكثر احتمالاً[٥]. حيث كان يحلم نابليون أن يسير على خطا الإسكندر

---

[١] جرار، حسن أدهم: المرجع نفسه، ص١٦.

[٢] أبو صالح، عباس: التاريخ السياسي للأمارة الشهابية في جبل لبنان(١٦٩٧-١٨٤٢ م)، بيروت، ط١، ١٩٨٤م، ص١٧٠.

[٣] مجلس السيطرة (Board of control) : انبثق مجلس أو هيئة السيطرة بموجب قانون الهند الصادر عام ١٧٨٤م ، ويتألف من ستة أعضاء، أربعة من المجلس الملكي الخاص و وزير الدولة ومستشار الخزينة. وقد خول المجلس صلاحية إدارة وتوجيه كل الأعمال التي تتعلق بالشؤن المدنية والعسكرية والموارد المالية للمناطق البريطانية المملوكة في الهند وجزر الهند الشرقية .انظر: محمد ، صالح خضر :المرجع نفسه، ص٢٢.

[٤] بغداد : بناها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور على شاطئ دجلة، وسميت بالزوراء لأنه جعل أبواب المدينة الداخلة مزورة عن الأبواب الخارجة , والجانب الشرقي يسمى عسكر المهدي ويسمى أيضاً الرصافة.انظر: أبي الفداء: تقويم البلدان،باريس،المحروسة،١٨٥٠م، ص٣٠٣.

[٥] مجموعة من الباحثين: تاريخ العراق المفصل، بيت الحكمة بغداد، ط١، ٢٠٠٢م، ص٨.

المقدوني(٣٥٦-٣٢٣ق م) الذي نقل إمبراطوريته الأوروبية إلى آسيا وجعلها مركز إمبراطورية عالمية[(١)].

٢- إجراءات السياسية البريطانية لمواجهة حملة نابليون بونابرت:

قرر البريطانيون اتخاذ سلسلة من الإجراءات السياسية والفكرية لمواجهة الخطر الفرنسي[(٢)]. ويبدو أن المسؤولين البريطانيين كانوا على علم بتحركات القوات الفرنسية ومقصدها. أما خطة نابليون بونابرت التي كانت تقضي بخداع البريطانيين بأن هدف الحملة هو إنزال فرنسي على السواحل البريطانية، فلم تنطلِ على الساسة البريطانيين. وإنما كان هدف السياسة البريطانية كما يبدو ليس القضاء على حملة نابليون بونابرت وحماية الهند فقط، وإنما السيطرة على المنطقة الواقعة على طريق الهند بما في ذلك بلاد الشام، من أجل الحصول من أراضيها على المواد الأساسية اللازمة للصناعة البريطانية، ولأنها تمثل ميداناً واسعاً ومربحاً لاستغلال رؤوس الأموال الأجنبية في مرافقها المختلفة[(٣)].

وكذلك تذرعت بريطانيا بالخطر الفرنسي للقضاء على القوتين المضادتين للقوة البريطانية، سلطنة ميسور الإسلامية في الهند التي يقف على رأسها تيبو صاحب[(٤)]، وأفغانستان التي كان يحكمها زمان شاه، اللتين يجري تصويرهما كحليفتين فعليتين لفرنسا[(٥)]. وكان بالمقابل من الصعب على السلطان العثماني سليم الثالث[(١)] أن يغض

---

(١) محمد عدنان مراد: المرجع نفسه، ص١١٢.

(٢) مجموعة من الباحثين: تاريخ العراق المفصل، ص٨.

(٣) شريف، إبراهيم:المرجع نفسه، ص٤٣.

(٤) تيبو صاحب(١٧٥٠ــ ١٧٩٩ م): حاكم ولاية ميسور الهندية الجنوبية بين عامي(١٧٨٢ -١٧٩٩م)،وقد عرف باسم تيبو سلطان ،واشتهر كذلك بنمر ميسور بسبب معارضته للحكم البريطاني . ولد في ديفنهالي بولاية ميسور،(فيما يعرف الآن بولاية كرناتاكا الهندية)، وعندما بلغ عمره خمسة عشرعاماً، انضم على والده حيدر علي في ميدان المعركة وحارب كلاهما البريطانيين في حرب ميسور الأولى (١٧٦٧ــ ١٧٦٩ م) وفي عام١٧٨٠م هزم تيبو البريطانيين هزيمة ساحقة،واستمر تيبو سلطان في كفاحه ضد البريطانين . وفي عام١٧٨٩ م تحالف مع فرنسا ، طمعاً في المساعدات العسكرية الفرنسية ، وفي عام١٧٩٢م هزمته بريطانيا ، وفي عام١٧٩٩ م زحفت القوات البريطانية من بومباي إلى سرينجامبوتام عاصمة تيبو . واقتحمت سورها ، وتصدى لهم تيبو الذي أطلق عليه الرصاص فقتل.انظر: الموسوعة العربية العالمية ،ج ٧، ص٣٧١.

(٥) لورنس، هنري، وجيليسبي، شارل، وجولفان، كلود، و ترونيكر، كلود: الحملة الفرنسية في مصر بونابرت والإسلام، ترجمة بشير سباعي، سينا للنشر، ط١،١٩٩٥م، ص٣٢٧.

الطرف عن احتلال القوات الفرنسية لجزء من الدولة العثمانية، فأعلن الحـــرب علــى فرنسا، وتحالف مع روسيا وبريطانيا[٢] التي كانت ترغب في الحفاظ على سيطرتها في الشرق، فينبغي لها بشكل أو بآخر أن تُدخل بلاد الشام ومصـــر فـــي نطـــاق نفوذهـــا وسيطرتها[٣]. وإنه إذا كانت غاية هذا التحالف الثلاثي بين الدولة العثمانيـــة وروســـيا وبريطانيا التصدي للحملة الفرنسية وطرد الفرنسيين في الظاهر[٤]. وسعي كـــل دولـــة على حدة إلى تحقيق مصالحها والاستفادة من هذا الظرف لخدمة سياستها في المنطقـــة وخاصة بريطانيا التي كانت أسرع هذه القوى في تحركها لوقف الزحف الفرنسي فـــي الشرق، حين سارعت إلى تعزيز قواتها في البحر المتوسط، بعد أن عقـــدت معاهـــدة تحالف مع الدولة العثمانية[٥] تولّد منها صدور أمر سلطاني بضرورة تقديم المســـاعدة للسفن البريطانية وبيعهم جميع الذخائر والمؤن اللازمة وكل ما يحتـــاجون مـــن ميـــاه شرب وغيرها[٦].

وقبل خروج نابليون من طولون كان الأميرال البريطاني نيلسون (oratio Nelson)، (١٧٥٨–١٨٠٥)م ومعه ثلاثة أمراء بحر من معاونيه يقفون على سفينة القيادة وبأيديهم المناظير للتفتيش عن حملة نابليون بونابرت ومعرفة اتجاهاته، وأين أماكن مروره[٧].

لم يكن البريطانيون بعيدين عن اتصالات نابليون، وكانوا يعلمـــون عنهـــا الشـــيء الكثير، ويقدرون النتائج التي يمكن أن تســـفر عنهـــا مثـــل هـــذه الاتصـــالات علـــى

---

(١) سليم الثالث (١٧٦١ـــ ١٨٠٧ م): سلطان الدولة العثمانية بين عامي(١٧٨٩ـــ ١٨٠٧ م). ابـــن الســـلطان مصـــطفى الثالث، والدته السلطانة مهرشاه ، ولد في ٢٤ كانون الأول١٧٦١م، وجلس على عرش السلطة عـــام ١٧٨٩ م، مـــرت الدولة في عهده بأيام عصيبة، إذ أنه إضافة إلى الحروب المريرة التي خاضتها الدولة العثمانية مع روسيا، أرسلت فرنسا حملتها الشهيرة بقيادة نابليون بونابرت عام١٧٩٨م، قام بالإصلاحات الشاملة للدولة العثمانية، أنشأ المصـــانع الحربيـــة، وبمحاولته إنشاءالجيش الجديد ثارت الإنكشارية عليه، وتم القبض عليه فأودع السجن، ثم أعدم ذبحاً في ٢٨ تموز ١٨٠٧ م.انظر :www.marefa.org/index.php / سليم الثالث.

(٢) عبد الرحيم،عبد الرحيم عبد الرحمن: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، جامعة الأزهـــر، دار الكتـــاب الجـــامعي، ط٤، ١٤٠٧ هـــ،(١٩٨٦ م)، ص٢٠٩ .

(٣) زين، زين نور الدين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، دار النهار، بيـــروت ،١٩٧١م، ص١٤.

(٤) أبو صالح، عباس: المرجع نفسه، ص١٧٠.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٧١ .

(٦) الأوامر السلطانية، حلب، سجل رقم ٢٧ ،صفحة ٤٥ ،رقم الوثيقة ٦٩، أواسط جمادى الأولى ١٢١٣ هـــ .

(٧) مراد، محمد عدنان:المرجع نفسه، ص١١٢.

إمبراطوريتهم في الهند، وكان أكثر ما يخيفهم ما كان من اتصالات مع الحكَام والأمراء الناقمين على البريطانيين في المشرق العربي والهند مثل سلطان مسقط، وسلطان ميسور الثائر تيبو صاحب[١] لذلك أسرع البريطانيون للعمل ما أمكن من أجل الحفاظ على طريق الهند، ليس فقط لحمايته من الفرنسيين، وإنما ليكون تحت سيطرتهم، وأخذ البريطانيون يثيرون المخاوف من النفوذ الفرنسي، فنبهوا سلطان مسقط سلطان بن أحمد البوسعيدي[٢] إلى الأخطار التي تصيب مسقط من جراء وصول الفرنسيين إليها، وإلى الهند، وأن رخاء مسقط يعتمد فقط على رضا بريطانيا، وهو تهديد مبطن[٣] أسفر أسفر عن عقد معاهدة في عام١٧٩٨م، وتجديدها في عام ١٨٠٠م، وفي عام ١٧٩٩م احتل البريطانيون جزيرة بريم (ميون)[٤] في باب المندب، كما فرضوا معاهدة على عدن، واحتلوا جزيرة موريس[٥]، وكانت قاعدة حربية للفرنسيين في المحيط الهندي[٦].

---

(١) شريف، إبراهيم:المرجع نفسه، ص٣٥ –٣٦.

(٢) سلطان بن أحمد (١٧٩٢ ــ١٨٠٤م): تولى أمور الحكم عام١٧٩٢م بعد وفاة السلطان حمد بن سعيد ، أول من تلقب بلقب سلطان، اتجهت أنظاره إلى خارج عمان بعد أن وطد حكمه في الداخل، واستعاد جزيرة قشم، وهرمز، والبحرين، وبهذا تمكن من اتقاء الخطرالفارسي والأوروبي، وكذلك قضى على خطر الوهابيين، الذين غزوا عمان، ووصل عدد سفن الأسطول في غهده إلى أكثر من٥٠٠سفينه ، وفي الداخل قام بتحصين مدينة مسقط، وبناء قلعه ضخمه على أرض الراوية، لتكون حصنا للمدينة، وبنى البروج، وشيَد قصراً ضخماً جعله مقراً له، وفي الثلاثين من تشرين الأول ١٨٠٤م توفي سلطان بن أحمد، أثناء رحلة بحرية، كان يقوم بها، بين البصرة وعمان .انظر : www.ibrigate.com/vb/showthread.php?t=94501

(٣) مراد، محمد عدنان:المرجع نفسه، ص١١٤.

(٤) جزيرة بريم: تقع في مضيق باب المندب على مسافة نحو ثمانية كيلومترات عن جانبه العربي الأسيوي، ونحو ١٦ كم من جانبه الإفريقي .انظر:الشريف، إبراهيم باشا:المرجع نفسه، ص٣٦.

(٥) موريس : موريس جزيرة أستوائية رائعة الجمال ،استقلت عام ١٩٦٨ مساحتها ١٨٦٥ كم٢ , تقع في المحيط الهندي على بعد١٨٠٠ كيلومتر من الساحل الشرقي لجنوب إفريقيا ،،وتمتاز سواحلها البالغ طولها تقريباً ٣٣٠ كيلومتراً من الشواطي الرملية النظيفة ، أما المنطقة البرية فترتفع لتشكل هضبة وسطى تحيط بها جبال يزيد أرتفاعها عن ٨٠٠ متر عن سطح البحر. عاصمتها بور لويس، و عملتها روبي موريشي.سكان الجزيرة خليط من العناصر الزنجية ، ويطلق عليهم الكريول(الزنوج المحررون)، وإلى جانبهم جماعات باكستانية هندية ، وجماعات من جزر القمر وأقلية من الفرنسين ، واللغة الإنجليزية هى الرسمية وإلى جانبها اللغة الفرنسية والهندية ورغم أن موريس أقرب جغرافياً الى إفريقيا، إلا أنها متأثرة أكثر بروابط بريطانية وفرنسية وكذلك بالعمالة الهندية التي جاءت إليها أكثر من علاقتها الجغرافية بإفريقيا.انظر :http://gafsa.jeun.fr/t9430-topic

الهندي[١]. كما أقنعوا الشاه بإرسال ألفي جندي لحراسة سواحل دولتــه المطلــة علــى الخليج العربي[٢].

ومن الإجراءات الأخرى التي استخدمتها بريطانيــا لمواجهــة نــابليون تحويــل الوكالات التجارية التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية إلى وكالات سياســية تتبــع حكومة الهند، وتقوم بتقديم التقارير للحكومة البريطانية[٣].

كانت بريطانيا تعد فرنسا العدو الحقيقي لها والمنافس العنيــد فــي الشــرق، وإن معركتها مع نابليون مسألة حياة أو موت، لذلك عملت كل جهدها لإيقاف المد الفرنسي. ومن أجل ذلك تتالت اجتماعات المندوبين البريطانيين مع الصــدر الأعظــم ووزيــر الخارجية العثمانية، فكان البريطانيون يلجؤون إلى التلويح بالخطر الفرنسي الجمهوري على مصالح الدولة العثمانية، وتارة إلى التهديد والوعيد، لكن دون أن تثنــي عزيمــة الصدر الأعظم عن رغبته في التفاهم مع فرنسا وإجراء مفاوضات معها لوضــع حــد للأزمة التي خلقتها حملة نابليون على المشرق العربي[٤]. وبفعل الانتصار، البريطاني تمكن نيلسون من إغراق الأسطول الفرنسي الذي رسا في أبــي قيــر، وقطــع بــذلك مواصلات الحملة الفرنسية مع فرنسا وجعلها تحت رحمة حصار الأسطول البريطــاني من جهة[٥] والحملة الدبلوماسية التي قام بها السفير البريطاني في الأستانة مــن جهــة ثانية. وفي النهاية، قرر السلطان تحت ضغط المعتمد البريطاني إقالــة عــزت باشــا الصدر الأعظم ونفيه إلى جزيرة خيوس في شمال بحــر إيجــة[٦]، وقطــع العلاقــات الدبلوماسية مع فرنسا في ٢ أيلول ١٧٩٨م، واعتقال روفن (Rofon) القــائم بأعمــال سفارتها وأعضاء هذه السفارة، وصدر بيان من الباب العالي فــي ١٩ أيلــول ١٧٩٨م أعلن فيه الحرب على فرنسا، وكان للمعتمد الدبلوماسي البريطاني في الأســتانة اليــد الطولى في وضعه[٧].

---

(١) شريف، إبراهيم:المرجع نفسه، ص٣٧.

(٢) مراد، محمد عدنان:المرجع نفسه، ص١١٤.

(٣) شريف، إبراهيم:المرجع نفسه، ص٣٧.

(٤) إسماعيل، عادل وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج١،ص١٠٠.

(٥) يحيى، جلال: العالم العربي الحديث، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٦٦م، ص٨٤.

(٦) إسماعيل، عادل وخوري، أميل :السياسة الدولية في الشرق العربي،ج١،ص١٠٠.

(٧) المرجع نفسه، ص١٠١.

وهكذا سجلت الدبلوماسية البريطانية انتصاراً كبيراً في مواجهة حملة نابليون بونابرت، إذ تمكنت من حمل الباب العالي على إعلان الحرب على فرنسا، وتجهيز حملة عسكرية وتجميع الجيوش في مدينة دمشق وجزيرة رودس تمهيداً لإرسالها إلى مصر[١] وكان الأميرال نيلسون أحد المشجعين على هذه السياسة، فكتب إلى سنبر سميث (S. Smith) في ٢٦ تشرين الأول ١٧٩٨م «يثني على عمله ويهنئه على نشاطه الدبلوماسي، ويستحثه على توسيع شقة الخلاف بين الباب العالي وفرنسا، وتشجيع السلطان على الذود بالسيف عن سيادته وملكه»[٢]. ونتيجة لذلك شعر الباب العالي بالارتياح والطمأنينة لموقف بريطانيا إزاء الحملة الفرنسية.

٣- المنافسة الروسية ــ البريطانية في التصدي لحملة نابليون بونابرت:

أثرت الحملة على العلاقات الروسية ــ العثمانية، فقد أظهرت روسيا صداقتها للدولة العثمانية، لتحقيق هدفين في آن واحد، أولهما: مقاومة المشاريع الفرنسية في البحر المتوسط. وثانيهما: بسط نفوذها على الدولة العثمانية تحت شعار التحالف والصداقة[٣].

أدرك بعض رجال السياسية البريطانيين، وفي طليعتهم هنري دنداس وزير الحربية ووزير الشؤون الهندية في الحكومة البريطانية، ووارن هستنغي (Warn Histingay) حاكم البنغال، والأميرال نيلسون، أن هناك خطراً على المصالح البريطانية في الهند وفي الشرق لا يقل في شيء عن الخطر الفرنسي، وهو الخطر الروسي[٤].

وخشي اللورد غرانفيل (Gran Pheel) وزير الخارجية البريطانية مغبة النزول الروسي إلى البحرالمتوسط وتغلغل النفوذ الروسي في المنطقة، فأرسل إلى المنطقة السير سدني سميث (S.Smith) للاشتراك في المفاوضات الدائرة في الباب العالي بين روسيا والدولة العثمانية،كما أرسل الكولونيل كوهلر (Couhler) على رأس بعثة عسكرية لتنظيم الجيش العثماني وتقديم المساعدات له، ليتمكن من القيام بالحملة التي

---

[١] برجاوي، سعيد أحمد: المرجع نفسه، ص٢٠٠.انظرأيضاً :
Marriott ,J.A.R.: The Eastern Qusteion , oxford university .press 1956 ,p170 .

[٢] إسماعيل، عادل وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج١، ص١٠٦.

[٣] عمر،عمرعبد العزيز: المرجع نفسه، ص٢٣٩.

[٤] إسماعيل، عادل وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج١، ص١٠٦.

يعدها لطرد الفرنسيين من المتوسط[١]. غير أن سدني سميث وصل إلى الأستانة متأخراً في أواخر كانون الأول ١٧٩٨م مع نهاية المفاوضات الروسية ـ العثمانية التي توجت بعقد معاهدة هجومية دفاعية بين روسيا والدولة العثمانية في ٢٣ كانون الأول ١٧٩٨م لمدة ثماني سنوات[٢].

وبذلك تشكل التحالف العثماني ـ الروسي، والعثماني ـ البريطاني ضد حملة نابليون بونابرت[٣]. غير أن هذه المعاهدة زادت من ناحية أخرى في قلق بريطانيا من تعاظم النفوذ الروسي لدى الباب العالي. لذلك ضاعف الأخوان سدني وسبنسر سميث (S.Smith) جهودهما لدى السلطان العثماني سليم الثالث لعقد معاهدة بينه وبين بريطانيا، فأظهرا للسلطان رغبة بريطانيا في المحافظة على دولته وسيادته المطلقة عليها دون مقابل معنوي أو مادي، وكللت جهودهما بعقد معاهدة تحالف وصداقة بين بريطانيا والدولة العثمانية في ٥ كانون الثاني ١٧٩٩م. وتضمنت ثلاث عشرة مادة، ولا تختلف المواد الأولى منها عن المواد المقابلة لها من المعاهدة مع روسيا. غير أن المادة الثامنة منها تتضمن تعهداً من الباب العالي بأنه (حتى في حالة وقف الاعتداءات الواقعة في الوقت الحاضر على ممتلكاتها يظل ماضياً في الحرب، ووفياً لحليفته ولمصالحهما إلى أن يعقد الصلح على أسس عادلة وشريفة ترضيه وترضيهما معاً)[٤]. أما المادة العاشرة فهي الأكثر خطورة وأهمية، حيث جاء فيها: «إن الفريقين المتعاقدين سيتشاوران ويتفقان على المبادرات والعمليات الأكثر فعالية لإحباط مشاريع العدو ونياته الخبيثة في كل مكان ولتدمير تجارته في البحار الشرقية والبحر المتوسط. وتحقيقاً لهذه الغاية يتعهد صاحب الجلالة إمبراطور العثمانيين بإقفال موانئه جميعاً ودون استثناء بوجه تجارة العدو وبإعداد قوة.............. ويتعهد صاحب الجلالة البريطانية، مقابل ذلك بأن يرسل إلى البحار ذاتها قوى بحرية تتكافأ وقوى العدو، وتعمل على إلحاق الضرر به، وتحول بالتعاون مع أساطيل حليفته دون تنفيذ مشاريعه،

(١) المرجع نفسه،ص١٠٧.

(٢) الشناوي،عبد العزيز محمد: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الأنجلو مصرية، القاهرة، د.ت،ط، ص١٩٩.

(٣) لورنس، هنري، وجيليسبي، شارل، وجولفان، كلود، و ترونيكر، كلود: المرجع نفسه،ص٢٤٢.

(٤) إسماعيل، عادل وخوري، أميل، السياسة الدولية في الشرق العربي، ج١،ص١٠٨– ١٠٩.

وخصوصاً دون كل اعتداء منه على أي إقليم أو ولاية من أقاليم الدولة العثمانية وولاياتها»[1].

ويتبين مما سبق أن الدولة العثمانية قدمت كل ما تملك من إمكانيات في سبيل التصدي لحملة نابليون، وجعلت هذه المعاهدة السابقة الذكر من العثمانيين جنوداً للسياسة والمصالح البريطانية في الشرق،وفتحت الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام باب التدخل الأجنبي على مصراعيه في شؤونهما وعلى مختلف المستويات[2].

كانت سياسة بريطانيا نحو الدولة العثمانية قائمة على أساس الاحتفاظ بها لغرض مهم،وهو ضمان سلامة الطرق الموصلة إلى الهند عبر أراضيها في المشرق العربي بما فيها بلاد الشام. ولهذا كانت تتبع سياسة حازمة وصارمة ضد كل محاولة لتهديد الولايات العثمانية العربية[3]. وفي سبيل الحفاظ على سيطرتها في الشرق لابد لها بشكل أو بآخر، أن تُدخل بلاد الشام ومصر في نطاق نفوذها وسيطرتها[4].

واستغلت بريطانيا معاهدة التحالف مع الدولة العثمانية لإرسال وحدات جديدة من أسطولها إلى البحر المتوسط، وتجميع وسائل دفاعها والاعتماد على موانئ بلاد الشام في الحصول على الإمدادات والمؤن. لذلك كتب تاليران إلى نابليون في ٤ تشرين الثاني ١٧٩٨م مقترحات عديدة منها: تجريد حملة عسكرية على بلاد الشام والقضاء على وسائل دفاع العدو (العثماني ـ البريطاني) وتدمير جيوشه التي تتجمع في أنحائها[5]، وحرمان الأسطول البريطاني من مصدر مهم من مصادر تمويله، فيخفف حصاره على الحملة الفرنسية في مصر[6].

٤- دور بريطانيا في التصدي لحملة نابليون بونابرت على بلاد الشام عام ١٧٩٩م وجلاء الحملة الفرنسية:

---

(١) المرجع نفسه، ص١٠٩.

(٢) رافق، عبد الكريم: تاريخ العرب الحديث بلاد الشام ومصر ١٥١٦ – ١٧٩٨ م، دمشق، ط٢، ١٩٦٨، ص٣٩٥.

(٣) شريف، إبراهيم:المرجع نفسه، ص٥١.

(٤) زين، زين نور الدين: المرجع نفسه، ص١٤.

(٥) إسماعيل، عادل وخوري، أميل :السياسة الدولية في الشرق العربي، ج١ ،ص١٦٢، ص١١٢.

(٦) عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع نفسه، ص٢٠٩.

في عام ١٧٩٩م توجه نابليون بونابرت بجيش يقدر بثلاثة عشـــر ألــف محـــارب لاحتلال بلاد الشام عن طريق العريش فاحتلها، ثم احتل غزة، ووصل إلى الرملة، ثـــم إلى يافا[١]. وكتب إلى أهالي بلاد الشام كتاباً جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، وبـــه نستعين، من طرف بونابرت أمير الجيوش الفرنساوية إلى حضرة المفتـــين والعلمـــاء وكافة أهالي نواحي غزة والرملة ويافا حفظهم الله تعالى. بعد السلام نعرفكم أننا حررنا لكم هذه السطور، نعلمكم أننا حضرنا في هذا الطرف لقصد طرد المماليـــك وعســـكر الجزار عنكم،...... فأما أنتم يا أهالي الأطراف المشار إليها، فلم نقصد لكم أذيـــة، ولا أدنى ضرر، فأنتم استمروا في محلكم ووطنكم مطمئنين»[٢]. لكنه تنكر إلـــى وعـــوده، وارتكب مجزرة شنيعة في يافا، إذ أمر بإعدام ثلاثة آلاف جندي من حاميتهـــا بعـــدما استسلموا له، قام بإعدامهم بالرصاص[٣].

وقبل وصول نابليون إلى عكا[٤]اتفقت بريطانيا مع الدولة العثمانية على حماية عكا من البر والبحر[٥]. وأصدر السلطان العثماني سليم الثالث إلى أحمد باشـــا الجـــزار[٦] والي عكا فرماناً يدعوه إلى محاربة الجنرال نابليون بونابرت ورفض تسليمه عكا عام ١٧٩٩م[٧].

وفي ١٧ كانون الثاني ١٧٩٩م قابل سدني سميث الريس أفندي، المتحـــدث باســـم الباب العالي في الشؤون الخارجية، وعرض عليه فكرته الأساسية للقضاء على جـــيش نابليون بحرب نفسية(سيكولوجيه) وسلاحه السري، وذلك باستخدام حاشية من الملكيين

---

(١) عبدو، محمد: نابليون في القاهرة، المكتبة التاريخية، دار الحوار، اللاذقية سورية، ط١، ١٩٨٥، ص٤٧.

(٢) الجبرتي، عبد الرحمن :تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م، ص٢٥٥.

(٣) إسماعيل، حلمي محروس: تاريخ العرب الحديث والمعاصر من الغزو العثماني إلى نهاية الحـــرب العالميـــة الأولـــى، مؤسسة شباب الجامعة–الإسكندرية،مصر، ١٩٩٧ م، ص١١١.

(٤) عكا: مدينة تقع على الشاطئ الفلسطيني وهي من الثغور الجميلة، فتحها العرب وجددوا بناءها بأمر معاوية بن أبي سفيان سفيان عام٦٧٠ م، وجددها ابن طولون، سقطت بيد الصليبيين عام١١٩١م أقام فيها الجزار ١٧٩٠م جامعاً جميلاً، صمدت أمام نابليون عام ١٧٩٩م.انظر: هشي، سليم حسن: المرجع نفسه،ج١، ص١٣٨.

(٥) جبارة، تيسير: تاريخ فلسطين، دار الشروق، ط١،١٩٩٨، ص٣٨.

(٦) الجزار: أحمد الجزار :(١٧٣٤–١٨٠٤) والي عكا العثماني (١٧٧٥–١٨٠٤) اتخذ من مدينة عكا مقراً له وبـــالغ فـــي تحصينها انظر: بعلبكي، منير: المرجع نفسه،ص٦.

(٧) إسماعيل: عادل، إسماعيل: منير، الصراع الدولي حول المشرق العربي (الوثائق الدبلوماسية)، تقديم: إدغـــار بيزانـــي، سليم الحص، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، لبنان،١٩٩٠م،القسم الأول ،ج١، ص٢٠٢.

وخاصة فيبلو (Fhilpow) الذي يؤثر على أغلبية الضباط الساخطين في جيش نابليون، وأكد فيلبو أن هنالك ضباط عديدون مع بونابرت كانوا في السابق تحت إمرته، وأنهم لا يريدون شيئاً أحسن من خدمة قضية الملكية، ومن السهولة ردهم بأن يعــرض علــيهم الخدمة في الجيوش المشتركة، أو حق العودة بحرية إلى حيث كانوا في وطنهم[١].

عهد سدني سميث إلى فيلبو تنظيم الدفاع عن عكا، فرفع أسوارها، ونقل إليها مــن الأسطول البريطاني المرابط في مياهها ما كان يعوزها من مدافع[٢]. وفي الواقع لقــد حرصت بريطانيا على سلامة طريقها إلى الهند، ورغم أن تقــارير جواســيس كثيــرة أكدت لبريطانيا أن هدف الحملة الفرنسية مصر، فإن نيلسون قائد الأسطول البريطــاني عندما وصل إلى مصر ولم يعثر على الفرنسيين اتجه وبالسرعة القصوى إلــى بــلاد الشام في /٢٨/ و/٢٩/ حزيران ١٧٩٨م[٣]. وهذا يدل بشكل واضح على أهميــة بــلاد الشام للسياسة البريطانية ومصالحها، سواء كانت في المنطقة، أو لحماية طريقها إلــى الهند كما تدعي، وفي أثناء حصار نابليون لمدينة عكا كانت القبائل المجــاورة تنظــر بفضول بارد إلى الحرب، أو حتى أنها كانت تتعاطف مع الفرنسيين، إن لم تكــن إلــى جانبهم نكاية بالجزار. لكن هذه القبائل لا تستطيع التحرك بدون الشيوخ[٤]. وهــذا مــا دفع سيدني سميث في ١٤ نيسان ١٧٩٩م إلى إرسال رسالة إلى الأمير بشير الشــهابي الثاني[٥] يحذره فيها من التعاون مع الفرنسيين، ويحثه على التعاون مــع البريطــانيين

---

(١) لورنس، هنري، و جيليسبي، شارل، وجولفان، كلود، و ترونيكر، كلود: المرجع نفسه، ص٢٣٢- ٢٣٣.

(٢) خوري، أميل، وإسماعيل، عادل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ص١١٣.

(٣) لورنس، هنري، و جيليسبي، شارل،وجولفان، كلود، و ترونيكر، كلود: المرجع نفسه، ص٥٦،٥٧.

(٤) بازيلي، قسطنطين:سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة: طارق معصراني، دار التقــدم، موســكو، الاتحــاد السوفييتي، ط١، ١٩٨٩ م. ص٧٦.

(٥) بشير الشهابي الثاني: بشير بن قاسم بن عمر الشهابي (١٧٦٠-١٨٥٠) م أكبر الأمراء الشهابيين، ولد في قرية غزيــر، ولما بلغ العاشرة مات والده، فعطفت عليه خادمة بعد أن تزوجت أمة فنقلته إلى برج البراجنة، ولما بلغ السادسة عشــرة قصد دير القمر، وأقام في بيت الدين مدة، ثم اتصل بأحمد باشا الجزار فقربه، وولاه إمارة لبنان عام ١٧٨٨م، فكانت له حوادث كثيرة عزل مرات وأعيد، أَزَرَ إبراهيم باشا، ثم قبض عليه البريطانيون ونفوه إلى مالطة، ثم التمس الإقامة فــي الأستانة فمات فيها عام١٨٥٠ م .انظر: الزركلي، خير الدين: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العــرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت، ط١٤، ١٩٩٩م ،ج٢، ص٥٧.

حلفاء السلطان العثماني، ويوحي له أن بريطانيا تنتقد الجزار في بعض الأمور، وإنهـــا ستناصره ضد الجزار[١].

كان للسياسة البريطانية دور يوازي الدور العسكري في التصدي لنابليون بونابرت وإجباره على الانسحاب من بلاد الشام، حيث استغل سدني سميث مفاوضـــات تبـــادل الأسرى الدائرة بين البريطانيين والفرنسيين وأرسل إلى بونابرت مع أمين سره جـــون كايث (John Kayth) أعداداً من الصحف البريطانية والفرنســية منهـــا (غازيـــت دي فرانكفورت) و(وله كوربيه فرنسيه) تستعرض الهزائم التي ألحقها فيبلو بالقائد الفرنسي شيرر (Chirer) في إيطاليا، والجنرال جوردان (Jourdan) في الغابة السوداء بألمانيا، والأسطول البريطاني بقياده نيلسون يضرب حصاراً علـــى الســـواحل الفرنســـية، وأن الجيوش الروسية بقياده الجنرال سوفوروف[٢] (Souphoroph) تتقدم في هولندا وإيطاليا وسويسرا متجهه نحو باريس. ولدى اطلاع نابليون على ما في هـــذه الصـــحف قـــرر العودة إلى فرنسا[٣]. وخصوصاً بعد أن تقلص أسطوله إلى أقل من النصـــف بســـبب الحصار البريطاني[٤] إضافة إلى إصابة جنوده بالطاعون، وقله المؤن. وبـــالرغم مـــن انتصاره في معركة تل طابور، فقد جمع بعض قواده وركب معهم خلسة فـــي إحـــدى السفن الثلاث التي سمحت بريطانيا بعودتها، فغادر خفيه إلى فرنسا، بتحريك من أخوته ليتولى قيادة الجيوش الفرنسية، وترك كليبـــــــــــــــــــــــــــــــــر[٥]

---

(١) نوار،عبد العزيز سليمان: وثائق اساسية من تاريخ لبنان، جامعة بيروت العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٤ م، ص١٥٨– ١٦٠.

(٢) سوفوروف: ألكساندر فاسيليفيتش سوفوروف (١٧٣٠–١٨٠٠ م) قائد القوات العسكرية الروسية، شارك في حرب السبع سنوات، قاد القوات الروسية أثناء القضاء على انتفاضة بوغاتشوف في آب ١٧٧٤ م. كما تولى قيادة القوات التي قضت على الانتفاضة البولونية. وفي عام ١٧٩٩ م قاد القوات الروسية نحو إيطاليا وسويسرا وهولندا، وتمكـــن مـــن تحطـــيم القوات الفرنسية، كان له فضل كبير في إعداد طرق جديدة لتدريب القوات الروسية، انتصر في كـــل المعـــارك التـــي خاضها. انظر: القاموس الموسوعي الكبير، المؤسسة العلمية، الموسوعة الروسية الكبـــرى، موســـكو، ط١، ٢٠٠٠ م، ص١١٦٠.(باللغة الروسية).

(٣) وإسماعيل، عادل، خوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي،ج١،ص١١٧.

(٤) حتي، فيليب :تاريخ لبنان(منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر)، ترجمة: أنيس فريحة، ونقولا زيادة، تحرير: جبرائل جبور، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٧٨ م، ص٤٨١.

(٥) كليبر جان باتيست (١٧٥٣–١٨٠٠ م): من قادة القوات الفرنسية العامة الذين لعبوا دوراً بارزاً في حرب التحالف الأول (١٧٩٣–١٧٩٧م) والحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام (١٧٩٨–١٨٠١ م) مـــع نـــابليون بونـــابرت، ولـــد فـــي ستراسبورغ (Strasbourg)، في فرنسا، كليبر كان مقرراً في الأصل أن يكون مهندسا معماريا، ولكن بدلا مـــن ذلـــك دخل المدرسة العسكرية في ميونيخ(Munich)، في ألمانيا، وهناك في عام١٧٧٦م أصبح ضابطاً في الجيش النمساوي.

(Kliber) نائباً عنه[1].

تثيرعودة نابليون إلى فرنسا بمثل هذه السهولة ودون أن يعتقله الأسطول البريطاني المنتشر في البحر المتوسط، تساؤلات عديدة، وتكوّن حلقه مفقودة، فهل استطاع نابليون أن يخترق الأسطول البريطاني في المتوسط وأن يهرب دون أن يشعر به البريطانيون، فكان بذلك إخفاق عسكري بريطاني، أم كان نجاحاً للسياسة البريطانية التي كانت على اتفاق مع نابليون كما ذكر كريتسينو جولي (Chritsino July)، حيث نسب قـولاً إلـى الجنرال بيشغرو يفهم منه أن نابليون بونابرت أبحر من الإسكندرية حاملاً معه جـواز مرور من سدني سميث بعد أن اتفق معه على وضع حدّ للفوضى في فرنسا بـإجلاس شقيق لويس السادس عشر[2] على عرشها[3]؟.

وبعد فشل نابليون أمام أسوار عكا تابع سيدني سميث انسحاب الجيش الفرنسي إلى مصر، ثم عاد إلى بلاد الشام، وبدأ بتوطيد النفوذ البريطاني فيها، فزار الأماكن المقدسة في فلسطين، ثم وصل إلى لبنان، يتفقد المنطقة متبجحاً، لكـي يتسـنى لـه التصـرف

ثم استقال من الخدمة النمساوية بعد سبع سنوات، وأصبح مفتش المباني العامة في بيلفورت(Belfort)، في فرنسا. دخل الجيش الفرنسي في عام ١٧٩٣ م، تميّز في الدفاع عن ماينز، وهي مدينة ألمانية ثم أصبحت فيما بعد تحت السـيطرة الفرنسية. على الرغم من الشكاوى ضده لأنه أظهر التساهل المفرط تجاه المتمردين. تولى في١٧٩٤م قيادة ثلاث شعب، تحت قيادة الجنرال العم جوردان (Jourdan) ليصبح مساعد جوردان الأكثر أهمية خلال الحملات فـي بلجيكـا،وعلى نهر الراين. مع هزيمة جوردان في نهاية المطاف من قبل النمساويين، استقال كليبر في عام ١٧٩٨م. ثم عاد ليشارك في حملة نابليون على مصر= =وبلاد الشام، وأصيب خلال الاستيلاء على مدينة الإسكندرية القديمة. وفي أعقـاب غـزو الإسكندرية أصبح حاكما للمدينة، انتصر في معركة تل طابور. وبعد عودة نابليون إلى فرنسا في عـام ١٧٩٩م، تـرك كليبر في قيادة الجيش الفرنسي في مصر. قضى على ثورة القاهرة الثانية،وانتهت حياته على يد الشاب السوري سليمان الخاطر (الحلبي) فـي حزيـران ١٨٠٠م.انظـر: Microsoft ® Encarta ® 2009. © 1993-2008 Microsoft Corporation. All rights reserved.

[1] العظمة، عبد العزيز: مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها، دار الفكر، دمشق، ط٢، ٢٠٠٢م، ص٢٧٢-٢٧٥.

[2] لويس السادس عشر (Louis XVI) (١٧٥٤ ـ ١٧٩٣م): ملك فرنسا ،لم يكن مؤهلاً لعلاج المشكلات التي ورثها ، فقد كان غبياً، خامل الفكر،وآثر حفلات الصيد ،وأضاعت عليه زوجته ماري أنطوانيت، المحبة للمسرات والحفلات الراقصة، حب شعبه له،أدت دسائس الملكة،وكبير وزرائه،موريا(Moria)،وحزب البلاط ،إلى أن فصل أقدر وزرائه ترجو(Trgo) ١٧٧٦م ،ونكر(Wnker)١٧٨١م، وكان تدخل فرنسا في الثورة الأمريكية قد جرالخزينة إلى حافة الإفلاس، فاضطر الملك لويس إلى استدعاء نكرعام ١٧٨٨م،وافتتح مجلس طبقات الأمة .وبذلك دخلت الثورة الفرنسية دورها الأول ، وأخذ لويس يتذبذب بين أن يتخذ إجراءات عنيفة ،وبين مشاورات زوجته الملكة ، ورجال بلاطه ،وانتهى إلى ترك الأمور تجري في أعنتها ،دون أن يحاول توجيهها .وفي تموز١٧٩١م حاول هو وأسرته الهرب إلى خارج فرنسا متنكراً، لكنه أوقف وأعيد إلى باريس ،سجنت الأسرة المالكة، وألغيت الملكية ،ثم قدم الملك للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى ،وحكم عليه بالإعدام ،وجزت المقصلة رأسه في٢١كانون الثاني١٧٩٣م.انظر:غربال،شفيق:الموسوعة العربية الميسرة،دارالشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعةوالنشر،مصر،القاهرة،صورة طبق الأصل من طبعة ١٩٦٥،ج٢، ص١٥٨٤.

[3] إسماعيل، عادل، و خوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج١، ص١١٧.

بسلطات خوّله بها السلطان العثماني سليم الثالث، وأعلن عن ترتيب عام للسلطات في المنطقة علماً أن هذا التدخل البريطاني كان يثير سخط الجزار[1].

بدأ البريطانيون يتدخلون في شؤون بلاد الشام لتحقيق أهداف السياسة البريطانية في المنطقة، ويسعوا إلى عزل كل من لا يوافق هوى بريطانيا الامبريالية ومصالحها. لذلك أيدت بريطانيا بشير الشهابي الثاني ضد الجزار، فأرسل سيدني سميث رسالة إلى بشير الشهابي الثاني في ٥ كانون الأول ١٧٩٩م استنكر فيها إقدام أحمد باشا الجزار على عزله وإسناد الإمارة إلى أولاد الأمير يوسف، وتوعد الجزار فيها بالتأديب ليس فقط لقيامه بعزل بشير الشهابي، وإنما بسبب تقاعسه عن تقديم المساعدات اللازمة لقطع الأسطول البريطاني العاملة أمام السواحل المصرية الشمالية، و عَدَّ سميث الجزار عدواً للبريطانيين وللدولة العثمانية[2].

حصل سدني سميث على تجاوب الباب العالي مع مطالبه التي تتمثل في لزوم انصياع مصطفى باشا قائد القوات العثمانية لتعليمات ونصائح البريطانيين، أما فيما يتعلق بزعماء الجبل الأمير بشير وأخوه الأمير جنبلاط فيجب إعادة الطمأنينة إليهما ومعاملاتهما معامله حسنة[3]. حيث غادر الأمير بشير الشهابي الثاني لبنان على ظهر بارجة بريطانية هرباً من الجزار بمساعدة السيد سدني سميث، ونزل في قبرص، ثم انتقل إلى العريش[4]، للقاء الصدر الأعظم سليمان باشا قائد الحملة العثمانية الموجهة ضد حملة نابليون بونابرت في مصر.ويرى نيلسون أن سياسة سدني سميث الخاصة في تسويه المسألة اللبنانية إنما تجر بريطانيا إلى التدخل في أعمال لا تخصها، وتهدد بجرّها إلى عمليات عسكرية لا طائل من ورائها كمحاربه أحمد باشا الجزار[5].

مما سبق يبدو أن بريطانيا تبنت فكرة أن مَن لا يكون معي فهو ضدي، حيث وقفت إلى جانب الشهابي ضد الجزار وهو الذي صمد وطرد الفرنسيين أمام أسوار عكا. أما الشهابي فكان متردداً في موقفه، إن لم نقل مال إلى جانب نابليون، فلماذا كان هذا

---

(١) لورنس، هنري، و جيليسبي، شارل، وجولفان، كلود، و ترونيكر، كلود: المرجع نفسه، ص٣٣٩،ص٣٨٩.

(٢) نوار، عبد العزيز سليمان: وثائق أساسية في تاريخ لبنان، ص١٦٢ – ١٦٣.

(٣) لورنس، هنري، وجيليسبي، شارل،وجولفان، كلود، و ترونيكر، كلود: المرجع نفسه، ص٣٨٩.

(٤) قدورة، زاهية مصطفى: تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت،١٩٨٥م، ص٢٩٠.

(٥) صليبي، كمال: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار، بيروت، ط٥ ،١٩٨١، ص٥٢.

الموقف البريطاني من الجزار....؟ هل لأنه تقاعس عن تقديم المساعدات اللازمة للأسطول البريطاني العامل أمام السواحل المصرية الشمالية، أم أن بريطانيا خبرت الجزار عن قرب وكثب، وعلمت أنه لا يمكن أن يكون جسراً لتحقيق السياسة البريطانية، حيث رفض المفاوضات مع نابليون، وفضل الموت على الخضوخ للاحتلال الأجنبي.

ويظهر هناك تناقض واضح في السياسة البريطانية خلال المفاوضات مع فرنسا من أجل جلاء قواتها عن مصر المرتبط مصيرها بمصير بلاد الشام منذ القدم، وهذا التناقض سواء كان بين إيلجين (ILdjein) والأخوين سميث، أو بين كل منهما على حدة، فالواقع أن سبنسر سميث كان يدرك الخطر الذي تشكله عودة جيش الحملة الفرنسية من المشرق العربي إلى أوروبا بالنسبة لبريطانيا وحلفائها الأوروبيين، ومع ذلك فقد وافق في ٣٠ تشرين الأول ١٧٩٩م على بدء المفاوضات مع كليبر، الذي كتب إلى اللورد إيلجين ، يؤكد عجز الجيش العثماني عن خوض معركة جادة ضد الفرنسيين. أما السفير إيلجين فهو ضد الاتفاق مع الفرنسيين، ويرى أن هذا القرار يتعارض مع مصالح السياسة البريطانية التي يجب أولاً أن تسعى من أجل أن تحل محل فرنسا في العاصمة العثمانية، وهو ما يستلزم إطالة أمد الحرب[١].

أما حكومة لندن فإنها رفضت أن يخرج الفرنسيون بسلاحهم وعتادهم، وخشيت أن ينضموا إلى الجيش الفرنسي الذي يحارب في أوروبا، مما يؤثر على الموقف العسكري فيها، فأصرت على أن يستسلم الفرنسيون، وأن يسلموا أسلحتهم لبريطانيا كأسرى حرب[٢]. لذلك أيدت حكومة لندن إيلجين، لأنها كانت أكثر انجذاباً إلى صورة الأحداث التي رسمها لها نيلسون، الذي لايستطيع قبول فكرة جلاء الفرنسيين بأسلحتهم، حيث كان يرى أن انتصاره في أبي قير قد حكم على الجيش الفرنسي بالدمار[٣].

وأمام عجز العثمانيين والبريطانيين عن تدمير الجيش الفرنسي، الذي شكل عامل زعزعه لاستقرار المواقع البريطانية على طريق الهند، فالمصالح البريطانية الحيوية

---

(١) لورنس، هنري، وجيليسبي، شارل، وجولفان، كلود، و ترونيكر، كلود: المرجع نفسه،ص٦١.

(٢) إسماعيل، حلمي محروس :المرجع نفسه، ص١١٣.

(٣) لورنس، هنري، وجيليسبي، شارل، وجولفان، كلود، و ترونيكر، كلود: المرجع نفسه، ص٤٦٠.

توجب جلاء الفرنسيين عن مصر. وبالنسبة لبريطانيا فإن الحل الذي اقترحــه ســيدني سميث إنما يعني الإعلاء من شأن المصالح البريطانية على حساب التوازن الأوروبي. لذلك فضلت السلطات البريطانية اللجوء في آن واحد إلى التنصل علناً مــن ســيدني سميث، وتحمل المسؤولية في الوقت نفسه عن قراراته، بالرغم أن سيدني سميث نفــذ قرارات الحكومة البريطانية، فقد تعين على الدبلوماسيين البريطانيين أن يشجبوا بشــدة أمام الحلفاء سياسة سميث ومسلكه، وأن يعتذروا لحلفائهم الأوروبيين[١].

وانتهت المفاوضات التي تستهدف إجلاء الحملة عن مصر بتوقيع اتفاقيه العــريش في ٢٤ كانون الثاني ١٨٠٠م التي تضمنت انسحاب الفرنسيين من مصــر بســلاحهم خلال ثلاثة أشهر على نفقة العثمانيين، لكن البريطانيين رفضوا الاتفاقية، وأصروا على استسلام القوات الفرنسية كأسرى حرب وتسليم أســلحتهم. غيــر أن كليبــر رفــض الاستسلام، ولولا الضغوط العسكرية من القوات البريطانية التي نزلــت مــن البحــر والقوات العثمانية التي جاءت براً وبحراً والمقاومة الشعبية، وازدياد الأطراف المعادية للحملة الفرنسية، لما أجبر خلفه الجنرال مينو (Mino) على قبول اتفاقية العريش في ٩ تشرين الأول ١٨٠١م[٢]. ووافقت بريطانيا على جلاء الجيش الفرنسي الذي شكل عامل زعزعه لاستقرار المواقع البريطانية علــى طريــق الهنــد، لأن المصــالح الحيويــة البريطانية كانت توجب جــلاء الفرنســيين عن مصر[٣].

٥- نتائج حملة نابليون بونابرت على بلاد الشام عــام (١٧٩٩م) وتأثيرهــا علــى السياسة البريطانية فيها:

١- فتحت حمله نابليون بونابرت على بلاد الشام عام ١٧٩٩م باب الصراع الدولي في المشرق العربي على مصراعيه، وأطلقت العنان لمخططي السياسة الاستعمارية في أوروبا. وشكلت بداية مرحلة طويلة من التنــافس البريطــاني ــ الفرنســي، توجــت بالاحتلال البريطاني لمصر عام١٨٨٢م. وازداد النشاط البريطــاني فــي الأراضــي العربية منذ مطلع القرن التاسع عشر[٤].

---

(١) المرجع نفسه،ص٤٦٣.

(٢) وثائق التدخل الأجنبي :الوطن العربي في ظل الاحتلال العثماني، د .م ، ن ، ط١، ١٩٧٥م، ص٦٤-٦٨ .

(٣) لورنس، هنري، و جيليسبي، شارل، وجولفان، كلود، و ترونيكر، كلود: المرجع نفسه،ص٤٦٣.

(٤) عمر، عمرعبد العزيز: المرجع نفسه، ص٢٣٤.

٢- أثرت الحملة في تغيير طبيعة العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية، فقبل الحملة كانت سياسة بريطانيا تجاه الدولة العثمانية تتحدد بدرجة كبيرة بالمصالح التجارية البريطانية في الدولة العثمانية .أما بعد الحملة فقد أصبحت العلاقات السياسية في مركز الصدارة. حيث فتحت حملة نابليون صفحة جديدة في سجل بريطانيا الاستعماري في المشرق العربي[١].

٣- دفعت الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام ومحاولات نابليون إيجاد رأس جسر له في الخليج العربي بريطانيا إلى تكريس نفوذها السياسي في منطقة الخليج العربي، وإلى استخدام القوة العسكرية في احتلال جزيرة بريم عند باب المندب، والتوقيع على معاهدة مع سلطان لحج وعدن، وإلى إقامة علاقات صداقة مميزة مع سلطان عمان، ومع العراق[٢].

٤- أدخلت الحملة المسألة الشرقية في دور جديد، وأدت المخاوف من الأطماع التي تهدد الهند والطرق الموصلة إليها عبر أراضي المشرق العربي بما فيها بلاد الشام بالبريطانيين إلى نقل مركز ثقلهم السياسي من غرب البحر المتوسط إلى شرقه، وعلى الأخص بعد أن ضعفت إسبانيا،ولم تعد مصدر خوف لبريطانيا، وأصبح من المبادئ الأساسية لبريطانيا منع أي قوة أجنبية، مهما كانت، من السيطرة على الولايات العثمانية، ولاسيما بلاد الشام[٣].

إذاً كان البريطانيون يعلمون أن معركتهم مع نابليون هي مسألة حياة أو موت، لذلك عملوا كل ما بوسعهم من أجل إيقاف المد الفرنسي. وهكذا نجحت بريطانيا بسبب هذه السياسة، ونتيجة تضارب مصالح الدول الاستعمارية الأخرى وتنافسها، في الاحتفاظ بطرق مواصلاتها إلى الهند سليمة عبر أراضي الدولة العثمانية وعلى الأخص في بلاد الشام.

ثانياً: بعثة الاستكشاف البريطانيّة بقيادة فرانسيس روودن تشيسني (F. R Chesney) في نهر الفرات بين عامي (١٨٣٠-١٨٣١)م:

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٣٤ـــ ٢٣٩.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٣٩.

(٣) شريف، إبراهيم:المرجع نفسه، ص٧٨.

سخّر العلماء البخار في أواخر القرن الثامن عشر،من أجل تحسين المواصلات في البر والبحر، وتبعهم غيرهم في أوائل القرن التاسع عشر، فأحسنوا الصنع، وأجروا القطارات والسفن، وهبّ رجال السياسة والحرب يسخّرون العلم لمآربهم وأغراضهم، فرأت الحكومة البريطانية أن تستعين بالبخار لتقصير طريق الهند، فأوفدت الوفود إلى المشرق العربي، وخصصت العراق وبلاد الشام بأكثرهم[١] لأن طريق الهند والدفاع عنها والبحث عن أفضل الوسائل لتقصيرها كانت تشكل حجر الزاوية في السياسة البريطانية، وتعد مسألة حيوية بالنسبة لبريطانيا العظمى[٢]. فاتجهت الأفكار إلى استخدام السفن البخارية لنقل البضائع والبريد في البحر المتوسط، ومنه في اتجاه واحد من طريقين: الأول عبر مصر والثاني عبر بلاد الشام. وكان الاعتقاد السائد أن استخدام أي واحد من هذين الطريقين له نتائج إيجابيه في تخفيض تكاليف النقل واختصار الزمن، بالرغم ما كان يقتضيه كل منهما من نقل بري، سواء عبر مصر من المتوسط إلى البحر الأحمر، أو عبر بلاد الشام من المتوسط إلى نهر الفرات فالخليج العربي، لذا عمدت بريطانيا إلى القيام باستطلاع الطريقين، وإجراء دراسات تمهيديه واسعة النطاق لمعرفه أفضل الطريقين الذي يوفر أكبر قدر ممكن من السرعة والأمان[٣].

بدأت أولى عمليات الاستطلاع لوادي الفرات على يد فيتش (fitesh) وبعض الأشخاص في عام ١٥٨٣م، بدؤوها من طرابلس الشام، ثم نزلوا في الفرات، ثم إلى العراق ومنه إلى الخليج العربي، إلا أن السلطات البرتغالية قبضت عليهم لاشتباهها في أن يكونوا جواسيس. واستطاع فيتش أن يعود إلى بريطانيا في عام ١٥٩١م، فأشاع بين البريطانيين رغبة شديدة للتجارة والاستكشاف في تلك البلاد[٤]. وبعد أكثر من قرنين جاء الملازم أورمسبي(H.Ormsby) من بحرية الهند ليستطلع وادي الفرات بين

---

[١] رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ١٨٠٤، ١٨٤١، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت،١٩٥٦-١٩٥٧ م، ص١٥٣.

[٢] f. rodkey: the turco – Egyptian question in the relations of England France and Russia 1832 – 1841 , copyrich , 1944, p38 .

[٣] صالح،زكي: مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني، محاضرات جامعة الدول العربية، ١٩٦٦ م، ص٤٥ -٤٦.

[٤] فارس، علي عبدالله :المرجع نفسه، ص٤٥.

عامي (١٨٢٦-١٨٣١م)، وفي عام١٨٣٠م بدأ جيمس تايلر (J.Taylor) شقيق المقـيم البريطاني في بغداد روبرت تايلر (R .Taylor) عملية مسح بعد حصوله على إذن مـن والي بغداد المملوكي داوود باشا (١٨١٧-١٨٣١)م من أجل دراسة صلاحية نهردجلة للملاحة التجارية، إلا أن جيمس تايلر قتل على يد البدو،وانتهى مشروعه بالفشل[١].

كُلف الضابط فرانسيس roودن تشيسني[٢] (F. R Chesney) بالقيام بعمليات المسح والتحريات التمهيدية، بحثاً عن أقصر الطرق المؤدية إلى الهند[٣]. وكان قدومـه فـي بادئ الأمر عام ١٨٢٨م من أجل الاشتراك إلى جانب الدولة العثمانية في حربها ضـد روسيا وفقا لميل السياسة البريطانية آنذاك،إلا أنه وصل عند انتهاء الحرب،فكلفه السفير البريطاني لدى الدولة العثمانية في الأستانة روبرت غـوردن (R. GoRdon) بدراسـة الطريقين عبر مصر وبلاد الشام دراسة مقارنة، فقصد تشيسـني مصـر،والتقى فيهـا بزملاء بريطانيين يعملون للغرض نفسه، ومنهم أخذ إرشادات وتوصيات، ثم توجه إلى بلاد الشام من أجل القيام بدراسة تمهيدية لنهر الفرات.

استغرقت الدراسة الاستطلاعية لنهر الفرات التي قام بها تشيسني سنة كاملة مـن حزيران ١٨٣٠م إلى حزيران ١٨٣١م. فكانت أول عملية مسح مهمة لنهر الفرات[٤].

اتصل تشيسني بـ جون باركر (Barker) قنصل بريطانيا في مصر، وطرح عليـه مجموعه من الأسئلة للإجابة عنها، جميعها تتعلـق بالمفاضـلة بـين وصـل الهنـد بالبحرالمتوسط عن طريق الخليج العربي وبلاد الشام، وبين وصلها عن طريق البحـر الأحمر ومصر، فأخذ تشيسني هذه الأسئلة ودرسها، ثم قام يبحث في إمكانيـة وصـل البحر الأحمر بالبحر التوسط عبر برزخ السويس، فتبين له أن ارتفاع البحر واحد، وأن

---

(١) محمد، صالح خضر: المرجع نفسه، ص٢٦.

(٢) تشيسني(١٧٨٩- ١٨٧٢) م:رحالة بريطاني ، كان نقيباً، ثم رقي إلى رتبة جنرال في عام ١٨٢٩م قـام برحلـة فـي أرجاء الدولة العثمانية وخاصة في مصر وبلاد الشام ،وهو مؤلف عدة كتب مهمة، نشرت في خمسينيات القرن التاسـع عشر منها: Ex pedition the for survey of the rivers Euphrates and Tigris London1850 انظر: ريجنكوف، م ، سيميليانسكايا ،أ: سوريا ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر (مذكرات رحالـة ــ تقارير علمية واقتصادية ، ترجمة يوسف عطا الله ، راجعه وقدم له مسعود ضاهر، دار النهار، بيروت ، لبنـان ،ط١، ،١٩٩٣م ص٢٧٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٧٣.

(٤) مجموعة من الباحثين: تاريخ العراق المفصل، بيت الحكمة بغداد، ط١، ٢٠٠٢ م، ص١١.

لوبيير (Lopeire) مهندس نابليون أخطأ في عدّهما غير متساوين. لكن المراجع البريطانية لم تعبأ بتقريره هذا، واكتفت بأن سمحت بحفظه[١].

بدأ تشيسني رحلته الأولى انطلاقاً من بلاد الشام إلى العراق، عبر نهر الفرات في ٢٦ كانون الأول١٨٣٠م، ولدى وصوله إلى الفلوجه خرج من زورقه ليتصل بالمعتمد البريطاني فيها روبرت تايلر (R.Taylor). فعلم منه بما أصاب غيره من الباحثين البريطانيين، فخارت عزائمه[٢]. حيث أخبره بنهاية جيمس تايلر (J. Taylor) شقيق المعتمد البريطاني في بغداد الذي قتل على يد البدو أثناء دراسته لصلاحية نهردجلة للملاحة[٣]. غير أن المعتمد عاد فشد قواه حتى وصل إلى البصرة في أواخر نيسان، ومنها إلى المحمرة، فتبريز، فطرابزون، فحلب فالأستانة ومنها عاد إلى بريطانيا[٤].

وأشار تشيسني في تقريره الذي قدمه إلى المسؤولين البريطانيين أن هناك عدة عقبات تعترض سبيل الملاحة في الفرات[٥] أهمها: عداء القبائل المجاورة، وخوفه من معاونيه، وقلة الطعام لديه[٦]. وأحياناً كانت مركبته البدائية تجنح إلى مكان ضحل، وأحياناً كان البدو الرتع على طول ضفتي النهر يطلقون عليه النار[٧].

غير أن الاعتبارات السياسية والاستراتيجية وفي مقدمتها تنامي النفوذ الروسي وظهور خطر محمد علي باشا في بلاد الشام جعلت فرانسيس رودن تشيسني وحكومته تتحمسان لمشروع الملاحة التجارية في الفرات[٨].

ويظهر من تقارير تشيسني الأولى عن رحلته أنه لم يكن شديد التفاؤل بإمكانية الملاحة في نهر الفرات نظراً لوجود المستنقعات في مجرى النهر الأسفل، ولقلة سرعة المياه، وعداء القبائل. ولدى وصوله إلى لندن أحاطه الجمهور بهالة من الإعجاب والتقدير، فأثّر هذا في نفسه، وجعله يعيد النظر فيما ذهب إليه فخفف تشاؤمه، وانقسم

---

(١) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص١٥٤.وانظر: f. rodkey: ibid ,p 39. -

(٢) المرجع نفسه، ص١٥٤.

(٣) محمد، صالح خضر: المرجع نفسه، ص٢٦.

(٤) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص١٥٤.

(٥) محمد، صالح خضر: المرجع نفسه، ص٢٦.

(٦) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص١٥٤.

(٧) بازيلي، قسطنطين: المصدر نفسه، ص٢٨٢.

(٨) مجموعة من الباحثين: تاريخ العراق المفصل،ص١١.

رجال السياسة البريطانيين من جراء ذلك إلى قسمين في موقفهم من طريـــق الفـــرات، وكان يسيطر على الموقف الشك في روسيا ومطامعها في المنطقة،فاستمسكت الحكومة بمشروع الفرات لأسباب استراتيجيه[١].واعتبارات سياسية في مقدمتها تنـــامي التفـــوق الروسي[٢] وظهور خطر محمد علي باشا، مما جعل تشيسني يتحمس هـــو وحكومتـــه لمشروع الملاحة في الفرات[٣]. وقد صرح تشيسني أمام اللجنـــة قـــائلاً: «إن أهميـــه الفرات في المواصلات السريعة تتضاءل بالقياس إلى أهميته حاجزاً في سبيل روســـيا، حاجزاً يستند إلى تجاره نامية، مفيدة لنا، ولمستعمراتنا الشرقية، وللـــبلاد العربيـــة»[٤]. ونجح في استقطاب شخصيات بارزة للاهتمام بهذا المشروع وتأييـــده وعلـــى رأســـهم بالمرستون[٥] (Palmerston) وأعضاء آخرون في مجلس الوزراء[٦].

أعلن بالمرستون وزير الخارجية تأيده للمشروع، وأُلفت لجنه خاصة للنظر فيـــه، وشملت ستة وثلاثين عضواً، ودرست اللجنة الموضوع، واستمعت إلى آراء الخبـــراء فيه،ومن بين هؤلاء كان تشيسني نفسه، ثم رفعت تقريراً بذلك إلـــى مجلـــس العمـــوم مستحسنه إجراء السفن التجارية في الفرات والبحر الأحمر في وقت واحد[٧]. وتوصلت وتوصلت اللجنة في النهاية إلى قرار لصالح الملاحة التجاريـــة فـــي نهـــر الفـــرات، واقترحت اللجنة أن يخصص البرلمان (٢٠/٠٠٠) جنيه إسترليني لإرسال تشيسني مع باخرتين إلى بلاد الشام من أجل القيام برحلته الثانية، واختبار مـــدى صـــلاحية نهـــر

---

(١) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص١٥٤.

(٢) محمد، صالح خضر: المرجع نفسه، ص٢٦ .

(٣) مجموعة من الباحثين: تاريخ العراق المفصل،ص١١.

(٤) صالح، زكي : المرجع نفسه، ص٤٧.

(٥) بالمرستون (١٧٨٤ ــ ١٨٦٥ م): سياسي ورجل دولة بريطاني إمبريالي إسمه بالولادة ((هنري جون)) واكتسب اللقب عام ١٨٠٢م،وأصبح نائباً عن حزب المحافظين عام ١٨٠٧م، وبقي نائباً مدة ٥٨ عاماً حتى بعد أن انتقل إلى حزب الأحرار عام ١٨٢٩م، تقلب في المناصب الحكومية العليا مدة تقارب نصف قرن بدأ كوزير للحربية(١٨٠٩ ــ ١٨٢٨ م)ثم كوزير للخارجية (١٨٣٠ ــ ١٨٤١ م)، وفي أواخر سني حكم بالمرستون اختلت قدرته في الحكم على الأمور، إلا أنه لم يتخلى عن رئاسة الوزارة حتى مماته،وكان قد تولى وزارة الداخلية البريطانية منذ عام ١٨٥٢م حتى ١٨٥٥ م.انظر: أبو الحسن، علي: المرجع نفسه ،ص٤٧ ــ ٤٨.

(٦) - f. rodkey: ibid , p39.

(٧) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ١٥٤.

الفرات للملاحة التجارية، وخصصت دار الهند في لندن مبلغ (٥٠٠) جنيه إسترليني للبعثة، إدراكاً منها لأهمية هذا العمل في مواجهة الأطماع الروسية[١].

ثالثاً: موقف بريطانيا من حرب الشّام الأولى (١٨٣١-١٨٣٣م):

١- زحف قوّات محمد علي باشا إلى بلاد الشّام عام ١٨٣١م:

حاول محمد علي باشا أن يستولي على بلاد الشام بشكل سلمي، وطلب ذلك من السلطان العثماني في عام ١٨٢٧م، غير أن طلبه رفض، فوجد في خلافه مع والي عكا عبد الله باشا[٢]، الذي رفض إعادة الفلاحين المصريين الهاربين من الجندية سبباً للتدخل[٣]. وفي عام ١٨٣١م وجد محمد علي باشا أن الأحوال ملائمة لأن ينال بحد السيف ما مناه به السلطان العثماني مستغلاً فترة ضعف الدولة العثمانية وانحلالها[٤]. بعد تحطيم أسطولها في موقعة نافارين[٥](Navarin)، وحربها مع روسيا التي أضعفت جيشها وجعلته فريسة سهلة لمحمد علي باشا، وعدم معارضة الدول الأوروبية العظمى[٦].

وفي تشرين الأول ١٨٣١ م توجه إبراهيم باشا على رأس جيش من مصر عن طريق البر إلى بلاد الشام[٧]. فأسرع عبد الله باشا والي عكا إلى إخبار السلطان العثماني بخروج محمد علي باشا عن طاعة السلطان وتجهيزه جيش لمهاجمة الشام،

---

(١) مجموعة من الباحثين: تاريخ العراق المفصل،ص١٢.

(٢) عبدالله باشا: عبد الله باشا : ولد في عام ١٨٠٠م وهو ابن احد مماليك سليمان باشا حكم صيدا وعكا حافظ على كرسي حكمه حتى مجيء محمد علي باشا إلى بلاد الشام. انتهج سياسة انفصالية.انظر: ريجنكوف، م، سيميليانسكايا، أ: المصدر نفسه، ص٧٨.

(٣) عمر،عمرعبد العزيز: المرجع نفسه، ص٣١٦.

(٤) شعيب، علي عبد المنعم :المختصر في تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى الاحتلال البريطاني،ج ٣، دار ابن زيدون، ط١، ص٣٣٢.

(٥) نافارين: وقعت هذه المعركة في خليج نافارين في٢٠ تشرين الأول١٨٢٧ م على السواحل الغربية لبلاد اليونان، بين الأسطول المصري والعثماني بقيادة حسن بك وإبراهيم باشا، والأسطول الأوروبي المشترك من روسيا وفرنسا وبريطانيا، استمرت المعركة ست ساعات تم في نهايتها تدمير الأسطول العثماني المصري.انظر:اللحام، ماجد :المرجع نفسه، ص٣٣٠-٣٣١.

(٦) لبيب، حسين: المسألة الشرقية، مجلة الهلال، مطبعة الهلال بمصر، ط١، ١٩٢١م .ص٧٠.

(٧) مؤرخ مجهول: حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، نشر وتحقيق: أسد رستم، منشورات المكتبة البوليسية، د.ت،،ط،ص١٤.

ودعاء أهالي الشام إلى الوقوف مع السلطان ضد واليه المتمرد[١]. إلا أن جيش إبراهيم باشا فرض سيطرته بسرعة على سواحل بلاد الشام مثل غزة والرملة ويافا وحيفا وطرابلس[٢]. وحاصر عكا، ثم استولى عليها بعد أربعة أشهر وقليل، وأسر واليها عبدالله باشا، وأرسله إلى الإسكندرية[٣].

تقدم إبراهيم باشا بجيشه في بلاد الشام بسرعة فائقة، فاستولى على دمشق وحمص وحماة وحلب، وهزم حسين باشا قائد الجيوش العثمانية[٤] عند ممر بيلان[٥]. فجمع السلطان جيشاً آخر بقيادة رشيد باشا، لكن إبراهيم باشا انتصر عليه وأسره في ١٤ كانون الأول ١٨٣٢م[٦]. ومدّ محمد علي باشا نفوذه في كل بلاد الشام حتى وصل شرقاً إلى الرقة والرحبة[٧] ودير الزور التي وصلها القائد المصري قفطان، وعيّن حاكماً لها يُدعى معجون آغا، وربط الدير بسنجق حماه[٨].

استخدم محمد علي باشا استراتيجية هزمت كبار القادة العثمانيين بما في ذلك حسين باشا قائد الجيوش العثمانية في ثلاث معارك متتالية، وعَبَرَت قواته جبال طوروس، ودخل آسيا الصغرى[٩]. وعلمت الدول الأوروبية بما فيها بريطانيا بهذا الوضع، وتم

---

(١) سجل الأوامر السلطانية، دمشق، رقم ٤، وثيقة رقم ١٥١ ، صفحة ١٤٩ ،١١ جمادة الأولى ١٢٤٧هـ .

(٢) سجل الأوامر السلطانية، دمشق: رقم ٤، وثيقة رقم١٧٤، صفحة١٧١، ٢١ و٢٣ (ذا)١٢٤٧هـ .

(٣) الدمشقي، ميخائيل: تاريخ حوادث الشام ولبنان من سنة ١١٩٧ إلى سنة ١٢٥٧ هـ (١٧٨٢ـــ١٨٤١)م،عني بنشره وتعليق حواشيه ووضع فهارسه: الأب لويس معلوف اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، بيروت،ط١،١٩١٢م،ص٥٣.

(٤) طربين، أحمد: الوحدة العربية في تاريخ المشرق العربي المعاصر ١٨٠٠-١٩٥٨ م، ص١٠٢.

(٥) بيلان: تقع مدينة بيلان في الشعاب الوسطى لجبال طوروس، وتعد مفتاحاً للممر الجبلي الرئيس على الطريق الكبرى بين إنطاكيا والإسكندرون. منازل المدينة منتشرة وسط صخور عالية عامودية في واد عميق ينحدر من أعالي الجبال باتجاه البحر بمحاذاة طريق تشق الصخر، وتجعل من بيلان مدينة ذات موقع بالغ الأهمية من الناحية العسكرية.انظر: ريجنكوف، م، سيميليانسكايا، أ :المصدر نفسه، ص٣١٥-٣١٦ .

(٦) حسون، علي :المرجع نفسه، ص١٣٥ .

(٧) الرحبة: مدينة على الفرات بين الرقة وعانه، (رحبة مالك بن طوق التغلبي)ومالك بن طوق هو من قواد الرشيد وهو أول من عمرها،(حالياً تعرف بمدينة الميادين التي تقع شرق دير الزور وتبعدعنها ٤٠ كم وغرب مدينة البوكمال بحوالي ٨٠ كم). انظر: أبي الفداء: تقويم البلدان،ص٣٨٤.

(٨) الشاهين، مازن: المرجع نفسه، ص١٨.

(٩) WILLIAM, Miller: OTTOMAN EMil RI AND ITS SUCCESSORS 1801—1927THE OTTOMAN EMPIRE 1801-1913 FRANK CASS& CO LTD. 1966 ,p146.

نشر ذلك في الصحف[١]. وتباينت مواقف الدول الكبرى ومصالحها اتجاه سيطرة محمد محمد علي باشا على بلاد الشام، فوقفت كل دولة مع ما تمليه عليها مصالحها السياسية والاقتصادية، وأطماع الدول الأوروبية واضحة، وكل دولة منها تترقب الوقت المناسب لنيل حصتها على حساب الدول الأخرى[٢]. فجعلت من مسألة صراع السلطان مع واليه واليه محمد علي باشا مسألة رئيسة أسبغت عليها صفة الصـــراع العـــالمي وربطتهـــا مباشرة بأمن أوروبا والتوازن الأوروبي، متظاهرة بحرصها علـــى وحـــدة ممتلكـــات السلطان وحفظ سيادته الشرعية،بينما كانت تسعى في حقيقة الأمر تحت هـــذه المظلـــة للتسلل وتحقيق أطماعها في الدولة العثمانية عامة وولاياتها بمـــا فيهـــا بـــلاد الشـــام خاصة[٣]. وحرص محمد علي باشا على كسب تعاطف القناصل الأوروبيين في بـــلاد الشام، فأمر في وقت مبكر السلطات في المدن الفلسطينية بالسماح للحجاج المســـيحيين واليهود بزيارة القدس دون أن يدفعوا أي ضريبة أو رسم[٤].

٢- موقف بريطانيا من زحف قوّات محمد علي باشا إلى بلاد الشّام عام ١٨٣١م:

في الحقيقة، يصعب الإلمام بالموقف الذي سلكته السياسة البريطانيـــة إزاء محمـــد علي باشا وطموحاته في بلاد الشام، ومردّ ذلك ليس نقصاً في المصادر العائـــدة لتلـــك الفترة، وإنما سببه غموض المواقف البريطانية، إلا أنه لا يخفى على الباحـــث الفطـــن حقيقة هذه السياسة، وإن كانت متبدلة وفق الظروف والمراحل.

يرى بعض الباحثين أن حملة محمد علي باشا على بلاد الشام شكّلت نكسة للسياسة البريطانية في المشرق العربي نظراً للأضـــرار المرتقبـــة التـــي ســـتلحق بالمصـــالح

---

(١) الأرشيف العثماني، أرشيف اسطنبول (رئاسة الوزراء)، دوسية رقم ٧٨. وانظر أيضاً: الملاحق، الوثيقـــة رقـــم (١)، ص٢٥٧-٢٦١.

(٢) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقامين ١٨٦١ـــ ١٧٨٨م، (دراسة وثائقية في تاريخ جبل لبنان السياسي)، بيسان، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٨ م،ص١٠٥.

(٣) أبو فخر، فندي جدعان: بلاد الشام في ظل حكم محمد علـــي باشـــا ١٨٣١-١٨٤١ م (دراســـة فـــي التـــاريخ الإداري والاقتصادي والاجتماعي والسياسي)، رسالة ماجستير، بإشراف: ذوقان قرقوط، جامعة دمشق،ص١٦٩.

(٤) Tibawi. A. L,: A modern History of Syria: INCLUDING Lebanon and Palestine. London, 1969 , p72.

البريطانية في المنطقة وعلى طرق مواصلاتها إلى الهند، لذلك لا بد من محاصرته والحد من تحقيق أهدافه[١].

وهناك من عزا صمت بريطانيا في بداية الأزمة إلى حزب الأحرار المؤيد للإصلاح، الذي لم يترك يداً حرة في الشؤون الخارجية، لأنه كان مضيقاً عليهم بشدة[٢]. وكتب بعضهم ما يأتي: أما بريطانيا فكان موقفها من هذه الأزمة أقل تصلباً منه في الأزمات السابقة التي تعرضت لها الدولة العثمانية، ويرجعون سبب ذلك إلى أنها كانت تجاهد أزمة داخلية معقدة، وأنها كانت منهمكة بتعديل قانون الانتخاب ومواجهة الثورة الإيرلندية[٣]، والمسألة البلجيكية[٤].

وإن كان هناك الكثير من الباحثين يؤيدون ذلك، لأنهم كتبوا عن موقف السياسة البريطانية من مشروع محمد علي باشا في بلاد الشام بعد عام١٨٣٣م، أي بعد ظهور الخطر الروسي وتوقيع اتفاقية هنكار أسكلة سي[٥] (unkiar skeleassi)، وأسبغوا هذه على موقف بريطانيا بشكل عام دون أن يميزوا بأن موقف بريطانيا في بداية الأزمة أي حرب الشام الأولى وموقفها المتغير فيما بعد وفقاً للظروف. إلا أنه من خلال البحث وجد في بعض المصادر التي تؤكد أن بريطانيا لم تشغلها هذه الأمور عن مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية والعسكرية في مصر وبلاد الشام[٦]. بل إنها وقفت في بداية الأزمة موقف ترقب وانتظار[٧] الفرصة المناسبة لاختيار الجانب الأكثر قدرة على خدمة مصالحها، وحتى تحين تلك الفرصة كان عليها العمل على إبعاد السلطان عن الروس، لذلك تظاهرت بالحياد، ولم تختر جانب السلطان كما فعلت

---

(١) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري ١٨٣٢-١٨٤٠ م، الدار التقدمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م،ص١٧٢.

(٢) Williams. Henry smith: ibid ,p349 -350

(٣) إسماعيل، عادل وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٢، ص٩٠.

(٤) حجر، جمال محمود: المرجع نفسه ,ص٣٠.

(٥) هنكار أسكلة سي: قرية قرب الأستانة وقعت فيها هذه الاتفاقية في ٨ تموز ١٨٣٣ م. انظر: حسون، علي :المرجع نفسه، ص١٨٣.

(٦) إسماعيل، حكمت :ظهور الوعي القومي في بلاد الشام من أواخر القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى،(مجلة دراسات تاريخية، السنة الرابعة والعشرون، العددان ٨٣ و٨٤، أيلول-كانون أول، ٢٠٠٣ م) ص١٩٩-٢٠٠.

(٧) الخنساء، أحمد: تاريخ العلاقات الدولية (منذ الثورة الفرنسية ١٧٨٩ حتى الحرب العالمية الأولى)، د.م. ن، ط١، ١٩٨٦، ص١٥١.

روسيا والنمسا، ولم تجاهر بدعمها لمحمد علي باشا كما فعلت فرنسا[1]. وذلك لعدة أسباب، أهمها:

١- مازال محمد علي باشا صديقها، وهي تمده بالذخيرة والسلاح وضباط البحرية.

٢- مازال السلطان صديقها أيضاً، وهو صديق عاجز عن الوقوف في وجه مخططاتها المستقبلية بعيدة المدى[2].

٣- كان رئيس الوزراء اللورد تشارلز غراي[3] (Charles Grey) يعارض سياسة وزير خارجيته بالمرستون والقاضية بالتدخل في الشؤون العثمانية للحد من النفوذ الروسي[4]. على الرغم من أن بالمرستون رفض فكرة إرسال أسطول بريطاني إلى شواطئ بلاد الشام ، ورأى أن تدخله المباشر منفرداً سيثير المشكلات لبريطانيا مع فرنسا وروسيا[5].

٤- الخوف من حدوث خلاف بين بريطانيا وفرنسا، وأن كانت فرنسا تناصر محمد علي باشا، فبريطانيا لم تجاهر بمناصرتها له[6].

من جهته حرص محمد علي باشا على التعاون مع بريطانيا وعدم القيام بأي عمل يؤدي إلى الصدام معها، وما يؤيد ذلك كتابه إلى الخواجة بريكس (Prex) حيث أكد فيه محمد علي باشا أن غرضه بلاد الشام، وأنه فاوض الجهات المختصة بذلك ثم قال: «إنه سوف يفي بوعده، وإنه أرسل إلى الأستانة لهذه الغاية، وفي حال الرفض سوف

---

(١) أبو فخر، فندي جدعان: بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا(١٨٣١-١٨٤١ م)، ص١٧٢.

(٢) المرجع نفسه،ص١٧٢.

(٣) تشارلز غراي (١٧٦٤-١٨٤٥م): رئيس الوزراء البريطاني (١٨٣٠-١٨٣٤م) والرجل الإصلاحي في البرلمان. وتلقى تعليمه في جامعة كامبردج(Cambridge). في عام ١٧٨٦م أصبح عضواً في مجلس العموم. في عام ١٧٩٧م، في عام ١٨٠٦م أصبح غراي وزير الخارجية في الحكومة. لكن الحكومة خسرت السلطة بعد عام واحد، ومع ذلك، نجح في كانون الثاني ١٨٠٨م تولى مقعده في مجلس اللوردات، وكان بين عامي (١٨١٢-١٨٣٠ م) زعيماً للمعارضة. استدعاه الملك وليم الرابع (William IV) لتشكيل الحكومة عام ١٨٣٠م، في عام١٨٣٢م أجاز البرلمان مشروع قانون الإصلاح الأصلي،مما أدى إلى زيادة عدد الرجال الذين يحق لهم التصويت والقضاء على الممارسات الفاسدة في أثناء التصويت. تابع غراي أجندته الإصلاحية، والعمل على إلغاء الرق. تقاعد في عام ١٨٣٤م بعد خلافات حول إجبار الحكومة الكاثوليك الإيرلنديين لدفع الضرائب لدعم الكنيسة الأنكليكانية في إيرلندا.انظر: http://www.number-10.gov.uk/output/page154.asp.أنظر أيضاً: Microsoft ® Encarta ® 2009. © 1993-2008 Microsoft Corporation. All rights reserved.

(٤) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص١٥٢.

(٥) الدسوقي، محمد كمال: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر، مصر، القاهرة ، ط١، ١٩٧٦م، ص١٦٧.

(٦) الخنسا ء، أحمد: المرجع نفسه، ص١٥٢.

أستولي على المناطق المذكورة (بلاد الشام) فاعرض هذه المسألة على وزراء بريطانيا، وسلهم إن كانت توافق سياستهم أم لا»[١].

لم يكن هذا الاتصال بين محمد علي باشا وبريطانيا الأول من نوعه،لأن العلاقة بين بريطانيا ومحمد علي باشا علاقة قديمة، ترجع إلى بداية حكمه، حيث دخل في مفاوضات معها استمرت أربعة أشهر، أكد فيها على جديته ورغبته المخلصة في الارتباط بها.

وهذا ما يؤكده تقرير فريزر (Fraser) الذي تولى التفاوض معه، وقد تضمن التقرير الذي أرسله إلى الجنرال مور (Moore) في ١٦ تشرين الأول ١٨٠٧م أهم جوانب هذه المفاوضات، فقد جاء فيه: «أرجو أن تسمحوا لي أن أبسط لكم ليكون موضع نظركم فحوى محادثة جرت بين باشا مصر والميجر جنرال شريوك(Sharuck) والكابتن فيلوز (Feluz) في أثناء قيامهما بمهمتهما ــ ولدي ما يجعلني أعتقد أن هذه المحادثة، ومن اتصالات خاصة أخرى كانت لي معه، بأنه جاد وصادق فيما يقترحه، لقد أبدى محمد علي باشا والي مصر رغبة في أن يضع نفسه تحت الحماية البريطانية، ووعدناه بإبلاغ مقترحاته إلى الرؤساء في قيادة القوات البريطانية كي يقوم هؤلاء بإبلاغها إلى الحكومة البريطانية للنظر فيها. ويتعهد محمد علي باشا من جانبه بمنع الفرنسيين والعثمانيين أو أي جيش تابع لدولة أخرى من الدخول إلى الإسكندرية من طريق البحر، ويعد بالاحتفاظ بالإسكندرية كصديق وحليف لبريطانيا العظمى، لكنه لا مناص من الانتظار أن تعاونه بريطانيا بقواتها البحرية، إذا وقع هجوم عليه من جهة البحر، لأنه لا يملك سفناً حربية. ووافق محمد علي باشا في الوقت نفسه على تزويد كل السفن البريطانية بما قد تحتاج إليه»[٢].

لم يشأ البريطانيون الإعلان عن كل ما احتوته بنود هذه الاتفاقية في أعقاب توقيعها وإخلائهم الإسكندرية وتسليمها إلى باشا مصر، وذلك حفاظاً على مصالحها مع الدولة العثمانية[٣].

---

(١) رستم، أسد: المحفوظات الملكية المصرية، بيروت١٩٤٠-١٩٤٣ م، ج٢، ص٧.

(٢) الصلابي، علي محمد محمد: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط٣، ٢٠٠٨ م،ص٣٩٩.

(٣) المرجع نفسه، ص٤٠٠.

كان محمد علي باشا حريصاً على عدم تجاهل السياسة البريطانية في المنطقة، وإن لم ينفذها فهو لا يستطيع معارضتها أو الوقوف ضدها، لأنه يدرك أن هيمنة بريطانيا على المنطقة حقيقة قائمة، وأن أي صدام مع هذه الدولة سيؤدي حتماً إلى الفشل[١]. وكذلك لم يقدم على السيطرة على بلاد الشام إلّا بعد أن لمس موافقة بريطانيا، وما يؤكد ذلك رسائل محمد علي باشا الأولى إلى ابنه إبراهيم باشا(ينقل إليه شهادة قنصل بريطانيا بقوة الأسطول المصري وضعف الأسطول العثماني)[٢]. والثانية إلى الخواجة بريكس فحواها: «إذا لمس ميلاً وموافقة الحكومة البريطانية فإن ابنه إبراهيم باشا يحتل الأستانة في مدة وجيزة»[٣].

ويلاحظ خلال تقدم جيش إبراهيم باشا في بلاد الشام أنه تبادل الرسائل مع بريطانيا مبشراً إياها بخبر استيلائه على حلب ومقدار ما وقع في يده من أسلحة العدو وذخائره[٤]. وإن دلّ هذا على شيء فإنه يؤكد بدون شك تأييد بريطانيا لمحمد علي باشا في الاستيلاء على بلاد الشام.

كانت بريطانيا بدورها، وعن طريق ترجمان قنصلها في بيروت، تخبر محمد علي باشا بتحركات قوات الجيش العثماني، فتنقل إليه خبر إبحار الأسطول العثماني المؤلف من ٣٢ سفينة حربية و٦٨ نقالة من جزيرة قبرص إلى مياه الإسكندرية لحصار محمد علي باشا في مصر[٥].

وقد سعت السياسة البريطانية في تلك الفترة إلى تحقيق الأهداف التالية:

أولاً: تأمين طريقي الهند الرئيسين ـ عبر بلاد الشام ومصر ـ بعدم وقوع أي منهما تحت نفوذ دولة كبرى سواء فرنسا أو روسيا وعدم وقوعهما جميعاً تحت سيطرة دولة محلية واحدة يمكن أن تشكل خطراً على بريطانيا وطريقها في المستقبل.

---

(١) الغنام، سليمان بن محمد: قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية (١٨١١-١٨٤٠) م في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا، تهامة، الكتاب العربي السعودي،ط١، ١٩٨٠ م، ص١٠٠.

(٢) رستم، أسد :المحفوظات الملكية المصرية،ج٢، ص٢٠٥.

(٣) المصدر نفسه، ص١٩٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٦١.

(٥) المصدر نفسه، ص٧.

ثانياً: إغلاق المضايق أمام الأساطيل الروسية، ومنع روسيا من الوصول إلى البحر المتوسط[١].

ثالثاً: بقاء الدولة العثمانية ضعيفة، وأن لا تقوم دولة قوية على طريق بريطانيا إلى الهند، وأن لا يملك محمد علي باشا العراق والخليج العربي وبلاد الشام[٢].

تجدر الإشارة هنا إلى أن بريطانيا روجت لفكرة المملكة العربية، وشجعت محمد علي باشا على احتلال بلاد الشام، وهذا ما أكده جون بورنج المبعوث البريطاني إلى مصر، حيث قال: «إن استقلال محمد علي باشا وامتداد حدود دولته إلى شواطئ دجلة والفرات أمرٌ لا غنى عنه...... لاستتباب الأمن.... وانتشار التجارة البريطانية في بلاد الشرق»[٣]. وقد لاحظ هذا الأمر قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في مصر، وحدد بدقة أهداف السياسة البريطانية في المنطقة قائلاً: «ترغب بريطانيا في قيام حكومة قوية على ساحل البحر الأحمر وعلى نهري دجلة والفرات لتأمين التجارة والسيطرة على تلك القبائل الهمجية التي لا تخضع لقانون، والتي تقيم على طريق المواصلات بين البحر المتوسط والمحيط الهندي»[٤]. وهذا ما يفسر مقاصد بالمرستون من وصفه لقيام مملكة عربية تحت حكم محمد علي باشا بعبارة "المشروع جليل الشأن"[٥] لأنه يساعد على تحقيق المصالح البريطانية، وانتشار تجارتها، وتأمين طرق مواصلاتها من البحر المتوسط إلى الخليج العربي عبر بلاد الشام، لا لأنه يرمي لإقامة دولة عربية[٦]. وأن مشروع الدولة العربية بالنسبة لبريطانيا لا ضرر منه، لكن يقطّع أوصال الدولة العثمانية[٧]. وهذا ما لا تسمح به السياسة البريطانية التي تهدف إلى الحفاظ على سلامة الدولة العثمانية[٨].

---

(١) الغنام، سليمان بن محمد: المرجع نفسه، ص١٠٠.

(٢) البلخي،علي يوسف: الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لباد الشام (١٨٣١-١٨٤٠)م من خلال الوثائق العثمانية، (مجلة دراسات تاريخية، العددان التاسع عشر والعشرون، نيسان-تموز ١٩٨٥ م)، ص٢٠٦.

(٣) أبو فخر، فندي جدعان: سورية والصراعات الدولية (١٨٣١-١٨٤٠ م)محمد علي باشا والحسابات الخاطئة، السويداء، سورية، ط١، ٢٠٠٠ م، ص٣٩.

(٤) المرجع نفسه، ص٣٩.

(٥) f. rodkey: ibid , p38.

(٦) أبو فخر، فندي جدعان: سورية والصراعات الدولية(١٨٣١-١٨٤٠ م)، ص٣٩.

(٧) - f. rodkey: ibid , p38.

(٨) - Tibawi. A. L, A modern History of Syria , p 90.

يتبين من خلال تلك الأهداف للسياسة البريطانية في تلك المرحلة أنهـا لـم تكـن واضحة في مواقفها، فهي تراوغ، فلم تقف ضد محمد علي باشا، بل شـجعته وأيدتـه، وفي المقابل لم تكن مع الباب العالي، وكانت في مرحلة ترقب وانتظار، تهـدف إلـى إضعاف الطرفيين معاً.

هناك شهادات موثقة حول عدم اتخاذ بريطانيا أي إجراء إلـى جانـب السـلطان العثماني، وإعلانها للعلاقات الطيبة مع محمد علي باشا، وهو ما أكدته بحوث عديـدة، فعلى سبيل المثال كتب المؤرخ الأمريكي ف. س رودكي (f .s. rodkey): "إن بعـض البريطانيين كانوا على ثقة من أن الباشا (محمد علي) سوف يتحـد مـع البريطـانيين بهدف دعم مصالحهم في الهند، واتفق هؤلاء على أن على بلادهم أن تتحد معه"[١].

وعلى الرغم من أن الباب العالي كلف ريس أفندي بمقابلـة سـترافورد كـانج[٢] (Cannig)سفير بريطانيا لدى الأستانة فقابله في ١١ أب ١٨٣٢م، وأبلغه رغبة البـاب العالي في المساعدة ضد الوالي المتمرد[٣]، وأرسل الباب العالي أمراً إلى سفير الدولـة العثمانية في فيينا، للذهاب إلى لندن، فوصلها فـي تشـرين الثـاني ١٨٣٢م حـاملاً اقتراحات الدولة العثمانية للحكومة البريطانية بخصوص طلب المساعدة، وأن الدولـة العثمانية تتحمل نفقات تلك المساعدة كافة، وتمنح بريطانيا جميع الامتيازات التجاريـة التي تريدها مقابل وقوفها ضد محمد علي باشا[٤]. لكن بريطانيا ماطلـت وراوغـت، وتعذرت، ولم تعط الجواب الشافي، وأنها سوف ترد على طلب المساعدة خلال يوم أو يومين[٥]. وكرر الباب العالي محاولة طلب المساعدة من بريطانيا فوصل نـامق بـك السكرتير الخاص للسلطان محمود الثاني إلى لندن يطلب المساعدة، فردت بريطانيا أنها

---

[١] دولينا، نينل ألكسندروفنا: الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية، ترجمة: أنور محمد إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٩٩م،ص٦٥.

[٢] سترانفورد كاننغ ردكليف(cannig Rdcliffe): السفير البريطاني في الأستانة من عام ١٨٤٢م إلى عام ١٨٥٨ م باستثناء فترات قصيرة، وقد كان في هذه الفترة سفيراً لا ينازعه منازع في قوة نفوذه وسيطرته، وكان يعد من أبرز الدبلوماسيين الذين عملوا في السلك الخارجي البريطاني.انظر: زين، زين نور الدين: المرجع نفسه، ص١٩١.

[٣] الأرشيف العثماني،أرشيف اسطنبول (رئاسة الوزراء)، دوسية رقم ٧٨ .انظر: الملاحق،وثيقـة رقـم (١)، ص٢٥٧ – ٢٦١.

[٤] البلخي،علي يوسف: الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام، ص٢٠٦.

[٥] الأرشيف العثماني، أرشيف اسطنبول (رئاسة الوزراء) ،دوسية رقم ٧٨ .انظر: الملاحق، وثيقة رقـم (١)،ص٢٥٧ – ٢٦١.

لا تستطيع الاندفاع في عمل عسكري، وإنها تفضل الانتظار[١]. وقد حث السفير البريطاني في الأستانة الوزارة البريطانية لتستجيب لطلب السلطان، لكن دون جدوى[٢].

ناقش البرلمان البريطاني في لندن سؤالاً حول عدم قيام بريطانيا بتقديم المساعدات للباب العالي، فأجاب السيد تشارلز غراي الذي كان يترأس مجلس الوزراء البريطاني بقوله: "إن لبريطانيا علاقات تجارية واسعة مع محمد علي باشا، وإن قطع هذه العلاقات ليس في صالحها"[٣]. هناك رسالة من محمد علي باشا إلى ابنه إبراهيم باشا تؤكد على أن محمد علي باشا كان يعمل وفق السياسة البريطانية، حيث جاء فيها: "يفيد أن ما يشاع عن موقف روسيا قد لا يكون صحيحاً، وأنه عند التثبت من الصحة تتماشى مصر بموجب سياسة بريطانيا وفرنسا"[٤].

تجدر الإشارة هنا إلى أن مدينة دمشق لم يكن فيها أي قنصل بريطاني قبل سيطرة محمد علي باشا على بلاد الشام، ففي بداية حكمه في بلاد الشام أمر محمد علي باشا ابنه إبراهيم باشا بتعيين عدد من الأفراد لمرافقة المستر فارن (Pharn) قنصل بريطانيا في أثناء سفره من بيروت إلى دمشق لاتخاذها مقراً لأعماله، وبتكليف الضباط والحكام لمساعدته وأداء واجب التعظيم له[٥]. وإن دل هذا على شي فإنما يدل على توافق سياسة بريطانيا في المنطقة ومشروع محمد علي باشا في بلاد الشام، حيث كان محمد علي باشا يدرك أن الهيمنة البريطانية حقيقة قائمة، وأن أي مشروع على جانب من الأهمية يتعارض مع أهداف السياسة البريطانية سيمنى بالفشل المؤكد، وانطلاقاً من هذا التصور فقد التزم الباشا في سياسته التوسعية بخط واضح يقضي بالتوفيق بين طموحاته التوسعية ومتطلبات السياسة البريطانية في الهيمنة على المنطقة والتصدي لأي خطر محلي أو خارجي يهدد أو يعرقل هذه الهيمنة[٦].

---

(١) البلخي،علي يوسف: الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام، ص ٢٠٦.

(٢) Marriott ,J.A.R.: ibid ,p 233 . ــ

(٣) دولينا، نينل ألكسندروفنا: المرجع نفسه، ص٦٥ .

(٤) رستم، أسد: المحفوظات الملكية المصرية، ج ٢، ص ٢٩٨-٢٩٩ .

(٥) المصدر نفسه، ص٢٥٨.

(٦) الغنام، سليمان بن محمد: المرجع نفسه، ص١٢٣.

لم تتغير السياسة البريطانية قبل حملة محمد علي باشا على بلاد الشام ولا في أثنائها ولا بعدها، فهي تقضي بالمحافظة على سلامة الدولة العثمانية بشكلها المتداعي، وإغلاق المضايق بوجه الروس، وعدم السماح لقوة خارجية بالسيطرة على بلاد الشام ومصر، أو قوة محلية بالسيطرة عليهما معاً، وكذلك لا تسمح بقيام قوة حقيقية معبرة عن مصالح الشعب العربي في هذه المنطقة الحيوية. ويبدو أن محمد علي باشا لم يدرك هذه الحقيقة،أو أنه كان يدركها، لكن بشكل غير واضح، ويراهن على قدرته في إيجاد ظروف جديدة تجعله قادراً على التصدي لبريطانيا في الوقت المناسب، وكذلك لم يدرك أنه مهما بلغت قوته فهي لن تكون إلا برية فقط، وبالتالي لا يستطيع مقاومة النفوذ البريطاني المطلق في البحر المحيط به من كل جانب، كما أنه لا يستطيع إيجاد حليف قوي، ففرنسا الحليف المتوقع لا يمكنها الصدام مع بريطانيا[1].

عندما شعر محمد علي باشا أن البريطانيين يتعاملون معه بحذر شديد ويراقبون كل تحركاته ونشاطاته، وأن باستطاعتهم أن يفسدوا عليه كل مشاريعه وفي المجالات كافة رأى الباشا أنه لا يستطيع المتابعة في تحقيق مشروعه دون المشاركة الفعالة للفرنسيين في دعمه وتأمين انطلاقته لإنجاح مشروعه وخطته التحديثية[2].

إذا كان هذا هو موقف السياسة البريطانية في بداية الأزمة، فإنه قد تغير بعد ظهور الخطر الروسي وتوقيع اتفاقية هنكار أسكلة سي عام ١٨٣٣م، فقد أيدته بريطانيا من أجل تحقيق مصالحها الاستعمارية وانتشار تجارتها وتأمين طرق مواصلاتها، إلا أن محمد علي باشا طبّق نظامه الاحتكاري للتجارة الخارجية، وبرنامجه الخاص بالتصنيع، فكانت مشروعاته في الاستقلال الاقتصادي في تضارب مباشر مع المصالح البريطانية[3].

باختصار، سعت بريطانيا إلى جعل هذا الصراع مسألة رئيسة أسبغت عليها صفة الصراع العالمي، وربطتها مباشرة بأمن أوروبا والتوازن الأوروبي، وتظاهرت بحرصها على وحدة ممتلكات السلطان وحفظ سيادته الشرعية، بينما كانت تسعى في

---

(١) المرجع نفسه، ص١٠٢.

(٢) سمحات، قاسم: المرجع نفسه، ص٢٠٦.

(٣) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص١٥٣.

حقيقة الأمر تحت هذه المظلّه إلى التسلل وتحقيق أطماعها في الدولة العثمانية عامـــة، وفي ولاياتها بما فيها بلاد الشام خاصة، فكان لها ما أرادت، حيث ضـــربت الســـلطان العثماني بواليه القوي محمد علي باشا بهدف إضعافهما معاً، غير أن وقوع السلطان في أحضان روسيا أقلقها، فسعت إلى وقف القتال وتوقيع اتفاقية كوتاهية عام ١٨٣٣م.

٣- معاهدة كوتاهية عام ١٨٣٣م (Kutahya):

استفاقت الدول الأوروبية على خطورة الموقف، ورأت كل دولـــة أن التغييـــرات الناجمة عن حرب الشام الأولى لا تتناسب ومصالحها السياسية، وباتت سياسة الحفـــاظ على شكل ما من التوازن الدولي المتعبة من قبل المسؤولين البريطانيين منـــذ مـــؤتمر فيينا[١] عام ١٨١٥م عرضة للزوال. وكانت أطماع الدول الأوروبية في أراضي الدولة العثمانية واضحة، وكل دولة تترقب الوقت المناسب لنيل حصتها على حســـاب الـــدول الأخرى. بريطانيا أخذت تراقب تقدم جيش محمد علي باشا في بلاد الأناضـــول ومـــا تجره سيطرته على الأستانة من قيام نظام قوي بديل للدولة العثمانية الضعيفة، يســـيطر على المشرق العربي ويهدد طرق المواصلات البريطانية نحو الهند[٢].

إذاً كانت السياسة البريطانية في حالة ترقب وانتظار، والتزمت الحياد لأنهـــا رأت أن سيطرة محمد علي باشا على بلاد الشام أقرب للمصالح البريطانية[٣]. لكـــن فقـــدان الدولة العثمانية معظم قواتها العسكرية وتهديد عاصمتها من قبل محمـــد علـــي باشـــا، وخشية وقوعها بيد شخص قوي[٤]. ووصول البعثـــة الروســـية برئاســـة مورافيـــوف (Mowraphiph)[٥] إلى الأستانة في اللحظة التي وصلت فيها أنباء الكارثة التي حلـــت

---

(١) مؤتمر فيينا: اجتماع عقد مابين اواخر عام ١٨١٤م وأوائل عام ١٨١٥م، لتسوية النزاعات بسبب الحرب بين فرنسا وبقية دول أوروبا التي استمرت خمسة وعشرين عاماً تقريباً، قرر المؤتمر كيفية حكم أوروبا إثر الهزيمة الوشيكة لنابليون بونابرت، وضع ممثلو الحلف الرباعي المنتصر (النمسا، بريطانيا، بروسيا، روسيا) وممثلو فرنسا المقررات الرئيسة للمؤتمر. وقد أعاد المؤتمر إلى السلطة العديد من ملوك وأمراء أوروبا الذين أزاحهم نابليون من الحكم، وقد أجاز المؤتمر استيلاء دول الحلف على العديد من الدول المغلوبة. حاول المؤتمر الحد من قوة فرنسا، انتقد المؤرخون مؤتمر فيينا بشدة بسبب تجاهله الشعور القومي والديمقراطي القوي لمعظم شعوب أوروبا، وأثنى بعض مؤرخي القرن العشرين على مؤتمر فيينا لإيجاده توازناً قوياً في أوروبا وعدم معاملته فرنسا المنهزمة بقسوة .انظر: الموسوعة العربية العالمية، ج١٧، ص٧١٠-٧١١.

(٢) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين، ص١٠٥.

(٣) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص٩٣.

(٤) حسون،علي: المرجع نفسه، ص١٤٢.

(٥) مورافيوف: نيقولاي نيقولايفتش مورافيوف (١٧٩٤- ١٨٦٦) م، شخصية دبلوماسية وعسكرية. ذهب في عام ١٨١٩ م إلى بخارى لدراسة الطرق، ساهم في الحرب الروسية-الفارسية (١٨٢٦- ١٨٢٨م)، وفي الحرب الروسيةـ العثمانية (١٨٢٨- ١٨٢٩م) وقاد

بالجيش العثماني عند قونية على يد قوات إبراهيم باشا في ٢١ كانون الثـاني ١٨٣٣م وقبول السلطان العثماني العون الروسي[١]. جعل الساسة البريطانيين يتبعـون سياسـة التخلي عن الحياد والعمل على اتخاذ الإجراءات المناسبة بالشكل الذي يخدم مصالحهم في بلاد الشام.

احتجت بريطانيا بعد دخول القوات الروسية في ٢٠ شباط ١٨٣٣م وظهور السـفن الحربية الروسية في المياه على الجانب الآسيوي قرب العاصمة العثمانية[٢] وأمام هـذا التدخل الروسي بعد انهيار الدفاع العثماني وتقدم جيش إبراهيم باشـا إلـى كوتاهيـة، نُزعت الصفة المحلية لهذه الأزمة، وأمست قضية دولية لابد مـن معالجتهـا كـي لا تتفاقم[٣]. فأقدمت بريطانيا على مساعدة الدولة العثمانية خوفاً من زيادة النفوذ الروسي في شؤون الباب العالي[٤].

واتفقت كلمة الدول الأوروبية، وطالبت بصوت واحد بالمحافظة على سلامة الدولة العثمانية[٥]، حيث اتصل الوزير البريطاني بالمرستون مع السفير الفرنسي وأخبره عن الوضع، وتم التباحث في أمر طلب الدولة العثمانية المساعدة من بريطانيـا وفرنسـا، فقررتا التدخل والوقوف في وجه إبراهيم باشا وإيقافه ومساعدة السلطان العثماني، ثـم اجتمع السفير البريطاني بسفراء بقية الدول، وطلب مـنهم تقـديم المسـاعدة الماديـة والمعنوية والعسكرية للدولة العثمانية وتم الاتفاق على ذلك[٦].

عين الوزير البريطاني في كانون الثاني١٨٣٣م الكولونيـل كامبـل (Campbell) قنصلاً عاماً ومعتمداً أساسيا لدى حكومة محمد علي باشا، وطلب منه بالمرسـتون أن يؤكد لمحمد علي باشا أن الحكومة البريطانية لا ترضى عن تجزئة الدولة العثمانية[٧]،

في عام ١٨٣٣ م القوات الروسية التي أُرسلت لمساعدة السلطان العثماني ضد محمد علي باشا. انظر: بازيلي، قسطنطين: المصدر نفسه، ص١٣٣.

(١) الدسوقي، محمد كمال: المرجع نفسه، ص١٦٩.

(٢) Tibawi. A. L, A modern History of Syria,p69.

(٣) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص٩٣.

(٤) الأرشيف العثماني، أرشيف اسطنبول (رئاسة الوزراء)، دوسية رقم ٧٨.انظر الملاحق ،وثيقة رقم(١)،ص٢٥٧-٢٦١.

(٥) أنطونيوس، جورج: يقظة العرب (تاريخ حركة العرب القومية)، ترجمة: ناصر الدين الأسد، وإحسان عباس، دار العلـم للملايين، بيروت، بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت-نيويورك، ط١، ١٩٦٢م،ص٨٥.

(٦) الأرشيف العثماني، أرشيف اسطنبول (رئاسة الوزراء)، دوسية رقم ٧٨.انظر الملاحق ،وثيقة رقم(١)،ص٢٥٧ -٢٦١.

(٧) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص٩٣.

حتى أصبح محمد علي باشا لشدة الضغط البريطاني على وشك سحب مطالبه فيما يتعلق بمنطقة أضنه[١]. وسعت بريطانيا لدى محمد علي باشا لإبرام الصلح مع الباب العالي وكي لا يترك مجالاً لتدخل روسيا، لأن المصلحة البريطانية تقضي بتقوية الدولة العثمانية وتحريرها من نفوذ روسيا[٢].

دفع خوف بريطانيا مما ستنفرد به الدول الأخرى من المكاسب والغنائم وخشيتها خاصة من التدخل الروسي إلى السعي جاهدة لإبرام الصلح وإيقاف النزاع بالضغط على الباب العالي من جهة، وعلى محمد علي باشا من جهة ثانية[٣]. وظهر ميل محمد علي باشا إلى المفاوضات وعدوله عن دخول جيشه إلى الأستانة بعد أن أخذت السياسة البريطانية تميل علانيةً إلى جانب السلطان ضده[٤]، فأشار البريطانيون على إبراهيم باشا، عندما كان على مقربة من عاصمة الدولة العثمانية بالوقوف وعدم التقدم حتى تأتيه أوامر والده من مصر، وأوقفته على مضمون المفاوضات الجارية بين والده والدولة العثمانية[٥].

إذاً أجبر التدخل الروسي بريطانيا وفرنسا على السعي إلى مصالحة محمد علي باشا مع السلطان الذي رضخ لمطالب محمد علي باشا، وأرسل مندوباً عنه إلى كوتاهية برفقة سكرتير السفارة الفرنسية، واستمرت المفاوضات أربعة أيام، تم التوصل خلالها إلى إبرام الصلح وعقد معاهدة حملت اسم المكان الذي عقدت فيه[٦] ففي الخامس من أيار ١٨٣٣م أصدر السلطان العثماني فرماناً بتعيين محمد علي باشا حاكماً على سوريا وكليكيا[٧]، وفي الرابع عشر من أيار تم الاتفاق في كوتاهية على وقف العمليات العسكرية[٨]. وتقضي معاهدة كوتاهية بما يأتي:

(١) f. rodkey: ibid , p 38.

(٢) رستم، أسد: المحفوظات الملكية المصرية،ج٢، ص٣٦٦.

(٣) حسين،أحمد: موسوعة تاريخ مصر، الشعب، القاهرة، مصر، ج٣. د.ت،ط، ص٩٥٩.

(٤) أبو فخر، فندي جدعان بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا١٨٣١-١٨٤١م، ص١٨٦.

(٥) زكار، سهيل: بلاد الشام في القرن التاسع عشر (روايات تاريخية معاصرة لحوادث عام ١٨٦٠م ومقدماتها في سورية ولبنان)، دار حسان، دمشق، سوريا، ط١، ١٩٨٢ م (١٤٠٢ هـ)، ص١٦٢.

(٦) مؤرخ مجهول: مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية (دراسات وثائق دمشق الشام)، تحقيق: أحمد غسان سبانو، دار قتيبة دمشق، د.ت،ط،ص١٦.

(٧) دولينا، نينل ألكسندروفنا: المرجع نفسه، ص٣٣.

(٨) بازيلي، قسطنطين:المصدر نفسه، ص١٣٧.

١- منح محمد علي باشا حكم بلاد الشام (طرابلس الشام، متصرفية القدس ونابلس، وولاية دمشق وحلب) إضافة لمصر وكريت.
٢- إعطاء ولاية أضنه لابنه إبراهيم باشا[١]. وكان ذلك كله مقابل انسحابه من آسيا الصغرى[٢].

٤- موقف بريطانيا من معاهدة كوتاهية عام ١٨٣٣م:

لم يختلف الجوهر الحقيقي لموقف كل دولة من الدول الأوروبية على حده من معاهدة كوتاهية ومن أطراف النزاع كثيراً بعضه عن بعض، إلا من حيث ما يعكسه من نتائج سلبية على مصالح هذه الدولة أو تلك، ومن حيث قدرة كل دولة على الاستفادة منه وتوظيفه أكثر من الأخرى لخدمة مصالحها، فسعت كل دولة إلى التشكيك بمواقف الدول الأخرى من جهة، ولشد السلطان نحوها من جهة أخرى[٣].

وقد وقفت بريطانيا من هذا الاتفاق موقفاً ينم عن عدم الثقة، فطلب بالمرستون من سفيره في الأستانة أن يبين للسلطان الأخطار المحدقة بالدولة العثمانية نتيجة تحالفها مع روسيا، وأن روسيا لا تهدف من وراء هذا التحالف سوى وضع الدولة العثمانية تحت حمايتها، ثم القضاء عليها والسيطرة على أملاكها[٤]. وكانت السياسة البريطانية تهدف إلى تحقيق ما يأتي:

أولاً: بقاء الدولة العثمانية ضعيفة، وتأمين طريقي الهند الرئيسين ــ عبر بلاد الشام ومصر ــ وذلك بعدم وقوع أي منهما تحت نفوذ دولة كبرى ومنع قيام دولة قوية على طريقها إلى الهند[٥].

ثانياً: إغلاق المضايق أمام الأساطيل الروسية، ومنع روسيا من الوصول إلى البحر المتوسط، والتصدي لازدياد النفوذ الروسي في شؤون الدولة العثمانية، والحد من مخاطره على المصالح الاستراتيجية البريطانية.

---

(١) رستم، أسد :المحفوظات الملكية المصرية، ج٢، ص٣١٢.
(٢) Tibawi. A. L: A modern History of Syria,p69.
(٣) إسماعيل، عادل وخوري،أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٢، ص١١٩.
(٤) المرجع نفسه، ص١١٩.
(٥) البلخي،علي يوسف: ثورات حوران على حكم إبراهيم باشا (١٨٣١-١٨٤٠) م، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ١٩٨٤- ١٩٨٥ م، بإشرف عبد الكريم رافق،ص٤١.

ثالثاً: المحافظة على سلامة الدولة العثمانية، وعدم تجزئتها[١]، وهذا ما تؤكده رسالة بالمرستون إلى الوزير البريطاني في نابولي حيث جاء فيها: "إن هدف محمد علي باشا الحقيقي هو إقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التي يتحدث أهلها باللغة العربية، وقد يكون هذا الأمر في ذاته لا ضرر منه، لكنه يرمي إلى تقطيع أوصال الدولة العثمانية، وهو ما لا ترضى عنه أبداً"[٢].

غير أن معاهدة كوتاهية ١٨٣٣م تختلف عن سائر المعاهدات فهي نص شفوي لم يكتب ولم يوقع عليه الطرفان المتعاقدان، وجلّ ما هنالك من الوثائق هو فرمان سلطاني بتعيين إبراهيم باشا محصلاً على أضنه، ومحمد علي باشا والياً على مصر وولايات بلاد الشام وكريت[٣].

ولهذا فإن هذه المعاهدة لم تعط محمد علي باشا أي اعتراف من قبل الدول الأوروبية وخاصة بريطانيا،فقد تجنبت بدهائها السياسي أن تلزم نفسها بشكل مباشر أو غير مباشر بالاعتراف بتلك المعاهدة، وحينما حان الوقت المناسب لتصفية الحساب مع محمد علي باشا تنكر بالمرستون لذلك، حيث قال: "من حقنا أن نقول إننا لم نكن شهوداً على معاهدة كوتاهية، ولا من ضامني تنفيذها، وإننا لم نقم في أي وقت بأي عمل يفهم منه أننا عدلنا من الاعتراف بأن الغالب ما زال من رعايا المغلوب، أو أن المغلوب فقد سيادته على الغالب، و كل ما فعلناه أننا قبلنا الأمر الواقع"[٤].

اتخذت السياسة البريطانية الثابتة في جوهرها شكلاً جديداً بعد معاهدة كوتاهية، فانتقلت بعد التدخل الروسي من تأييدها لمحمد علي باشا، أوعلى الأقل صمتها عن سيطرته على بلاد الشام إلى الضغط عليه لوقف القتال وقبول الصلح،ثم إلى مناهضة مشروع محمد علي باشا والإصرار على انسحابه من بلاد الشام.

لم يهدف واضعو معاهدة كوتاهية، إلا إلى تجميد الأزمة التي نشأت عن الصراع بين السلطان العثماني وواليه محمد علي باشا، ولم تكن معاهدة كوتاهية صلحاً بالمعنى الحقيقي،أو اتفاقاً نهائياً وإنما مجرد هدنة مؤقتة، لكنها كانت تمثل مرحلة جديدة وحاسمة

(١) رستم، أسد: المحفوظات الملكية المصرية،ج٢، ص٣٨٠ .

(٢) نعيسة، يوسف جميل: محاضرات في التاريخ العربي المعاصر، جامعة دمشق، ط١، ١٩٩٧ م، ص٢٩-٣٠.

(٣) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص٩٣.

(٤) الغنام، سليمان بن محمد: المرجع نفسه، ص١٠٣.

في تاريخ العلاقات بين الدولة العثمانية، والدول الأوروبية، لا سيما بريطانيا وروسيا التي استغلت هذه المسألة لتدعيم سياستها في المنطقة، فحصدت معاهدة هنكار أسكلة سي الشهيرة، التي أقضت مضجع بريطانيا، وجعلتها تعمل بكل ما لديها من أجل إفشال نتائجها الفعلية.

واستطاعت بريطانيا أن تضغط على محمد علي باشا للقبول بمعاهدة كوتاهية للحد من التدخل الروسي، فمعاهدة كوتاهية كانت أول سد منيع وضعته بريطانيا في وجه معاهدة هنكار أسكلة سي قبل أن يتم توقيعها، ثم عملت على إفشال نتائجها الفعلية، فكانت المعاهدة الروسية العثمانية، حبراً على ورق قبل أن تقضي عليها السياسة البريطانية نهائياً باتفاقية المضايق عام١٨٤١م.

٥- اتفاقية هنكار أسكلة سي عام ١٨٣٣م (unkiar skeleassi 1833) وموقف بريطانيا منها:

وصل إلى العاصمة العثمانية يوم ٥ أيار ١٨٣٣م مبعوث روسي خاص هو ألكسي أرلوف (Alexass Aurlowph) لإقناع السلطان محمود الثاني[١] بأهمية الصداقة الروسية ـ العثمانية[٢]، وذلك نتيجة لغضب السلطان عندما رأى أن الدول خذلته ولم تساعده ضد محمد علي باشا[٣]. وأن روسيا هي الدولة الوحيدة التي قدمت له العون العسكري في الوقت الذي تخلت عنه بقية الدول الأوروبية وفي مقدمتها فرنسا

---

(١) محمود الثاني (١٧٨٥-١٨٣٩م) سلطان عثماني (١٨٠٨ـ ١٨٣٩م) قضى على الإنكشارية ١٨٢٦م، وبنى كثيراً من المدارس الجديدة. وفي عهده شُيّدت العمارات الحديثة، كما جُددت جميع مساجد الأستانة بناءعلى أوامره. كما شُيّد جسر أونقاباني (جسر أتاتورك اليوم) على القرن. وأنشئت في عهده أيضاً المدرسة الشرعية الإسلامية في مكة المكرمة، وجدّد بناء المسجد الأقصى .وأصدر نقوداً جديدة، ونظم البريد ووضع أسس الحجر الصحي . واستطاع إخماد ثورات الصرب المتكررة وتأديبهم وغيرها. وتصدى للحركة الوهابية التي ظهرت في نجد بالجزيرة العربية والتي أشغلت الدولة عن القضايا الخارجية المهمة، .فتم تكليف والي مصر محمد علي باشا بإخمادها، وقد تمكن ابنه إبراهيم باشا بعد حروب طويلة من التغلب عليهم ومن أسر قائدهم عبد الله سعود، وإرساله إلى الأستانة حيث قتل سنة ١٨١٨م .كما تم تكليف محمد علي باشا بالمشاركة مع العثمانيين بالقضاء على تمرد اليونان الذين حرّضهم الروس وغيرهم من الأوربيين، وأوجد الطربوش بدل العمامة الذي أصبح لباس الرأس لدى المسلمين في جميع البلاد الإسلامية في إفريقيا وآسيا وكل مكان، وكان لونه أحمر حسب لون العلم العثماني رمز التضحية. كما طوّر المدارس العسكرية، توفي في عام١٨٣٩م قبل أن يصل إليه خبر هزيمة جيشه في نزيب.انظر : www.marefa.org/index.php/محمود_الثاني

(٢) الدسوقي، محمد كمال: المرجع نفسه، ص١٧١.

(٣) جورج حداد: تاريخ أوروبا والمسألة الشرقية، ص٢٠٨.

وبريطانيا[١]. وتعاظم بعد ذلك نفوذ روسيا في الأستانة، وأمكنها أن تفرض اتفاقية على العثمانيين[٢] دعيت اتفاقية هنكار أسكلة سي[٣] التي تضمنت المواد الست الأولى منها تأكيد العلاقة الطيبة بين الطرفين على أن يقدم القيصر الروسي المساعدة للسلطان العثماني وقت الحاجة، وأن يؤدي السلطان مساعدة مماثلة للقيصر[٤]، لكن الخطورة في هذه الاتفاقية تكمن في مادة سرية مضمونها تلزم السلطان العثماني أن يغلق مضيق الدردنيل في وجه السفن الحربية باستثناء روسيا[٥] كما أن هذه الاتفاقية تسمح لروسيا بالتدخل العسكري في الدولة العثمانية، وجعلت الباب العالي قيد غايات روسيا[٦].

وقد حصل الكونت ألكسي آرلوف على لقب بطل هنكار أسكلة سي لما لها من أهمية، ووفق الاتفاقية المذكورة تعهدت روسيا بتقديم العون للدولة العثمانية حين طلبها[٧]. وكان النص الرسمي لهذه الاتفاقية قد كتب باللغة الفرنسية، وحاول كل فريق بعد ذلك في ترجمته لمواد الاتفاقية أن يفسرها وفق مصلحته، وقد تقرر أن تكون مدة التحالف الدفاعي ثمانية أعوام[٨].

لقد أخذت اتفاقية هنكار أسكلة سي على حين غرة، لأن وزارة الخارجية البريطانية لم تحصل على النص الدقيق للاتفاقية إلا بعد الإعلان عن التوقيع عليها ببضعة أشهر[٩].

وقد عززت هذه الاتفاقية عام ١٨٣٣م مواقع روسيا ومكنتها من التدخل في شؤون الدولة العثمانية بصورة خطيرة على حساب السياسة البريطانية، لذلك وصفها البريطانيون بأنها كانت مصيبة قومية، وقد اضطر عالم التاريخ البريطاني الدكتور

---

(١) الدسوقي، محمد كمال: المرجع نفسه، ص١٧١.

(٢) جورج خوري: المرجع نفسه، ص٩٤.

(٣) برجاوي، سعيد أحمد :المرجع نفسه، ص٢٢٤.

(٤) حجر، جمال محمود: المرجع نفسه، ص٣٤.

(٥) WILLIAM, Miller: ibid, p146.

(٦) حقي، إسماعيل: لبنان مباحث علمية واجتماعية، دار لحد خاطر، ،بيروت، ط٣ ،١٩٩٣ م، ج١،ص٣٢٩.

(٧) ريجنكوف، م، سيميليانسكايا، أ: المصدر نفسه، ص٢٤٨.

(٨) الشناوي، عبد العزيز محمد: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الأنجلو مصرية، القاهرة، د.ت.ط، ص٢٢٠.

(٩) WILLIAM, Miller : ibid, p 146.

ماريوت وزبيكر (Maryot wizbeker) إلى الاعتراف بفشل سياسة بالمرستون في فترة النزاع بين السلطان وواليه محمد علي باشا بين عامي (١٨٣١– ١٨٣٣)م[١].

وشكلت الاتفاقية المذكورة صدمة قاسية على دول الغرب عامة وبريطانيا خاصة، لأنها أعطت روسيا حقاً في دخول المضائق دون غيرها[٢]. وكذلك لاحظ المؤرخ هارن تمبرلي أن اتفاقية هنكار أسكلة سي "نقطة تحول فعلية في موقف الساسة البريطانيين من روسيا، وولدت لدى بالمرستون عداء مميتاً لروسيا"، ونظراً لأن هذه الاتفاقية رافقت ازدياد العلاقات التجارية بين بريطانيا والدولة العثمانية فقد أثارت قلق قطاع كبير من الشعب البريطاني[٣]. حيث خشي البريطانيون من سيطرة روسيا على الشرق الأدنى والمضائق ذات الأهمية الاستراتيجية بالنسبة للطريق إلى الهند[٤].فبذلت بريطانيا جهوداً كبيرة لفصل الدولة العثمانية عن روسيا وتمزيق هذه الاتفاقية، وصار الوزير البريطاني بالمرستون يقوم بالمناورات السياسية لمنع روسيا من الاستفادة من اتفاقها مع الدولة العثمانية[٥]. كما قام سكرتير السفارة البريطانية في الأستانة ديفيد وارك هارت (David. Warck .Heat) الواسع النفوذ بإشاعة مخاطر السيطرة الروسية على الدولة العثمانية ومواردها[٦] وقد عبّرت بريطانيا عن قلقها حيال هذه الاتفاقية وازدياد الخطر الروسي من خلال إرسال بعض البريطانيين إلى المنطقة بصفة رحالة ومستكشفين لدراسة نتائج المعاهدة والتقارب العثماني ــ الروسي على مصالح بريطانيا الاستراتيجية في المنطقة، فأكد هؤلاء في كتاباتهم وتقاريرهم على خطورة التهديد الروسي للمصالح البريطانية[٧].

---

(١) بانتيشينكوفا، مارينا: سياسة فرنسا في الشرق الأدنى والبعثة السورية (تاريخ سورية ولبنان في عام واحد ١٨٦٠–١٨٦١، ترجمة: زياد ملا أطلس للنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٦، ص٦٦.

(٢) - Williams. Henry smith: ibid,p349-350

(٣) خوري، جورج: المرجع نفسه. ص٩٤.

(٤) المرجع نفسه،ص٩٥.

(٥) حداد، جورج: تاريخ أوروبا والمسألة الشرقيةفي الأزمنة الحديثة، وزارة المعارف،دمشق ،سوريا،ط٢ ،١٩٤١ م ، ص٢٠٨.

(٦) خوري، جورج: المرجع نفسه، ص٩٥.

(٧) محمد، صالح خضر: المرجع نفسه،٢٥.

ومن خلال قراءة دقيقة لبنود الاتفاقية تبرز خيوطهـــا الكثيفـــة المنســـوجة حـــول السلطان على شكل طوق محكم، حيث أخضعت الاتفاقية كـــل المـــوانئ والأراضـــي العثمانية لهيمنة روسيا تحت حجة منع أي خطر أوروبي أو مـــن قبـــل محمـــد علـــي باشا(١). كما مكنت الاتفاقية روسيا من وضع الدولة العثمانية تحت حمايتها(٢).

وبعدما تسرب مضمون الاتفاقية السري إلى الدول الأوروبية بادرت إلى مهاجمتها، وكانت بريطانيا أكثر الدول غضباً، حيث هاجم وزير خارجيتها بالمرســـتون الاتفاقيـــة ورأى أنها بهذه الصورة تجعل من روسيا المتحكم الفعلي فـــي المضـــــائق(٣). وزادة شـــكه في سياسة روسيا، وكان سفيره في الأستانة بونسبي أكثر شكاً منه فـــي سياســـة روسيا. وأيد الرأي العام البريطاني سياسة هذين الرجلين إلى حد كبير(٤)، لإبطال اتفاقية اتفاقية هنكار أسكلة سي ومحوها، ثم غدت شؤون بلاد الشام شغلهم الشاغل(٥).

وتجلت السياسة البريطانية منذ عام ١٨٣٣ م في وحدتها بالرؤية والعمل في لندن وفي الأستانة وكان الممثلون عن بريطانيا العظمى يتعاونون بتناغم وبـــذكاء كـــالرأس وبقية الأعضاء بجسد واحد لمواجهة الخطر الروسي(٦). وبعد توقيع اتفاقية هنكار أسكلة أسكلة سي،احتج بالمرستون واعترض على هذه الاتفاقية، حيث كـــان الـــدافع الأكبـــر لبالمرستون في الأزمة التي نشأت عن تمرد محمد علي باشا على السلطان العثماني هو مصالح بريطانيا في الشرق، وفكرة التوازن الغربي في الغرب، ولم يكن غـــافلاً عـــن تصريحات روسيا، فهو يعتقد أنها تسعى إلى التوسع نحو الجنوب، ويرى أنهـــا تحيـــك الدسائس في تركستان وبلاد فارس، ويخشى أن يمتد نشاطها إلى الهنـــد، ولـــذا فهـــو حريص على منع الاتصال المباشر بين روسيا ومحمد علي باشا(٧).

---

(١) أبو فخر، فندي جدعان :بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا ١٨٣١-١٨٤١ م، ص١٩٤.

(٢) Anderson.M.S:The east ern question (1774 – 1923)New York –Macmillan 1966 , p90.

(٣) الدسوقي، محمد كمال: المرجع نفسه، ص١٧٢.

(٤) صفوت، محمد مصطفى: المسألة الشرقية ومؤتمر باريس، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربيـــة، ط١، ١٩٥٨م، ص١٩.

(٥) حقي، إسماعيل: المرجع نفسه، ص٣٢٩.

(٦) - M. SABRY : L’EMPIRE GYPTIEN SOUS MOHAMED –ALILa QUESTION d’ORIENT, p477

(٧) صفوت، محمد مصطفى: المسألة الشرقية ومؤتمر باريس ، ص١٧-١٨.

وأدركت بريطانيا أن وقوع أي صدام بين الدولة العثمانية ومحمد علي باشا سوف يؤدي بطبيعة الحال وبموجب اتفاقية هنكار أسكلة سي إلى عودة روسيا إلى مياه الأستانة لذلك سعت بريطانيا إلى تفادي وقوع مثل هذا الصدام بالحد من مطامع محمد علي باشا[١] وبدأ الساسة البريطانيون يظهرون العداء لمحمد علي باشا، وإن كان قبل هذه الاتفاقية إن لم يكن هناك دعم صريح وواضح، فلم يكن أيضاً عداء أو أي اعتراض لكن هذه الاتفاقية غيّرت المعادلة، فقد صرح بالمرستون بأن محمد علي باشا لم يكن سوى (رجل بربري وجاهل) وأن ما حقّقه محمد علي باشا في مصر من نهضة حديثة تتعارض مع مصالح بريطانيا في مصر وبلاد الشام بصفة عامة التي كانت تمثل في تلك الفترة الشريان الحيوي الموصل إلى الهند والشرق الأقصى[٢].

إذاً رأى البريطانيون أن محمد علي باشا الذي هدد الوضع القائم في بلاد الشام، وجعل الدولة العثمانية ترتمي في أحضان روسيا، يجب إيقافه وإعادته من حيث أتى، ولهذا حذرته من متابعة القتال ضد السلطان وزعزعة الوضع السياسي كما هددوه بمحاصرة الإسكندرية إذا لم ينسحب من الأناضول[٣]. وأصبح بالمرستون أكثر حماسة وحيوية مما كان عليه في بداية الأزمة، وأعلن موقفه بصراحة، وقرر أنه سيكون حامي حمى السلطان لاقتناعه بأنّ صراع محمد علي باشا مع السلطان هو الذي أتاح الفرصة الذهبية للتدخل الروسي في شؤون الدولة العثمانية[٤]. ولم يكن العداء البريطاني البريطاني لمحمد علي باشا نتيجة التدخل الروسي، بل هناك عوامل أخرى[٥]. وكان للعامل الاقتصادي التجاري أهمية في تحديد الموقف، حيث كان لبريطانيا تجارة رابحة لا ينافساها عليها منافس في أراضي الدولة العثمانية عامة والولايات العربية بما فيها بلاد الشام خاصة، وخشيت بريطانيا انعطاف الفرنسيين نحو محمد علي باشا من أجل توجيه ضربة فرنسية قاصمة للتجارة البريطانية في المشرق العربي، لا سيما بعد أن

---

(١) صليبي، كمال: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار بيروت، ط ١٩٨١،٥ص٦٥.

(٢) الدسوقي، محمد كمال: المرجع نفسه، ص١٧٤.

(٣) خوري، جورج: المرجع نفسه ،ص٩٥.

(٤) حجر، جمال محمود: المرجع نفسه،ص٣٥.

(٥) خوري، جورج :المرجع نفسه، ص٩٥.

شرع محمد علي باشا بالاستغناء عن البضـائع البريطانيـة[١]. وأقـام نظامـاً مـن الاحتكارات، كما أنه فرض ضرائب جمركية ثقيلة على التجارة الأجنبية، وهذا مخالف لسياسة بريطانيا الاستعمارية في تضييق التجارة الحـرة التـي التـزم بهـا الساسـة البريطانيون طوال القرن التاسع عشر[٢]. وقد بدأ التجار البريطانيون يتـذمرون مـن دفع الضرائب الجمركية، ووصل تذمرهم إلى محمد علي باشا الذي أرسل محمد شريف باشا يأمره بوجوب التحقيق في ذلك[٣].

خشيت بريطانيا من نتائج الاتفاقية على صعيد مصالحها الاستعمارية في المنطقـة، فأخذت الاحتجاجات البريطانية تتوالى على عاصمتي القيصـر الروسـي والسـلطان العثماني [٤]، حيث احتج بالمرستون ورأى أن اتفاقية هنكار أسكلة سي تنقض الاتفاقيـة البريطانية ــ العثمانية الموقعة عام ١٨٠٩م والتي جاء فيها :"عـدم السـماح بمـرور السفن الحربية لجميع الدول عبر مضيقي البوسفور والدردنيل حتى في وقـت السـلم." وكان المقصود من هذه الاتفاقية وقتئذ أن تكون حاجزاً وعائقاً أمام التقدم الروسي فـي المياه الدافئة[٥]. ورد نيسلرود[٦] (Nesselrode) وزير خارجيـة روسـيا علـى ذلـك الاعتراض من بالمرستون بأن الباب العالي لم يمنح روسيا شيئاً جديداً، فالاتفاقيـة[٧] دفاعية محضة، وأنه لا يقصد منها إلا الدفاع عن كيان الدولة العثمانية[٨]. وأن دخـول الجيش الروسي إلى الأستانة ليدافع عن السلطان ضد تابعه، هذا لا يعني حماية روسيا للدولة العثمانية، وأن روسيا ستقوم بهذا كممثلة لأوروبا، وليس من أجـل أي مـآرب

---

(١) طربين، أحمد: الوحدة العربية في تاريخ المشرق العربي المعاصر ١٨٠٠-١٩٥٨ م،ص١٠٥ .

(٢) خوري، جورج :المرجع نفسه، ص٩٥.

(٣) رستم، أسد :المحفوظات الملكية المصرية، ج٢، ص٥٠٨.

(٤) أبو فخر، فندي جدعان: سورية والصراعات الدولية ،ص١٥٦ .

(٥) أصف، يوسف بك:المصدر نفسه، ص٩٠.

(٦) نيسيلرود: الكونت كارك روبرت نيسيلرود (١٧٨٠-١٨٦٢ م) بدأ حياته السياسية عندما عُين في المكتب الرئيس للقيصر الروسي عام ١٨١١م، ومن هناك أدار السياسة الخارجية الروسية حتى وفاته، شغل منصب وزير الخارجية بين عامي (١٨٢٢-١٨٥٦ م) إلى جانب العمل مستشاراً للقيصر بين عامي (١٨٤٤-١٨٦٢ م). لعب دوراً مهماً في توجيه السياسة الخارجية الروسية تجاه فلسطين حتى حرب القرم بين عامي (١٨٥٣-١٨٥٦ م).انظر: القاموسي الموسوعي الكبير، ص ٨١٠ . (باللغة الروسية).

(٧) الدسوقي، محمد كمال: المرجع نفسه، ص١٧٢ .

(٨) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص ٩٥.

خاصة[١] فرد عليه بالمرستون متسائلاً إذا لم تأت هذه الاتفاقية بشـــيء جديـــد فلمـــاذا تهافتت روسيا على توقيعها؟[٢]

وبعد أن علم محمد علي باشا من بغوص بك[٣] أن قنصلي فرنسا وبريطانيا تســلما بيانات مفصلة من حكومتيهما مضمونها وجــوب المحافظـــة علـــى ســـلامة الدولـــة العثمانية[٤]، استغل الوضع الجديد الناتج عن اتفاقية هنكارأسكلة سي وقلق بريطانيا منها منها واقترح على البريطانيين أن يؤيدوه بفصل المناطق العربية والاعتراف باســـتقلاله مقابل إعلان الحرب على روسيا، لإلغاء اتفاقية هنكار أسكلة سي وضمان أمن الدولـــة العثمانية وسلامتها من الخطر الروسي[٥] فأجابته بريطانيا بالرفض البات والمعارضـــة الشديدة[٦].

ونظرت بريطانيا بمرارة إلى خطط روسيا في المضائق، ورداً على سياسة التحدي لمصالحها وطرق مواصلاتها، اتخذت سياسة ظلت سارية لأكثر من أربعين عاماً تقوم على تدويل المسألة الشرقية، حيث جعلت الدول الأوروبية مسؤولة عن الحفـــاظ علـــى سلامة الدولة العثمانية واستقلالها السياسي[٧].

٦- إجراءات بريطانيا في التصدي لاتفاقية هنكـــار أسكلـــة ســـي عام ١٨٣٣م:

كثفت الدبلوماسية البريطانية جهودها ضد دولتي الاتفاقية لكـــن بهـــدوء ورصـــانة لاحتواء هذا المد الروسي متجنبة المجابهة المباشرة[٨]، لأنها تعلم عدم قـــدرتها علـــى الذهاب إلى أبعد من ذلك، إذ إنه لم يكن في وسعها أن تستند إلى فرنسا التي كانت

---

(١) Anderson.M.S:ibid, p90.

(٢) الدسوقي، محمد كمال: المرجع نفسه، ص١٧٢.

(٣) بغوص بك: بو سفيان، ولد في أزمير عام ١٧٦٨ م، في عام ١٧٩٠م ،توفي والده، فجاء إلى مصر وبقي فيها حتى مجيء الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ م، ثم عاد إلى الإسكندرية عام ١٨٠١م، وكان جمركها بحكره، عندما تولى محمد علي باشا مصر أصبح بغوص بك موضع ثقته ومرجع مشورته، توفي في الإسكندرية أول عام ١٨٤٤ م.انظر: زيدان، جرجي: المصدر نفسه، ص ٢٢٦-٢٢٨.

(٤) رستم، أسد، المحفوظات الملكية المصرية،ج٢، ص٣٧٩.

(٥) بازيلي، قسطنطين: المصدر نفسه،ص١٣٩.

(٦) العطار، نادر: المرجع نفسه، ص١٧٧.

(٧) طربين، أحمد: الوحدة العربية في تاريخ المشرق العربي المعاصر(١٨٠٠-١٩٥٨م)، ص١٠٤.

(٨) الغنام، سليمان بن محمد: المرجع نفسه، ص١٠٧.

سياستها في إسبانية تقلق بريطانيا[1]. ولم يكن بوسعها أن تستند إلى النمسا التي اتفقت مع روسيا في أيلول ١٨٣٣م بتوقيع اتفاقية ميونيخ ـ جرتيز (Munich Jraytz) التي تعهدت فيها روسيا بالمحافظة على كيان الدولة العثمانية، وأن أي تقسيم لأملاك الدولة عند الضرورة لن يتم إلا بالاتفاق بين روسيا والنمسا[2]. لذلك حرصت بريطانيا على احتفاظها بعلاقة حسنة مع السلطان الذي كان يتطلع بلهفة إلى إيجاد تعاون مع بريطانيا من شأنه أن يساعده على خصمه محمد علي باشا، فاستمرت بريطانيا في تقديم المساعدة العسكرية للباب العالي[3]، وتزويد الجيش العثماني بالبقسماط(الخبز)[4].والعمل على شد السلطان العثماني باتجاه السياسة البريطانية لسحبه لسحبه من تحت المظلة الروسية شيئاً فشيئاً لتعطيل بنود اتفاقية هنكار أسكلة سي[5]. ومن أجل ما سبق ضمت بريطانيا سفناً حربية إلى الأسطول العثماني[6]، كما سعت جهدها إلى إضعاف الدور الفرنسي، بشكل لا يؤدي إلى قطيعة سياسية مع فرنسا التي تشكل معها ضغطاً وحليفاً أوروبياً فاعلاً ضد الهيمنة الروسية على السلطان العثماني بعد توقيع اتفاقية هنكار أسكلة سي(١٨٣٣م)[7] ولزيادة ضغطها على السلطان سارعت إلى تعزيز أسطولها في البحر المتوسط، وتقدمت سفنها نحو أزمير، وكادت أن تسعر نار الحرب بين فرنسا وبريطانيا مجتمعتين ضد روسيا، لكن الحكومة الفرنسية لم توافق على الخطة البريطانية، لأن أوضاعها لا تسمح بذلك، فترددت بريطانيا، وعدلت عن الدخول في معركة حربية بمفردها ضد روسيا والدولة العثمانية، كما أنه قد تنضم إليهما النمسا تطبيقاً لاتفاقية ميونخ ـ جرايتز عام ١٨٣٣ م [8].

---

[1] رنوفان، بيير: تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر ١٨١٥-١٩١٤ م، ترجمة: جلال يحيى، دار المعارف، الاسكندرية، مصر، ط٣، ١٩٨٠م، ص١٣٣.

[2] الدسوقي، محمد كمال: المرجع نفسه، ص١٣٣.

[3] أبو فخر، فندي جدعان:بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا، ص١٩٦.

[4] رستم، أسد: المحفوظات الملكية المصرية، ج٢، ص٦٧.

[5] أبو فخر، فندي جدعان: سورية والصراعات الدولية ١٨٣١-١٨٤٠ م محمد علي باشاوالحسابات الخاطئة، ص١٥٦.

[6] رستم، أسد: المحفوظات الملكية المصرية، ج٢،ص٢٠٨ .

[7] أبو فخر، فندي جدعان:بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا ١٨٣١-١٨٤١ م، ص١٩٦.

[8] الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص١٥٣.

وفي نهاية الأمر انتصرت سياسة الحزم على سياسة التردد والترقب والحذر التي كان يتبعها بالمرستون[١] واعترف بأنه أبطأ أكثر من اللازم قبل أن يقدم للسلطان الدعم والتعضيد المطلوب[٢]. وقال:"إنه من الخطأ الفاحش أن نسمح بأن ندع الدولة العثمانية تتعرض لغزو مزدوج تتحشر به بين إمبراطورية مصرية تزحف عليها من الجنوب، وإمبراطورية روسية تطبق عليها من الشمال"[٣].

وراح يعمل على إقناع السلطان بعدم جدوى الهيمنة الروسية عليه، وبعدم قدرة روسيا على حمايته من الأخطار المحدقة به من جانب محمد علي باشا، مظهراً له عدم قبول بريطانيا لأي عمل أو إجراء من شأنه أن يقسم الدولة العثمانية، أو ينقص من سيادته، وقد كان الباب العالي على استعداد لسماع صوت بريطانيا[٤]. لأن الباب العالي لم يتفق مع روسيا إلا بعد أن طلب وكرر طلب المساعدة من بريطانيا، وأرسل سفيره إلى لندن بخصوص ذلك، وتعهدت الدولة العثمانية لبريطانيا مقابل وقوفها معها ضد محمد علي باشا بمنحها جميع الامتيازات التجارية التي ترغب فيها[٥]، إلا أن السياسة البريطانية تداركت الموقف ونجحت في إفشال اتفاقية هنكار اسكلة سي بين روسيا والدولة العثمانية، واتفاقية ميونيخ ـ جرتيز بين روسيا والنمسا بالعمل على شل النتائج الفعلية لهما[٦].

لم توضع اتفاقية هنكار أسكلة سي موضع التنفيذ بسبب موقف بريطانيا وأوروبا منها، والتي دأبت على محوها فكان لها ما أرادت، فعطلتها حتى استطاعت القضاء عليها بشكل كلي بعد توقيع اتفاقية المضائق عام ١٨٤١م، التي جعلت المضائق مغلقة بوجه السفن الحربية، فقضت بذلك على امتيازات روسيا التي حصلت عليها في اتفاقية هنكار أسكلة سي[٧].

---

(١) زين، زين نور الدين: المرجع نفسه، ص٢٥.

(٢) لبيب، حسين: المصدر نفسه ،ص٧١.

(٣) البطريق، عبد الحميد: الجزيرة العربية في مفترق الطرق(١٨٠٠-١٨٤٠)، دار الفكر العربي، مصر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٣٨.

(٤) أبو فخر، فندي جدعان: سورية والصراعات الدولية، ص١٥٧.

(٥) البلخي، علي يوسف: الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام، ص٢٠٦.

(٦) لوتسكي : المرجع نفسه، ص١٣٠.

(٧) وثائق التدخل الأجنبي، ص ٧٣،وانظر تفاصيل الاتفاقية في الملاحق ،وثيقة رقم (٢)،ص٢٦٢-٢٦٣.

ومن نتائجها خضوع الدولة العثمانية لعقد اتفاقية بلطة ليمان في ١٦ آب ١٨٣٨ م مع بريطانيا، أطلقت بموجبها حرية التجارة البريطانية في جميع أنحاء الدولة العثمانية، بما فيها بلاد الشام، كما عقدت فرنسا اتفاقية مماثلة مع العثمانيين في ٢٥ تشرين الثاني ١٨٣٨م[١].

شكلت اتفاقية هنكار أسكلة سي عام ١٨٣٣م نقطة تحول في السياسة البريطانية التي ستقف بالمرصاد أمام كل محاولة من شأنها تقسيم الدولة العثمانية أو فرض حماية عليها، فتغير موقفها اتجاه محمد علي باشا حيث أيدته في بداية الأزمة وكانت تهدف من ذلك إضعاف الدولة العثمانية ومحمد علي باشا معاً، وبالتالي يبقى الباب العالي بحاجة بريطانيا مستبعدة أن تكون هناك صداقة عثمانية ــ روسية وهما في حالة عداء شبه مستمر، ولم يمض وقت قصير على انتهاء آخر حرب بينهما عام ١٨٢٩م.

وكذلك لم ترغب بريطانيا في إقامة دولة قوية بزعامة محمد علي باشا تسيطر على طرق تجارتها، إلا أن هذا ما قد حصل، فوقعت بين نارين الخطر الروسي من الشمال وتدخله في شؤون الدولة العثمانية، ومحمد علي باشا الذي أدرك أن بريطانيا لن تسانده في مشروعه، فأخذ يبحث عن حليف له، فوجد ضالته في فرنسا، فضلاً عن ذلك جاء تحالف روسيا مع النمسا ليعقد الموقف ويشبك الأمور، إلا أن السياسة البريطانية كانت حكيمة، فلم تدخل في مجابهة مباشرة مع روسيا بالرغم من إدراكها خطر اتفاقية هنكار أسكلة سي على مصالحها الاستراتيجية في المنطقة، فعملت بهدوء ودهاء لسحب السلطان العثماني من تحت المظلة الروسية ليكون في فلك السياسة البريطانية، وكذلك عملت على الضغط على فرنسا لتمنع محمد علي باشا من اتخاذ أي إجراء ضد العثمانيين يؤدي إلى التدخل الروسي، وبدأت تستثير أهالي بلاد الشام ضد الباشا تمهيداً للقضاء عليه أو على نفوذه في بلاد الشام على الأقل.

وأخيراً، وبعد دراسة السياسة البريطانية اتجاه التطورات التي شهدتها بلاد الشام بين عامي (١٧٩٩-١٨٣٣م) تم التوصل إلى النتائج التالية:

١- ادرك البريطانيون بعد حملة نابليون بونابرت أن عليهم أن يسيطروا على المنطقة الواقعة على طريق الهند بشكل كامل، ونستطيع القول إن نابليون بونابرت

---

(١) المصدر نفسه ، ص٧٣ــ٧٥.

بحملته على مصر عام ١٧٩٨م وبلاد الشام عام ١٧٩٩م قدم خدمة كبيرة للسياسة البريطانية التي استخدمت شبح الحملة الفرنسية للسيطرة على المنطقة العربية ومواردها الأولية بما فيها بلاد الشام ,والنجاح في عقد معاهدة تحالف وصداقة مع الباب العالي جعلت من العثمانيين جنوداً للسياسة والمصالح البريطانية في هذه المنطقة الحيوية.

٢- فتحت الحملة الفرنسية، باب التدخل الأجنبي على مصراعيه للتدخل في شؤون مصر وبلاد الشام على مختلف المستويات، و كانت نقطة تحول كبيرة في السياسة البريطانية إزاء هذه المنطقة، فقد فتحت في سجل بريطانيا الاستعماري صفحة جديدة.

٣- استغلت بريطانيا فكرة الملاحة في نهر الفرات خلال المنافسة بين الفرنسيين والبريطانيين حول طرق المواصلات التي تربط الشرق بالغرب، وأخذ البريطانيون يروجون الدعاية ضد الفكرة التي طرحتها الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م لربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط.

٤- كان هدف السياسة البريطانية من بعثة تشيسني في نهر الفرات ومهمتها وأغراضها الأساسية دراسة ومتابعة نتائج التحالف العثماني ــ الروسي على المصالح الاستراتيجية البريطانية في الشرق، بعد قيام محمد علي باشا بالسيطرة على بلاد الشام وتهديده السلطان العثماني محمود الثاني في عقر داره، ثم إقامة تحالف عسكري عثماني ــ روسي ضد محمد علي باشا بموجب اتفاقية هنكار أسكلة سي عام ١٨٣٣م. وقد عبَرت بريطانيا عن قلقها حيال هذا التحالف وازدياد النفوذ الروسي، فقامت بإرسال بعض البريطانيين إلى المنطقة بصفات مختلفة، ومن هؤلاء كان تشيسني، وأكدوا في كتاباتهم وتقاريرهم على خطورة التهديد الروسي، للمصالح البريطانية في المنطقة والمواصلات البريطانية التي تمر في المشرق العربي بما فيه بلاد الشام نحو الهند.

٥- استغلت بريطانيا سيطرة محمد علي باشا على بلاد الشام وصراعه مع السلطان العثماني، فجعلت من هذا الصراع مسألة رئيسة أسبغت عليها صفة الصراع الدولي وربطتها مباشرة بأمن أوروبا والتوازن الأوروبي، متظاهرة بحرصها على وحدة ممتلكات السلطان وحفظ سيادته الشرعية، بينما كانت تسعى في حقيقة الأمر

تحت هذه المظلة إلى التسلل وتحقيق أطماعها في الدولة العثمانية عامة وولاياتها في المشرق العربي بما فيها بلاد الشام خاصة، فكان لها ما أرادت، حيث ضربت السلطان العثماني بواليه القوي محمد علي باشا بهدف إضعافهما معاً، غير أن وقوع السلطان في أحضان روسيا أقلقها، فسعت لوقف القتال وتوقيع معاهدة كوتاهية عام ١٨٣٣م.

٦- شكلت اتفاقية هنكار أسكلة سي نقطة تحول رئيسة في السياسة البريطانية التي وقفت بعدها بالمرصاد أمام كل محاولة من شأنها تقسيم الدولة العثمانية أو فرض حماية عليها، فتغير موقفها اتجاه محمد علي باشا، حيث أيدته في بداية الأزمة، وكانت تهدف من ذلك إلى إضعاف الدولة العثمانية ومحمد علي باشا معاً، وبالتالي يبقى الباب العالي بحاجة بريطانيا مستبعدة أن تكون هناك صداقة عثمانية ـــ روسية وهما في حالة عداء شبه مستمر لم يمض وقت قصير على انتهاء آخر حرب بينهما عام ١٨٢٩م.

وكذلك لم ترغب بريطانيا في إقامة دولة قوية بزعامة محمد علي باشا تسيطر على طرق تجارتها، إلا أن هذا ما قد حصل، فوقعت بين نارين: الخطر الروسي من الشمال وتدخله في شؤون الدولة العثمانية، ومحمد علي باشا الذي أدرك أن بريطانيا لن تسانده في مشروعه، فأخذ يبحث عن حليف له فوجد ضالته في فرنسا، فضلاً عن ذلك جاء تحالف روسيا مع النمسا ليعقد الموقف ويشبك الأمور، إلا أن السياسة البريطانية كانت حكيمة، فلم تدخل في مجابهة مباشرة مع روسيا، رغم إدراكها خطر اتفاقية هنكار أسكلة سي على مصالحها الاستراتيجية في المنطقة، فعملت بهدوء ودهاء لسحب السلطان العثماني من تحت المظلة الروسية وجعله في فلك السياسة البريطانية.

الفصّل الثاني

تطور السياسة البريطانية في بلاد الشّام بين عامي (١٨٣٣ـ ١٨٤١م)

الفصّل الثّاني:

تطور السياسة البريطانية في بلاد الشّام بين عامي (١٨٣٣-١٨٤١م)

أولاً: دور بريطانيا في زعزعة الاستقرار والأمن الداخليّ في بلاد الشام خلال حكم إبراهيم باشا في بلاد الشّام بين عامي (١٨٣٣-١٨٣٩م):

١- الأسباب الداخلية للثورات:

أ- الضّرائب.

ب- سياسة الاحتكار.

جـ- أعمال السخرة.

د- التجنيد الإجباري ونزع السلاح.

هـ- عوامل سياسية داخلية.

٢- الأسباب الخارجية للثورات:

أ - عداء الدولة العثمانية لمحمد علي باشا.

ب - دور بريطانيا في إشعال الثورات:

١ً- دور الجواسيس البريطانيين:

أً- فرانسيس روودن تشيسني (F. R Chesney) .

بً ـ الليدي هسترستانهوب (Lady Hister Stanhope).

جـً- ريتشارد وود (Richard Wood).

٢ً- دور التّجار والقناصل البريطانيين.

٣- الثورات في بلاد الشام:

أ- ثورة فلسطين عام ١٨٣٤م.

ب- اضطرابات المدن الشّاميّة عام ١٨٣٤م.

جـ- ثورة حوران ووادي التيم (١٨٣٧-١٨٣٨)م.

د- ثورة السّهل الحورانيّ وعجلون عام ١٨٣٩م.

ثانياً: سياسة بريطانيا في بلاد الشّام بين عامي (١٨٣٤- ١٨٣٨م):

١- بعثة الاستكشاف البريطانيّة الثانية بقيادة فرانسيس روودن تشيسني (F. R Chesney) في نهر الفرات بين عامي ١٨٣٤-١٨٣٦م .

٢- دور بريطانيا في إحباط إعلان محمد علي باشا الاستقلال.
٣- دور بريطانيا في إجهاض التقارب المصري ــ العثماني.
٤- الاتفاقية التّجارية البريطانيّة ــ العثمانيّة (بلطة ليمان) عام ١٨٣٨م وآثارها السّياسية.
أ- أسباب التوقيع على اتفاقية بلطة ليمان عام ١٨٣٨م.
ب- اتفاقية بلطة ليمان عام ١٨٣٨م.
جـ- نتائج اتفاقية بلطة ليمان عام ١٨٣٨م.

ثالثاً: موقف بريطانيّا من حرب الشّام الثّانية (١٨٣٩-١٨٤١م):

١- التقارب الروسي ــ البريطاني.
٢- موقف بريطانيّا من حكم محمد علي باشا في بلاد الشّام قبل موقعة نزيب عام ١٨٣٩م.
٣- موقف بريطانيّا من حكم محمد علي باشا في بلاد الشّام بعد موقعة نزيب عام ١٨٣٩م.
أ- مذكرة ٢٧ تموز ١٨٣٩م.
ب- اتفاقية لندن في ١٥ تموز ١٨٤٠م.
جـ- دور بريطانيا في إشعال الثّورة اللبنانيّة عام ١٨٤٠م وجلاء قوات محمد علي باشا عن بلاد الشام.
٤- نتائج حرب الشام الثانية.

أولاً: دور بريطانيا في زعزعة الاستقرار والأمن الداخليّ في بلاد الشّام خلال حكم إبراهيم باشا (١٨٣٣-١٨٣٩)م:

لا يتسع لنا المجال في هذا البحث لتفصيل حوادث الثورات في بلاد الشام ضد حكم محمد علي باشا، وليس من شأنه الحديث عن مجريات الانتفاضات والثورات في بلاد الشام في أدق تفاصيلها، فهي لا تهمنا إلا في تلاقيها التاريخي مع مظاهر السياسة البريطانية في بلاد الشام، حيث حاولت استثمار التراكمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في تفجير الثورات واستغلالها لخدمة سياستها في المنطقة. وبالتالي يتناول البحث الأسباب الداخلية للثورات، بمقدار علاقتها بالسياسة البريطانية، وإظهار أن القوى الخارجية المختلفة بما فيها بريطانيا لا تستطيع إشعال الثورات أو اختراق الوحدة الوطنية لأي بلد إلا عندما تتوافر العوامل الداخلية المساعدة لها. وحرصاً على إظهار الصورة بشكل مكتمل لدى القارئ سيتم عرض للثورات بإيجاز.

١- الأسباب الداخلية للثورات:

أ- **الضّرائب:** لم يكتف إبراهيم باشا بأخذ الأموال الميرية، بل قرر جباية الضرائب مضاعفة ثلاث مرات عما كانت عليه، ثم ما لبثت الحكومة المصرية أن فرضت أنواعاً جديدة من الضرائب لم يكن أهل الشام معتادين عليها كضريبة الفردة[١] التي فرضت على كل فرد بين الثامنة عشرة والستين على الغني والفقير[٢]. وضريبة الشونة، وهي عبارة عن ضريبة عينية تجمع من كل بلد لمؤونه الجيش المصري من القمح والشعير والزبيب والسمن وغيرها، وضريبة الطواحين، وضريبة المواشي، وضريبة الخراج التي فرضت على السكان غير المسلمين، وغيرها من الرسوم العدلية والضرائب التي فرضت على الأراضي التي تباع، وعلى أجرة السكن[٣].

---

(١) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري ١٨٣٢-١٨٤٠ م، ص٢٤٩.

(٢) مؤرخ مجهول: حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، نشر وتحقيق: أسد رستم، منشورات المكتبة البوليسية، د.ت.ط ،ج٢، ص٦٦.

(٣) البلخي، علي يوسف: ثورات حوران على حكم إبراهيم باشا، ص٩٥.

ب- **سياسة الاحتكار:** احتكر إبراهيم باشا تجارة الحرير[١] والصابون والبن وغيرها من السلع الضرورية لحياة الناس[٢]. وأقدم على ذلك بسبب حاجته إلى الأموال، لأنه دخل مع العثمانيين في سباق تسلح واسع النطاق[٣].

ويبدو أن محمد علي باشا لم يدرك أن الشعب يمثل الحصن الأساسي له في مواجهة أعدائه، فكانت ثورات أهالي بلاد الشام السبب الرئيس في خروجه منها. فقد أثار نظام الاحتكار قلق التجار الأجانب وخشيتهم من توجيه ضربة أليمة تنال من مصادر ربحهم السريع، ولم يقتصر الضرر على التجار الأوروبيين، بل تعدى الأمر إلى التجار المحليين، وخصوصاً التجار الذين ارتبطوا بالتجارة الأجنبية، وحققوا ثروات طائلة نتيجة تعاطيهم الربا والإقراض بفوائد مرتفعة[٤]. فمالت بريطانيا إلى العثمانيين ضد الباشا، لأن سياسة الاحتكارات التجارية أضرَّت بالمصالح الاقتصادية البريطانية من جهة، ومن جهة ثانية لأنهم هم الأضعف وبالتالي الأكثر طواعية لتحقيق سياستها في المنطقة[٥].

ج- **أعمال السخرة:** استاء أهل بلاد الشام من الطريقة التي اتبعها إبراهيم باشا في تنفيذ أعمال السخرة، حيث كلفهم بتنفيذ أعمال كثيرة دون أن يدفع لهم أجراً، مما زاد من المعارضة وإثارة القلاقل والثورات ضد حكم الباشا في بلاد الشام[٦]. وبسبب كثرة الضرائب والتجنيد ونظام السخرة عمل بعض أهالي بلاد الشام في القنصليات الأجنبية، لاسيما البريطانية، حيث استخدم السيد فارن(Pharn) قنصل بريطانيا في دمشق الكثير من الرجال، وقام بعض ذوي القدرة المالية على شراء الحماية البريطانية، حيث اشتروا من بريطانيا مناصب في القنصلية ومعتمدين تجاريين[٧].

---

(١) انظر تفاصيل احتكار تجارة الحرير في الملاحق ،وثيقة رقم(٣)،ص٢٩٤ .

(٢) أبو صالح، عباس: المرجع نفسه، ص٢٤٩.

(٣) بني هاني، خالد أحمد مفلح: تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري١٢٤٦-١٢٥٦ هـ (١٨٣١-١٨٤٠ م)، الأوائل دمشق، ط١،٢٠٠٥ م، ص٢١١.

(٤) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري، ص٩٩ـ ١٠١.

(٥) شيلشر، ليندا: دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة: عمر الملاح، دينا الملاح، مراجعة :عطاف مارديني، مطبعة دار الجمهورية، دمشق، ط١، ١٩٩٨ م، ص٦٥.

(٦) سمحات، قاسم: المرجع نفسه، ص٢٣٩-٢٤٠.

(٧) بني هاني، خالد أحمد مفلح :المرجع نفسه، ص١٦٢.

د- التجنيد الإجباري ونزع السلاح:

حاول إبراهيم باشا تنفيذ أوامر والده في نزع السلاح من الأهالي تمهيداً لفرض التعبئة العسكرية العامة[١].فكانت مهمة شبه مستحيلة، لأن كل الطوائف لا تقبل تسليم سلاحها[٢]. كذلك لقيت سياسة التجنيد مقاومة عنيفة لدى أهالي بلاد الشام، وكانت تؤدي بسهولة إلى اضطرابات دموية[٣].

هـ- العوامل السياسيّة الدّاخلية:

تتحصرهذه العوامل في استياء أمراء لبنان ومشايخه من احتكار السلطة من جانب الأمير بشير الشهابي وسلب نفوذهم والسيطرة على مقاطعاتهم، فضلاً عن ممارسات رجال الحكومة المصرية ضدّ الوجهاء، حيث لم يدعوا أحداً إلا أذلوه[٤]. بالإضافة إلى قيام إبراهيم باشا بغرس بذور النظام البرجوازي وضرب النظام الإقطاعي العثماني، وإعلان المساواة السياسية التي رفعت إليها الطوائف غير المسلمة[٥]. ولم يكن مألوفاً في ذلك الوقت إشراك اليهود والمسيحيين في الحكم، مما أثار غضب المسلمين[٦].وزاد هذا الغضب استياء أهل الشام من بعض إجراءات إبراهيم باشا الغريبة عليهم، لاسيما إصداره أمراً بإقامة خمارة[٧].

٢- الأسباب الخارجية للثورات:

أ- عداء الدولة العثمانية لمحمد علي باشا: ناصبت الدولة العثمانية محمد علي باشا العداء، ورغبت في التخلص منه، فهي لم تفتأ منذ دخول جيوشه إلى بلاد الشام تدس الدسائس، وتستميل رؤساء العشائر، والأعيان والزعامات بالمال تارة والوعود الخلابة تارة وأخرى[٨].

---

(١) أنطونيوس، جورج: المصدر نفسه، ص٩٢.

(٢) ضاهر، مسعود، الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧-١٨٦١ م، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، ط١٩٨٦،٣ م .ص٤٤٨.

(٣) بازيلي، قسطنطين :المصدر نفسه، ص ١٧٦.

(٤) مؤرخ مجهول: حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول،٢ج، ص٦.

(٥) البلخي، علي يوسف: ثورات حوران على حكم إبراهيم باشا، ص٩٩.

(٦) حنا، عبدالله :حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دار ابن خلدون، بيروت، ط١، ١٩٨٥ م، ص٢٣٩.

(٧) مؤرخ مجهول : مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية،تحقيق: أحمد غسان سبانو، ص٦٦.

(٨) انظر الملاحق،الوثيقة رقم (٤)،ص٢٦٥. وانظر أيضاً: علي، محمد كرد: المصدر نفسه،ج ٦، ص٦٣.

ب – دور بريطانيا في إشعال الثورات:

لعبت بريطانيا دوراً كبيراً وخطيراً في إشعال الثورات ضد حكم محمد علي باشا في بلاد الشام قام به الجواسيس وبعض القناصل والتّجار البريطانيين:

ً١– دور الجواسيس البريطانيين: أيدت بريطانيا محمد علي باشا في بداية الأزمة من أجل تحقيق مصالحها وانتشار تجارتها، غير أن مشروعاته في الاستقلال الاقتصادي كانت تتضارب مع مصالحها في المنطقة[١].إضافة إلى أن ازدياد النفوذ الروسي في الدولة العثمانية، مقابل ازدياد النفوذ الفرنسي على محمد علي باشا، وتهديد مصالح بريطانيا جعلها تتجه نحو الخط المعادي لمحمد علي باشا[٢] بإرسال الجواسيس إلى بلاد الشام من أجل تحريض السكان على الثورة وإمداد الثوار بالمال والسلاح[٣]. ومن أشهر الجواسيس:

أً– فرانسيس روودن تشيسني (F. R Chesney): جاء إلى بلاد الشام لدراسة صلاحية نهر الفرات للملاحة، غير أن غرضه الرئيس هو التجسس، ومحاولة دراسة سكان المنطقة وقبائلها وتجنيدها في خدمة السياسة البريطانية وتأليبها ضد محمد علي باشا[٤].

بً– الليدي هسترستانهوب[٥] (Lady Hister Stanhope): وهي سيدة بريطانية استقرت في بلدة جون، كانت تدفع لها الحكومة البريطانية راتباً تقاعدياً سنوياً قدره ألفاً ومائتي جنيه إسترليني، وقد درست هسترستانهوب العربية، وكانت تسير على رأس القوافل الذاهبة إلى بعلبك وتدمر والقدس، وبسطت سلطتها على القرى المجاورة لجون ومعظمها قرى لطائفة الموحدين (الدروز).

---

(١) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه،ص١٥٣.

(٢) بني هاني، خالد أحمد مفلح :المرجع نفسه، ص٢١١.

(٣) انظر الملاحق،الوثيقة رقم(٥)،ص٢٦٦.

(٤) رستم، أسد: المحفوظات الملكية المصرية، ج٣، ص٨٢.

(٥) الليدي هستر ستانهوب(Lady Hister Stanhope): هي حفيدة آرل تشاتم،وأمينة سر وليم بت الشهير وزير مالية بريطانيا، غادرت بريطانيا في عام١٨١٠، بعد أن أصيبت بخيبة أمل قاسية في حياتها العاطفية، استقرت في لبنان، وفي عام ١٨٣٩ م توفيت ودفنت في أرض حديقتها، وقد أصبح بيتها مزاراً يؤمه السائح الأوروبي. انظر: حتي، فيليب: تاريخ لبنان(منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة: أنيس فريحة، ونقولا زيادة، تحرير: جبرائل جبور، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٧٨ م، ص٥١٩–٥٢٠ .

ولما زحف إبراهيم باشا إلى بلاد الشام حاول أن يبقيها على الحياد، لكن دون جدوى، حيث كان لها يد في إثارة الموحدين (الدروز) فيما بعد ضده، وكانت بالتعاون مع الباشاوات والمشايخ والأمراء، تدس الدسائس وتدبر المؤامرات، وتبعث الرسائل إلى الأمير بشير الشهابي وغيره من الأمراء[١].

جـ- ريتشارد وود (Richard Wood): في أوائل عام١٨٣٥م، وصل ريتشارد وود إلى بيروت قادماً من الأستانة، حيث كان يعمل في السفارة البريطانية فيها،وتظاهر في بداية وصوله إلى بيروت أنه جاء ليتعلم اللغة العربية. لكنه في الحقيقة كان يسعى إلى إثارة سكان بلاد الشام ضد الوجود المصري[٢].وكان هدفه الأول إبعاد الأمير بشير الشهابي الثاني عن محمد علي باشا، وإذا فشل في ذلك ولم يستجب له، حمل مقترحاته إلى الأمير بشير بن يوسف (ابن أخ الأمير بشير الشهابي الثاني) الذي أظهر استعداداً طيباً للتعاون مع البريطانيين شرط أن يمدوه بالمعونة الكافية[٣] .

وقد وجه وود الرسائل إلى حكومته بين فترة وأخرى، وذكر في رسالة له:"ضرورة احتلال بريطانيا لعدن وجعلها قاعدة عسكرية بريطانيا"[٤]. ووثق وود العلاقة بين الموارنة والموحدين (الدروز) والعثمانيين، واستطاع أن يستميل إليه رجال الدين من الطائفة المارونية وقطع لهم عهداً بتخفيض الضرائب، وأن تبقي الدولة العثمانية حكم لبنان إمارة مارونية[٥].

٢- دور التّجار والقناصل البريطانيين:

نتيجة الضعف العثماني وإجراءات إبراهيم باشا في بلاد الشام ازداد النفوذ الأوروبي فيها، فبدأ القناصل الأجانب يتدخلون مباشرة حتى في أصغر التفاصيل[٦].وتمثل دورهم في الدعاية المضادة، إذ كان وكلاء القناصل يذيعون إشاعات إشاعات مختلفة وأخبار خارجة عن اختصاصاتهم ويقدمون الحماية للأفراد المعارضين

---

(١) المرجع نفسه، ص٥١٩.

(٢) عمر، عمر عبد العزيز: المرجع نفسه، ص ٣٥٥.

(٣) صليبي، كمال: المرجع نفسه، ص٦٥.

(٤) البلخي، علي يوسف: ثورات حوران على حكم إبراهيم باشا (١٨٣١-١٨٤٠) م، ص١١٢.

(٥) المرجع نفسه، ص١١٣.

(٦) الحاج، بدر: دمشق صور من الماضي (١٨٤٠-١٩١٨)، فوليوز، ط١،٢٠٠١،ص٥٧.

لحكم إبراهيم باشا في بلاد الشام، ويساعدون الراغبين بالفرار، وعمدوا إلى تخليص عدد كبير من التجنيد، وذلك بمنح أوراق حماية إلى الأهالي، مما كان يعطل عملية التجنيد[١]. فضلاً عن استغلال البريد الخاص بالقنصل البريطاني في إرسال الرسائل من بلاد الشام إلى خارجها وبالعكس، هذا الأمر اضطر إبراهيم باشا إلى القيام بعملية مراقبة البريد البريطاني من خلال فض الرسائل، للتأكد من خلوها من رسائل تحريض بالرغم من اعتراض القنصل البريطاني فارن في دمشق على ذلك[٢].

ومن أهم الصعوبات التي عرقلت إدارة إبراهيم باشا في بلاد الشام، الحواجز التي أقامها القناصل البريطانيون، وقد اتخذ إبراهيم باشا موقفاً شديد العنف اتجاه القناصل، فصرح للسيد لابي (Labay): "إن هؤلاء القناصل مصدر عذاب لي، إذ يعرقلون في كل لحظة سير شؤون حكومتي، وليس السلطان والباب العالي شيء إذا ما قورنا بتحضيرات القناصل، فمع السلطان والباب العالي نستطيع أن نتدارك الأمور، وأن نلزم جانب الحذر، أما القناصل فهم مصدر عذابي، ولا استطيع عمل شيء حيالهم، إنهم كارثة على البلاد"[٣].

وقد أدت التسهيلات التي أُعطيت للتجار الأجانب، تنفيذاً للاتفاقيات والامتيازات الأجنبية، وبدافع ما كان يحقّقه هؤلاء من أرباح وأموال طائلة إلى إقدام بعض القناصل البريطانيين على مزاولة أعمال التجارة، سواء بطريقة مباشرة، أو بالوسطاء متوخين الربح والثروة[٤].

وعندما باشر إبراهيم باشا تنفيذ سياسة والده ومشاريعه الاقتصادية،وخاصة في ما يتعلق باحتكار بعض السلع الإنتاجية وإنشاء المعامل وتوريد منتجاتها من مصر إلى بلاد الشام، واحتكار حرير الشام ليمول به معامل القاهرة ودمشق وحلب ثارت عليه بريطانيا التي حصلت على فرمان من السلطان العثماني يقضي بإلغاء احتكار تجارة الحرير، وحرصاً من محمد علي باشا على رضا بريطانيا وعدم إثارتها، أصدر في

---

(١) بني هاني، خالد أحمد مفلح :المرجع نفسه، ص١٤٣.

(٢) انظر الملاحق،الوثيقة رقم (٣)،ص٢٦٤.

(٣) حجار، جوزيف: المرجع نفسه، ص١٧.

(٤) انظر الملاحق،الوثيقة رقم (٣)، ص٢٦٤.

أول أيلول ١٨٣٥م أمراً يقضي أن تكون تجارة الحرير حرة من كل قيد[١]. ويبدو من هذا الأمر أن محمد علي باشا كان لا يزال يراهن على وقوف بريطانيا إلى جانبه.

ولجأ البريطانيون، رغبة منهم في إضعاف اقتصاد محمد علي باشا، إلى القيام بعمليات تهريب النقود ذات النوعية الجيدة، ووضع مسكوكات زائفة بدلاً عنها، كما حاولوا إظهار دولة محمد علي باشا بمظهر الدولة غير القادرة على حماية رعاياها الموالين لها، حتى أصبحت منازل القناصل البريطانيين ملاجئ لجميع المختلسين في بلاد الشام، والهاربين من يد العدالة، وقاموا بتزويد المعارضين للحكم المصري بالسلاح[٢].

ونتيجة شكاوى الحكومة المصرية ضد تصرفات القناصل غير القانونية، رفع قنصل بريطانيا في مصر السيد كامبل (Campbell) تقريراً عاماً إلى بالمرستون بتاريخ ١٩ تموز ١٨٣٧م أشار فيه إلى شكاوى إبراهيم باشا من القناصل، والتي تتلخص بقيام القناصل بأمور عدائية ضد السلطة المحلية، وقيام القناصل البريطانيين بدعم مطالب التجار المشرقيين الذين كانوا يدّعون حمل الجنسية البريطانية، وفي نهاية قائمة الشكاوى طرح كامبل رأيه الخاص وشهادته، حيث قال: "أما فيما يتعلق بشكاوى إبراهيم باشا ضد القناصل فأنا استطيع أن أشهد بصحتها، وأن أؤكد أن الحكومة عبرت عن رصانة شديدة باقتناعها طوال هذه الفترة الطويلة عن التذمر منهم،... ويرتكبون أكبر الجرائم دون أن ينالهم عقاب....."[٣].

وقد نوّه القنصل البريطاني كامبل برحابة صدر محمد علي باشا وتحمله هذه التصرفات والانتهاكات الصريحة للقانون[٤].

وهنا نتساءل، ما الذي دفع كامبل إلى تقديم هذه الشهادة؟ هل هذا يعني أنه كان يدافع عن محمد علي باشا، أم أنه كان يراوغ؟ وخاصة أن مقره في مصر وقريب من الباشا محاولاً كسب ثقته.

---

[١] بركات، داود: المصدر نفسه، ص ١٣٤-١٣٧.

[٢] بني هاني، خالد أحمد مفلح :المرجع نفسه، ص١٤٣.

[٣] حجار، جوزيف: المرجع نفسه، ص١١٩.

[٤] المرجع نفسه، ص١٢٠.

يبدو أن كامبل أراد أن يقدم صورة عن الوضع بشكل عام، حيث عرّج على تصرفات قناصل بقية الدول الأوروبية، من أجل أن يُطلع بالمرستون على حقيقة الوضع داخل دولة محمد علي باشا.

٣- الثورات في بلاد الشام:

١- ثورة فلسطين عام ١٨٣٤م: نشبت الثورة الأولى في جبال فلسطين إثر إعلان إبراهيم باشا احتكار تجارة الحرير، وتحصيل ضريبة الفردة، ونزع السلاح، وفرض التجنيد، وما أن بدأ زعماء القدس ونابلس والخليل الاتصال والمفاوضة من أجل توحيد صفوفهم ورفض مطالب إبراهيم باشا[١]، حتى سارع، عندما علم بالأمر، على رأس قوة إلى القدس، ودعا الزعماء إلى عقد اجتماع معه، وأرغمهم على قبول طلباته. غير أن الاستياء من التجنيد ونزع السلاح حال دون التزام السكان بما طلب منهم، فأعلن الأهالي العصيان، ونمت الثورة واتسع مداها في مدن فلسطين وقراها ومزارعها[٢].

في حزيران ١٨٣٤م وصلت الإمدادات العسكرية من مصر، فهاجم إبراهيم باشا الثوار، وانتصر عليهم بعد معارك عديدة. ثم ثار أهالي صفد، لكنهم جنحوا إلى المصالحة بعد أن أرسلت إليهم الحكومة المصرية بشير الشهابي الثاني. وبعد أن تجددت الثورة في نابلس استطاع إبراهيم باشا إخمادها بواسطة جيش قوامه عشرون ألف جندي، قَتَلَ، وأَسَرَ، وأحرق قرىً كثيرة، ولاحق الثوارحتى الخليل، ثم إلى السلط والكرك، حتى سلّم مشايخ البادية الثوار إلى خيالة إبراهيم باشا[٣].

توجه الباب العالي، إبان هذه الثورة، إلى بريطانيا يَطْلُبُ المساعدة منها ضد محمد علي باشا، لكن نامق باشا[٤] سفير السلطان لم يستطع إقناع وزراء الملك

---

(١) غنام، رياض، المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري ١٨٣٢-١٨٤٠ م، الدار التقدمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م، ص١٠٥.

(٢) أبو فخر، فندي جدعان، انتفاضات الشام على مظالم محمد علي١٨٣١-١٨٤٠ م، دار الينابيع، دمشق, سورية، ط١، ٢٠٠٤ م ،ط١،ص٤٠-٤١.

(٣) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري، ص١٠٦-١٠٩.

(٤) نامق باشا: (١٨٠٤ــ ١٨٩٥ م) تلقى تعليمه في الإدارة السلطانية، كان على معرفة باللغة الفرنسية، وعمل مترجماً لدى الباب العالي، شارك في الحرب العثمانيةــ الروسية عامي ١٨٢٨م و١٨٢٩ م، زار بيتربورغ بصحبة خليل باشا بعد توقيع صلح أدرنة، عمل في عامي(١٨٣٢-١٨٣٣ م) سفيراً خاصاً لدى العواصم الأوروبية، ومن أيلول ١٨٣٤م حتى آذار ١٨٣٥ م سفيراً دائماً لدى لندن، وفي عام ١٨٣٥م شغل منصب نائب القوبدان دار. شارك في عام ١٨٣٦م

وليم الرابع[١] (١٨٣٠– ١٨٣٧)م (Willam IV) بالحصول على أي وعـود، واكتفت بريطانيا بتوجيه النصح بالتخلي عن الهجوم المسلح[٢].

٢- **اضطرابات المدن الشّاميّة عام ١٨٣٤م:** عمّ الاستياء بين أهالي دمشق وحلب عندما كان شريف باشا حاكم بلاد الشام يطبق نظام التجنيد الإجباري وجمع السـلاح، وانتشرت روح التمرد والثورة التي أجبرت شريف باشا على وقف التجنيد[٣]. ثم ثـار أهالي طرابلس، واجبروا حاميتها على الانسحاب إلى الميناء ريثما يأتي المدد، فَوَجَّـهَ بشير الشهابي الثاني ابنه خليل الشهابي على رأس ألف مقاتل نحو طرابلس، واستطاع تشتيت الثوار، وقتل بعض زعمائهم، وأسر بعضهم الآخر، واستمرت الثورة متنقلة من منطقة إلى أخرى، إلى أن استقر بها المطاف في عكار وصافيتا والحصن خلال شهري آب وأيلول ١٨٣٤م، فتقدم القائد سليم بك مع خليل بشير الشهابي للقضاء على الثـورة في هذه المناطق[٤].

في نهاية عام ١٨٣٤م حاول سكان جبال مقاطعة اللاذقية القيام بثورة والامتناع عن دفع الضرائب، فأرسل شريف باشا عدداً من الرجال للقضاء عليها، لكنهم فشلوا، ولمـا

في= =حرب طرابلس، شغل بعدها مناصب الوالي والسر عسكر ووزير التجارة ووزير البحرية وغيرها من المناصب .انظر: دولينا، نينل ألكسندروفنا: المرجع نفسه، ص٢٩.

(١) الملك وليـم الرابـــــع (WillamIV) (١٧٦٥–١٨٣٧ م): ملك بريطانيا العظمى وايرلندا (١٨٣٠–١٨٣٧م) وملك هانوفر(Hannover) (١٨٣٠–١٨٣٧م)، وخلال عهده الذي تم تمرير مشروع قانون الإصلاح الأولى. ولد وليم ٢١ آب ١٧٦٥م، في لندن. الابن الثالث للملك جورج الثالث(George III) والشقيق الأصغر لجورج الرابع(George IV)، دخل سلاح البحرية البريطانية في ١٧٧٩ م، وبقي في الخدمة لغاية عام١٧٨٧ م. كان دوق كلارنس في عام ١٧٨٩ م. في عام١٧٩١ م تزوج دوروثيا الإيرلندية، التي أنجب منها عشرة أطفال، في عام ١٨١٨ م، تزوج أميرة ألمانية، أصبح ملكاً في عام١٨٣٠م، خلفاً لشقيقه. وكان وليم حنون وحسن النية،لكنه غريب الأطوار نوعاً ما، كان الحدث الكبير في فترة حكمه إقرار مشروع قانون الإصلاح عام١٨٣٢ م. أعقبه إلغاء الرق الاستعماري عام١٨٣٣م، وإصلاح قوانين الفقراء عام ١٨٣٤م، وقانون الإصلاح البلدي عام١٨٣٥م. وكان وليم آخر حاكم بريطاني قام في محاولة لإجبار البرلمان لقبول الوزارة التي لا تحظى بشعبية، وهي برئاسة السير روبرت بيل (Sir Robert Peel) في عامي (١٨٣٤– ١٨٣٥ م). وقد خلفه على العرش ابنة أخيه الملكة فيكتوريا(Victoria).انظر: Microsoft ® Encarta ® 2009. © 1993-2008 Microsoft Corporation. All rights reserved.

(٢) دولينا، نينل ألكسندروفنا: المرجع نفسه، ص٦٤–٦٥.

(٣) أبو فخر، فندي جدعان: انتفاضات الشام على مظالم محمد علي١٨٣١–١٨٤٠م، ص٥٤ .

(٤) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري، ص١٠٩.

علم شريف باشا بما حل بهم جمع فرقة كاملة من الجيش المنظم وأرسلها إلى اللاذقية، فأجبر الثوار على الطاعة والسكينة[١].

كما ثار أهالي جسر الشغور عام ١٨٣٩م على مظالم الإدارة المصرية، وقام عدد منهم بالاستيلاء على عدد من بنادق الجيش، فوجه محمد علي باشا أوامره إلى عاصم بك حاكم حلب من أجل إخماد الانتفاضة، فأسرع دون تباطؤ، فقضى على الثورة بعد أن قَتَل وأَسَرَ عدداً من الثوار[٢].

٣- **ثورة حوران ووادي التيم (١٨٣٧- ١٨٣٨)م:** اشتعلت الثورة إثر إصرار شريف باشا على فرض التجنيد الإجباري على أهالي حوران[٣]، بالرغم من أن الشيخ يحيى الحمدان حاول إقناع شريف باشا بالعدول عن ذلك، حيث كان أهالي حوران يعتمدون على أنفسهم في فرض الأمن في منطقتهم، ولم ينجح الشيخ يحيى الحمدان في مسعاه وتعرض إلى إهانه، غادر أهالي حوران على إثرها أماكن سكنهم إلى منطقة اللجاة المنيعة[٤]، وأخذوا يشنون غاراتهم على قوات جيش محمد علي باشا والمراكز الحكومية.

فشلت الحملات المتلاحقة في القضاء على الثورة، إلا أن خطة إبراهيم باشا القاضية بحرمان الثوار من مصادر المياه وتعزيز جيشه بفرق غير نظامية ومن المعتادين على القتال في المناطق الجبلية، ضيقت على الثوار، فتحركوا إلى وادي التّيّم[٥].بقيادة شبلي العريان[٦] الذي هاجم سراي الحكومة في راشيا، وقتل المتسلم

---

(١) زكار، سهيل: المصدر نفسه. ص١٦٩.

(٢) أبو فخر، فندي جدعان، انتفاضات الشام على مظالم محمد علي(١٨٣١-١٨٤٠ م)، ص٥٥-٥٦.

(٣) حوران:منطقة في الجنوب السوري يمتاز سطحها بأنه بركاني، تبدأ حدودها من تلال دمشق يحدها من الشمال الشرقي منطقة اللجاه الوعرة المسالك، لذا فقد أضحت ملاذاً للقبائل المتمردة في مختلف العصور، أما من الجنوب الشرقي فتحدها المنطقة الجبلية المعروفة باسم جبل حوران، وعرف بجبل الريان، وجبل بني هلال، وجبل الدروز، وجبل العرب .انظر :هشي، سليم حسن :المصدر نفسه، ص١٣٠.

(٤) انظر الملاحق،الوثيقة رقم (٦)،ص٢٦٧.

(٥) الهجيري،حسين : قصة حرب اللجاة، ص١٤٠-١٥٥.

(٦) شبلي العريان: أشتهر ببسالته ومآثره القتالية خلال انتفاضة حوران ضد إبراهيم باشا عام ١٨٣٨ م، وهو شيخ درزي من من جبال لبنان الشرقية، أعجب به إبراهيم باشا، وعفا عنه، ودعاه للخدمة في جيشه، وبعد خروج إبراهيم باشا من بلاد الشام عمل مع السلطات العثمانية، وعين قائداً لفصيل فرسان الموحدين الدروز في القوات النظامية، شارك مع من انتفض على العثمانيين عام ١٨٤٢م، فاعتقل وأرسل إلى الأستانة. انظر: ريجنكوف، م، سيميليانسكايا، أ :المصدر نفسه، ص١٢٨.

المقيم فيها، وازداد عدد مناصريه، وحقق الانتصارات على إبراهيم باشا الذي كتب إلى بشير الشهابي يأمره بقتال الثوار[١]. وبعد عدة معارك بقيادة إبراهيم باشا وخليل بشير الشهابي سلم الثوار سلاحهم لقاء التعهد بالسماح لهم بالعودة إلى أوطانهم، وفي آب ١٨٣٨م سلم شبلي العريان نفسه طائعاً لإبراهيم باشا[٢].

٤- ثورة السّهل الحورانيّ وعجلون عام ١٨٣٩م: تذمر سكان عجلون من مظالم الإدارة المصرية، فرفعوا صوتهم بالشكوى، وكتبوا عرائض ورسائل كثيرة، لكن دون جدوى، فثاروا، إلا أن شريف باشا أرسل إليهم حملة عسكرية أرغمتهم على الاستسلام[٣].

وهبت شرارة الثورة من جديد في السهل الحوراني، إلا أن إبراهيم باشا مال إلى سياسة التسامح، لأنه شعر بالخطر الخارجي المتمثل بالجيش العثماني الذي ظهر في شمال بلاد الشام[٤].

ثانياً: سياسة بريطانيا في بلاد الشّام بين عامي (١٨٣٤- ١٨٣٨م):

١- بعثة الاستكشاف البريطانيّة الثانية بقيادة فرانسيس روودن تشيسني (F. R Chesney) في نهر الفرات بين عامي (١٨٣٤-١٨٣٦)م:

بعد أن تم فتح الاعتماد اللازم لتسيير مركبين بخاريين في الفرات على سبيل التجربة طلب مكتب الهند إلى تشيسني أن يتولى هذا الاختبار في آب ١٨٣٤م، فانتقى رجاله، وأحاط نفسه بخمسين معاوناً بينهم الضابط البري والبحري والخبير الصناعي ورجل السياسة والإدارة[٥].

وطلبت وزارة الخارجية البريطانية إلى سفير جلالته في الأستانة اللورد بونسبي(ponsoby) أن يعمل بكل ما بوسعه من أجل أن يستصدر فرماناً سلطانياً يؤذن بعمل هذه البعثة، ورقّت الكابتن تشيسني إلى رتبه كولونيل، وجعلته يقوم بمهمة خاصة

---

(١) رستم، أسد: المحفوظات الملكية المصرية، ج٣، ص ٣٣٩-٣٤٠ .

(٢) المصدر نفسه، ص٤٦٥.

(٣) المصدر نفسه، ص١٨٦-٢٢٣.

(٤) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري، ص١١٨.

(٥) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص١٥٥.

رسميه، وجاء نص هذه المهمة ليبين أن تشيسني يسعى إلى ربط ممتلكات بريطانيا العظمى في الشرق بالبحر المتوسط، عن طريق استخدام السفن البخارية في نهر الفرات، وأوجب النص السعي للوصول إلى هذه الغاية بجميع الوسائل السلمية وبالتعاون مع الدولة العثمانية والحصول على موافقتها ومعونتها[١].

عمل اللورد بونسنبي في سبيل هذه الغاية بواقعية وبمهارة سياسية، وكان الغرض من ذلك منع باشا مصر من عدّ الأراضي التي استولى عليها ملكاً خاصاً به[٢].وبالفعل حصلت بريطانيا على ما أرادت، وأصدر السلطان محمود الثاني فرماناً في ٢٩ كانون الأول ١٨٣٤م نص بالسماح لبريطانيا بالإبحار في نهر الفرات واستثمار الملاحة فيه ما دام مفيداً للدولتين[٣].

انطلقت البعثة من ليفربول[٤] في الرابع من شباط ١٨٣٥م متجهة نحو مالطا فقبرص، فخليج إنطاكيا على الساحل الشامي، ووصلت إلى السويدية في الثالث من نيسان ١٨٣٥م[٥]. إلا أن محمد علي باشا عارض نقل القوارب إلى ضفاف الفرات قبل قبل أن يتلقى التعليمات التي طلبها من الديوان بهذا الصدد، محاولاً بذلك كسب الوقت، وهو يأمل أن يساعد انتهاء الفصل وقلة المياه على إفشال مشروع تشيسني[٦]. وتعرضت البعثة لاعتداء من جانب محمد شريف[٧] في السويدية الذي وضع يده على بعض أشيائها باسم الحكمدار، غير أن محمد علي باشا لم يكن راضياً على فعلته هذه،

---

(١) المرجع نفسه، ص١٥٥.

(٢) حجار، جوزيف: أوروبا ومصير الشرق العربي(حرب الاستعمار على محمد علي باشا)، ترجمة: بطرس حلاق، ماجد نعمة، مراجعة: حسن فخر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،١٩٧٦م ،ص٩٩.

(٣) مجموعة من الباحثين: تاريخ العراق المفصل،ص١٢.

(٤) ليفَربُول: مدينة وميناء ومقاطعة ذات حكومة محلية في ميرسيسايد في بريطانيا،تقع على الضفة الشمالية لمصب نهر ميرسي .يبلغ عدد سكانها حوالي ٤٤٨ألف نسمة، وهي واحدة من المدن الخمس الكبرى في بريطانيا. ويبلغ طول أرصفة الميناء في ليفَربُول١١ كم .انظر الموسوعة العربية العالمية، ج٢١، ص٢٨٩.

(٥) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص١٥٥.

(٦) حجار، جوزيف: المرجع نفسه، ص٩٩.

(٧) محمد شريف باشا(١٨٢٣– ١٨٨٧م): ولد عام ١٨٢٣،توفي عام١٨٨٧م، هو الوزير الخطير الجامع بين العلم والسياسة والفضل والرئاسة، ولد في القاهرة من عائلة تركية الأصل، أدخله محمد علي باشا المدرسة العسكرية، ثم بعثه إلى أوروبا للتخرج في العلوم من باريس، نال رتبة يوزباشي أركان حرب .انظر: زيدان، جرجي: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، مطبعة الهلال بالفجالة مصر،ط٢،١٩١٠،ج١، ص٢٤٠.

ومنعه عن البت في قضايا الأوروبيين قبل الاستئذان منه[١]. بالرغم من أنه كان يعارض إنشاء طريق بريطاني عبر الفرات[٢]. واتصل قنصل بريطانيا في دمشق المستر فارن(Pharn) بالحكمدار محمد شريف باشا راجياً منه تسهيل عمل البعثة.

أمر محمد علي باشا رجاله في بلاد الشام بالتريث إلى أن يصل البلاغ الرسمي بذلك من الدولة العثمانية، ثم طلب من ناظر الخارجية لديه أن يزوده بخريطة لنهر الفرات[٣]. وبعد أن اطلع عليها كتب إلى ابنه إبراهيم باشافي الثاني من نيسان ١٨٣٤م يبين له خطورة بعثة الفرات البريطانية على مصر والإسلام والمنطقة بما فيها بلاد الشام، وعزا ذلك إلى وقوع بيرجك وقلعه روم داخل الحدود التي تسيطر عليها، ورأى التنازل عنها لدرء هذا الخطر، ولجعل حكومة الأستانة مسؤولة عنه[٤].

يظهر مما سبق أن محمد علي باشا كان يدرك نتائج هذه البعثة وخطرها على دولته أولاً، وعلى المنطقة والإسلام ثانياً، فحاول أن يجعل الدولة العثمانية مسؤولة عن البعثة البريطانية التي بدت أهدافها جليّة على محمد علي باشا، فكان غرضها الأساسي التجسس ومحاولة دراسة سكان المنطقة ببدوها وقبائلها وتجنيدها في خدمة السياسة البريطانية وتأليبها ضد محمد علي باشا، ودراسة ومتابعة نتائج التحالف العثماني ــ الروسي على المصالح البريطانية[٥].

على الرغم من ذلك، اضطر محمد علي باشا أمام الظروف السياسية أن يعدل مواقفه من البعثة البريطانية، وطلب من ابنه إبراهيم باشا أن يصرح للمراكب بتفريغ محمولها إلى البر[٦].

من جانبها تابعت الدبلوماسية الروسية بعثة تشيسني في الفرات، حيث أطلع السفير الروسي معتمده لدى الباب العالي على حقيقة الموقف الروسي بقوله: «فيما يخص الملاحة في الفرات، لم يتأخر كل من يحرص على مصالح الباب العالي الحقيقية عن

---

(١) رستم، أسد: المحفوظات الملكية، ج٢، ص٤٩٦.

(٢) لوتسكي :تاريخ الأقطار العربية الحديث ترجمة عفيفة البستاني، دار الفارابي، بيروت، ط٧،١٩٨٠،ص١٣٧.

(٣) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص١٥٥.

(٤) أسد رستم: المحفوظات الملكية، ج٢، ص٥١٣.

(٥) مجموعة من الباحثين: تاريخ العراق المفصل، ص١٠.

(٦) أسد رستم: المحفوظات الملكية، ج٢، ص٥١٤.

تنبيهه من الأخطار التي تتعرض لها تجارته ومصالحه السياسية، إن هو منح دولة أجنبية امتيازات شبيهة بالتي تطلبها بريطانيا»[١].

وعرض وكيل القنصل البريطاني في طرابلس على إبراهيم باشا مطالب الكولونيل تشيسني بالمساعدة من أجل إرسال ما يحتاجه إلى نهر الفرات حسب وعد محمد علي باشا لكامبيل (Campbell) قنصل بريطانيا في الإسكندرية من جمال وبغال وغفرجية (حرس) لأجل الطريق، ويرجو عدم التأخير لما له من إضرار وأعطال وزيادة في النفقات، وهذا مالا يسمح به إبراهيم باشا لحبه للدولة البريطانية من جهة،ولتنفيذ أوامر والده من جهة ثانيه.وبعد ذلك أخبر إبراهيم باشا أباه أنه عازم على إتباع سياسة التأجيل[٢]، وأمام هذا التأخير والتأجيل لم يكن أمام تشيسني إلا أن يهدد برفع شكواه إلى حكومة الملك نظراً لما لحق به من خسارة إذا طال بقاؤه في السويدية[٣]. وخاصة بعد تعرض البعثة البريطانية لمشكلات واقتتال في السويدية. وقيام إبراهيم باشا بإرسال معاونه عوني أفندي إلى السويدية يحرض الناس على مقاطعة البعثة ودراسة أحوالها[٤].

حاول محمد علي باشا أن يراوغ ويماطل في موقفه من بعثة الفرات، فرفض بلطف ولباقة مطالب البريطانيين، وأحالهم إلى الباب العالي اعتقاداً منه أن السلطان لن يرضى أن يكون لدولة أجنبية سفن في أحد أنهار الدولة بصورة دائمة، إلا أن الأمور لم تكن كما قدّر، وإنما كانت كما رسمت وخططت السياسة البريطانية التي حصلت على موافقة الباب العالي[٥].

بعد ذلك اقترح إبراهيم باشا إبطال حكم الفرمان الممنوح من الدولة العثمانية من أجل تسهيل عمل البعثة البريطانية وإجابتهم إجابة قاطعة بعدم الإذن لهم بتسيير سفنهم في نهر الفرات[٦]. حيث كان إبراهيم باشا شديد الخوف من سياسة بريطانيا، ويخشى

---

(١) حجار، جوزيف: المرجع نفسه، ص١٠٢.

(٢) رستم، أسد: المحفوظات الملكية،ج٢، ص٥١٧-٥١٨.

(٣) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص١٥٦.

(٤) رستم، أسد: المحفوظات الملكية،ج٣ ،ص٦ -٧.

(٥) حجار، جوزيف: المرجع نفسه، ص١٠٠-١٠١.

(٦) رستم، أسد: المحفوظات الملكية، ج٣، ص٨.

أن تكون بعثة الفرات البريطانية خطوة تمهيدية لعمل عسكري عظيم[١]، يستهدف السيطرة على المنطقة بما فيها بلاد الشام.

وفي الحقيقة، يتضح من تشاؤم تشيسني وتردده بعد قيامه برحلته الأولى واكتشافه الكثير من الصعوبات التي لا يمكن التغلب عليها، ثم غير رأيه وأبدى حماسة شديدة للمشروع بتشجيع الساسة البريطانيين له في لندن، وإحاطة الجمهور له بهالة من التقدير والإعجاب، كل هذا يدل على أن الحكومة البريطانية تمسكت بمشروع الفرات لأسباب استراتيجيه وسياسية أكثر من كونها تجارية[٢]. أي أن غايتها الوقوف على أحوال المنطقة ومواجهة التحالف الروسي ــ العثماني، وتأليب أهالي الشام ضد محمد علي باشا في الوقت نفسه.

على الرغم من شعور إبراهيم باشا بخطورة بعثة الفرات البريطانية فإنه كان يميل إلى الدخول في المفاوضات مع البريطانيين بقصد الوصول إلى شيء من التفاهم، فكتب إلى والده في ٧ أيار ١٨٣٥م يقول: «ولنفرض إننا اتفقنا مع الدولة ومنعنا البريطانيون من تنفيذ طلبهم، فماذا يكون حالنا إذا أعلنوا الحرب علينا، واحتلوا جزيرة كريد (كريت)[٣]، وقطعوا تجارتنا في البحر، وإذا كان الغرض من إنشاء القلعة على الفرات هو تمهيد السبيل للاستيلاء على بغداد، فكيف يمكننا أن نردهم عن بغداد إذا كان غرض البريطانيون هو المحافظة على سلامة الملاحة في نهر الفرات؟ فلماذا لا نتحاشى كسر خاطرهم، ونتعهد نحن بتأمين مواصلاتهم؟»[٤].

وفي أواخر أيار ١٨٣٥م تمكن الكولونيل كامبل من اطلاع العزيز (محمد علي باشا) على الفرمان الذي[٥] أذن للبريطانيين بتسيير باخرتين في نهر الفرات وتسهيل

---

[١] المصدر نفسه، ص٢٠.

[٢] رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص١٥٤.

[٣] جزيرة كريت : جزيرة يونانية في البحر المتوسط، وقد بدأ بها أول حضارة أوروبية مهمة، الحضارة المينوية، منذ خمسة آلاف عام .وتقع الجزيرة علة مسافة ١٠٠ كم جنوبي بيليبونيسوس، شبه الجزيرة الجنوبية لليونان، تبلغ مساحتها ٨،٣٣٢ كم^{2}، وهي أكبر جزر اليونان، وعاصمتها خانيا .وتعد مدينة غراكليون ميناء الجزيرة ومركزها التجاري الرئيس، وأكبر مدنها. انظر : الموسوعة العربية العالمية، ج١٩،ص٢٣٩.

[٤] رستم، أسد: المحفوظات الملكية، ج٣، ص٢٠.

[٥] المصدر نفسه، ص١٢.

أعمال البعثة[١]. فكتب محمد علي باشا إلى ابنه إبراهيم باشا بالسماح للبعثة بنقل أمتعتها[٢]. وبوجوب إجلاء الموظفين المصريين عن بيره جك وروم قلعة كي لا تصل هذه الأمتعة إلى هاتين المنطقتين وهما في حوزة الحكومة المصرية[٣].

حاول محمد علي باشا التقارب مع الباب العالي والاتفاق معه لمنع البريطانيين من تنفيذ مشروعهم في نهر الفرات[٤]، لأنه كان يعارض وبصورة قاطعة إنشاء طريق نهري بريطاني عبر الفرات[٥]. لكن إبراهيم باشا كان يرى أن الأمور جرت كما خطط خطط لها الساسة البريطانيون حيث يقول رداً على كتاب والده: «مما لاشك فيه أنه إذا توصل البريطانيون إلى إقامة المعاقل والحصون على مجرى الفرات، وتحقق الأمر الذي نخشاه كثيراً جداً، فقد يعرف الحقيقة كثيرٌ من الناس ويدركون أنك لست السبب في ذلك، لكن عامة الشعب الإسلامي الذي يجهل بواطن الأمور سيقولون: إن هذه الأعمال التي تمت على حدودنا إنما كان إتمامها برضانا وتسليمنا، وأما الاتفاق الآن مع الباب العالي على ذلك فهو من الأمور المستحيلة، لأن الحرب حفرت هاوية بيننا وبين العثمانيين، وقلوبهم مملوءة بالحفيظة علينا، زد على ذلك، إن طلب الاستقلال الذي وجهته إلى الدول إبان ثورة نابلس قد أزال من نفوسهم كل ما بقي من الثقة بنا منهم، يرفضون كل اتفاق معنا، وهم يقولون: إذا نحن اتفقنا مع البريطانيين بقيت لنا على الأقل بورصة والأستانة، ولا تهدم الدولة العثمانية، أما الاتفاق مع محمد علي باشا فهو الفناء التام، فلم يبق إذاً من شك في أن الباب العالي يخشى على وجوده وكيانه من وراء الاتفاق معنا»[٦].

---

(١) العزاوي المحامي، عباس :موسوعة تاريخ العراق بين إحتلالين، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان،٢٠٠٤ م، ص٢٩.

(٢) رستم، أسد: المحفوظات الملكية، ج٣، ص.١٢.

(٣) المصدر نفسه، ص.١٠.

(٤) بركات، داود: البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتحه الشام، المطبعة الرحمانية بمصر، د.ت،ط، ص١٣٥.

(٥) لوتسكي: المرجع نفسه، ص١٣٧.

(٦) بركات، داود: المصدر نفسه، ص١٣٥ .

لم يكتف البريطانيون بالحصول على موافقة الدولة العثمانية، وبالتالي رضوخ محمد علي باشا لهذه المطالب، بل سعوا من أجل حمل محمد علي باشا على الإنفاق لنقل الباخرتين البريطانيتين،إلا أنه رفض ذلك[١].

في الحقيقة، حاول البريطانيون استخدام بعثة الفرات بكل ما لديها، من أجل تحقيق مصالحهم،وتأليب الناس حتى في داخل بريطانيا ضد محمد علي باشا، فنشروا في جرائدهم أن محمد علي باشا أعاق مشروع الفرات، وعرقل أموره، فعابوا على الإدارة المصرية في بلاد الشام وقبحوها[٢]. وهذا ما كانت تسعى إليه السياسة البريطانية، أي أن تعزل محمد علي باشا، وتشعل الثورات في داخل بلاد الشام، وتحرض السلطان العثماني وحتى الرأي العام داخل بريطانيا ضده.

اتخذت البعثة من بيره جك مركزاً لأعمالها، فأقامت فيها البيوت الخشبية والمستودعات[٣]. وفي ربيع ١٨٣٦م سار الكولونيل تشيسني في مركبيه البخاريين المسميين (دجلة والفرات) في نهر الفرات من بيره جك[٤]. وبدأ رحلته الاستكشافية، فسبر غور الفرات، وقاسه قياساً علمياً كاملاً، فأتحف العالم بخريطة دقيقة لوادي الفرات لأول مرة[٥]. وبالإضافة إلى رسم الخرائط المفصلة اتصل بعدد غير قليل من القبائل. وتعرف على أحوالها، ودوّن الشيء الكثير من المعلومات عن البلاد وساكنيها ماضياً وحاضراً[٦]. وقدم وصفاً لجميع المناطق التي مرّ بها، فقد وصف دير الزور بقوله: «الدير مبنية على هضبة مخروطية على الضفة اليمنى للنهر مواجهة لجزيرة الحويقة، وعدد بيوتها ألف،وجزيرة الحويقة واقعة بين ذراع الفرات وقناة لتخفيف المياه في أثناء الفيضان، وهذه القناة جيدة الحفر قابلة لسير المراكب»[٧].

---

(١) رستم، أسد: المحفوظات الملكية، ج٣، ص٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٧.

(٣) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص١٥٧.

(٤) غرايبة، عبد الكريم: سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠-١٨٧٦ م، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، ط١،١٩٦١-١٩٦٢م،ص١٥٥.

(٥) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص١٥٧.

(٦) صالح، زكي: المرجع نفسه، ص٤٧.

(٧) محمد مازن شاهين: أحداث خالدة في تاريخ دير الزور، دير الزور، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٣٣.

يتضح مما سبق أن غاية البعثة لم تكن من أجل دراسة صلاحية الفرات للملاحة فقط، وإنما كانت غايتها التعرف على المنطقة ورسم الخرائط الدقيقة لها، والاتصال بالقبائل والسكان ومعرفة أحوالهم وطبيعتهم والعمل من أجل كسب سكان بلاد الشام وتجنيدهم لخدمة السياسة البريطانية.

ما يؤكد هذا قول للقنصل البريطاني يشير فيه إلى استعداد الباب العالي للحرب وموافقة روسيا على ذلك، وقلة ارتياح القنصل إلى موقف الكولونيل تشيسني وعدم تثبته من ميل القبائل العربية في بلاد الشام لأنهم لم يدخلوا تمام الدخول في دائرة الطاعة، فمن يدري في حالة اندلاع الحرب أي سبيل يسلكون؟[١].

بالإضافة إلى ذلك، استغلت بريطانيا فكرة الملاحة في نهر الفرات خلال المنافسة بين الفرنسيين والبريطانيين حول طرق المواصلات التي تربط الشرق بالغرب، وأخذ البريطانيون يروجون الدعاية ضد الفكرة التي طرحتها الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م لربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط[٢].

- أهم الصعوبات التي اعترضت بعثة تشيسني في نهر الفرات:

عانت البعثة من صعوبات كثيرة منها غرق الباخرة دجلة وعدد من رجالها ومعداتها[٣] قرب مدينة عانة[٤].فاضطر الكولونيل أن يكمل رحلته بباخرة واحدة[٥]. حيث بقيت الفرات، وقد قابل أهل الحلة[٦] في العراق البعثة كما يقابل الكفَار، وتصدت لهم قبائل الخزعل بشراسة، ووقعت الباخرة في سوق الشيوخ بالفخ الذي نصبه القنصل الفرنسي لإحباط البعثة وخططها باستعمال الحواجز من جذوع النخيل[٧].

---

(١) رستم، أسد :المحفوظات الملكية، ج٣، ص٨٢.

(٢) مراد، محمد عدنان: المرجع نفسه،٢٥٩.

(٣) محمد، صالح خضر: المرجع نفسه، ص٢٨.

(٤) عانه: بلدة صغيرة على جزيرة في وسط الفرات، وهي قريبة من الحديثة. انظر: أبي الفداء: تقويم البلدان، ص٢٨٧.

(٥) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص١٥٧.

(٦) الحله: تقع بين بغداد والكوفة، أول من اختط بها المنازل سيف الدولة صدقة بن دبيس بن علي بن مزيد الاسدي. انظر: أبي الفداء: تقويم البلدان، ص٢٩٨-٢٩٩ .

(٧) لونكرك، المستر ستيفن هيمسلي: أربعة قرون من تاريخ ترجمة: جعفر خياط دار الكشاف لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٤٩، ص٢٧٩.

بالإضافة إلى كل هذه الصعوبات التي واجهت تشيسني هناك صعوبات عديدة أخرى، منها:

أولاً: مجرى النهر غير الدائم، وقلة عمقه في مواقع كثيرة حتى في موسم الفيضان ووفرة المياه، أما في الخريف فيغدو غير صالح للملاحة بالمرّة[١].

ثانياً: صعوبة حفر ترعة لوصل نهر الفرات بالبحر المتوسط بسبب ارتفاع الأرض في جوار حلب إلى أكثر من ٤٠٠ متر، مما يجعل هذه الفكرة بعيدة عن التحقيق، حتى ولو أمنت نفقات هذا المشروع المقدرة بسبعين مليون ليرة ذهبية عثمانية[٢].

ثالثاً: تضاعف طول نهر الفرات بسبب مجراه المتعرج،وضفتاه على امتداد هذه المسافة الطويلة مرتع للقبائل الرُّحَّل[٣].

رابعاً: عدم إتقان تشيسني لغة العرب، وعداء القبائل العربية لبعضها بعض، وعدائها لهذا الغريب الذي اقتحم بلادهم وعدّه مصدراً دائماً للخطر، مما اضطره إلى استخدام السرية التامة في الحصول على المعلومات اللازمة حول عمق ومسار النهر وطابعه والتيارات، لذلك قام بإجراء جزء كبير من دراسته وملاحظاته على النهر في بئر حفره يمكن من خلاله أن يعمل سراً على سبر النهر ودراسته[٤].

وأمام كل هذه الصعوبات توصلت البعثة في نهاية الأمر إلى أن نهر الفرات لا يصلح لملاحة السفن البخارية، في بعض مناطقه، ولئن أخفقت البعثة في تلك المحاولات في اتخاذ الفرات طريقاً للمواصلات، فإنها نجحت في نواح أخرى منها :

١- أطلق فرديناند دوليسبس[٥](Ferdinand deLesseps) على تشيسني (لقباً هوأبو قناة السويس) لأن تشيسني أكد إمكانية حفر قناة تصل البحرين الأحمر والمتوسط عبر برزخ السويس[١].

---

(١) بازيلي، قسطنطين :المصدر نفسه، ص٢٨٢.

(٢) علي، محمد كرد: خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت ط٢، ١٩٧١م،ج ٥، ص١٤٨.

(٣) بازيلي، قسطنطين: المصدر نفسه، ص٢٨٢.

(٤) http://en.wikisource.org/wiki/Chesney,_Francis_Rawdon_(DNB00)

(٥) فرديناند دي ليسيبس (Ferdinand_de_Lesseps)(١٨٠٣-١٨٩٤م): ولد في فرساي عام١٨٠٣م، أمضى سنواته الأولى في إيطاليا، حيث كان والده يعمل في القنصلية الفرنسية فيها، تلقى تعليمه في كلّية هنري الثامن، بين عامي (١٨٢٥-١٨٢٧ م) شغل منصب مساعد نائب في قسم التموينات للجيش، في عام ١٨٢٨م أرسل إلى تونس كمساعد قنصل، وفي عام١٨٣٢م تم تعيينه نائب قنصل في الإسكندرية، وأرسلت إليه وهو في الإسكندرية العديد من الكتب، وكان

٢- نجحت البعثة البريطانية في مهمتها وأغراضها الأساسية ألا وهي دراسة ومتابعة نتائج التحالف العثماني ــ الروسي على المصالح الاستراتيجية البريطانية في الشرق، بعد قيام محمد علي باشا بالسيطرة على بلاد الشام وتهديد السلطان العثماني محمود الثاني في عقر داره، ثم إقامة تحالف عسكري عثماني ــ روسي ضد محمد علي باشا بموجب اتفاقية هنكار أسكلة سي عام ١٨٣٣م، وقد عبّرت بريطانياعن قلقها حيال هذا التحالف وازدياد النفوذ الروسي، فقامت بإرسال بعض البريطانيين إلى المنطقة بصفات مختلفة، ومن هؤلاء كان تشيسني، وأكدوا في كتاباتهم وتقاريرهم على خطورة التهديد الروسي للمصالح البريطانية في المنطقة والمواصلات البريطانية التي تمر في المشرق العربي بما فيها بلاد الشام نحو الهند.

تابع تشيسني طريقه إلى الهند من أجل التشاور مع البريطانيين في بومباي حول تطوير الطريق الجديد، ولم يعد إلى بريطانيا حتى منتصف عام ١٨٣٧م، وانشغل بعدها عن مشروعه بسبب تكليفه بقيادة المدفعية في هونغ كونغ، حيث بقي فيها حتى عام ١٨٤٧م[٢].

٢- دور بريطانيا في إحباط محاولات محمد علي باشا إعلان الاستقلال:

لما رأى محمد علي باشا أن الباب العالي يحشد الجيوش ويستنجد بروسيا من أجل إخراجه من بلاد الشام أبلغ الدول الأوروبية عزمه على طلب الاستقلال[٣] مستغلاً قلق أوروبا، وخاصة بريطانيا، من ازدياد النفوذ الروسي في الدولة العثمانية بعد التوقيع على اتفاقية هنكار أسكلة سي، ومن أجل ذلك اتصل في صيف عام ١٨٣٤م بقناصل بريطانيا وفرنسا والنمسا في مصر، وأرسل لهم في ٣ أيلول مذكرة أفصح فيها عن

من بينها مذكرات مكتوبة عن قناة السويس، كما تلقى تعليمات أخرى من قبل المهندس لوبير، مما جعله يطرح فكرة إنشاء قناة بين البحر المتوسط والبحر الأحمر عبر برزخ السويس، شغل بين عامي (١٨٣٣-١٨٣٧ م) قنصلاً عاماً في الإسكندرية، وفي عام١٨٣٩ م قنصلاً في رورتردام(Rotterdam) .ثم في برشلونة عام١٨٤٢ م، وأصبح وزيراً بين عامي (١٨٤٨-١٨٤٩ م)، توفي في شاتو(Shatow) في كانون الأول١٨٩٤م دفن في مقبرة في باريس.انظر: فرديناند دي ليسيبس http://en.wikipedia.org/wiki/Ferdinand_de_Lesseps

(١) ريجنكوف، م، سيميليانسكايا، أ: المصدر نفسه، ص٢٧٣.

(٢) http://en.wikisource.org/wiki/Chesney,_Francis_Rawdon_(DNB0 0)

(٣) بركات، داود: المصدر نفسه،١٣٢.

عزمه على إعلان استقلاله عن السلطان العثماني، وبينً لهم أن هـذا هـو الضـمان الوحيد ضد تقدم روسيا في الولايات العثمانية، لاسيما في بلاد الشام[1].

لم تلق هذه المذكرة قبولاً لدى بريطانيا التي تمسكت بكل حزم وقوة بوجوب إعادة بلاد الشام إلى السلطان العثماني، لأن امتداد النفوذ المصري في بلاد الشام يجعلها دولة بحرية قوية من دول البحر المتوسط، ويجعل لها حق الإشراف على طريق الهند مـن ناحية الفرات والعراق فضلاً عن طريق البحر الأحمر وبرزخ السويس في وقت كانت تسعى فيه بريطانيا إلى تجميد موازين القوى الأوروبية دون السماح لأي منها بتحقيـق مكاسب تهدد الاستقرار الأوروبي وتخلّ بمبدأ التفوق البريطاني[2].

لم تخف الحكومة البريطانية استياءها من قول محمـد علـي باشـا إن السياسـة البريطانية معادية للسياسة الروسية، لأن البريطانيين ما قبلوا يوماً أن تكون سياسـتهم أداة مساومة أو موضوعاً للأحاديث، وهي ليست في حاجة إلى نصائحه فيمـا يتعلـق بعلاقتها الدولية ومصالحها الحيوية[3]. فردت بريطانيا على مذكرة محمد علـي باشـا ناصحة إياه أن لا يميل عن واجب الخضوع للسلطان حليف بريطانيا وصديقها، وأن لا يعمل ما يمكن أن ينتج عنه شيء من القلق في الأوضاع، فتضطر بريطانيا إلى مساعدة الباب العالي ضده[4].

ومما يوضح لنا سبب استياء السياسة البريطانية من محمد علي باشا تقرير فـارن القنصل البريطاني في دمشق عام١٨٣٤م، حيث ذكر فيه: "إن تجارة بريطانيا لا تتمتع في بلد من بلاد العالم كما في الدولة العثمانية، وإن محمد علي باشا لا يمكن أن يعطي بريطانيا امتيازات كالتي منحتها لها الدولة العثمانية، وفوق ذلك، إن محمد علي باشـا ينشئ المعامل، وهو الآن يورد مصنوعاتها إلى بلاد الشام، وكذلك من الوجهة السياسية فإن الاتفاق مع الباب العالي أفضل"[5].

---

(١) إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٢،ص١٢٠.
(٢) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري، ص١٧٤-١٧٥ .
(٣) الغنام، سليمان بن محمد: المرجع نفسه، ص١٠٤.
(٤) إسماعيل، عادل وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٢، ص١٢١.
(٥) بركات، داود: المصدر نفسه، ص١٣٤.

ومن الأسباب الأخرى التي جعلت السياسة البريطانية تتجه نحو الخط المعادي لمحمد علي باشا ما يعود إلى ازدياد النفوذ الروسي في الدولة العثمانية، وازدياد النفوذ الفرنسي لدى محمد علي باشا، لذا قامت بإرسال الجواسيس إلى بلاد الشام من أجل تحريض السكان على الثورة وإمداد الثوار بالمال والسلاح، كما عمل قناصلها على حماية المعارضين لحكومة محمد علي باشا في بلاد الشام . ونشروا الدعايات، واستغلوا البريد الخاص بهم في سبيل نقل الرسائل المضادة لحكومة محمد علي باشا في بلاد الشام[١].

ولذلك أكد بالمرستون عزمه على وأد محاولة محمد علي باشا الاستقلالية، كما ثارت ثائرة بقية الدول الأوروبية، وهددت روسيا بتطبيق اتفاقية هنكار أسكلة سي، وهذا ما حدا بمحمد علي باشا إلى تأجيل إعلان الاستقلال لفترة لاحقة، غير أنه أيقن استحالة تأييد أية دولة أوروبية لخطوته هذه[٢].

وبالرغم من كل شيء، فقد جدد محمد علي باشا محاولته في إعلان الاستقلال بعد فترة، إلا أنه سرعان ما تراجع عنها أمام مقاومة الدول الأوروبية له، خاصة بريطانيا التي ترغب في أن تمنع بالقوة محمد علي باشا، أو أي من خلفائه أن يعلن استقلاله[٣].لذا أعلن في١٦ أيلول ١٨٣٨م عن تراجعه عن مسألة الاستقلال، خاصة بعد أن توصلت الدول الأوروبية الأربع الكبرى في ٢٤ أيار ١٨٣٩م إلى اتفاق وقع في لندن تضمن رفض سياسة محمد علي باشا الاستقلالية رفضاً قاطعاً[٤].

٣- دور بريطانيا في إجهاض التقارب المصري ـ العثماني:

بعد أن أدرك محمد علي باشا رفض جميع الدول الأوروبية إعلان الاستقلال، وأن انتصاراته العسكرية في بلاد الشام، لم تكن لتتم لولا تطابقها مع أهداف السياسة البريطانية[٥]. حاول ترميم علاقته بالسلطان العثماني، فطلب إجراء مفاوضات مباشرة عام ١٨٣٦م بمعزل عن جميع الدول، وعرض مبلغاً قدره ٦٠٠ ألف كيس مقابل

---

(١) بني هاني، خالد أحمد مفلح :المرجع نفسه، ص٢١٤.

(٢) أبو فخر، فندي جدعان: بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا ١٨٣١-١٨٤١ م، ص١٩٩.

(٣) M. SABRY : ibid, p 439.

(٤) أبو فخر، فندي جدعان: بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا ١٨٣١-١٨٤١ م، ص١٩٩.

(٥) الغنام، سليمان بن محمد: المرجع نفسه، ص١٠٥.

الاعتراف له بحق الوراثة في مصر وبلاد الشام كلها، فرفض السلطان هذا العرض.أما رد فعل الحكومة البريطانية فقد كان واضحاً وعنيفاً تجاه تخبط محمد علي باشا ومحاولة الاستقلال، أو التقارب مع الباب العالي[١].

ولم ترض بريطانيا عن المساعي الروسية في قيام مصالحة بين السلطان العثماني ومحمد علي باشا من شأنه أن يحافظ على الوضع الراهن، ذلك لأن الحل السلمي يناهض المصالح البريطانية حسب تعبير اللورد بونسبي(ponsoby) الذي أرسل إلى حكومته يخبرها بالأمر: "لقد علمت أن السلطان يميل إلى قبول استرضاء ومصالحة مع الباشا....................إن قيام ذلك يناهض المصالح البريطانية ويلحق فيها خسارة فادحة"[٢].

٤- الاتفاقية التّجارية البريطانيّة ـــ العثمانيّة (بلطة ليمان Balta Liman) عام١٨٣٨م وآثارها السّياسية:

أ- أسباب التوقيع على اتفاقية بلطة ليمان عام١٨٣٨م:

١- عودة مصطفى رشيد إلى الأستانة في أيلول عام ١٨٣٧م، وتعيينه وزيراً لخارجية الدولة العثمانية، وتسليمه للسلطان العثماني محمود الثاني مذكرة أورد فيها ما تجمع لديه من ملاحظات شخصية إبان نشاطه الدبلوماسي في باريس ولندن بين عامي (١٨٣٤-١٨٣٧)م وتتضمنت المذكرة الحلول الممكنة للقضاء على مشكلة من أهم مشكلات العلاقات الخارجية للدولة العثمانية، وهي سيطرة محمد علي باشا على بلاد الشام وتمرده على الدولة العثمانية.وقد أشار مصطفى رشيد إلى التنافس بين بريطانيا وروسيا على الدولة العثمانية، واستياء بريطانيا من وجود اتفاقية هنكار أسكلة سي، وأكد مصطفى رشيد في مذكرته أن بريطانيا سوف تؤيد السلطان عسكرياً ضد محمد علي باشا، وأن هذا التأييد يلبي مصالح السياسة الخارجية البريطانية[٣].

كانت الدولة العثمانية بحاجة إلى المساعدة السياسية والعسكرية البريطانية، فقدمت لها اتفاقية بلطة ليمان عام١٨٣٨م، وهي اتفاقية تجارية مهَّدت لاتفاقيات لاحقة سياسية

---

(١) إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٢، ص١٢٨.

(٢) حجار، جوزيف: المرجع نفسه، ص١٤٢.

(٣) دولينا، نينل ألكسندروفنا : المرجع نفسه، ص٩٠.

وعسكرية[1]. لأن الباب العالي كان يدرك مدى صعوبة عقد اتفاق عسكري ثنائي مع بريطانيا ضد محمد علي باشا، وكانت بريطانيا تدرك أنّ تدّخلها من جانب واحد يمكن أن يفسد علاقتها مع فرنسا.

وفي هذه الظروف اضطرت الحاجة كلاً من بريطانيا والباب العالي إلى العمل تدريجياً وبحذر من الجانبين لأن الباب العالي يخشى نقض تحالفه صراحة مع روسيا مع فقدان الثقة في استعداد بريطانيا لتقديم مساعدة عسكرية له ضد محمد علي باشا. فكان التقارب الأول اقتصادياً عندما قدمت الدولة العثمانية تنازلات حقيقية للمصالح التجارية البريطانية تمثلت في موافقة الباب العالي على عقد اتفاقية تجارية تعود بأرباح طائلة على بريطانيا[2].

٢ً – تقليم أظافر محمد علي باشا، إذ راح السفير البريطاني في الأستانة يزيد من حقد السلطان العثماني عليه، ويقنعه بضرورة الحد من مبادراته الاقتصادية وإنهاء النظام الاحتكاري الذي أوجده في مصر وبلاد الشام، لأن هذا النظام وضع في يده كل موارد البلاد وتجارتها، يدر عليه ثروة ضخمة تمكنه من بناء الأساطيل وتجهيز الجيوش وإقامة الحصون والقلاع، فيصبح سيد الموقف بلا منازع، وخطراً على السلطان العثماني، فتضخمت مخاوف السلطان محمود الثاني[3].

٣ً – رغبة بريطانيا في القضاء على نظام محمد علي باشا الاحتكاري الذي يرجع له الفضل في قيام صناعات كثيرة في مصر وبلاد الشام، حيث ازدهرت صناعة الأثواب الحريرية والقطنية، وصناعة سروج الخيل ودبغ الجلود، والصابون، والمصابيح الزجاجية، كما أنشأ معاصر الزيت، واستورد الآلات من فرنسا، وعمل على استخراج الفضة والنحاس والحديد، فازدهرت التجارة[4]. وكان هذا شيئاً جديداً في بلاد الشام، ولم يرق لبريطانيا التي أزعجها هذا النظام، لأنها كانت تسعى إلى تسويق تجارتها بشكل فعلي في بلاد الشام[5].

---

(١) خوري، جورج: المرجع نفسه، ص٨٩.

(٢) دولينا، نينل ألكسندروفنا: المرجع نفسه، ص٩٢.

(٣) إسماعيل، عادل، و خوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٢، ص١٣٤.

(٤) العطار، نادر: المرجع نفسه ، ص١٦٩.

(٥) سمحات، قاسم: المرجع نفسه، ص١٠٦.

وسعت بريطانيا إلى القضاء على سياسة الاحتكار التي طبقها محمد علي باشا في مصر وبلاد الشام، لأنها أساس قوته المالية، وقد عبر عن ذلك سفيرها في الأستانة: حيث بيّن للباب العالي أن إلغاء الاحتكار التجاري في الدولة العثمانية سيترتب عليه تقويض الدعائم المالية للباشا[١]. ولم يكن مراد بريطانيا وقتئذ منحصراً في الحرص على حماية تجارتها، وإنما كان هدفها ومقصودها أيضاً هدم قوام قوة محمد علي باشا المتجددة[٢].أما الدولة العثمانية فكانت تأمل من وراء هذه الاتفاقية أن توافق بريطانيا على إنشاء تحالف عسكري ضد محمد علي باشا مقابل هذا التنازل من جانبها[٣].

٤- رغبة بريطانيا في إزالة جميع الاحتكارات والقيود التجارية في الدولة العثمانية ككل، وإن كانت موجهة في الأساس ضد الاحتكارات التجارية التي فرضها محمد علي باشا، فأرادت أن تحقق أكثر من هدف في الوقت نفسه، إضعاف محمد علي باشا وإزالة العقبة الرئيسة في وجه التجارة البريطانية في سائر ولايات الدولة العثمانية[٤] والقضاء على سياسة الاحتكار والالتزام المطبّقة من قبل السلطات العثمانية، حيث كثر عدد المحتكرين والملتزمين، وتنوعت أساليبهم، فضج التجار البريطانون من أعمالهم، وشكوا أمرهم إلى حكومتهم، فسارع بالمرستون في عام ١٨٣٥م وأكد على بونسنبي السفير البريطاني في الأستانة بوجوب الحد من سياسة الاحتكار والالتزام للوصول إلى وضع جديد يفسح مجالاً أوسع للاتجار مع الدولة العثمانية، ويسهل عمل التجار البريطانيين فيها.وهنا قام الدبلوماسيون البريطانيون في الأستانة يعملون لذلك، لكن السبب الأكبر في القضاء على سياسة الاحتكار كان قناعة السلطان نفسه بوجوب التغيير والتبديل، وكان السلطان مولعاً ببونسنبي، شديد الاحترام والتقدير لشخصيته، وكثير الاحتكاك به، يستشره في كثير من أموره، ويعلق الآمال على ما تقدمه حكومته من معونة في نزاعه مع محمد علي باشا[٥].

---

(١) إسماعيل، حلمي محروس :المرجع نفسه، ص١٨٢.

(٢) حقي، إسماعيل: لبنان مباحث علمية واجتماعية، دار لحد خاطر، بيروت ،ط٣، ١٩٩٣ م، ج١، ص٢٣٢ .

(٣) دولينا، نينل ألكسندروفنا: المرجع نفسه، ص٩٣.

(٤) خوري، جورج :المرجع نفسه، ص٩٦.

(٥) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص١٥١ .

ب- اتفاقية بلطة ليمان عام ١٨٣٨م:

في صيف عام١٨٣٨م، وإبان المباحثات التي دارت بين محمد علي باشا والقناصل الأجانب بشأن إعلانه الاستقلال عن الباب العالي، اعتزمت الدولة العثمانية، بفضل المشاركة الفعالة لمصطفى رشيد، تقديم تنازلات حقيقية للمصالح التجارية البريطانية تمثلت في الموافقة على عقد اتفاقية تجارية تعود بمكاسب كثيرة لبريطانيا.

وأُعد مشروع الاتفاقية في عام ١٨٣٨م من قبل لجنة عادية، واشترك في إعداده من الجانب العثماني نوري أفندي[١] وزير المالية، وعن الجانب البريطاني القائمان بالأعمال ج. ل. بولفار (J.L.Bolfar) وج. كارترايت (J.Cartright). ولقيت الاتفاقية استحسان السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩)م، ووقعها في السادس عشر من آب ١٨٣٨م مصطفى رشيد وزير خارجية الدولة العثمانية وبونسنبي سفير بريطانيا في الأستانة[٢].

نصت الاتفاقية على إلغاء كل أنواع الاحتكارات التي كانت تمنع التجار البريطانيين من إقامة علاقات مباشرة مع التجار المحليين في الدولة العثمانية، وفرضت الاتفاقية رسوماً جمركيةً ثابتةً ومنخفضة على الواردات، والصادرات (٥% على الواردات، و١٢%على الصادرات، و٣%على تجارة الترانزيت) وكان مؤدى تطبيقها أن أصبحت المنتجات المحلية تخضع للرسوم لدى تداولها داخل الدولة العثمانية، بينما خضعت السلع المصدرة والمستوردة مرة واحدة لها لدى خروجها ودخولها إلى أراضي الدولة العثمانية[٣].

---

(١) نوري أفندي: في عام١٨٢٩م كان نوري أفندي ممثلاً للدولة العثمانية (مع مصطفى رشيد) عند توقيع الصلح مع روسيا، وكان في ذلك الوقت يشغل منصب رئيس الإدارة، ثم أصبح سفيراً للدولة العثمانية لدى لندن منذ آذار ١٨٣٥م، ومنذ منتصف عام١٨٣٦م خلف مصطفى رشيد في منصب سفير الباب العالي لدى باريس ، ثم عاد مرة أخرى في تموز ١٨٣٧م، ليشغل منصب السفيراً لدى لندن، وبعد عودته إلى الوطن في عام ١٨٣٨م شغل منصبي رئيس مجلس الأشغال العامة ووزير المالية. شارك في وضع مشروع المعاهدة التجارية بين الدولة العثمانية وبريطانيا عام ١٨٣٨م، توفي في عام ١٨٤١م، وهو في طريقه إلى برلين بصفته وزيراً مفوضاً.انظر: دولينا، نينل ألكسندروفنا: المرجع نفسه، ص١٥٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٩٢.

(٣) انظر تفاصيل اتفاقية بلطة ليمان في الملاحق، الوثيقة (٧)،ص٢٦٨-٢٧٥.انظر أيضا: محمد، صالح خضر: المرجع نفسه، ص٣٤.

كانت الاتفاقية في صالح بريطانيا تماماً،ومهدت الطريق من أجل تحويـل الدولـة العثمانيةإلى مصدر تابع للدول الأوروبية، تزودها بالمواد الأوليـة الزراعيـة، حيـث حصل البريطانيون على إمكانية ابتياع المواد الأولية بأثمان بخسة من المنتجين مباشرة أو بوساطة وكلائهم[١].كما أعطت هذه الاتفاقية البريطانيين حق التملك في سائر أنحـاء الدولة العثمانية، وتكفلت بحمايتهم وحماية ممتلكاتهم[٢].

وصارت اتفاقية بلطة ليمان أنموذجاً لاتفاقيات مماثلة عقدت مع فرنسا عام ١٨٣٨م والدول الأوروبية الأخرى،والولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٨٦١-١٨٦٢م. وفي غضون ذلك كانت قد تغيرت نسبة الرسوم على الصادرات والواردات، حيث أصبحت ٨% على كل منها منذ عام ١٨٦١، كما أخضعت رسوم الواردات لتخفـيض سـنوي قدره ١% ابتداء من عام ١٨٦٩م، وقد ترتب على تطبيق اتفاقية بلطـة ليمـان تـدفق البضائع الأوروبية إلى ولايات الدولة العثمانية وخروج الموارد الأولية منهـا لتغذيـة المصانع الأوروبية، وخاصة البريطانية[٣].

رغم أن هذه الاتفاقية كانت تضر سياسة محمد علي باشا في البلاد الواقعة تحـت حكمه، إلا أن فرنسا لم تعترض عليها، لأن مبادئ الاتفاقية تتفـق وأصـول السياسـة الفرنسية المبنية على أساس حرية التجارة، وحينما أدرك محمد علي باشا أن المقصـود من الاتفاقية إحراجه، لم يعلق عليها علناً، وإنما ذهب إلى السودان.[٤]ولم يعمل بموجبها في مصر وبلاد الشام وسائر المناطق التي يسطير عليها[٥].

ج- نتائج اتفاقية بلطة ليمان عام ١٨٣٨م:

١- كانت اتفاقية بلطة ليمان مفيدة في المقام الأول لبريطانيا، التي كانت بحاجـة ماسة، وقد راحت الرأسمالية تنمو وتتطور فيها، إلى توسيع أسـواقها وفـتح أسـواق جديدة. ولم تكن الاتفاقية متكافئة، إذ تعرضت للتجارة فوق أراضي الدولـة العثمانيـة فقط، ورسخت نظام الامتيازات الذي أفقد الباب العالي إمكانية الـدفاع عـن صـناعته

---

(١) لوتسكي: المرجع نفسه، ص١٣٧.

(٢) الغنام، سليمان بن محمد: المرجع نفسه، ص ١٠٨.

(٣) مجموعة من الباحثين: تاريخ العراق المفصل، ص١٦.

(٤) أبو حجر، جمال محمود: المرجع نفسه، ص٤٥.

(٥) برجاوي، سعيد أحمد :المرجع نفسه، ص٩٨.

الخاصة بفرض رسوم الحماية الجمركية[1]. حيث فتحت مجالاً واسعاً لـورود السـلع البريطانية إلى أسواق الدولة العثمانية، وشكلت حافزاً لتطور التجارة البريطانيـة فـي الولايات العثمانية، لاسيما في بلاد الشام[2].

٢ً- بشرت الاتفاقية بتحقيق مكاسب محددة للدولة العثمانية، وقد ساهمت في زيادة الرواج التجاري، وأدت إلى إلغاء نظم احتكار الدولة والتنظيمـات الحكوميـة والبيـع الجبري المميز للدولة الإقطاعية، والذي كان الباب العالي يطبقه على نحو واسع، وبعد أن أصبحت اتفاقية بلطة ليمان سارية المفعول، ازداد حجم التجارة وحصيلة الجمارك، وارتفع حجم المعاملات المالية[3].

٣ً- بعد عام ١٨٣٨م لوحظ بعض النهوض في الإنتـاج الزراعـي، كمـا ازداد استغلال الفلاحين، وبدأت عملية تميزهم اجتماعياً، كما ازداد دور البرجوازية التجارية الصناعية، وبناءً على ذلك يمكن القول إن النتائج الاقتصادية للاتفاقية كانت مزدوجـة، فمن ناحية لوحظ تسارع النمط الرأسمالي وزيادة الرواج التجاري، ومن ناحية أخرى، كان لتنافس السلع الأوروبية الرخيصة أثره في إعاقـة نمـو عـدد مـن الصـناعات المحليـة[4]. كما كان لها آثاراً مدمرة عليها وبالتحديد صناعة النسيج التي اشـتهرت بها بلاد الشام منذ القدم، والتي كانت تزود أوروبا بكل أنواع الأقمشة[5].

وبذلك ساهمت اتفاقية بلطة ليمان في شل الإنتـاج الحرفـي، بعـد أن أحضـرت بريطانيا منتجاتها الصناعية إلى المنطقة، وخرجت منهـا بالعمـلات والمعـادن الثمينـة[6].

---

(١) Anderson.M.S: ibid, p93.

(٢) بانتيشينكوفا ،مارينا : المرجع نفسه ،ص١٩.

(٣) دولينا، نينل ألكسندروفنا: المرجع نفسه، ص٩٤-٩٥.

(٤) المرجع نفسه، ص٩٦.

(٥) الحاج، بدر: المرجع نفسه، ص٥٧.

(٦) شوفالييه، دومينيك: مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في أوروبا، ترجمة: عبدالله عاقوري، أحمد بيضـون، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٤ م،ص١٩٤.

ثالثاً: موقف بريطانيا من حرب الشّام الثّانية (١٨٣٩-١٨٤١م):

١- التقارب الروسي ــ البريطاني:

أحسن بالمرستون استغلال الظروف الداخلية التي كانت تحيط بحكومـــة القيصـــر الروسي، ونجح في جرها شيئاً فشيئاً خلف سياسته وأهدافه المنشودة في المنطقة. ففـــي الوقت الذي كانت تلوح فيه علامات انفجار الصراع بين السلطان ومحمد علي باشـــا، طرأ على سياسة روسيا تحول جديد خلال فترة حرب الشام الثانية عام١٨٣٩م، حيـــث أصبحت في شبه عزلة سياسية، ولم يكن يمثلها في كل من لندن وباريس وفيينـــا فـــي فترة من ذلك العام (١٨٣٩م) إلا قائمين بالأعمال بدلاً من السفراء، كما أن الأوضـــاع الاقتصادية كانت سيئة، بالإضافة إلى إنشغال القوات الروسية على الحـــدود الفارســـية بقمع انتفاضات الكرج والشركس في القوقاز، مما أدى إلى إضعاف دورها في الساحة الدولية[١].

قام مترنيخ[٢] (Klemens von Metternich) (١٧٧٣-١٨٥٩م) بمحاولة للتقريـــب بين روسيا وبريطانيا في سبيل اعتماد سياسة فعالة ومشتركة لمعالجـــة الأزمـــة بـــين السلطان العثماني ومحمد علي باشا، وحققت مساعيه نجاحاً[٣]. كما ســـاهم نيســـيلرود (Nesselrode) أحد كبار رجال القيصر بإقناعه بعدم قدرة روسيا على تنفيذ بنود اتفاقية هنكار أسكلة سي، وأشار إلى ضرورة القبول بالعمل المشترك لأن التقارب الروسي ــ البريطاني سيؤدي إلى إضعاف فرنسا ومحمد علي باشا معاً[٤].

---

(١) الغنام، سليمان بن محمد: المرجع نفسه، ص ١١٣ .

(٢) كليمنس فون مترنيخ (Klemens von Metternich) (١٧٧٣-١٨٥٩م) : سياسي نمساوي مستشار النمسا (١٨٠٩-١٨٤٨ م) قاوم الحركات التحررية، نجح من خلال هيمنته على السياسة الأوروبية في صنع الاتحاد الألماني تحت قيادة النمسا، وهو رجل دولة ودبلوماسي، كان يتمتع بشخصية بارزة في السياسة الأوروبية بين عامي (١٨١٤- ١٨٤٨ م). ولد في ١٥ أيار ١٧٧٣ م في نيبوموك وعاش في أسرة أرستقراطية، في كوبلنز، في ألمانيـــا، ودرس فـــي جامعـــات ستراسبورغ(Strasburg)، وماينز(Mayniz)هربت عائلته من الجيوش الفرنسية الثورية إلى فيينا في١٧٩٤م، وتزوج هناك مترنيخ من الكونتيسة اليانور(Alyanour) . عين سفيرا في ولاية سكسونيا عام١٨٠١م، وبروسيا عـــام ١٨٠٣م، وفرنســـا النابليونيـــة عـــام١٨٠٦. انظـــر: Microsoft ® Encarta ® 2009. © 1993-2008 Microsoft Corporation. All rights reserved.

(٣) حجار، جوزيف: المرجع نفسه، ص١٤١.

(٤) أبو فخر، فندي جدعان: بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا، ص٢٠٧.

تقدم بالمرستون بعروض إلى البلاط الروسي ترمي إلى تحقيق المزيد من الاتفـــاق الأوروبي حول القضايا الشرقية، وطلب إعلان هذا الاتفاق دون تأخير،لأن ثمة احتمالاً متزايداً أن يقتضي الوضع تدخلاً مباشراً من جانب قوة واحدة(١). ولكسب الوقت أيضاً اعتمد بالمرستون طرح فكرة عقد مؤتمر دولي تحضره الـــدول الأوروبيـــة الخمـــس الكبرى لبحث النزاع المتفاقم في المنطقة، وحله جماعياً بطريقة تلزم طرفيه، وهو يعلم أن فكرة المؤتمر ستلقى تأييداً نمساوياً ومعارضة روسية، وأن النتيجة ستسفر عن تليين الموقف الروسي طالما أن هذه الفكرة تلبي رغبات مترنيخ الذي سيعمل علـــى إقنـــاع الروس بقبولها، حتى لو رفضوها في بداية الأمر، مدفوعاً بروح المحافظة على مكانـــة فيينا كمركز للسياسة الأوروبية وكمحرك رئيس لها(٢).خاصة وأن مثل هذه الفكرة قـــد تزعج فرنسا، وتجعلها تقف موقفاً سلبياً منها يصل إلى حد مقاطعة هذا المؤتمر، إلا في حال تيقنها من رفض روسيا لحضور مثل هذا المؤتمر(٣).

٢- موقف بريطانيّا من حكم محمد علي باشا في الشّام قبل موقعـــة نزيـــــب عـــام ١٨٣٩م:

رغم توقيع اتفاقية هنكار أسكلة سي، والتي أصبحت بموجبها الدولة العثمانية تحت مظلة النفوذ الروسي فإن بريطانيا لم تحجم عن تقديم المســـاعدات العســـكرية لجـــيش السلطان من أجل إعداده وتدريبه، وكان السلطان من جانبه يتوق لإيجاد أي تعاون مـــع بريطانيا، إلا أن الحذر والتمنع كان يأتي دائماً من قبلها(٤).لكن العلاقـــات العثمانيـــة ـــ البريطانية دخلت طوراً جديداً عندما تم تعيين مصطفى رشيد فـــي حزيـــران ١٨٣٧م وزيراً لخارجية الدولة العثمانية، والذي كان سفيراً لها في لندن، وجـــاء هـــذا التعيـــين تأكيداً على التقارب الواضح بين بريطانيا والباب العالي، وصـــرح وزيـــر الخارجيـــة البريطاني بالمرستون في مباحثات سرية لمصطفى رشيد أنـــه طلـــب مـــن القنصـــل

---

(١) حجار، جوزيف: المرجع نفسه، ص١٤١.

(٢) M. SABRY: ibid, p432.

(٣) أبو فخر، فندي جدعان: سورية والصراعات الدولية، ص١٧١.

(٤) الغنام، سليمان بن محمد: المرجع نفسه، ص١٠٨.

البريطاني في مصر أن يبلغ محمد علي باشا أن بريطانيا لا تعده سوى خـــادم وتـــابع للسلطان[١].

لقد تطورت العلاقات البريطانية ــ العثمانية عام١٨٣٨م إثر توقيع اتفاقيـــة بلطـــة ليمان، ولم تكن هذه الاتفاقية اقتصادية تجارية فحسب، بل ربما أن مضامينها السياسية كانت أبعد أثراً وأشد خطورة من ذلك، وشكلت خطوة من قبل بريطانيا لإضعاف محمد علي باشا تمهيداً لضربه وتحديداً صريحاً لموقفها النهائي من الأزمة[٢]. ومـــا أن تـــم توقيع الاتفاقية التجارية حتى سارع الباب العالي إلى وضع مشروع معاهدة عســـكرية مع بريطانيا تقتضي بسرعة البدء في الدخول في عمليات عسكرية بحرية ضد محمـــد علي باشا، وكانت بريطانيا راضية تماماً عن الأوضاع التي تشكلت، والتـــي ســـتؤدي حتماً إلى نشوب الحرب بين الباشا والسلطان. وعلى الرغم من رفض بريطانيـــا عقـــد اتفاقية بريطانية ــ عثمانية تتفق والمشروع العثماني، إلا أنها لم تتخل عن عزمها تقديم مساعدة فعلية للباب العالي من أجل إخضاع محمد علي باشا للسلطان[٣]. لأن بريطانيا خشيت على مصالحها في المنطقة، بعد أن وصل نفوذ محمد علي باشا إلـــى الخلـــيج العربي، وبسط سيطرته على البحر الأحمر، وقام بإنشاء المصانع التي نافست المنتجات البـــريـــطانيـــة[٤].

كان على الحكومة البريطانية لتجنب المعارضة البرلمانية وســـخط الـــرأي العـــام البريطاني إذا أقدمت على تنفيذ مخططها بتصفية الباشا أو تحجيمـــه، أن تـــدمر هـــذه الصورة التي بدا عليها محمد علي باشا بأنه رائد التقدم والتحضر في المنطقة، وإظهاره بمظهر الطاغية الذي تقوم سياسته على الحرب والنهب والاضطهاد والاحتكار، فأثارت موضوع الرق والممارسات غير الإنسانية التي تقوم بها سلطات الباشا.

ومن أجل القيام بهذه المهمة أرسلت الحكومة البريطانية الدكتور بورينغ (Bowring) أحد أعضائها البرلمانيين البارزين لدراسة الأوضاع في المناطق التي يســـطر عليهـــا محمد علي باشا، وتقديم تقرير شامل عنها. وإرسال عضو برلماني للقيام بهذه المهمـــة

---

(١) دولينا، نينل ألكسندروفنا: المرجع نفسه، ص٧٦-٧٧.

(٢) الغنام، سليمان بن محمد: المرجع نفسه، ص١٠٨.

(٣) دولينا، نينل ألكسندروفنا: المرجع نفسه، ص٩٨-١٠٣.

(٤) العطار، نادر: تاريخ سورية في العصور الحديثة، ص١٨٧.

واضح الدلالة والمغزى، فتقريره، خاصة من ناحية تقويم إنجازات محمد علـــي باشـــا وشخصه، يهدف إلى إلجام أي معارضة سياسية داخل البرلمان لسياسة الحكومة اتجـــاه الباشا، وقد وصل الدكتور بورينغ عام ١٨٣٧م، وبقي فيها حتى آذار ١٨٣٨م، وأعـــد تقريراً شاملاً على جانب كبير الأهمية، وقدمه إلى حـــكومته في آذار ١٨٣٩م[١].

وكتب بالمرستون في ٨ حزيران ١٨٣٨م إلى سفير بريطانيا في باريس يطلب منه أن يبحث مع الحكومة الفرنسية بشأن وضع اتفاق ثنـــائي لتقـــديم المعونـــة العســـكرية البحرية للدولة العثمانية إذا تمت مهاجمة الأستانة وتعرضت إلى خطر، وكان في هـــذا الطلب استدراج للحكومة الفرنسية من أجل إعلان موقفها على حقيقته، فإذا قبلت، فقدت نفوذها في مصر، وإذا أبت، فقدته في الأستانة . لكن الحكومة الفرنسية أبـــت أن تقيّـــد نفسها باتفاق كهذا. فعرض عليها بالمرستون اتفاقاً خماسياً يضم (فرنسا ــ بريطانيا ــ النمسا ــ بروسيا ــ الدولة العثمانية) ويقضي بعدم الاعتراف باستقلال محمـــد علـــي باشا، ففهمت فرنسا من هذا الاقتـــراح أن لا فائـــدة منـــه إلا للسياســـة البريطانيـــة، فعارضته[٢].

كان بإمكان بريطانيا القيام بتسوية منفردة للأزمة، فليس محمد علي باشا بقادر ولا حتى براغب في مواجهتها عسكرياً، وتجنبت ذلك من أجل تحقيق عدد مـــن الأهـــداف دفعة واحدة بإشراك جميع الأطراف المعنية. وأهداف السياسة البريطانية التي تســـعى لتحقيقها من وراء ذلك، وهي:

١ً – إبطال اتفاقية هنكار أسكلة سي بين روسيا والدولة العثمانيـــة الموقعـــة عـــام ١٨٣٣م عن طريق إشراك روسيا في التسوية الشاملة[٣].

٢ً – ميل السياسة البريطانية إلى التخلص من النفوذ الفرنسي الذي أخذ يزداد فـــي مصر، عن طريق إشراك فرنسا في التسوية أو عزلها أوروبياً، وبالتالي تحجيم نفوذها، لا في مصر وحدها، وإنما في التسوية الأوروبية والمسألة الشرقية ككل[٤].

---

(١) الغنام، سليمان بن محمد: المرجع نفسه، ص١١٠.

(٢) إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٢، ص١٣١.

(٣) M. SABRY : ibid, p 438.

(٤) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص١٦٣.

٣ً – تحطيم قوة محمد علي باشا العسكرية، فبريطانيا لا تريد أن تقوم في مصـــر حكومة قوية تسبب لها المتاعب وتهدد مصالحها بالخطر في المستقبل، لكنها لا تريد أن تقوم بعمل عسكري ضد محمد علي باشا بمفردها، لأنه سيعقد الأزمة بـــدل حلهـــا[١]. وعملت بريطانيا على حث أصحاب المناصب العليا في الدولة العثمانية على الحـــرب، لأنها شعرت بالخطر على مصالحها[٢].

وعندما أدرك السلطان أن الظرف الدولي أصبح مناسباً بادر بالهجوم على جـــيش إبراهيم باشا في نيسان ١٨٣٩م، لكن الهزيمـــة كانـــت تنتظـــره فـــي نزيب (قـــرب نصيبين)[٣]. حيث دارت معركة حامية، إلا أن أخبار الهزيمة لم تصل إلـــى الســـلطان محمود الثاني الذي وافته المنية في الأول من تموز ١٨٣٩م[٤].

٣– موقف بريطانيا من حكم محمد علي باشا في بـــلاد الشّـــام بعـــد موقعـــة نزيـــب (Nusaybin) ١٨٣٩م:

أ– مذكرة ٢٧ تموز ١٨٣٩:

نجح بالمرستون بالفعل في كسب الوقت اللازم للسلطان من أجل التهيؤ ومباشـــرة الحرب، وفتح باب المعركة مع جيش محمد علي باشا، أما بالنسبة لبريطانيـــا فكانـــت تنتظر أحد أمرين لا فرق بينهما عندها، هزيمة جيش السلطان، أم هزيمة جيش محمـــد علي باشا، وفي كلا الحالتين ستجد الطريق مفتوحة أمامها للتدخل العســـكري، وطـــرد محمد علي باشا من بلاد الشام[٥].

أثار انتصار محمد علي باشا في نزيب عـــام ١٨٣٩م الأزمـــة، ووقفـــت الـــدول الأوروبية مواقف مختلفة تبعاً لاختلاف مصالحها، فقد أعلـــن اللـــورد بالمرســـتون أن الحكومة البريطانية مهتمة بضرورة المحافظة على كيان الدولة العثمانية، إذ أنها تعـــدُّ بقاءها عاملاً لا غنى عنه في بقاء التوازن الدولي[٦].وبقاء محمد علي باشا فـــي بـــلاد

---

(١) M. SABRY : ibid, p438.

(٢) Williams. Henry smith: ibid, p 452 – 453

(٣) نصيبين :قاعدة ديار ربيعة، وهي مخصوصة بالورد الأبيض، في شمالها جبل كبي، وهي شمال جبل سنجار، وجبل نصيبين هو جبل الجودي، وهو الذي يُقال إن سفينة نوح استقرت عليه .انظر: أبي الفداء: تقويم البلدان، ص٢٨٧.

(٤) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص١٦٣.

(٥) أبو فخر، فندي جدعان: سورية والصراعات الدولية، ص١٧١.

(٦) عمر، عمر عبد العزيز: المرجع نفسه، ص٣١٩.

الشام بالنسبة لبريطانيا يجلب إليها مشكلات لا نهاية لها، وحروباً يضـــرمها احتكـــاك الجيشين على الحدود، وأن خير حل لذلك هو جعل صحراء سيناء حداً فاصلاً بينهما[١]. وفي حزيران ١٨٣٩م كتب بالمرستون: "بالنسبة لي أنا أكره محمد علي باشا الذي أعده لاشيء سوى بربري جاهل.............. وأني سأكون سعيداً في حال أن الباشا يخسر الشام أو حتى مصر نفسها"[٢].

بعد هزيمة نزيب واستسلام الأسطول العثماني لمحمد علي باشا مالت حكومة الباب العالي إلى عقد اتفاق مباشر مع والي مصر، وأخذت روسيا تدعم هذا الحل. أما اللورد بونسنبي فقد كان يعارض معارضة مطلقة مثل هذا الاتفـــاق المباشـــر[٣]. واســـتطاع بالمرستون إضعاف الموقف الروسي هذا بعد تمكنه من كسب مترنيخ إلى صفه، حيث دعا إلى اتخاذ موقف موحد اتجاه الأزمة[٤].

واجتمع سفراء بريطانيا وفرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا، ووجهوا مذكرة موقعـــة منهم إلى السلطان العثماني في ٢٧ تموز ١٨٣٩م، طلبوا منه فيها أن لا يقر شيئاً فـــي أمر المسألة المصرية إلا بعد إطلاعهم عليه، وأبدوا استعدادهم للتوسط بينه وبين محمد علي باشا لحل هذه الأزمة، وقبل السلطان والبـــاب العـــالي مـــذكرة قناصـــل الـــدول الأوروبية[٥].

وأرسل بالمرستون، الذي أحرز نصراً دبلوماسياً بإشراك فرنسا، بمذكرة ٢٧ تموز ١٨٣٩م إلى السلطان، كما قام القيصرالروسي بإرسال بعثة سياسية إلى لندن برئاســـة البارون دي برونوف (Diy Bronoph) للبحث مع بالمرستون حول قيام اتفـــاق محـــل اتفاقية هنكار أسكلة سي يصبح بموجبه القيصر حامياً للبوسفور لقاء إطلاق يد بريطانيا في مصر وبلاد الشام. كل هذا جعل بالمرستون يقف موقفاً متصلباً مـــن الفرنســـيين،

---

(١) العطار، نادر: المرجع نفسه، ص١٨٠.

(٢) Anderson.M.S: ibid ,p89.

(٣) حجار، جوزيف: المرجع نفسه، ص١٦٦.

(٤) أبو فخر، فندي جدعان: سورية والصراعات الدولية، ص١٧٦.

(٥) البلخي،علي يوسف: الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام، ص٢١٠.

ويتفق مع روسيا على إنهاء النزاع، ووضع حل نهائي للأزمة بمعزل عـن فرنسـا أو رغماً عنها إذا اقتضت الضرورة[1].

وعندما شعرت فرنسا أن الاتفاق الروسي ـ البريطاني بات وشيكاً، بسبب تأييـد النمسا وبروسيا، لهذا الاتجاه، قررت العودة إلى استخدام ورقة المراهنة علـى دعـم محمد علي باشا، وعدلت عن نـص مـذكرة ٢٧ تمـوز ١٨٣٩م، وحاولـت إحيـاء المفاوضات الثنائية بين السلطان ومحمد علي باشا[2].

غير أن بريطانيا رفضت ذلك، ووقفت لهم بالمرصاد، وأخذ نشاطها يتعاظم كلمـا حاول أحد الطرفين أن يخطو خطوة باتجاه الآخر، خاصة عندما أعلن محمد علي باشا للسلطان عن تنازله عن جزيرة كريت لشده إلى المفاوضات الثنائية، فسعت بريطانيـا إلى إقالة خسرو باشا من منصبه، عندما تأكدت من ميوله القوية نحو حل النـزاع مـع محمد علي باشا مباشرة، ونجحت في سعيها هذا[3].

ب- اتفاقية لندن في ١٥ تموز ١٨٤٠م:

جاءت اتفاقية لندن التي أبرمت في الخامس عشر من تموز ١٨٤٠م بـين الدولـة العثمانية وبريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا لتسوية المسألة وإنهاء النزاع بين السلطان ومحمد علي باشا، لتكرس فوز السياسة البريطانية، وهي تستند في ديباجتها إلى رغبـة الدول الأوروبية في حماية السلم وتسوية المسألة الشرقية بروح مذكرة ٢٧ تموز التـي وضعت الدولة العثمانية تحت الوصاية الأوروبية المشتركة[4].

ونصت الاتفاقية في موادها الخمس وملحقها و(البروتوكول) المضاف إليها[5].على تقرير حل نهائي للأزمة بين السلطان ومحمد علي باشا، وإذا رفضه العزيـز (محمـد علي باشا) نفذته الدول الموافقة على الاتفاقية بالقوة، ويقضي هذا الحل بما يأتي:

١ً- يجعل السلطان الولاية على مصر وراثية، تنقل من محمد علي باشا إلى ذريته مـن بعـده[1]. ويعد السلطان أن يمنح محمد علي باشـا مـدى حياتـه إدارة الجـزء

---

(١) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص١٦٤-١٦٥ .

(٢) الغنام، سليمان بن محمد: المرجع نفسه، ص١١٦.

(٣) أبو فخر، فندي جدعان: سورية والصراعات الدولية، ص١٨٥.

(٤) الدمشقي، ميخائيل: المصدر نفسه، ص٥٣ .

(٥) انظر الملاحق،الوثيقة رقم (٨) ،ص٢٧٦ .

الجنوبي من بلاد الشام والممتد من رأس الناقورة غرباً حتى بحيرة طبريا شرقاً، ونزولاً بمحاذاة نهر الأردن والبحر الميت حتى خليج العقبة، ونصت الاتفاقية على إعطاء مهلة عشرة أيام لقبول محمد علي باشا هذه الشروط تبدأ من تاريخ تسليمها له في الإسكندرية بوساطة مندوب من السلطان، فإذا قبلها عليه أن يسحب جيشه من بقية الأراضي العربية ومن جزيرة كريت وقضاء أضنه، وإعادة الأسطول العثماني إلى السلطان[٢].

ً٢- إذا مضت عشرة أيام، ولم يقبل الباشا هذا العرض، فقد حقه في حكم عكا، وتعطى له مهلة عشرة أيام أخرى لقبول الحكم الوراثي على مصر، فإذا انتهت تلك المدة بدون أن يعلن قبوله لذلك، سقط حقه من حكم مصر نفسها[٣].

ً٣- يدفع محمد علي باشا للسلطان خراجاً سنوياً عن البلاد التي يؤول إليه حكمها بفعل قبول العرض الخاص بها.

ً٤- تطبق في مصر وولاية عكا، في حال قبول محمد علي باشا عرض الحلفاء، جميع أحكام المعاهدات التي أبرمتها الدولة العثمانية، ويعهد إلى محمد علي باشا وخلفائه من بعده أن يجبوا الضرائب باسم السلطان، ويتولوا الإنفاق على الأجهزة العسكرية والمدنية في هذه الأقاليم[٤].

ً٥- تعد جميع القوى البرية والبحرية التابعة لمحمد علي باشا، بوصفه والياً على مصر وعكا جزءاً من قوى السلطان ومعدة لخدمته[٥].

ً٦- تعهد الحلفاء باللجوء إلى استعمال القوة، إذا رفض محمد علي باشا التسوية المفروضة، كما وأن بريطانيا والنمسا تتعهدان بقطع المواصلات البحرية بين بلاد الشام ومصر، بفرض الحصار البحري على الشواطئ الشامية، بينما يقوم الأسطول الروسي بحماية الأستانة للحيلولة دون تقدم جيش محمد علي باشا في الأراضي العثمانية[٦].

---

(١) إسماعيل، عادل،وخوري، أميل :السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٢، ص٢٤٠ .

(٢) الخنساء، أحمد :المرجع نفسه، ص٢٣١.

(٣) مؤرخ مجهول : مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية تحقيق: أحمد غسان سبانو، ص١٩.وانظر أيضاً الغنام، سليمان بن محمد: المرجع نفسه، ص١١٦.

(٤) إسماعيل، عادل وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي،ج٢، ص٢٤١ .

(٥) البلخي، علي يوسف: الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام، ص٢١٣.

(٦) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص١٦٨.

٧- إذا بقي محمد علي باشا مُصرّاً على رفض الشروط المبينة أعلاه، وجرد قواه العسكرية البرية والبحرية لمهاجمة الأستانة، فإن الدول المتعاقدة تتعهد عند أول طلب من السلطان بتقديم الوسائل العسكرية اللازمة لحماية عرضه، وجعل عاصمة السلطان ومضيقي البوسفور والدردنيل في مأمن من كل اعتداء[١].

وخلافاً للأعراف الدبلوماسية المتبعة، فقد شَرَعَتْ الدول في تنفيذ الاتفاقية دون انتظار اعتمادها، ومما دفع بها إلى اتخاذ إجراءات حاسمة في هذا الصدد، التهديد القائم بدخول الباب العالي ومحمد علي باشا في مفاوضات مباشرة[٢].

وقد كشفت هذه الاتفاقية، وهي الأولى من نوعها في تاريخ العلاقات الدولية حول المسألة الشرقية، عن مدى تدخل الدول الأوروبية في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، وقد وضعت هذه الاتفاقية الدولة العثمانية تحت وصاية فعلية ضيقة لا يمكن لأية دولة مستقلة أن تقبل بها، مهما بلغ تفككها وضعفها، وقد وضعت عروض هذه الاتفاقية بصيغة ينتفي معها كل شك بأن محمد علي باشا وفرنسا سيرفضانها. وفي ١٦ تموز ١٨٤٠م غادر شكيب أفندي لندن عائداً إلى الأستانة لعرض الاتفاقية على السلطان، وأرسل مندوبو الدول صوراً إلى حكامهم للموافقة عليها[٣].

لم تكن الظروف التي تمت فيها هذه الاتفاقية والطريقة التي تم بها تقديم تلك الشروط تسمح للباشا بالقبول الفوري لها، وكان هذا مقصوداً في حد ذاته، فبريطانيا لا تريد أن تبقى بلاد الشام،وحتى جزءً منها، مرتبطاً بمصر حتى ولو للفترة المتبقية من عمر الباشا المسن. وبعد نفاد المدة المحددة تقدمت قوات الدول المشتركة في الاتفاقية وعمودها الفقري الأسطول البريطاني بقيادة تشارلز سميث (Charles Smithr) ،من أجل ضرب جيش محمد علي باشا، وحصاره في بلاد الشام في ٣ أيلول ١٨٤٠م، حتى وافق على البديل الثاني، وهو الاكتفاء بحكم مصر وراثياً وشروطه المذلة الأخرى القاضية بخضوع الباشا وخلفائه للسلطان. وتحديد قواته البرية والبحرية[٤].

---

(١) إسماعيل، عادل وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي،ج٢، ص٢٤٢.

(٢) دولينا، نينل ألكسندروفنا: المرجع نفسه، ص١٦.

(٣) إسماعيل، عادل وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٢، ص٢٤٢ .

(٤) الغنام، سليمان بن محمد: المرجع نفسه، ص١١٦ـــ ١١٧ .

كان من أهم آثار هذه الاتفاقية سوء العلاقات بين بريطانيا وفرنسا التي شعرت أن الدول الأوروبية تآمرت ضدها، وأعاد هذا الموقف إلى أذهان الفرنسيين تلك الأحـــداث التي جرت أعقاب هزيمة واترلو[١] (Waterloo) عام ١٨١٥م، لذلك عدّها الفرنســيون إهانة لحقت بفرنسا وضربة قاضية لها، وأعلنت فرنسا اســتعدادها للحـــرب[٢].لكـــن بالمرستون كان على ثقة من أن فرنسا لن تحارب، وأن ما جـــرى لـــيس إلا انفعـــالاً عاطفياً[٣].

ج- دور بريطانيا في إشعال الثّورة اللبنانيّة عام ١٨٤٠م، وجلاء قوات محمد علـــي باشا عن بلاد الشام:

شعر محمد علي باشا أن مطامع الدول الأوروبية في أراضي الدولة العثمانية عامة وبلاد الشام خاصة لن تدعه يستغل انتصاراته العسكرية على السلطان، فأخـــذ يســـتعد لمواجهة جميع الاحتمالات، بما فيها التصدي عسكرياً لمحاولة إقصائه عن بلاد الشـــام، وشاعت الأخبار آنذاك في لبنان أن إبراهيم باشا سيعمل على تجنيد اللبنانيين مســـلمين ومسيحيين، وأن سليمان باشا الفرنساوي جاء إلى بيروت من أجل هذه الغاية[٤]. فـــاتفق الجميع وتعاهدوا على التصدي لأية محاولة يقوم بها الباشا من أجل تجنيدهم[٥].

في نيسان١٨٤٠م طلب محمد علي باشا من حليفه الأمير بشير الشهابي إعادة الأسلحة التي وزعها على المسيحيين لمحاربة ثورة حوران عام ١٨٣٨م، ولعل هذا كـــان ذريعـــة لنزع السلاح من القبائل التي لم يعد يستطيع أن يعوّل على تعاطفها وولائها له[٦].

---

(١) واترلو((Waterloo) ١٨١٥م : معركة فرضها نابليون الأول على الحلفاء بعد فراره من منفاه فـــي جزيـــرة ألبـــا، فوصلت إلى بلجيكا مباشرة جيوش بريطانيا بقادة ولنجتن وبروسيا بقيادة بلوخر، وكـــان عـــدد جنـــود الأول ٦٠٠٠٠ جندي ،والثاني ٨٣٤١٧ جندياً، ومع نابليون ١٠٦٠٠٠ جندي، و هُزم نابليون، وتعد واترلو الفصل الختـــامي لحيـــاة شخصية فذة في تاريخ الدول والسياسة، وبداية عصر جديد. انظر:اللحام، ماجد: المرجع نفسه. ص٣٤٣-٣٤٤.

(٢) أبو حجر، جمال محمود: المرجع نفسه، ص٥٨.

(٣) انظر الملاحق، الوثيقة رقم (٩)،ص٢٨٠.

(٤) أبو صالح، عباس :المرجع نفسه، ص٢٧٣.

(٥) انظر الملاحق، الوثيقة رقم(١٠)،ص٢٨١.

(٦) بازيلي، قسطنطين:المصدر نفسه، ص ٢٢٣-٢٢٤.

عندما علم الأمير بشير الشهابي بتحركات اللبنانيين بادر إلى تحذيرهم مـن مغبـة الإقدام على هذا الأمر، والابتعاد عن الانسياق خلف أعيان دير القمر[١]،غير أن دائـرة العصيان والتمرد اتسعت وطالت معظم المناطق اللبنانية[٢].

وهكذا بدأت الثورة اللبنانية لأسباب داخلية عديدة تمثلت بنـزع السـلاح وفـرض التجنيد الإجباري وفرض الضرائب، لاسيما ضريبة الفردة[٣]. وتضـافرت الأسـباب الداخلية سابقة الذكر مع تحريض قناصل الدول الأوروبية، حتى فرنسا صديقة محمـد علي باشا قدمت مساعدة عملية للثوار، وأعطت الثوار بـارودا، ووجهـت أعمـالهم، وحضر ممثلون عنها اجتماعاتهم، وكانت القنصلية الفرنسية نفسـها، خلافـاً لاتجـاه حكومتها، تغذي التمرد على افتراض أن الباشا سيضطر، بسبب عجزه عن قمع الثوار، إلى اللجوء إلى وساطة فرنسا، وبهذا تكسب فرنسا حقوقاً جديدة ونفوذاً أكثر في لبنـان الذي تغلب عليه الطائفة المارونية[٤].

أما الدور الأبرز فقد كان لبريطانيا، التي كانت تسعى عبـر قناصـلها ومبشـريها ومبعوثيها إلى صب الزيت على النار، وتحريض السـكان علـى الثـورة، واسـتمالة الزعماء اللبنانيين[٥].

لم يحصل اتصال الرعايا والعملاء الأجانب بالثوار بمبادرة فردية من قبل هـؤلاء، وإنما تم، في أغلب الأحيان، بإيعاز من قبل الدول التي ينتمون إليهـا، خاصـة تلـك المداخلات التي قام بها العملاء البريطانيون. وقد أحسَّ من كان يفاوض الثوار من قبل محمد علي باشا بوطأة العملاء الأجانب وجسامة نفوذهم، وهذا ما أكده الأميـر أمـين لوالده بشير الشهابي الذي ردَّ تصلب الثوار إلى تدخل الدول الأوروبية، وأشار إلى قيام

---

(١) دير القمر: مدينة في جبل لبنان تابعة لقضاء الشوف، ترتفع عن البحر ٨٥٠ متر، وتبعد عن بيروت أربعين كيلومترا، يتألف الاسم من كلمتين دير وقمر، يعود الفضل الأساسي لازدهارها إلى المعنيين، حيث اتخذها فخر الدين المعني الأول مركزاً لحكمه. انظر: هشي، سليم حسن:المصدر نفسه، ص١٣٤.

(٢) أبو فخر، فندي جدعان: بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا ١٨٣١-١٨٤١ م، ص١٥٧.

(٣) بركات، داود: المصدر نفسه،ص١٧٥-١٧٦.

(٤) بازيلي، قسطنطين: المصدر نفسه، ص٢٢٥.

(٥) أبو فخر، فندي جدعان :بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا، ص١٥٨.

ترجمان القنصل البريطاني بتقديم الغلال إلى الثوار، وتحريضهم على الثورة وشد أزرهم[١].

كان للتدخل الأجنبي دور مهم في تحريك مطالب الثوار ومدهم بمختلف وسائل المساعدة والعون، وهذا ما دفع الأمير بشير الشهابي الثاني إلى أن يكتب لمحمد علي باشا في منتصف حزيران ١٨٤٠م قائلا له: "إن تخميدهم (إخمادهم) بوجه التطمن والتأمين لا يجدي نفعاً لجهلهم وغرورهم ودخول يد غيرهم بينهم مما يزيدهم شقاوة وفجوراً"[٢]. وقول سليمان باشا لمحمد علي باشا: "إن إصرار العصاة على عصيانهم بهذه الشدة ناشئ عن تدخل الأوروبيين المقيمين في بيروت في الأمر............"[٣].
ووجدت الحكومة البريطانية في ريتشارد وود(Richard Wood) خير من يمثل سياستها على صعيد الاتصال بالأهالي في بلاد الشام، فاستقدمته إلى لبنان بحجة تعلم اللغة العربية، حيث اجتمع بوجوه الثوار في بيروت، وشد من عزيمتهم، كما أشار عليهم أن يكتبوا العرائض ويوجهوها إلى الدولة العثمانية[٤]، وإلى سفراء وقناصل بريطانيا والنمسا وفرنسا ملتمسين إنقاذهم من حكومة محمد علي باشا. وفعلاً قاموا بما طلب منهم، وسلموه العرائض والكتب، فبعث بها إلى الأستانة. وتبقى نشاطات وود ذات الأثر الأبرز في تنفيذ التعليمات التي زوده بها اللورد بونسنبي السفير البريطاني في الأستانة والتي تضمنت إثارة الأهالي ضد حكومة محمد علي باشا في بلاد الشام، فكان بنظر العديد من الكتاب والمؤرخين العامل الرئيس في إشعال نار الثورة اللبنانية[٥].

من ناحية أخرى، اتصل ضباط بريطانيون برجال حكومة محمد علي باشا من أجل تحريضهم وإغرائهم على الانقلاب على الباشا. حيث اتصلوا بسليمان باشا من أجل استمالته إلى جانب بريطانيا مقابل أن يحكم برّ الشام وجزيرة قبرص[٦].

---

(١) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري، ص١٥٢-١٥٣ .

(٢) رستم، أسد: المحفوظات الملكية المصرية،ج٤، ص٣٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٩٤.

(٤) انظر الملاحق، الوثيقة رقم(١١)،ص٢٨٢.

(٥) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري، ص١٥٦.

(٦) رستم، أسد: المحفوظات الملكية المصرية،ج٤،ص٤٥٧.

امتدت الثورة إلى الساحل والمتن وكسروان، لا سيما بعد تشجيع بريطانيا والسلطان العثماني الذي أصدر أوامر تتضمن إعفاؤهم من الخدمة العسكرية والضرائب لمدة ثلاث سنوات كي يزيد من تصاعد ثورتهم على محمد علي باشا.

عندما شعر محمد علي باشا بخطر تفاقم الوضع الداخلي أرسل من مصر قوات عسكرية لدعم قواته في بلاد الشام، وصلت في ٢٧ حزيران ١٨٤٠م بقيادة حفيده عباس باشا. ثم بعث إبراهيم باشا أثني عشر ألف جندي بقيادة عثمان باشا من قواته المرابطة في شمال بلاد الشام، استطاعت هذه القوات مع قوات سليمان باشا أن تطبق الحصار على الثوار، فأجبرهم على الاستسلام، وتوقفت انتفاضتهم[١].وتجددت الثورة اللبنانية إثر توقيع اتفاقية لندن في١٥ تموز١٨٤٠م ورفض محمد علي باشا قبول شروطها، حيث انبرت بريطانيا إلى تنفيذ المقررات الدولية في لندن، فعملت على إثارة سكان بلاد الشام على حكومة محمد علي باشا، ووزعت المال والسلاح على الثوار[٢].وأمر بالمرستون أميرال البحر روبرت ستوبفورد(Robert Stopford) قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط بوجوب قطع المواصلات البحرية بين محمد علي باشا في مصر وحكومته في بلاد الشام، كما طلبت منه حماية الثوار ونقل الجنود العثمانيين وإنزالهم على السواحل للمشاركة في ضرب قوات محمد علي باشا وإخراجها من بلاد الشام[٣].

سارع الأميرال البريطاني إلى تنفيذ أوامر حكومته، وأرسل سفينتين من أسطوله إلى ميناء بيروت بقيادة الكومودور تشارلز جيمس نابير[٤] (Charles James Napier) (١٧٨٢–١٨٥٣) فوصلها في العاشر من آب١٨٤٠م[٥].

أصدر نابير عند وصوله بياناً حرض فيه على الثورة ضد حكومة محمد علي باشا في بلاد الشام[٦]. وأبلغ الأمير بشير الشهابي الثاني بما تم الاتفاق عليه في لندن، ودعاه

---

(١) أبو فخر، فندي جدعان: بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا، ص١٥٨ـــ ١٦٠.

(٢) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص١٩٩.

(٣) أبو صالح، عباس: المرجع نفسه، ص٢٨٣.

(٤) تشارلز جيمس نابير(Charles James Napier): (١٧٨٢–١٨٥٣) جنرال بريطاني يلقب بفاتح السند. انظر: بعلبكي، منير: المرجع نفسه، ص٦٣.

(٥) أبو صالح، عباس: المرجع نفسه، ص٢٨٣.

(٦) انظر الملاحق،الوثيقة رقم (١٢)ص٢٨٤.

ودعاه إلى طاعة السلطان[١]. وكتب في الوقت ذاته إلى لأمير بشير الثالث يحثه علـــى الانحياز إلى جانب الدولة العثمانية، ونجح في مسعاه هذا، حيث بدأ الأمير بشير الثالث إرسال تقارير إلى القنصل البريطاني تحتوي على معلومات عن تحركات جيش إبراهيم باشا في بلاد الشام[٢].

وأرسل نابيير إلى القنصل البريطاني في بيروت في ٢٤ آب ١٨٤٠م يطلب منـــه توظيف أشخاص أذكياء من أجل الحصول على المعلومات والتعامل بمرونـــة مـــع أي تغيير يمكن أن يحدث[٣]. وأخذت سفن الدول الأوروبية الحربية تصـــل إلـــى الســـاحل اللبناني منذ الخامس من أيلول، حتى أصبح عددها اثنتي عشرة سفينة بريطانية، وثلاث سفن نمساوية بالإضافة إلى ثلاث سفن عثمانية، واستطاع القائد البريطاني مد الثـــوار بالأسلحة والذخيرة. وقام وود بالدور الأساسي فـــي عمليـــة الاتصـــال مـــع الثـــوار وتحريضهم في جميع أنحاء لبنان، فألفوا قوة مساندة للقوات الأوروبية[٤].

من جهته، أرسل السلطان العثماني رفعت بك إلى الإسكندرية حاملاً شروط الصلح معه، ليعرضها على محمد علي باشا، فقابله في ١٦ آب، وفي إثناء المقابلة حاول محمد علي باشا إقناع رفعت بك أن الدول الأوروبية تعمل من أجل مصالحها، وهـــدفها هـــو إبقاء الدولة العثمانية ضعيفة من أجل اقتسامها في المستقبل، وشرح له كيف حارب إلى جانب السلطان في اليونان، وقال له فـــي النهايـــة: "إن الـــدول الأوروبيـــة خـــدعت السلطان،لكنها لن تخدعني، وإنني سوف أحاربها، وأحـــارب الســـلطان إذا أراد تنفيـــذ الاتفاقية بالقوة". فاقتنع رفعت بك بكلام محمد علي باشا، وفكر في العودة إلى الأســـتانة ليطلب من السلطان إنهاء النزاع مباشرة مع محمد علي باشا بدلاً من اللجوء إلى الدول الأوروبية. غير أن القنصل البريطاني رفض أن يغادر رفعت بـــك الإســـكندرية قبـــل انقضاء مهلة الأيّام العشرة التي حددتها اتفاقية لندن[٥].

---

(١) انظر الملاحق،الوثيقة رقم (١٣) ص٢٨٥ –٢٨٧.

(٢) انظر الملاحق،الوثيقة رقم (١٤) ص٢٨٨.

(٣) انظر الملاحق،الوثيقة رقم (١٥)،ص٢٨٩.

(٤) أبو صالح، عباس: المرجع نفسه، ص٢٨٣.

(٥) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص١٦٩.

أصبح الباشا في موقف حرج، ووضع متردٍ للغاية مع تجدد الثورات والاضطرابات في لبنان، فقام بمحاولة أخيرة تنم عن يأس كامل للتفاوض مع السلطان مباشرة، فبعث في ١٦تموز ١٨٤٠م مندوباً إلى الباب العالي يعرض خضوعه للسلطان ومعه هدية مقدارها ٤٠٠ ألف قرش، وأبدى استعداده لإعادة الأسطول العثماني في اليوم الذي يريده السلطان، ولا يطلب مقابل ذلك سوى منحه حكم مصر وبلاد الشام وراثياً مقابل خراج يحدده السلطان. لكن الأمر قد تمت تسويته في لندن بتوقيع اتفاقية في ١٥ تموز ١٨٤٠م بين كل من بريطانيا وروسيا ومعهما النمسا وبروسيا[١].

في ٦ أيلول١٨٤٠م، وبعد مرور المهلة المحددة لقبول محمد علي باشا شروط اتفاقية لندن، وبعد أن قرر عدم قبول شروط هذه الاتفاقية، خرج الأسطول البريطاني من الإسكندرية قاصداً بيروت، حيث كان الكومودور نابير يشدد الحصار على الشواطئ اللبنانية في أثناء مفاوضات قناصل الدول ومندوب السلطان مع محمد علي باشا، وحاول أمير البحر فور وصوله إلى مياهها إرغام سليمان باشا على إخلائها وتسليمها للثوار، فهدده بقصف الحصون وتدمير المدينة على من فيها. ونفذ القائد البريطاني تهديده بعد أن طلب من قناصل الدول أن يغادروا المدينة، فقصفها بالقنابل المحرقة. وفي١٠ أيلول أنزلت فصائل عثمانية وبريطانية في جونيه، فانضم إليها الثوار من كسروان والمتن، وحجز الأسطول البريطاني عدداً من المراكب التجارية والسفن الحربية المصرية[٢]. وأصدر السلطان العثماني من جانبه رداً على عدم قبول محمد علي باشا شروط اتفاقية لندن، فرماناً بعزله من ولاية مصر وتعيين السر عسكر عزت باشا والياً على مصر[٣].

وبعد أن غادر الأمير بشير الشهابي الثاني بيروت أسيراً منفياً عين مكانه في ٣ أيلول١٨٤٠م الأمير بشير قاسم (بشير الثالث). ولم يكن له من مؤهلات الحكم في نظر البريطانيين سوى ضعف الشخصية وقلّة الهيبة، وكان تعيينه بداية النهاية للحكم

---

(١) الغنام، سليمان بن محمد: المرجع نفسه، ص١١٦.

(٢) إسماعيل،عادل،وخوري، أميل:السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٢،ص٢٦٢.

(٣) رستم، أسد: المحفوظات الملكية المصرية، ج٤،ص٤٦٢-٤٦٣. انظر أيضاً غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري، ص١٨٨.

الشهابي، وفاتحة عهد اتسعت فيه دائرة دسائس القناصل، فكثرت الفتن والاضطرابات[١].

كان هم بريطانيا الأعظم تجنب مشاركة روسيا العسكرية في المنطقة، فتولت بنفسها مسؤولية قيادة عملية عسكرية أنزلت خلالها القوات البحرية البريطانية والنمساوية بالإضافة إلى القوات العثمانية على شواطئ بلاد الشام في بيروت وطرابلس وصيدا وصور[٢]. ثم جرّدت حملة على عكا وحاصرتها براً وبحراً، فسقطت في ٢ تشرين الثاني، وكانت آخر وأمنع معقل لمحمد علي باشا في بلاد الشام[٣]. ثم طلب محمد علي باشا من فرنسا مساعدات عسكرية، لكنه لم يتلق جواباً، ورضخ لسياسة الأمر الواقع، واضطرت فرنسا إلى الموافقة على مقررات مؤتمر لندن في ٨ تشرين الأول ١٨٤٠م[٤]. عندها فضل محمد علي باشا عدم مواجهة الدول العظمى التي اتفقت حول مسألة القضاء على دولته، وأصدر الأوامر إلى ابنه إبراهيم باشا بتجميع قواته في دمشق والانسحاب إلى مصر[٥].

في ٢٧ كانون الثاني ١٨٤١م وقع الأميرال تشارلز جيمس نابير قائد الأسطول البريطاني اتفاقاً مع محمد علي باشا نص على إعادة الأسطول العثماني إلى السلطان، وأن يتخلى عن حكم بلاد الشام، على أن يمنح ولاية مصر بصورة وراثية. لكن الأميرال البريطاني سترانفورد (Stradford) قائد أسطول الحلفاء رفض الاعتراف باتفاق نابير ـ بغوص (وزير خارجية مصر) كما أن السفير البريطاني هاجم الأميرال تشارلز نابير، ورفض الاعتراف به على أساس أن السلطان أصدر فرماناً بعزل محمد علي باشا في ١٤ أيلول ١٨٤٠م. أما بالمرستون، وقبل أن تصله أخبار اتفاق (نابير ـ بغوص) قد وضع مذكره بالاتفاق مع الدول الأوروبية تعترف مجدداً بمحمد علي باشا حاكماً على مصر وراثياً، إذا وافق على الانسحاب من

---

(١) إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي،ج٢،ص٢٦٣.

(٢) صالح، محمد حبيب: الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، مجلة دراسات تاريخية، السنة العشرون، العددان ٦٧، ٦٨، كانون الثاني–حزيران،١٩٩٩م،ص٢٣٢.

(٣) إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي،ج٢،ص٢٦٣.

(٤) الخنساء،أحمد:المرجع نفسه،ص١٧٠.

(٥) صالح، محمد حبيب: المرجع نفسه، ص٢٣٢.

بلاد الشام، وإعادة الأسطول إلى السلطان[1]. فقبل محمد علي باشا هذه المذكرة، وكذلك السلطان العثماني بضغط من الدول الأوروبية، وأصدر السلطان في ١٣ شباط ١٨٤١ م فرماناً يعيد محمد علي باشا والياً على مصر[2]. (وعلى هذا الأساس وقعت اتفاقية ١٣ تموز ١٨٤١ (التسوية) والتي أدت إلى اعتراف الدول الأوروبية بمحمد علي باشا والياً على مصر بصورة وراثية، بشرط أن تبقى مصر ولاية عثمانية، ولا يزيد عدد أفراد جيشه عن ١٨ ألف جندي، ولا يبني الأسطول دون موافقة السلطان. كما تم التوقيع على اتفاقية المضايق بين الدول الأوروبية الخمس (بريطانيا، وروسيا، وبروسيا، والنمسا، وفرنسا) والسلطان العثماني التي نصت على إغلاق المضايق بوجه السفن الحربية الأجنبية جميعها بدون استثناء مادام السلطان في حالة سلم. [3]

وجُهت هذه الاتفاقية في جوهرها ضد روسيا، واستطاعت السياسة البريطانية أن تحرز نصراً ضد فرنسا وروسيا، حيث أضعفت مركز فرنسا في الشرق بإبعادها عن مصر وبلاد الشام، وأبعدت روسيا عن المضايق والبحر المتوسط.

٤- نتائج حرب الشام الثانية

أ- ساهم العامل العسكري في تطوير المعرفة الدقيقة لأوضاع بلاد الشام الجغرافية، فقد ضمت القوات العسكرية البريطانية التي ساعدت وشاركت الدولة العثمانية في إخراج محمد علي باشا من بلاد الشام مجموعة من المهندسين العسكريين التابعين لسلاح البحرية البريطانية، قاموا بمسح شامل للشاطئ الشامي، تحضيراً لمرحلة لاحقة، إضافة إلى ممارسة التصوير الفوتوغرافي وتطويره في بلاد الشام[4].

ب- ازداد النفوذ الذي تمتع به القناصل البريطانيون في المدن الشامية، وإذا أخذنا دمشق نموذجاً على ذلك نجد أن القنصل البريطاني وود كان يبقي من رضي عنه في منصبه، ويعزل من غضب عليه، وهذا ما حدث مع والي دمشق علوش باشا الذي تولى

---

(١) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص١٧١.

(٢) الهاشمي،عبد المنعم: موسوعة تاريخ العرب (عصر المماليك والعثمانيون)، دار الهلال-دار البحار، بيروت ٢٠٠٦ م، ص٣٠٩. وانظر الملاحق،الوثيقة رقم (١٦)،ص٢٩٠ .

(٣) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص١٧١ــ ١٧٢.

(٤) الحاج، بدر: المرجع نفسه، ص٥٨.

منصب الولاية عقب خروج سلطات محمد علي باشا منها. هذا الأمر حدا بالولاة للعمل على كسب رضا القنصل البريطاني في سبيل ضمان استمرارهم في منصبهم[١].

ج- انتقل الاقتصاد في بلاد الشام من هيكلية إقطاعية لها جذورها التاريخية العميقة (مملوكية وعثمانية) إلى هيكلية اقتصادية شبه برجوازية، وكان هذا الانتقال بحاجة إلى فترة زمنية غير محددة تشمل المتغيرات على المســتويات الاجتماعيــة والاقتصــادية والثقافية والسياسية كافة، مما أدى إلى مشكلات وكوارث حلت بــبلاد الشــام آنــذاك، وأصبح الاقتصاد الشامي تابعاً للضرورات الأوروبية[٢].

د- لاحظ بالمرستون أن الدعم البريطاني للدولة العثمانية يعتمد على استمرار دعم الرأي العام البريطاني لذلك. وأن هذا الرأي العام لا يستمر في ذلــك مــا لــم تقنــع الحـــــــــــــــــكومة العثمانية بالإصلاحات، ولهذا فرضت بريطانيا على السلطان القيام بتحسين وضع المسيحيين بغية إرضاء الرأي العام البريطاني. وإن تحسين وضع هؤلاء الرعايا يجعلهم أقل مطالبة بالاستقلال والقيام بــالثورات، الأمــر الذي يجرد روسيا من حجتها بالتدخل في شؤون الدولة العثمانية. ومن هــذا المنطلــق حث وزير الخارجية البريطاني السلطان العثماني على القيام بإصــلاحات[٣] وإصــدار دستور يحدد حقوق المواطنين الأساسية، ويلغي المساوئ والسلبيات في إدارة شــؤون الدولة، وقد أيده في ذلك وزير خارجية الدولة العثمانية مصطفى رشيد باشا، وتم إعداد وثيقة الدستور، وأعلن عنه في ٣ تشرين الثاني ١٨٣٩م في قصر كلخانة تحــت اســم منشور كلخانه[٤]. ولبت الإصلاحات رغبات وزارة الخارجيــة البريطانيــة، وعملــت السياسة البريطانية على ضمان تطبيقها[٥]. ومن العوائق التي كانت تعتــرض نجــاح الإصلاحات التدخل الأوروبي الواسع الذي رافقها، فالحكومة البريطانية مــثلاً أباحــت

---

(١) بني هاني، خالد أحمد مفلح :المرجع نفسه، ص٢٣١.

(٢) سمحات، قاسم: المرجع نفسه، ص٣٣٤-٢٢٦.

(٣) خوري، جورج: المرجع نفسه، ص٩٧.

(٤) الهاشمي، عبد المنعم: المرجع نفسه، ص ٢١٨.

(٥) خوري، جورج: المرجع نفسه، ص٩٦.

لنفسها التدخل على النحو الذي يكفل تنفيذ الإصلاحات لتدعيم مقاومة العثمانيين لتوسع فرنسا وروسيا والنمسا[١].

و- إن أية مقارنة بين الفوائد والمكتسبات التي جناها كل من البريطانيين والعثمانيين تبيّن ضآلتها بالنسبة للدولة العثمانية مقابل أهميتها واتساعها بالنسبة لبريطانيا،وكذلك خطورتها على المنطقة، فانحصرت فوائد الدولة العثمانية ومكتسباتها في استعادة السيطرة الاسمية فقط على المناطق التي انسحب منها جيش محمد علي باشا في بلاد الشام، أما فوائد بريطانيا ومكتسباتها فقد تمثلت بالهيمنة الفعلية عليها[٢].

هـ- بدأ بالمرستون بمنح الحماية لليهود قاطبة في الدولة العثمانية، وشكل ذلك الخطوة الأولى على طريق الحماية لليهود ومقدمة للاستيطان الصهيوني في فلسطين، فقد أصدر بالمرستون تعميماً على قناصله وممثلي حكومته في أنحاء الدولة العثمانية كافة حول وضع اليهود ومشروع توطينهم في فلسطين، إذ يحقق لهم أن تكون بريطانيا هي حامية لليهود في المشرق على غرار الفرنسيين الذين يحمون الكاثوليك، وكي تتمكن بريطانيا بذلك من إيجاد رعايا لها في فلسطين من خلال الاستجابة بسرعة إلى طلبات الحماية التي كان يتقدم بها اليهود[٣] وقام بالمرستون باستخدام نفوذه لدى الدولة العثمانية لإقناعها بوجهة نظر الدولة البريطانية حول توطين اليهود في فلسطين[٤].

ويتضح مما سبق أن المخططات البريطانية الهادفة إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين كانت قديمة قبل صدور وعد بلفور، لا بل قبل أن تجهر الصهيونية بدعوتها لذلك.

وأخيراً، وفي ضوء دراسة تطور السياسة البريطانية في بلاد الشام بين عامي (١٨٣٣-١٨٤١م) تم التوصل إلى النتائج التالية:

١- نجح إبراهيم باشا في تطوير اقتصاد بلاد الشام، خدمةً لسياسة والده محمد علي باشا، ولم تكن الدسائس العثمانية لصالح الثورة، بل لإعادة الحكم العثماني إلى

---

(١) شيلشر، ليندا: المرجع نفسه، ص٦٧.

(٢) محمد، نجاح: من معطيات المسألة الشرقية العربية،(مجلة دراسات تاريخية، العددان ٧١، ٧٢ كانون الثاني-حزيران ٢٠٠٠م)،ص٢١٠.

(٣) سمحات، قاسم: المرجع نفسه، ص ١٩٣-١٩٤ .

(٤) انظر الملاحق،الوثيقة رقم (١٧)،ص٢٩٢ .

بلاد الشام. أما الدسائس البريطانية فقد كان هـدفها التغلغـل الاقتصـادي، وتحقيـق مصالحها الاستراتيجية السياسية والاقتصادية في بلاد الشام. أما روسـيا فلـم ترغـب بحدوث اضطرابات جديدة، لأنها حصدت ثمار تدخلها في حرب الشام الأولى، ولا تريد أن تدخل في صدام مع فرنسا وبريطانيا، لأن ذلك قد يضعف نفوذهـا لـدى الدولـة العثمانية، وتخسر امتياز اتفاقية هنكار أسكلة سي.

٢- نجحت الدبلوماسية البريطانية في استثمار المواقف المتطرفة التي دأبت فرنسا على اتخاذها ضد روسيا سواء في البلاط العثماني أو في مساندة القوى الثوريـة فـي بولندا وفي روسيا نفسها . كما تجنبت القيام بأي عمل استفزازي ضد روسيا فيما يتعلق بالدولة العثمانية، فرفضت الاستجابة لمحاولات السلطان عقد اتفاقية عسكرية بعد اتفاقية بلطة ليمان التجارية الموقعة عام ١٨٣٨م.

٣- أحسن بالمرستون استغلال الظروف الداخلية التي تحـيط بحكومـة القيصـر، ونجح في جرروسيا شيئاً فشيئاً خلف السياسة البريطانيّة وأهدافها المنشودة في المنطقة، وقبولها بالعمل المشترك لبحث النزاع المتفاقم في المنطقة بـين محمـد علـي باشـا والسلطان العثماني وحله جماعياً، من خلال مؤتمر دولي، كان لمترنيخ الدور الأكبـر في إقناع روسيا بذلك، من أجل لمحافظة على مكانة فيينا كمركز للسياسـة الأوروبيـة وكمحرك رئيس لها.

٤- لم ترض بريطانيا عن المساعي الروسية في قيام مصـالحة بـين السـلطان العثماني ومحمد علي باشا من شأنه أن يحافظ على الوضع الراهن، ذلـك لأن الحـل السلمي يناهض المصالح البريطانية ويلحق بهـا خسـارة فادحـة، فعملـت السياسـة البريطانية على التصدي لمحاولة محمد علي باشا في إعلان الاسـتقلال، أو التقـارب والمصالحة مع الباب العالي، لأن هدفها منذ البداية إضعاف الطرفين والحصول منهمـا على تنازلات وامتيازات لبريطانيا، ورغبتها في حدوث نزاع جديد تشارك فـي حلـه الدول الأوروبية، خاصة روسيا، من أجل القضاء وبشكل رسمي على اتفاقيـة هنكـار أسكلة سي.

٥- كانت اتفاقية لندن، نتاج سياسة بالمرستون الاستعمارية الخبيثة، موجهة لـيس ضد حكم محمد علي باشا، وضدَّ نفوذ فرنسا في بلاد الشام التي خرجت على أثرهـا

من الساحة الدولية صفر اليدين فحسب، بل وأيضاً ضد حرية شعوب المنطقة بأسرها من عرب وعثمانيين، بهدف إحكام السيطرة الأوروبية على مقدرات الوطن العربي الاقتصادية، وإخضاعه لظلام ليل أوروبي استعماري طويل خيم لفترة مديدة، وأسفر عن نتائج خطيرة مازالت المنطقة تعاني منها إلى اليوم.

٦- استطاعت بريطانيا دفع الأمور إلى قيام حرب الشام الثانية، وهذا ما يتوافق مع خدمة سياستها، فكانت الرابح الأكبر في هذه الحرب، حيث أبطلت مفعول اتفاقية هنكار أسكلة سي من ناحية، وأجبرت مصر على الخروج من بلاد الشام والتقلص إلى حدودها القديمة من ناحية أخرى، كما أقنعت كلاً من النمسا وروسيا وفرنسا بتوقيع اتفاقية المضايق في ١٣ تموز ١٨٤١م لتنظيم الملاحة في المضايق عن طريق النص على عدم السماح لمرور السفن الحربية الأجنبية في مضيقي البوسفور والدردنيل.

٧- كسبت بريطانيا فوزاً دبلوماسياً على فرنسا بإبعادها عن التسوية، واستطاعت أن تضع الدولة العثمانية تحت الوصاية الدولية بزعامة بريطانيا. وكان انتصار بريطانيا موجهاً ضد فرنسا ليس في بلاد الشام ومصر، بل أيضاً في أوروبا، وأعطى بالمرستون درساً لفرنسا، وجعلها تفهم عملياً أن كلماتها ورغباتها ليست قانون أوروبا.

٨- لم تكن بريطانيا راغبة في القضاء على محمد علي باشا نهائياً، فعندما أصدر السلطان العثماني قراراً بعزله إثر رفضه قبول اتفاقية لندن، قدمت بريطانيا مذكرة للسلطان في ٣ كانون الثاني ١٨٤١م تطالب فيها بالعدول عن هذا القرار، فصدر في ١٣ شباط خط شريفي بتعيين محمد علي باشا حاكماً وراثياً على مصر. ولم تكن بريطانيا تعادي الباشا كشخص ولا كنظام حكم، فصفاته الشخصية ونظام حكمه تتلاءم مع متطلبات سياستها في مصر بالذات، فهو حاكم قوي يستطيع فرض الاستقرار السياسي، وبريطانيا لم تكن عاجزة عن القضاء عليه بشكل كامل بعد إخراجه من بلاد الشام، لكن أرادت من بقائه في مصر وعدم القضاء عليه نهائياً، أن تجعله فزاعة في وجه السلطان العثماني، تستخدمها كلما احتاجت لذلك، من أجل بقاء السلطان ومحمد علي باشا تحت رحمتها وفي خدمة سياستها الاستعمارية في المنطقة، واستخدام كل واحد منهما ضد الآخر إذا دعت الحاجة، من أجل الحصول منهما على المزيد من الامتيازات، والتنازلات.

الفصّل الثالث

دور السياسة البريطانية في حل المشكلات التي واجهتها بلاد الشّام بين عامي (١٨٤١ـ ١٨٧٨م)

الفصّل الثّالث:

دور السياسة البريطانية في حل المشكلات التي واجهتها بلاد الشام بين عامي (١٨٤١-١٨٧٨م) :

أولاً: دور السياسة البريطانية في حل المشكلات التي واجهتها بلاد الشام بين عامي (١٨٤١-١٨٤٥م) :

١- أسباب حوادث لبنان (١٨٤١- ١٨٤٥)م ودور السياسة البريطانية فيها.

٢- اضطرابات عام١٨٤١م، ونهاية حكم بشير قاسم الشهابي.

٣- موقف بريطانيا من نظام القائمقاميتين.

٤- موقف بريطانيا من نظام شكيب أفندي٣٠ تشرين الأول١٨٤٥م.

ثانياً: تأثير حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)م على السياسة البريطانية في بلاد الشام:

١- أسباب حرب القرم ودور السياسة البريطانية في إثارتها.

٢ - أحداث حرب القرم(١٨٥٣-١٨٥٦)م ودور بريطانيا فيها.

٣- نتائج حرب القرم على السياسة البريطانية في بلاد الشام:

أ- الخط الهمايوني عام١٨٥٦م.

ب- معاهدة باريس عام١٨٥٦م.

ثالثاً: حوادث لبنان عام١٨٦٠م وانعكاساتها على السياسة البريطانية في بلاد الشام:

١- ثورة الفلاحين في كسروان عام ١٨٥٨م ومقدمات أحداث عام ١٨٦٠م.

٢- أسباب حوادث لبنان عام١٨٦٠م ودوربريطانيا فيها:

٣- حوادث دمشق عام١٨٦٠م.

٤- الحملة الفرنسية عام١٨٦٠م على بلاد الشام وموقف بريطانيا منها.

٥- اللجنة الدولية ودور بريطانيا فيها:

أ- مسألة المحاكمات والعقوبات.

ب- مسألة التعويضات.

ج- تنظيم إدارة لبنان.

رابعاً: تشيسني ومشروع الخط الحديدي في وادي الفرات (١٨٦١ ـــ ١٨٧٢ م).

خامساً : أثر مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م على السياسة البريطانية في بلاد الشام.

أولاً: دور السياسة البريطانية في حل المشكلات التي واجهتها بلاد الشام بين عامي (١٨٤١ـ ١٨٤٥م) :

١ - أسباب حوادث لبنان عام١٨٤١م ودور السياسة البريطانية فيها:

كان لحكم محمد علي باشا في بلاد الشام تأثير عميق فيها، فبعد أن وقفت فرنسا إلى جانبه، وبريطانيا إلى جانب السلطان، كان من الطبيعي أن تجد دعايات الفرنسيين وتحركاتهم صدى بين الموارنة[١]، ودعايات البريطانيين وتحركاتهم استجابة بين الموحدين (الدروز)، مما جعل الموارنة يقدّمون المساعدة لمحمد علي باشا والموحدين (الدروز) يثيرون عليه، وعندما بدأ طيف اتفاق بين الطائفتين عام١٨٤٠م ضد اضطهاد الإدارة المصرية، كانت ذكريات عامي (١٨٣٤ و١٨٣٨)م، مما عرقل اتفاقهما وتفاهمهما على "النضال المشترك" ضد محمد علي باشا . وبذلك انتقل النزاع التقليدي بين فرنسا وبريطانيا إلى الجبهة الداخلية على شكل نزاع طائفي بين الموارنة الموحدين (الدروز)[٢]. وبات كل قنصل ومن ورائه الطائفة التي تنضوي تحت لوائه لا يرى في الطوائف الأخرى إلا ما يعيبها، وقد كتب بوريه قنصل فرنسا إلى حكومته: "إن وجود الموارنة في هذا القطاع الشرقي نعمة من نعم الله، وهو احتجاج حي مستديم على تخلف مجاوريهم وسد في وجه البربرية التي تحيط بهم" كما ذكر الكولونيل روز(ROOZ) في تقريره إلى وزارة خارجيته: "إن الدروز وحدهم مؤهلون لنشر لواء التقدم والمدنية، وكل محاولة تمدنية تفشل عند سواهم وترتد عن تعصب الموارنة الذي لا ينجع فيه دواء"[٣].

وراحت القنصليات والسفارات ومجلسا النواب في لندن وباريس تتراشق التهم وتتبادل الشكاوى من نشاط العملاء والجواسيس، وانحدرت الدبلوماسية الأوروبية، في كل ما يمت بسبب إلى شؤون بلاد الشام، إلى أدنى درك، إذ رفعت الرشوة والدس

---

(١) الموارنة: يمثل الموارنة طائفة كثيرة العدد في المشرق العربي وهي تتبع كنيسة روما. تقطن بصورة رئيسة في جبل لبنان،احتفظوا عند أداء طقوسهم باللهجة السريانية للغة الأرامية مع مظاهر الطقوس المسيحية الشرقية.وقد قامت الكنيسة المارونية في تقاليدها على أساس أنها طائفة تقول بطبيعة واحدة للسيد المسيح عليه السلام، أسسها أحفاد القديس مارون.انظر: ريجنكوف، م، سيميليانسكايا، أ: المصدر نفسه، ص٧١-٧٢ .

(٢) كرد علي، محمد:المصدر نفسه،ج٦، ص٧٣.

(٣) إسماعيل، عادل، وخوري، أميل:السياسة الدولية في الشرق العربي،ج٣، ص٣١.

والذم والتجريح وتقطيع الأوصال بين الناس، وتحطيم روابط الجوار والدم والقومية بين الطوائف إلى مستوى المبادئ. فإذا كان هناك صراع حقيقي على النفوذ فإنه نابع مـن قانون الصراع بين الدول الرأسمالية نفسها للتفرد بالسيطرة[١].

وقد عينت بريطانيا الكولونيل روز قنصلاً جديداً لهـا فـي لبنـان، فتقـرب مـن الموارنة، خاصة في الفترة التي كانت فيها فرنسا حليفة محمد علـي باشـا، ومـدهم بالسلاح، ووعد بتحقيق مطالبهم لدى السلطان العثماني، لكن هذا التعاون بين بريطانيـا والموارنة لم يدم طويلاً بسبب خشية رجال اللأكليروس الماروني من البعثات التبشيرية الإنجيلية البروتستانتية التي كانت بريطانيا تشجعها لمدّ نفوذها فـي لبنـان، فتحولـت بريطانيا من التحالف مع الموارنة إلى التحالف مع الموحدين (الدروز)[٢].

وجعل الكولونيل روز لمهمتـه ثلاثـة أهـداف، هـي: القضـاء علـى النفـوذ الفرنسي، وإبقاء الولاة العثمـانيين فـي بـلاد الشـام تحـت النفـوذ البريطـاني[٣]، واختيار طائفة تكون قاعدة وداعمة للسياسة البريطانيـة فـي التـدخل فـي شـؤون البلاد[٤]. ولم تكن بريطانيا تسعى إلى إنشاء دولة مسـتقلة فـي جبـل لبنـان يهـيمن عليها الموحدون (الدروز)، وإنمـا كانـت تعمـل مـن أجـل إقامـة تـوازن بـين الموحدين (الدروز) والموارنة فـي الجبـل مـن شـأنه أن يحـافظ علـى اسـتقرار سلطة العثمانيين في بلاد الشام، وبالتالي الحفاظ علـى سـلامة الدولـة العثمانيـة[٥]. كل ذلك على مرأى ومسمع من العثمـانيين، حيـث أرادوا أن يتخـذوا مـن العـداوة الخفية التي بدت طلائعها بين الموارنة والموحدين (الـدروز)، حجـة لحكـم الجبـل حكماً مباشراً. وقد اضـطرت الدولـة العثمانيـة أن ترضـخ لضـغط البريطـانيين حلفائها الـذين يركنـون إلـى الأميـر بشـير قاسـم، فأصـدرت فرمانـاً بتعيينـه

---

(١) ضاهر، مسعود: المرجع نفسه، ص٤٢١ .

(٢) بازيلي، قسطنطين: المصدر نفسه، ص٢١٦.

(٣) أبو صالح، عباس: المرجع نفسه، ص٣٩٢ .

(٤) إسماعيل، عادل، و خوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٣،ص١٠.

(٥) أبو صالح، عباس: المرجع نفسه،ص٣٩٢.

حـــــاكماً على الجبل.[1] إلا أن جبل لبنان خــلال فتــرة حكمــه شـــهد فتنـــاً بـــين الموحدين (الدروز) والموارنة، حيث دعمت بريطانيـــا الموحـــدين (الـــدروز)، فيمـــا تلقى الموارنة تأييد فرنسا ومساندتها[2].لعــب قناصـــل وممثلـــو بريطانيـــا وفرنســـا وروســـيا والنمســـا أدواراً غايـــة فـــي الخبـــث والتواطؤ،لإثـــارة النعـــرات وبلبلـــة النفوس، وزرع الفتن والمكائد، وسعى كل منهم إلى تـــدعيم نفـــوذ دولتـــه، بموجـــب خطط وبواعث ومقاصـــد متنـــافرة لـــم يصـــب الجبـــل اللبنـــاني منهـــا إلا الشـــقاق والدمار والفتن، ذلك أن كلا من هؤلاء القناصـــل اســـتعمل زعمـــاء الطائفـــة التـــي تحتمي به بوسائل مادية ومعنوية بعيدة عن مبادئ الاستقامة والشرف[3].

وقد أوضح بازيلي[4] وجهة نظره عندما حلل أسباب حوداث لبنان، فقـــال: "لـــم تكن العداوة الدينية بين الطائفتين سبباً في الحرب، بل نتيجة لهـــا"[5]. وبعـــد انـــدلاع الاشتباكات بأسبوعين أرسل بازيلي إلى الأستانة تقريراً أعاد فيه الأسباب إلى ما يأتي: "عجز السلطات العثمانية لا بل مكرها، ودسائس العملاء الفرنســـيين بـــين الموارنـــة،

---

(١) الدمشقي، ميخائيل: المصدر نفسه، ص١٠٤-١٠٥. وانظر أيضاً: طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ منـــذ ســـقوط الأسرة الشهابية حتى إبتداء عهد المتصرفية ١٨٤٢-١٨٦١ م، دراسة في التاريخ السياسي والاجتمـــاعي، دار الفكـــر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط٢، ١٩٩٠ م، ص٥٢.

(٢) ضو، أنطوان: حوادث١٨٦٠م في لبنان ودمشق لجنة بيروت الدولية، مختارات، بيروت، ط١،١٩٩٦م،ج١ص١٥.

(٣) طربين،أحمد:أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية، ص٥٤ ــ٥٥.

(٤) بازيلي: هو قسطنطين ميخائيلوفيتش بازيلي ولد في عام١٨٠٩م في مدينة الأستانة .من عائلة يونانية مرتبطـــة بحركـــة التحرر الوطني اليونانية والألبانية. عام١٨٢١م حكم على والده بالموت شنقاً، لكنه تمكـــن بمســـاعدة الســـفير الروســـي ستروكاتوف من الهرب إلى خارج الدولة العثمانية، والوصول إلى ميناء أوديسة، دخل بازيلي عام١٨٢٢م معهد العلـــوم العليا في (نيجين) حيث أتقن اللغة الروسية، وفي عام١٨٢٧م التحق بازيلي في ليسيه (ريشيليو) في مدينة أوديسة وبعـــد تخرجه عام ١٨٣٠ م سافر إلى اليونان وعمل مترجماً لدى قائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط الأدميرال ريكورد .وفي عام١٨٣٣م انتقل للعمل في وزارة الخارجية الروسية في سانت بيتربورغ .وفي عام١٨٣٩م عين بازيلي قنصـــلاً في بيروت وبقي فيها حتى بداية حرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية عام ١٨٥٣م.في عام ١٨٥٦م شارك بازيلي في مؤتمر باريس، وفي عام ١٨٥٧م عين في الأستانة كمفوض لروسيا في اللجنة الدولية لشؤون مولدافيا وملاشيا.وفي عام ١٨٥٨م بعد أن حصل على لقب "المستشار السري الفعلي " حاول الحصول على إجازة طويلة لا يعود بعدها إلى الوظيفة الحكومية، فنقل سكنه إلى أوديسا، وأصدر كتاب "سوريا وفلسطين "، وانغمس في النشاط الاقتصادي، وكان مؤيد لتحرير الفلاحين، وتوزيع الأراضي عليهم، توفي في صباح العاشر من شباط ١٨٨٤م.انظر: ريجنكـــوف،م، سيميليانســـكايا،أ: المصدر نفسه، ص٣٤٤-٣٤٦. وانظر: صالح، محمد حبيب:المرجع نفسه،ص٢٤٩.

(٥) ريجنكوف، م، سيميليانسكايا، أ :المصدر نفسه، ص٣٣٦.

والتفوق الذي منحه الباب العالي لزعيم هذه الطائفة الدينية، والمبالغ المـــــالية التـــي ترسلـــــها

فرنسا والنمسا على شكل مساعدات خيرية، وعجز أمير الجبل بشير قاسم الشهابي (بشير الثالث) وعناده، وأمل الموحدين (الدروز) بتلقي المساعدات من بريطانيـــا، كـــل ذلك قد أدى إلى الحرب الأهلية في جبل لبنان"[١].

لم يذكر بازيلي أي دور لروسيا في إثارة الحرب، وهذا شيء طبيعي، إذ لا يمكـــن أن يوجه لنفسه التهم، بل يلقيها على غيره، في حين أن الحقيقة التـــي أكـــدها أغلـــب المؤرخين، أن من أهم أسباب حوداث لبنان تنافس الدول الأوروبية وقيام قناصلها بنشر الدسائس كلٌّ لمصلحة دولته.

٢- اضطرابات عام ١٨٤١ ونهاية حكم بشير قاسم (بشير الشهابي الثالث):

إن سوء إدارة بشير قاسم لم تجعله قريباً من قلوب الجبليين، فقد اكتســـب عـــداوة الجميع، المشايخ، والفلاحين، والموارنـــة، والموحـــدين (الـــدروز) وجـــاهر بعداوتـــه للموحدين (الدروز) عندما وضع على رأس مجلس فصل الدعاوي الذي أمرته الأستانة بتشكيله من ممثلي جميع الطوائف، شيخاً مارونياً يعد من أعداء الموحـــدين (الـــدروز) الصميمين[٢]. وأوقف بعض الموحدين (الدروز) العائدين من المنفـــى، وكـــان يتـــزعم هؤلاء العائدين نعمان وسعيد جنبلاط، وعرقل تنفيذ بعض الأوامر السلطانية بخصوص إعادة أملاكهم إليهم بتحريض القنصل البريطاني روز[٣]. الذي أشار على بشير قاســـم أن يفتك بهم، فاستدعاهم إلى قصره في آذار ١٨٤١ م ، كي يفعل بهم ما فعله محمـــد علي باشا بالمماليك في قلعة القاهرة عام ١٨١١م، لكن قنصل فرنسا علـــم بمـــا بيّـــت للزعماء الموحدين (الدروز) والموارنة فأطلعهم عليه، ونصحهم أن لا يلبـــوا الـــدعوة، ففشلت مؤامرة القتل الجماعي، لكنها أحدثت ثغرة واسعة بين الأمير بشير والإقطاعيين الموحدين (الدروز) والموارنة، فثاروا ضدّه[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٣٦-٣٣٧.

(٢) الخازن, فيليب، والخازن، فريد: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان،مطبعةالصـــبر، جونية، لبنان،ط١،١٩١١م، ج١، ص٥٦ ــ٥٧.

(٣) صليبي، كمال: المرجع نفسه، ص٧٦.

(٤) إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي،ج٣، ص٢٣-٢٤.

أما الكولونيل روز فقد امتاز بالمرونة والواقعية فعندما رأى أن بشير قاسم فقد شعبيته تنكر له، وتقرب من الموحدين (الدروز) منتهزاً فرصة فتور العلاقات بين زعمائهم وبين القنصل الفرنسي، حيث قام أمراء الموحدين (الدروز) بإرسال رسالة إلى الكولونيل روز بشأن عقارات اغتصبها منهم الأمير بشير قاسم[١] فوعدهم بالتأييد، ثم قام روز بدعوة آل جنبلاط إلى اجتماع في ٢٤ أيلول ١٨٤١م على ظهر الدارعة الحربية البريطانية في مياه صيدا، وقد حضره من جانب الموحدين (الدروز) أبناء الشيخ بشير نعمان بك وسعيد بك وغيرهم، وقد جرت محادثات في جوّ من الود والصفاء تعهد خلالها الدبلوماسي البريطاني بمساندة الموحدين (الدروز) والعمل على إعادة أملاكهم التي صودرت منهم، وصرح روز للزعماء الموحدين (الدروز) بعد الاتفاق معهم أنهم أصبحوا منذئذ في حماية ملكة بريطانيا، تؤيدهم وترعى حقوقهم الكاملة التي اغتصبها الأمير بشير الشهابي، وترحب بتعليم أبنائهم في المعاهد البريطانية، وتقدم ما يلزمهم من الأسلحة، وتعهد زعماء الموحدين (الدروز) مقابل ذلك بتسهيل مهمة المرسلين الإنجيليين البروتستانت، في أنحاء جبل لبنان ووادي التيم، واتفقوا أيضاً على أن يسافر نعمان جنبلاط إلى لندن ليطلب الحماية الرسمية من الملكة فيكتوريا[٢].

في ١٣ تشرين الأول ١٨٤١ انتهز الموحدون (الدروز) دعوة الأمير بشير لزعمائهم كي يباحثهم في نظام توزيع الضرائب الجديد[٣]، وتقدموا نحو دير القمر وحاصروا قصر الأمير، وهاجم فريق منهم دور المسيحيين في المدينة، ونشبت الحرب الأهلية بين الموحدين (الدروز) والمسيحيين المعروفة بالحركة الأولى. وكان قد مهد لها كسبب مباشر خصام بين موحّد (درزي) من بعقلين ومسيحي من دير القمر بسبب خلافهما على صيد الحجل[٤]. فاستصرخ كل منهما أقرباءه ضد خصمه، فاشتعلت الفتنة، لذلك أوعز سليم باشا والي صيدا إلى الأمير بشير قاسم بالقدوم إلى بيروت في ١٣ كانون الثاني ١٨٤٢م ليكون في مأمن، وبعد وصول السر عسكر مصطفى باشا

---

(١) انظر الملاحق، وثيقة رقم (١٨)،ص٢٩٣ .

(٢) هشي، سليم حسن: المصدر نفسه، ص٥٠-٥٣ .

(٣) انظر الملاحق، وثيقة رقم (١٩)،ص٢٩٤.

(٤) عمر،عمر عبد العزيز: المرجع نفسه، ص٣٥٩.

إلى بلاد الشام معتمداً فوق العادة من الباب العالي للتحقيق في أسباب الصدامات، ، في ١٥ كانون الثاني ١٨٤٢م أعلن السر عسكر عزل بشير الشهابي الثالث[١]. وتعين عمر باشا، الذي كان ضابطاً في الجيش النمساوي حاكماً على جبل لبنان[٢].

بعد أن تسلم عمر باشا حكومة الجبل، لجأ إلى استمالة أصحاب المناصب المهمة، وردّ إلى الموحدين (الدروز) أملاكهم، وأعاد إليهم سلطاتهم السابقة، وعمل على توطيد حكمه، وأكثر من الوظائف، فأرضى عدداً كثيراً من البيوتات ومحترفي السياسة والمتعطلين[٣]. لكن هذه المناورات لم تفلح بسبب معارضة البريطانيين لحكم العثمانيين المباشر، لأنه قضى على أحد المخلصين لسياستهم (بشير الثالث) واستبدله بعمر باشا الذي لا يأتمر بأمر بريطانيا، وكذلك عارضها كل من الفرنسيين والروس، إضافة إلى هذه المعارضة فإن سياسة عمر باشا قد أحبطها جموده وقسوته في معاملة الزعماء الموحدين (الدروز) والمسيحيين[٤]. وكان لبريطانيا دور مهم في مساعدة الدولة العثمانية على فرض إدارة مباشرة على لبنان، لكنها عجزت عن التوفيق بين الموارنة والموحدين (الدروز) والحيلولة دون وقوع الحرب الأهلية[٥].

٣- موقف بريطانيا من نظام القائمقاميتين:

قبل الباب العالي في ٧ كانون الأول ١٨٤٢م مشروع نظام اقترحه مترنيخ وبموجبه يقسم الجبل إلى قائمقاميتين، يحكم الأولى قائمقام مسيحي، ويحكم الثانية قائممقام من الموحدين (الدروز)، يكون كلاهما من أهالي الجبل، ويتبعان والي صيدا، وأُبلغ هذا النظام إلى الدول الكبرى فوافقت عليه[٦]. واضطرت روسيا إلى التخلي عن مشروع إنشاء قائمقامية ثالثة للروم الأرثوذكس، لأن بقية الدول عارضته، وأطمأنت الحكومة البريطانية إلى التقسيم لأنه يعطي أنصارها الموحدين (الدروز)، لأول مرة، حكماً إدارياً وسياسياً يكون تحت النفوذ البريطاني المباشر، ويقطع على الفرنسيين

---

(١) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه،ص٢٢٢-٢٢٣.

(٢) بازيلي، قسطنطين :المصدر نفسه، ص٣٢١.

(٣) عمر، عمر عبد العزيز: المرجع نفسه، ص٣٥٩-٣٦٠.انظر أيضاً: إسماعيل، عادل، و خوري، أميل :السياسة الدولية في الشرق، ج٣، ص٣٢-٣٣.

(٤) زكار، سهيل:المصدر نفسه، ص١٩١.

(٥) حريق، إيليا: التحول السياسي في تاريخ لبنان الحديث، الأهلية، بيروت، ط١،١٩٨٢م،ص١٩١.

(٦) بازيلي، قسطنطين: المصدر نفسه، ص٣٣٠.

طريق الاتصال بهم. وكتب ستراتفورد كاننغ السفير البريطاني في الأستانة إلى صارم أفندي في ١٥ كانون الأول ١٨٤٢م ما يأتي: "إن حكومته يطيب لها أن تبلغ الباب العالي أن قراره الخاص بوضع الموحدين (الدروز) في لبنان تحت إدارة زعيم منهم والموارنة تحت إدارة زعيم ماروني يدل دلالة واضحة على ثقته بصداقة الدول الأوروبية الخمس وعلى احترامه لرأيها"[١].

تم تعين أسعد باشا والياً على صيدا، وكلف بتطبيق نظام القائمقاميتين[٢]. ودافعت فرنسا عن ترشيح أمير شهابي لشغل منصب القائمقامية المارونية، في حين لم تجد بريطانيا ما يدفعها إلى تأيد ترشيح الشهابيين، لأن نفوذها السياسي والتجاري يقتضيان منع قيام حصن طبيعي في جبل لبنان مستقل عن الباب العالي يعمل على ترسيخ قدم فرنسا ويدعم سياستها الشرقية[٣].

كان على بريطانيا أن تفتش لنفسها عن محميين، ووجدت هؤلاء في سكان الجبل غير المسيحيين، ولم يكن فيه من هو أحوج إلى حمايتها وتأييدها أكثر من الموحدين (الدروز)، فكان من الطبيعي أن يدعم الكولونيل روز قنصل بريطانيا العام في بيروت ترشيح الشيخ سعيد جنبلاط[٤]. لكن أسعد باشا لم يرغب في أن يعيد البريطانيون تجربة تجربة الأمير بشير قاسم، ورأى أسعد باشا والي صيدا أن ينتخب المشايخ الموحدين (الدروز) القائمقام لطائفتهم بأنفسهم، واتفق هؤلاء على انتخاب الأمير أحمد أرسلان[٥]، أرسلان[٥]، في حين كان القنصل الفرنسي بوجاد (Pawjad) يدعم القائمقام حيدر أبي اللمع[٦]، فتم تعينه قائمقاماً للقائمقامية المسيحية في الأول من كانون الثاني ١٨٤٣م[١].

---

(١) إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٣، ص٣٥ .انظر أيضاً عمر، عبد العزيز عمر: المرجع نفسه، ص٣٦١.

(٢) بازيلي، قسطنطين: المصدر نفسه، ص٣٣١ .

(٣) طربين، أحمد، أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الاسرة الشهابية، ص٧٠.

(٤) هشي، سليم حسن: المصدر نفسه، ص٥٥.

(٥) طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الاسرة الشهابية، ص٧٠ ــ٧١.

(٦) حيدر أبو اللمع :كبير عائلة أبي اللمع حكام مقاطعة المتن .كان مقره قرية صليما. في مطلع عام ١٨٤٠ م نفي إلى سنار مع عدد من الأعيان الأخرين الذين شاركوا في الثورة ضد حكومة محمد علي باشا في بلاد الشام .عاد إلى الجبل بعد نفي الأمير بشير الثاني إلى مالطا، وتم تعيينه في كانون الثاني١٨٤٢م على رأس القائمقامية المسيحية التي تضم مناطق إمارة جبل لبنان الواقعة شمال خط بيروت–دمشق. لم يتمتع بأي نفوذ بين الموارنة، وهو رجل معتدل، لبق، لكنه متردد،

١٨٤٣م[1]. على أن الخلاف سرعان ما اشتد على مسألة ولاء وتبعية المسيحيين والموحدين (الدروز)، حيثما كانوا في جبل لبنان. تتلخص نظرية قنصل فرنسا بوجاد في أن جميع المسيحيين يجب أن يتبعوا سلطة القائمقام المسيحي، وبالمقابل يجب أن يكون كل موحّد (درزي)، أنى وجد، تابعاً لسلطة قائمقام الموحدين (الدروز).

أما نظرية قنصل بريطانيا روز والموحدين (الدروز) فهي أن يقسم الجبل إلى قسمين جغرافيين، يحكم القسم الجنوبي منها مباشرة قائمقام موحّد (درزي)، والشمالي يحكمه قائمقام مسيحي[2]. ولم يرض الموارنة على ذلك، وقدموا طلب استرحامٍ إلى وزير خارجية بريطانيا ينص على عدم وضعهم تحت حكم الموحدين (الدروز)، ويتهمون روز بالتحيز[3]، وبانتظار تعليمات الأستانة لفض هذا الخلاف، وضع أسعد باشا، تحت سلطته المباشرة جميع المسيحيين في قائمقامية الموحدين (الدروز)، وجميع الموحدين (الدروز) في قائمقامية المسيحيين[4].

بعد هذا الإجراء وقعت مصادمات بين الموحدين (الدروز) والفلاحين المسيحيين في الجنوب، وساءت الحال، وعمت الفوضى، ولم يجرؤ اسعد باشا والي صيدا على استعمال القوة ضد المسيحيين لأنه قدر مبررات قلقهم، ولم يصغ إلى إلحاح القنصل البريطاني روز الذي كان يسعى لإخضاع مسيحيي المناطق المختلطة لسلطة المقاطعجية الموحدين (الدروز)، وغرضه من ذلك إنشاء قوة درزية في كل من جبال لبنان الشرقية والغربية، تستند إليها السياسة البريطانية في بلاد الشام. من هنا نشأت معارضة البريطانيين لوضع لبنان تحت حكم عثماني مباشر، قد يضيق من حرية تصرفهم، ويقيد حركاتهم[5]. أما الحكومة الفرنسية فقد قبلت بنظام القائمقاميّتين، لأنه

ومتناقض، وضعيف، لايريد الشر لأحد، لكنه لا يملك قوة المعارضة .انظر: ريجنكوف، م، سيميليانسكايا، أ:المصدر نفسه،ص١٢١.

(١) العطار، نادر: المرجع نفسه، ص٢٠١.

(٢) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص٢٢٦.

(٣) نوار، عبد العزيز سليمان: وثائق اساسية من تاريخ لبنان، جامعة بيروت العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٤م. ص٣٨١-٣٨٤ .وانظر أيضاً الملاحق، وثيقة رقم (٢٠)،ص٢٩٥.

(٤) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص٢٢٦.

(٥) طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية، ص٧٤.

ينهي مشكلة، ويُوجد للمسيحيين إمارة خاصة بهم ويحقق فكرة الوطن القومي المسيحي التي آمن بها فريق من رجال السياسة في فرنسا[١].

لكن الأزمة اشتدت وتفاقمت حدتها، فحدثت صدامات في أمكنة متفرقة من الجبل بين الموحدين (الدروز) والموارنة، فأرسل الباب العالي أمير البحر خليل باشا (صهر السلطان)، وأنيط به تسوية وحل مشكلة تنظيم المناطق التي يقطنها الموحدين (الدروز) وتقع جغرافياً في قائمقامية المسيحيين، والمناطق التي يقطنها الموارنة وتقع جغرافياً في قائمقامية الموحدين (الدروز)[٢]. كانت المحادثات بين خليل باشا[٣] والقناصل ومشايخ الجبل طويلة وسقيمة، فنصح الكولونيل روز الممثلين العثمانيين أن يعتمد الوكلاء المسيحيون في القرى المختلطة من المنطقة الدرزية على القائمقام الدرزي، لكن المسيحيين رفضوا هذا الحل، ولم يتساهل خليل باشا، وطلب إرغام المسيحيين على قبول هذا الحل، لكنه لم يلبث أن رحل وحل محله وجيهي باشا في ١٩ نيسان ١٨٤٥م، فاتهم القناصل مع وجيهي باشا المسيحيين أنهم المسؤولين عن الحوادث، وخاصة القائمقام حيدر أبي اللمع والأمراء الشهابين، وطالب روز بنفي الأمراء الشهابيين، وطمأن زعماء الموحدين (الدروز) أن اتفاق ٧ كانون الأول ١٨٤٢م سيوضع موضع التنفيذ حرفياً ولمصلحتهم[٤].

٤- موقف بريطانيا من نظام شكيب أفندي ٣٠ تشرين الأول ١٨٤٥م:

بعد تدهور الأوضاع في لبنان تبين للقيادة السياسة الفرنسية أنها ارتكبت خطأً فادحاً، عندما وافقت على مذكرة صارم أفندي في ٧ كانون الأول ١٨٤٢م، وقبلت

---

(١) إسماعيل، عادل وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي،ج ٣، ص٣٦.

(٢) بازيلي، قسطنطين: المصدر نفسه، ص٣٣٤-٣٣٧.

(٣) خليل رفعت باشا: من أصل قوقازي كان في طفولته عبداً لخسرو باشا وابناً له بالتبني،عمل ضابطاً في الجيش النظامي، وشارك في إخماد الانتفاضة اليونانية بعد حرب(١٨٢٨-١٨٢٩ م)، منح لقب باشا نظير ما أبداه من شجاعة، وبفضل رعاية خسرو باشا (الذي كان يشغل منصب السر عسكر)، وعمل سفيراً لدى روسيا لمدة ستة أشهر، ثم عين في منصب القوبدان باشا (قائد الأسطول). وفي عام١٨٣٦م عُين في منصب السر عسكر، وفي عام١٨٤٠م عين عضواً في مجلس وزارة العدل، وبين عامي(١٨٤٤- ١٨٥٤م) قام على تنظيم أمور الحكم في لبنان.انظر: دولينا، نينل ألكسندروفنا: المرجع نفسه،ص٣١.

(٤) طربين،أحمد:أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية،ص٧٨-٨٠.

بتقسيم لبنان، فقرر غيز[1] (Henri Guys) أن يتدارك نتائج الخطأ بمعالجة المسألة اللبنانية من الأساس مع المسؤولين البريطانيين رأساً، ليقينه أن الرأي الأول والأخير في الأستانة يعود إليهم لا للباب العالي أو لدولة أخرى، فأوفد بوريه (Borya) في حزيران ١٨٤٥م إلى لندن للاجتماع باللورد أبردين (Abrdine) وزير الخارجية البريطانية ومفاوضته في إلغاء تقسيم لبنان والعودة بلبنان إلى نظامه السابق، أي نظام الوحدة. لكن اللورد أبردين عندما عرض عليه بوريه ذلك، أجابه: "إن الوحدة ليست سوى كلمة، وليس باستطاعتنا العثور على باشا فيه من المناقب والمزايا ما يتطلبه الوضع، لكن ذلك خير الحلول، لكن أنّى لنا أن نجد باشا ذا مزايا ومناقب، إن الناس والباب العالي مجمعون على الأمير بشير قاسم (بشير الثالث) وهو رجل هزيل لا مؤهلات له، والأمير بشير الثاني مال عن المسيحية إلى الإسلام، ففقد بهذا كل الحق في أن يقوم بالحكم في لبنان، والباب العالي ينفر من البيت الشهابي نفوراً شديداً"[2].

ووجد العثمانيون في فشل بوريه في مهمته في لندن ما شجعهم على متابعة سياستهم والإصرار على التقسيم أو العودة إلى الحكم العثماني المباشر، فأوفدوا شكيب أفندي إلى لبنان، لكن شكيب أفندي، قبل سفره إلى لبنان، أراد أن يوضح للدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا أهدافه ومهمته، فكتب إلى السفراء في ٢٨ تموز١٨٤٥م مذكرة جاء فيها: إن الغاية الأولى والأخيرة من انتقاله إلى بيروت هي وضع مذكرة ٧ كانون الأول ١٨٤٢ موضع التنفيذ أي تطبيق التقسيم"[3].

وصل شكيب أفندي إلى بيروت في ١٤ أيلول ١٨٤٥م، وفي اليوم التالي وجّه دعوة إلى القناصل الخمسة ليستمعوا إلى عرض مهمته ودوافعها، وطلب منهم أن لا يتدخلوا في شؤون الجبل الداخلية، وطلب منهم استدعاء رعاياهم من جميع أنحاء الجبل في مدة عشرة أيام ليتسنى له تهدئة الأمور وإعادة الأمن إلى نصابه، وفي هذا اتهام

---

(1) هنري غيز(Henri Guys)(١٧٨٧-١٨٧٧م): دبلوماسي فرنسي شغل منصب القنصل الفرنسي في بيروت عامي (١٨٣٨-١٨٤٧ م) ثم نقل إلى حلب منذ عام ١٨٥٥م، انتخب عضواً أصيلاً في الأكاديمية الفرنسية، مؤلف عدة كتب. انظر: ريجنكوف، م، سيميليانسكايا، أ: المصدر نفسه، ص٣١٣.

(2) إسماعيل، عادل، و خوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٣، ص٤٧-٥٢ .

(3) عمر، عبد العزيز عمر: المرجع نفسه، ص٣٦٦-٣٦٧.

صريح بأنهم كانوا وراء الإخلال بالأمن، وإن الاضطرابات ما وقعت في لبنان إلاّ بتحريض منهم ومن الأوربيين المقيمين فيه[١].

استدعى شكيب أفندي رؤساء الطائفتين الموحدين (الدروز) والموارنة إلى دير القمر، ثم أمر بتوقيفهم ليحرم الجبل من القيادة الحربية والإقطاعية، ويقمع كل محاولة للمعارضة، وخلع الأمير أحمد أرسلان[٢] قائمقام الموحدين (الدروز)، وعين بدله أخاه الأمير أمين أرسلان، فأغضب ذلك بريطانيا ولم توافق على سجنهما[٣]. إذ كانت تعلم أن الباب العالي إذا نجح في إخضاع الجبل لسلطته المطلقة، فإن حماية الموحدين (الدروز) تصبح مصدر خطر عليها لا مصدر قوة لها، لأن الحكومة البريطانية بممارستها تلك الحماية تكون مترددة دوماً في التدخل في الشؤون الإدارية لسنجق عثماني، وهي التي تدافع عن سيادة السلطان ضد فرنسا وروسيا. لذلك جمع السفير البريطاني ستراتفورد كاننغ (Stradford cannig) السفراء ونقل لهم تقرير قنصله الكولونيل روز، وفيه يحتج على توقيف الأمراء وتدابير نزع السلاح القاسية، واقترح التدخل الجمعي لدى الباب العالي وتوقيع مذكرة جماعية تسترعي انتباه السلطان إلى وجوب ما يلي:

١- تسديد التعويضات للموارنة التي لم يدفعها الموحدين (الدروز) بعد، والتخلي عن نزع الأسلحة.

٢- الإفراج عن القائمقامين وتخويلهما سلطات كافية.

فوجه الباب العالي مذكرة إلى السفراء أجاب فيها على المذكرة السابقة نقطة نقطة، وأعلن انضمام أمين باشا إلى شكيب أفندي ورحيله إلى بيروت، وتبديل وجيهي باشا وإحلال كامل باشا محله في صيدا. كما أفرج عن الأمير أحمد أرسلان، وأعيدت إليه

---

(١) غنام، رياض:المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني، ص١٣٣-١٣٥.

(٢) أحمد أرسلان : زعيم العائلة الأرسلانية، من الحكام الموحدين(الدروز) في مقاطعة الغرب الأسفل ومركزها الشويفات ، فور تعيينه قائماً على قائمقامية الموحدين(الدروز) عقد اتفاقاً سرياً مع مشايخ الموحدين(الدروز) تعهد بموجبه بالخضوع لزعماء العائلات الإقطاعية،بعد حدوث الصدامات بين الموارنة والموحدين الدروز عام١٨٤٠م أبعد عن السلطة،واستبدل بأخيه الأمير أمين.انظر :ريجنكوف، م، سيميليانسكايا، أ:المصدر نفسه، ص١٢١.

(٣) عمر، عبد العزيز عمر: المرجع نفسه، ص٣٦٧.

سلطاته، وأعلن الباب العالي أن القائمقامين لن يعزلا في المستقبل، إلاّ بعد موافقة السلطان[1].

ثم التفت شكيب أفندي إلى المسألة التي أتى من أجلها، وفي ٣٠ تشرين الأول ١٨٤٥م أصدر قراراً بتنظيم شؤون الإدارتين في لبنان، المسيحية والدرزية، وهو ما أصبح يعرف بنظام شكيب أفندي[2]. ويقضي هذا النظام باعتبار طريق بيروت ــ دمشق حداً فاصلاً بين القائمقاميتين، وجعل لكل منهما برئاسة القائمقام مجلساً له صلاحيات إدارية ومالية وقضائية، ويتألف من مستشارين يمثلون جميع الطوائف، وينتخبهم رجال الدين ووجهاء الطائفة التي ينتمون إليها. ووضع شكيب أفندي شرطاً أساسياً للترشيح إلى عضوية المجلس، وهو أن لا يكون المرشح قد سبق له القيام بخدمة مؤسسات أجنبية رسمية وقنصلية، وأن لا يكون حاصلاً على حماية أجنبية مهما كان نوعها وسببها[3]. وهكذا أُقصيَ عن المجلس جميع الذين كانوا على صلة بالقناصل أو بالمؤسسات والجمعيات الأجنبية.

وقفت فرنسا موقف المتحفظ، وأكدت على ضرورة تفوق الموارنة، لذلك فقد صرحت أنها تعد نظام شكيب أفندي تدبيراً مؤقتاً. أما بقية الدول الأوروبية، بما فيها بريطانيا، فكانت تواقة إلى وضع نهاية للمسألة اللبنانية، وبدا لها أن نظام شكيب أفندي تسوية سعيدة[4]،وخف التوتر، لأن عملاء بريطانيا وفرنسا كفوا عن الكيد والدسائس نتيجة التقارب البريطاني ــ الفرنسي في أثناء حرب القرم ضد روسيا[5]. لكن ما أن انتهت حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م) وجرى التوقيع على معاهدة الصلح في باريس عام ١٨٥٦م حتى عادت السياسة الأوروبية إلى سابق عهدها، وسعت كل دولة إلى ترسيخ قدمها عن طريق زرع الخلاف بين الطوائف.

---

(١) طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية، ص٨٢.

(٢) انظر الملاحق، الوثيقة رقم (٢١)،ص٢٩٦.

(٣) إسماعيل، عادل وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج ٣، ص٥٦. وانظر أيضاً عمر، عبد العزيز عمر: المرجع نفسه، ص٣٦٨.

(٤) ضو، أنطوان :المصدر نفسه، ج١، ص١٦.

(٥) صفوت، محمد مصطفى: المرجع نفسه ،ص٤٠.

ثانياً: تأثير حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)م على السياسة البريطانية في بلاد الشام:

١- أسباب حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) م ودور السياسة البريطانية في إثارتها:

نعمت أوروبا في أعقاب حرب الشام الثانية وانسحاب قوات محمد علي باشا عنها (١٨٣٩-١٨٤٠)م، بفترة من الهدوء النسبي دامت ما يقرب عشرة أعوام، بدأت بعدها روسيا تثير المشكلات للدولة العثمانية، وجاءت المشكلات في هذه المرة بسبب النزاع والخلاف على الأماكن المقدسة في فلسطين[١]،ورغبة كل من القيصر الروسي نيقولاي الأول[٢] والإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث[٣] في الظهور بمظهر حامي المسيحيين في بيت المقدس وما حولها. حيث ادعى القيصر الروسي الحق في حماية الطائفة الأرثوذكسية، وادعى نابليون الثالث حقه في حمايتة رعايا الكنيسة الكاثوليكية[٤].

---

(١) لبيب، حسين: المصدر نفسه، ص ٧٣ .

(٢) نيقولاي الأول (Nicholas I): (١٧٩٦-١٨٥٥) م قيصر روسيا بين عامي(١٨٢٥-١٨٥٥) قضى على ثورة الديسمبريين، وترسخت البيروقراطية في عهده.كما تمكن من القضاء على الانتفاضة البولونية (١٨٣٠-١٨٣١ م) .وفي عهده تم العودة إلى مبدأ الحلف المقدس، وشاركت روسيا في حرب القوقاز، والحرب على بلاد فارس، وضد الدولة العثمانية .توفي نيقولاي الأول في عام ١٨٥٥ م.انظر: القاموس الموسوعي الكبير، ص٨٠٧.(باللغة الروسية).

(٣) نابليون الثالث (١٨٠٨- ١٨٧٣م):إمبراطور إمبراطورية فرنسا الثانية (١٨٥٢-١٨٧٠م) ، . ولد نابليون في باريس. وهو ابن لويس بونابرت. ملك هولندا وأخو نابليون الأول، وقضى لويس نابليون شبابه في إيطاليا وألمانيا وسويسرا.ارتبط بمجموعات ثورية أمثال الكَربُونَاري في إيطاليا. حاول الإطاحة بحكومة لويس فيليب الملكية عام١٨٣٦م في ستراسبورج، وعاود محاولته في بولونيا عام١٨٤٠م.سجن عقب المحاولة الفاشلة عام١٨٤٠م. لكنه فر إلى بريطانيا عام ١٨٤٦م، وخلال هذه السنين كتب الأفكار النابليونية عام١٨٣٩م، جاعلاً من سيرة عمه الشهير مثلاً، عندما أدت ثورة عام ١٨٤٨م إلى ظهور الجمهورية الفرنسية الثانية، رجع لويس نابليون وتم انتخابه في المجلس. وبفضل شهرته انتخب رئيسًا، وفي أيلول١٨٥١م، واستطاع أن يجمع كل الصلاحيات بين يديه،وأعلن نفسه إمبراطورًا عام ١٨٥٢م. حكم حكمًا دكتاتوريًا، وكان محاطاً بمغامرين غير أمناء. فرض الرقابة على الصحافة. كان نابليون من الأوائل الذين اقترحوا نزع السلاح العالمي، وحاول تسوية الخلافات من خلال مؤتمرات دولية ،وتعاطف مع المطالبين بالقومية. وأدى دورًا بارزًا في مد يد المساعدة لاستقلال رومانيا وتوحيد إيطاليا، وعن غير قصد توحيد ألمانيا.عندما أصبح نابليون إمبراطورًا، أعلن أن الإمبراطورية تعني السلم، في حين قاد فرنسا نحو سلسلة متتالية من المغامرات الفاشلة. وحاول مساعدة الشعب البولندي في ثورته عام ١٨٦٣م ضد روسيا، لكنه لم ينجح. سعى أوتو فون بسمارك إلى توحيد ولايات ألمانيا المشتتة. عبأ بسمارك الرأي العام الألماني وقاد فرنسا إلى الحرب الفرنسية-البروسية عام ١٨٧٠م وأنشأ الإمبراطورية الألمانية. استسلم نابليون في سيدان يوم ٢أيلول١٨٧٠م مع ٨٠,٠٠٠ جندي. وأسقط الثوريون الإمبراطورية يوم٤ أيلول١٨٧٠م.توفي نابليون الثالث في تشيزلهيرست، ببريطانيا بعد ثلاث سنوات من سقوط إمبراطوريته.انظر: نابليون الثالث www.marefa.org/index.php

(٤) الدسوقي، محمد كمال: المرجع نفسه، ص١٩٩.

عدّ القيصر الروسي نيقولاي الأول نفسه سيد أوروبا، وزادت ثقته بنفسه وبصحة سياسته، بعد تأييد النمسا وبروسيا له، وبعد أن اعتقد أن التقارب الفرنسي – البريطاني لن يتحقق، فأراد أن يستفيد من تلك الظروف الدولية ليسدد ضربته إلى الدولة العثمانية (الرجل المريض) وليحقق أطماعه بالاستيلاء على القسطنطينية (الأستانة)، فأثار مسألة الأماكن المقدسة في فلسطين، وفتح بذلك ملف المسألة الشرقية من جديد، وهنا تكمن الأسباب الحقيقية للحرب. في وقت كان فيه الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث، بعد أن استتب له الأمر في الداخل، بحاجة إلى انتصارات خارجية ليقوي نفوذه، فجاءته الفرصة المناسبة عندما أثار القيصر الروسي قضية الأماكن المقدسة[١].

من جهة أخرى، جعل نفوذ بريطانيا المتزايد في الأستانة، القيصرالروسي نيقولاي الأول قلقاً حول مسألة التفاهم الودي معها فيما يتعلق بالمسألة الشرقية، ورأى أن الوقت حان للقيام بمحاولة أخرى من أجل الوصول إلى تفاهم مع بريطانيا، ولذا عقد[٢] اجتماعين مع السفير البريطاني السيرجورج هملتون سيمور (Seymour) في مدينة سانت بيتربورغ (S.btrsborg) في يومي التاسع والرابع عشر من شهر كانون الثاني عام ١٨٥٣م، وفي أثناء الاجتماع الأول استعمل القيصر نيقولاي الأول العبارة الشهيرة: (الرجل المريض) ويقصد بها الدولة العثمانية، وذلك عندما قال للسفير البريطاني: "اعتبر أن لدينا رجل مريض، رجل مريض في حالة الخطر الشديد، وإني أصارحكم القول إنه إذا أفلت من بين يدينا يوماً فإن الأمر سينقلب إلى كارثة، لاسيما قبل أن نكون قد أخذنا جميع الأحتياطات الضرورية"[٣].

بلّغ اللورد سيمور حكومته اقتراحات القيصر الروسي، وأطلعها بالتفصيل على ما دار بينهما من أحاديث، لكن مبادرة القيصر الروسي لم تفده في شيء، لأن تبديلاً أساسياً وقع في الحكومة البريطانية في ٢١ شباط ١٨٥٣م، إذ تسلم شؤونها الخارجية اللورد كلارندون (Clarndon) خلفاً لجون رسل[٤] (John RUSSELL) فكتب إلى اللورد

---

(١) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص١٩٤-١٩٥.

(٢) Marriott ,J.A.R.: ibid ,p257.

(٣) زين، زين نور الدين: المرجع نفسه، ص٢٨.

(٤) اللورد جون راسل (lord John RUSSELL) (١٧٩٢-١٨٧٨)م: رئيس الوزراء البريطاني والمصلح الليبرالي. ولد في لندن في ٨ آب١٧٩٢م، وتلقى تعليمه في مدرسة وستمنستر(Westminster)، وجامعة ادنبره(Edinburgh). سياسي بريطاني، انتخب نائباً =

اللورد سيمور أن يقول للقيصر نيقولاي الأول: "إن الحكومة البريطانية لا ترى أن "الرجل المريض" مشرف على الهلاك، بل تعتقد أن له من العافية ما يضمن له الحياة لسنوات طويلة، وإنها من جهة ثانية، ليس لها أي رغبة في توسيع ممتلكاتها التي لا تغيب عنها الشمس"[١]. فهي والحالة هذه تأبى الإسهام في أي اتفاق سري أو علني يتعلق بالدولة العثملنية كما أنها لا توافق على أي تغيير في الوضع يمكن أن يؤدي إلى تغيير أساسي في سياستها تجاه حلفائها في الشرق والغرب.

لم توافق الحكومة البريطانية برئاسة أبردين على المقترحات الروسية، لأن المشروع الروسي يتعارض مع سياستها التقليدية، وهي المحافظة على سلامة أراضي الدولة العثمانية، والحؤول دون وصول روسيا إلى المياه الدافئة. فرأت بريطانيا أن الصراع الفرنسي ــ الروسي على الأماكن المقدسة ما هو إلا لغايات أخرى، فالغايات الفرنسية لا تشكل خطراً على المصلحة البريطانية، بينما الغايات الروسية فيها كل الخطر على المصالح البريطانية[٢]. وفي دوائر وزارة الخارجية البريطانية درست أوضاع الدولة العثمانية وعلاقاتها بروسيا، وتضمن القرار النهائي الذي اتخذته إزاء تلك الاتجاهات الروسية نحوها الأمور التالية:

أ- إن الحفاظ على كيان الدولة العثمانية حسب المفهوم البريطاني يجب أن يكون في السياسة الخارجية البريطانية إزاء المشكلة القائمة بين روسيا وفرنسا والدولة العثمانية.

=عن حزب الويغ عام١٨١٣م، وأصبح من أبرز زعماء الحزب في عام ١٨٣٤م، دخل البرلمان في عام ١٨١٣م، وخلال ١٨٢٠م، كان يدافع باستمرار من أجل منح المساواة السياسية لطائفة الروم الكاثوليك. كان آمر الصرف العامة في الوزارة بين عامي (١٨٣٠-١٨٣٤ م)،ولعب دورا قياديا في إقرار مشروع قانون إصلاح عام١٨٣٢م، والتي حررت الأنظمة الأنتخابية لبريطانيا. وشغل منصب وزير الداخلية بين عامي (١٨٣٥-١٨٣٩ م)، وأمين للحرب والمستعمرات بين عامي (١٨٣٩-١٨٤١ م).خلال رئاسة الأولى للوزارة بين عامي (١٨٤٧- ١٨٥٢ م)، وساعد في عام= =١٨٤٧م على تمرير التشريع الذي يحد من ساعات العمل في المصانع، وإقامة نظام الصحة العامة في عام ١٨٤٨ م، وانتهت القيود المفروضة على التجارة الاستعمارية عن طريق إلغاء القوانين ملاحة في عام ١٨٤٩م. وقامت حكومته بجهود كبيرة لمنع المجاعة على نطاق واسع، نتيجة المجاعة الإيرلندية خلال عامي(١٨٤٦ -١٨٤٧) م. نتيجة للمعارضة من سياسات الحكومة خلال حرب القرم فقد قيادة الحزب الليبرالي لصالح بالمرستون. وزير الخارجية (١٨٥٩-١٨٦٥)، كان يؤيد توحيد إيطاليا، واعتزل الحياة السياسية لفترة وجيزة، ترأس الوزارة للمرة الثانية بين عامي (١٨٦٥-١٨٦٦) م. توفي، في ٢٨أيار١٨٧٨ م. انظر: .Microsoft ® Encarta ® 2009. © 1993-2008 Microsoft Corporation. All rights reserved. وانظر ماركس، كارل: المسألة الشرقية حول القوميات في الدولة العثمانية، ترجمة: جوزيف عبد الله، مراجعة :سهيل القش، دار الحداثة، ط١،١٩٨٠م، ص٧٠.

(١) إسماعيل، عادل، خوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق،ج٣،ص٩٥.

(٢) الخنساء، أحمد:المرجع نفسه،ص١٩٦.

ب- إن الموقف الفرنسي المعارض للمشاريع التوسعيه الروسية يسير في خط السياسة البريطانية نفسه، ولا يتضارب معها بالرغم من تعدد الأزمات بين فرنسا وبريطانيا في أكثر من مكان.

جـ- إن البلقان منطقة أرثوذكسية في غالبها، إلا أنها تشكل بوضعها صمام أمن للتوازن الدولي يقي أوروبا شر خلافات جذرية بين روسيا والنمسا. وإذا كان هناك تغيير جذري يجب أن يحدث في البلقان فهو استقلال الشعوب البلقانية، وليس وقوعها تحت سيطرة أي من روسيا أو النمسا، إنما الوضع حينذاك في البلقان هو الأجدى بالنسبة للتوازن الدولي[١].

بعد أن اطلع القيصر الروسي على الرد البريطاني صمم على مبتغاه عن طريق الدخول في مفاوضات مباشرة مع الباب العالي، فأوفد في أواخر شباط إلى الأستانة بعثة برئاسة الأمير مينشيكوف[٢] (Menchikoff) حاملة مذكرة من ثلاث نقاط:

أ- إنهاء مسألة الأماكن المقدسة بسحب بعض الامتيازات من يد الرهبان الكاثوليك وإعطائها للأرثوذكس.

ب- الاعتراف بحق روسيا في حماية الرعايا الأرثوذكس.

جـ- عقد تحالف دفاعي مع روسيا.

أصدر الباب العالي، عملاً بنصيحة السفير البريطاني وموافقة السفير الفرنسي، فرماناً في ٤ أيار ١٨٥٣م قبل بموجبه ما جاء في البند الأول من المذكرة الروسية [٣].

وجاءت التطورات مؤيدة لصحة وجهة نظر البريطانيين ومثبته دهاءهم السياسي، ذلك أن مينشيكوف، بعد انصياع الباب العالي[٤] لرغباته من دون أن تحرك السفارة

---

(١) نوار، عبد العزيز سليمان: التاريخ الحديث أوروبا منذ الثورة الفرنسية حتى الحرب الفرنسية البروسية، ص٣٥٣ .

(٢) مينشيكوف :ألكساندر سيرغيفيتش مينشيكوف (١٧٨٧-١٨٦٩ م) الكونت الشهير، عضو أكاديمية العلوم الروسية، وعضو أكاديمية سانت بيتربورغ. قائد هيئة الأركان الروسية، وعضو مجلس الوزراء. تولى قيادة القوات البرية والبحرية والروسية أثناء حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦ م).وقد تم عزله بسبب إخفاقاته المتكررة فيها.انظر: القاموس الموسوعي الكبير، ص ٧١٨.(باللغة الروسية).

(٣) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص١٩٧.

(٤) الباب العالي: هو الاسم المتعارف عليه لمقر الحكومة (العليا) في عاصمة الدولة العثمانية، ويبدو أن التسمية اشتقت من الطبيعة المرتفعة لمدخل باب رئاسة الحكومة في السراي الحكومي نفسه. وكان يقصد بهذا الاسم أولاً البلاط السلطاني في العاصمة العثمانية، ثم أصبح يدل ابتداء من عام ١٧١٨م على مقر الصدر الأعظم وسائر الوزارات والدوائر الرسمية العثمانية .انظر: أبو الحسن، علي :المرجع نفسه، ص٤٩.

الفرنسية ساكناً، غابت عنه الأسباب الخفية لهذا الانصياع، وأخذتــه العــزة بالباطــل، فمشى على غير وعي إلى الحبائل التي نصبها له السفير البريطاني، وقدم للباب مذكرة جديدة طلب فيها إعلان استقلال الجبل الأسود، وعزل وزير الصرب غار كانين الــذي كانت تعده روسيا خصماً لسياستها، فأوفدت الخارجية العثمانية أحد كبار رجالها إلــى السفير البريطاني ليطلعه على المذكرة ويتبادل وإياه الرأي في الرد عليها، فاتفقا علــى الخطوط الرئيسة لهذا الرد، وكتب الباب العالي إلى مينشيكوف يقول له: "إن فــي مــا طلبه اعتداء على حقوق السلطان، وتدخلاً صريحاً في شؤون الدولة، وخروجــا عــن مهمته. وهي في الأساس مقتصرة على المفاوضة في مسألة الأماكن المقدسة وامتيازات الأرثوذكس فيها، أما المسائل البلقانية فلها حلول تتعلق بالتوازن الأوروبــي، فالبــاب العالي لن يقدم على أي تبديل في الأوضاع الراهنة في البلقان، إلا بعد أن يأخــذ رأي الدول الأوروبية وموافقتها" فجاء هذا الرد صدمة للأميرال، فأخذته ثورة غضب[١].

في اليوم التالي ٥ أيار ١٨٥٣م أرسل الأميرال مينشــيكوف إلــى البــاب العــالي مشروع اتفاقية على غرار اتفاقية هنكار أسكلة سي، وأرفقه بمذكرة لها صفة الإنــذار، قال فيها: "إنه لا يرى فرمان ٤ أيار كافياً، وطلب الاعتراف بحــق روســيا بحمايــة الأرثوذكس حماية تامة مطلقة غير مقيدة بشرط، وأعطى الحكومــة العثمانيــة مهلــة للجواب على المذكرة تنتهي في ١٠ أيار، يكون بعدها لسيده القيصر أن يتصرف كمــا يشاء للقيام بواجبه وتأمين مصالحه، وارتاح السفير البريطاني إلى هذا التطور المؤيــد لوجهة نظره والمنسجم مع رغباته[٢].

رفض السلطان العثماني المذكرة الروسية بتشجيع من بريطانيــا ومســاندتها لــه بواســطة الســفير البريطــاني، اللــورد ســتراتفوردي كــانج رد كليــف[٣] (Stratfordn De cannig redcliffe) الــذي كــان قــد أوفــده وزيــر الخارجيــة

---

(١) إسماعيل، عادل، خوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق، ج٣، ص١١٢.

(٢) المرجع نفسه، ص١١٣.

(٣) ستراتفورددي كانج رد كليف (Stratfordn De cannig redcliffe): السفير البريطاني في الأستانة من عام ١٨٤٢م إلى عام ١٨٥٨م باستثناء فترات قصيرة، وقد كان في هذه الفترة سفيراً لا ينازعه منازع في قوة نفوذه وسيطرته، وكان يعد من أبرز الدبلوماسيين الذين عملوا في السلك الخارجي البريطاني. انظر: زين، نور الدين زين :المرجع نفسه، ص١٩١.

اللورد كلارندون (Clarendon) إلى الباب العالي للمرة الثالثة، وكان كلارنـــدون قـــد أوضح

مهمة السفير بكل جلاء عندما بعث إليه برسالة جاء فيها: "يســر جلالـــة الملكـــة (فيكتوريا)[١] أن تطلب إليكم العودة إلى سفارتكم لدى الباب العالي، فـــي هـــذه الفتـــرة الحرجة التي يتقرر فيها مصير الدولة العثمانية، لأسباب مهمة ولكي تنفـذوا تعليمـــات خاصة....... وعليه فإن الغرض من مهمة سعادتكم في هذه الظرف هي أن تنصـــحوا الباب العالي بالتعقل والروية، وأن تطلبوا من تلك الدول العظمى أن تمارس الضـــغط على الباب العالي لقبول المذكرة، ومهمتكم أيضاً أن تحولوا دون نشوب حرب عثمانية ـ روسية، وأن تقنعوا الدول العظمى المعنية بالأمر بأن يجدوا حلاً ودياً سلمياً لإنهـــاء النزاع القائم"[٢].

بعد أن تلقت الحكومة البريطانية تقرير سفيرها في الأستانة، واطَّلعت علـــى نـــص إنذار ٥ أيار الروسي هالها أن تعمل السياسة الروسية على وضع الباب العالي تحـــت وصايتها، فكتبت إلى سفيرها تؤيده في مواقفه الحازمة من المبعوث الروسي، وطلبـــت من أمير البحر البريطاني في المتوسط أن يغادر مراسيه في مالطا فوراً، وينضم إلـــى الأسطول الفرنسي في المياه العثمانية، ويتلقى أوامره من السفير في الأستانة[٣].

وصرح اللورد كلارندون في مجلس العموم البريطاني في ٢٨ أيار بما يـــأتي: "إن بريطانيا لا يسعها الوقوف على الحياد إذا اُعتـــدي علـــى ســـيادة الســـلطان وســـلامة أراضيه"[٤].

---

[١] فيكتوريا (Victoria) (١٨١٩-١٩٠١م): ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا (١٨٣٧-١٩٠١م) وإمبراطورة الهند(١٨٧٦-١٩٠١م).وكان حكمها أطول من أي ملك في تاريخ بريطانيا،المعروف باسم العصر الفيكتوري.وكانت الملكة فيكتوريا الرئيس الرسمي للدولة، ليس فقط في المملكة المتحدة، ولكن أيضا في الإمبراطورية البريطانية في جميع أنحاء العالم، والتي شملت كندا واستراليا والهند ونيوزيلندا، وأجزاء كبيرة من أفريقيا. جسدت شخصية مملكتها، وحرصت على ضمان تقدير عال لبريطانيا في جميع أنحاء العالم باعتبارها دولة قوية اقتصاديا وعسكريا، وكنموذج للحضارة. خلال السنوات الأخيرة من حكمها، حقق النظام الملكي على درجة عالية من الشهرة بين معظم رعاياها.انظر:

Microsoft ® Encarta ® 2009. © 1993-2008 Microsoft Corporation. All rights reserved.

[٢] زين، زين نور الدين: المرجع نفسه، ص٢٩.

[٣] إسماعيل، عادل وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٣، ص١١٦.

[٤] المرجع نفسه، ص١١٦.

يبدو أنه من العسير تحديد قدر مسؤولية كل من بريطانيا وروسيا في التسبب في نشوب حرب القرم، لكن مما لا شك فيه أن نصيب اللورد ستراتفورد دي رد كليف من المسؤوليه يفوق نصيب أي طرف آخر، ولا نستثني نصيب وزارة الخارجية البريطانية نفسها، في إشعال نار حرب القرم. ويقول اللورد افرسلي (Eversley) بهذا الصدد: "إنه يستحيل على المرء أن يقرأ في كتاب سيرة حياة اللورد ستراتفورد الممتازة عن الأسباب التي أدت إلى حرب القرم دون أن يتوصل إلى الاستنتاج أن سياسة بريطانيا في إبان تلك الأزمة لم تكن فعلاً السياسة التي كانت ترسمها الوزارة في لندن، بل كانت سياسة اللورد ستراتفورد في السفارة البريطانية في الأستانة"(١).

حيث بلغ تأثير هذا السفير وتدخله اليومي في شؤون الدولة العثمانية الذروة، وأصبحا موضوع حديث القاصي والداني، حتى أن فرنسا نفسها، على ما كان بين سياستها والسياسة البريطانية من تفاهم لمقاومة الروس، كبر عليها أن يصبح القول الفصل في الأستانة لممثل بريطانيا. أما الباب العالي فإنه لم يعلن الحرب على روسيا عن إيمان بأن جيشه قادر على طرد الروس من الإمارات البلقانية أو أن أسطوله القديم الهزيل مؤهل لإحراز نصر على الأسطول الروسي، وإنما أراد أن يجعلها سبباً وفرصة لتدويل خلافه مع روسيا بإحراج الدول الأوروبية، وخاصة بريطانيا وإجبارها على اتخاذ موقف صريح من هذا الخلاف(٢).

٢- أحداث حرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦م ودور بريطانيا فيها:

استعدت روسيا عسكرياً لتنفيذ خطتها، في الدولة العثمانية، وطالبت بإغلاق مضيق الدردنيل أمام السفن الفرنسية والبريطانية، وما أن علم البريطانيون بما جرى حتى دعوا إلى عقد اجتماع يحضره ممثلو كل من فرنسا والنمسا وروسيا، وحاول هؤلاء التوسط بين العثمانيين والروس، ونصح البريطانيون العثمانيين برفض المطالب الروسية لأنها تتعارض مع نصوص اتفاقية المضايق الموقعة عام ١٨٤١م، وتمس استقلال الدولة العثمانية، وتهدد مستقبلها(٣).

(١) زين، زين نور الدين: المرجع نفسه، ص٣٠ .

(٢) إسماعيل،عادل، خوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق،ج٣،ص١٣١-١٣٢.

(٣) أبو حجر، جمال:المرجع نفسه، ص٧٦-٧٧ .

انسحب المبعوث الروسي من الأستانة في إعقاب تلك التطـورات فـي ٢١ أيـار ١٨٥٣م، وفي أواخر الشهر نفسه أمر القيصر الروسي نيقولاي الأول الجيش باحتلال الأفلاق والبغدان، فقتل أبرياءً لا حيلة لهم، وأُغرق الأسطول العثماني في قاع البحـر، وعلى الأغلب فقد كان ذلك على مرأى المسؤولين البريطانيين[١]. وأعلن القيصـر أن عمله هذا هو وقائي، خاصة بعد وصول الأسطولين البريطاني والفرنسي إلى الدردنيل، وأضاف: إن عمله هذا يجب أن لا يفهم على أنه حرب على الدولة العثمانية. واعتماداً على التأييد البريطاني له، فقد أرسل السلطان العثماني إنذاراً إلى الحكومـة الروسـية بالانسحاب من إمارة الدانوب خلال خمسة عشر يوماً[٢].

في ٤ تشرين الأول ١٨٥٣م أعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا، وأطلقـت القوات العثمانية النيران على القوات الروسية التي احتلـت الأفـلاق والبغـدان، ورد الروس على ذلك بإغراق الأسطول العثماني[٣] فردت بريطانيا علـى ذلـك بإدخـال وحداتها البحرية إلى البحر الأسود، وأخذ كل طرف من الأطراف يسـير مـع تيـار التصلب، فقد رفض القيصر الروسي مقترحات التسوية التي وضعتها النمسـا، وهـي تسوية لا تعطي للروس أي مكاسب، وكان هذا الرفض ووقوف النمسا وبروسيا وفرنسا وبريطانيا ضد وجهات النظر الروسية يعني أن روسيا أصبحت معزولة بكـل معنـى الكلمة، وأن المشكلة العثمانية ليست مشكلة علاقات بين روسيا والدولة العثمانية، وإنما مشكلة دولية[٤]. لذلك اجتمع سفراء بريطانيا وبروسيا والنمسا وفرنسا فـي ٢ شـباط ١٨٥٤م، وتدارسوا جواب القيصرالروسي ووقّعوا في اليوم ذاتـه علـى بروتوكـولٍ يرفض اقتراحه،فأوفد القيصر الروسي مساعده ومستشاره الكونت آورلوف[٥]، ليقنـع

---

(١) Poole, ،Sanley lane: Encyclopaedic History of World CIVIZATION ،VOL.14 Turkey p356.

(٢) برجاوي، أحمد سعيد: المرجع نفسه، ص١٩٧.

(٣) أبو حجر، جمال: المرجع نفسه، ص٧٨.

(٤) نوار، عبد العزيز سليمان: التاريخ الحديث أوروبا منذ الثورة الفرنسية حتى الحرب الفرنسية البروسية، ص٣٥٥.

(٥) أرلوف: ألكساندر فيودورفتش أرلوف (١٧٨٦-١٨٦١ م) الكونت المعروف، ترأس الوفد الروسي أثناء محادثات باريس عام ١٨٥٦م، ووقع على معاهدة باريس في نهاية المباحثات. شغل منصب رئيس مجلس الدولة ورئيس مجلس الوزراء بين عامي (١٨٥٦-١٨٦٠ م). توفي عام١٨٦١م. انظر: القاموس الموسوعي الكبير،٨٥١.(باللغة الروسية).

النمسا وبروسيا بالبقاء على سياسة التعاون مع روسيا أو على الأقل بالوقوف موقــف الحياد[١].

شجع إخفاق أورلوف المزدوج في إقناع كل من بروسيا والنمســا بالتعــاون مــع بريطانيا وفرنسا على توحيد صفوفهما، فعقدتا في ١٢ آذار ١٨٥٤م في الأستانة معاهدة مع الباب العالي، تعهدت فيها الحكومتان البريطانيــة والفرنســية بتقــديم المســاعدات العسكرية للباب العالي، والمحافظة على استقلاله ووحدة بلاده، ورد الجيوش الروســية التي اجتاحت بدون حق ممتلكاته البلقانية. وتعهد السلطان مــن جهتــه أن لا يعقــد أي صلح أو هدنة، ولا يقوم بأي مفاوضة مباشرة أو غير مباشرة مع الجانــب الروســي بدون علم الحكومتين وموافقتهما[٢]. وتتمتع القوات البريطانية والفرنسية بحرية الحركة عند ممارستها للعمليات العسكرية، وعلى السلطات العثمانيــة أن تقــدم كافــة أنــواع التسهيلات اللازمة، وعلى القوات البريطانية والفرنسية الانسحاب من الأراضي والمياه العثمانية بعد إنهاء مهمتها بفترة لا تقل عن أربعين يوماً[٣].

في ظل هذا التحالف الجديد وجهت بريطانيا وفرنسا إنذاراً إلى روسيا تطالبها فيــه بسحب قواتها من الأفلاق والبغدان[٤]. إلا أن روسيا رفضت الإنذار، فأدى ذلــك إلــى إعلان بريطانيا وفرنسا في ٢٧ آذار ١٨٥٤م الحرب على روسيا[٥]. وفي ١٠ نيســان ١٨٥٤م عقدت الحكومتان البريطانية والفرنسية حلفاً رسمياً ضد روسيا[٦]. ولعل أهم ما ما جاء في هذه المعاهدة من الناحية السياسية المادة السادسة منها التي تعطــي الــدول الأوروبية الأخرى حق الانضمام إليها، وقد أريد بها ترك الباب مفتوحاً أمــام النمســا وبروسيا للحاق بمعسكر الحلفاء[٧].

خلال تلك التطورات المتصاعدة كانت العوامل الشخصية ذات أثر في توجيه هــذا التصاعد. ويكاد يكون هناك إجماع بين المؤرخين على أن الســفير البريطــاني فــي

---

(١) إسماعيل، عادل، خوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق، ج٣،ص١٣٧-١٣٨.

(٢) برجاوي، أحمد سعيد:المرجع نفسه، ص٢٣٧.

(٣) الشناوي، عبد العزيز محمد: المرجع نفسه، ص٢٢٦ .

(٤) أبو حجر، جمال: المرجع نفسه، ص٧٩.

(٥) إسماعيل، عادل وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٣، ص١٤٣ .

(٦) صفوت، محمد مصطفى: المرجع نفسه، ص٤٠.

(٧) إسماعيل، عادل، خوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق، ج٣،ص١٤٣.

الأستانة ستراتفورد كاننج مسؤول عن دفع روسيا نحو الوقوع في الحفرة التـــي كـــان يدفعها هو نحوها، إذ كان مسموع الكلمة في دوائر الباب العالي حتى وُصف في فتـــرة من الفترات بأنه "سلطان الدولة العثمانية غير المتوج"[١] ومع تقدير الدور الذي قام بـــه هذا السفير فإن الحكومة البريطانية هي التي وضعت أسس السياسة البريطانية إزاء دفع روسيا نحو الحرب متى ضمنت هذه الحكومة البريطانية تحالف فرنسا معها.

في الحديث عن مجريات الحرب لا داعي هنا للاستفاضة والاسترسال في وصـــف العمليات الحربية التي قامت بها جيوش الحلفاء من جهة، أو التي قامت بهـــا الجيـــوش الروسية من جهة ثانية، ويكفي الإشارة إلى أن معارك هذه الحرب نشـــبت فـــي شـــبه جزيرة القرم[٢] شمالي البحر الأسود، ودامت ثلاثة أعوام دون إحراز نتائج حاســـمة[٣]. وأن أهم أحداثها انهزام الروس أمام الحلفاء في ٢٠ أيلول في موقعة ألما[٤]ومحاصرة الحلفاء لمدينة سيفاستوبل وإغراق الأسطول الروسي عند شواطئها، لكن الحلفـــاء لـــم يستطيعوا أخذ سيفاستوبل[٥]، كما لم يستطيع الروس طرد الحلفاء، وظل الأمـــر علـــى ذلك إلى حزيران ١٨٥٥م، وبقي الموقف الحربي جامداً، وكان معنى هذا العودة إلـــى ميدان السياسة[٦].

---

[١] نوار،عبد العزيز سليمان: التاريخ الحديث أوروبا منذ الثورة الفرنسية حتى الحرب الفرنسية البروسية،ص٣٥٦-٣٥٧.

[٢] القرم :اسم لشبه جزيرة على شكل نتوء من الجزء الجنوبي لأوكرانيا في البحر الأسود وبحر آزوف، مساحتها ٢٧٠٠٠كم٢، وعاصمتها سيمفروبول، ومن المدن الاخرى التي تضمها شبه الجزيرة، مدينة كيرش، وسيفاستوبل، وبالاكلافا، ومدينة يالطا التي شهدت انعقاد المؤتمر التاريخي لقادة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. تتدرج شبه جزيرة القرم في الارتفاع من السهول الساحلية حتى جبال القرم على طول الساحل الجنوبي، توجد غابات البلوط والصنوبر، والزان والزيتون، تزدهر فيها زراعة الحبوب، ويوجد مخزون كبير من الحديد، والرخام، والحجر الجيري، احتلتها ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، وفي عام ١٩٤٥م أصبحت أقليماً من أقاليم الاتحاد السوفييتي، وفي عام١٩٩٣م حصلت على استقلالها السياسي والاقتصادي، معظم سكان القرم من أصل روسي، يطالب بعضهم بالانضمام إلى روسيا.انظر: الموسوعة العربية العالمية، ج ١٨، ص١٦٠ .

[٣] زين، نور الدين زين: المرجع نفسه، ص٣٠ .

[٤] ألما :إحدى معارك حرب القرم التي مني فيها الجيش الروسي بهزيمة حاسمة أمام قوات الدولة العثمانية وحليفتيها بريطانيا وفرنسا، عند نهر آلما. انظر: اللحام، ماجد: المرجع نفسه، ص٣٧ .

[٥] سيفاستوبل:ميناء روسي على البحر الأسود،حاصرته القوات البريطانية والفرنسية أثناء حرب القرم، و بعد ١١ شهراً غرق الأسطول الروسي المتمركز في "سيفاستوبل وتخلت عن المدينة بعد أن تضررت كثيراً في عام١٨٥٥م. انظر: Microsoft ® Encarta ® 2009. © 1993-2008 Microsoft Corporation. All rights reserved.

[٦] صفوت، محمد مصطفى: المرجع نفسه،ص٤٣.

ثم انضمت سردينيا إلى الحلفاء، أما بروسيا فقد أعلنت موقـف الحيـاد وفـي ٤ حزيران ١٨٥٥م، رفض الروس في مؤتمر فيينا مقترحات الحلفاء في تحديـد قـوات روسيا البحرية في البحر الأسود، ولذا انفرط عقد المؤتمر،ولم تدخل النمسـا الحـرب انتصاراً لحلفائها.وفشلت الدبلوماسية إذن، واضطرت بريطانيا وفرنسا إلى العودة إلـى الحرب وهاجم الحلفاء سيفاستوبل، فسقطت في ٨ أيلول ١٨٥٥م[١]. وكان لسقوطها أثر كبير في الأوساط السياسية الاوروبية فعدّت الحرب منتهية عسكرياً، وأوشك النصر أن يحدث انشقاقاً في صفوف الحلفاء، وذلك أن اللورد بالمرستون رئيس وزراء بريطانيـا قرر استغلال، فوز الجيش الفرنسي إلى آخر حدود الاسـتغلال، أي أن يجعلـه نقطـة الانطلاق للقضاء على روسيا قضاءً مبرماً، وتهديم جميع مراكزها التجارية والعسكرية على البحر الأسود[٢]. أما نابليون الثالث، فقد وجد في الحفاظ على كيان الدولة الروسية حفاظاً على توازن دولي مفيد إلى حد ما لفرنسا[٣]. فوافق بذلك على رأي وزرائه، بعد أن توافرت لديه الأدلة، على أن بريطانيا لا تعتمد في فتح جبهة جديدة علـى سـواحل البلطيق، إلا على الجيوش الفرنسية التي ضحت في حرب القرم بحوالي مئتي ألف من خيرة شبابها، قضوا في ساحات القتال.وانتقل بالمرستون من الكلام عن خطتـه إلـى العمل الجدي لتنفيذها، ففاوض ملك السويد في عقد معاهدة مع الحلفاء على أساس فـتح جبهة في الشمال مقابل تمكين السويد من تحقيق أهدافها في البلطيق، لكن المفاوضـات فشلت[٤]. أما فرنسا فكادت تتفق مع روسيا، لولا أن أسرار المفاوضات علمـت بهـا النمسا، فقررت النمسا الخروج عن حيادها والانضمام إلى الحلفاء فـي حـربهم ضـد الروس[٥]. وأرسلت إلى روسيا في كانون الأول إنذاراً أقسى من مذكرة الضـمانات الأربعة، وفي ١٦ كانون الثاني ١٨٥٦م وافق القيصر الروسي على مضمون الإنـذار النمساوي بدون قيد أو شرط، وبدأ مندوبو الدول في فيينا بحث مقدمات الصلح في أول

---

(١) المرجع نفسه، ص٤٥-٤٨.

(٢) إسماعيل، عادل وخوري، أميل :السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٣، ص١٥٥.

(٣) نوار، عبد العزيز سليمان: التاريخ الحديث أوروبا منذ الثورة الفرنسية حتى الحرب الفرنسية البروسية، ص٣٦٩ .

(٤) إسماعيل، عادل وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي،ج٣، ص١٥٥ــ ١٥٧.

(٥) نوار، عبد العزيز سليمان: التاريخ الحديث أوروبا منذ الثورة الفرنسية حتى الحرب الفرنسية البروسية، ص٣٧٠.

شباط ١٨٥٦م تمهيداً لعقد معاهدة باريس التي وقعت في ٣٠ آذار ١٨٥٦م، وبذلك انتهت حرب القرم[١].

٣- نتائج حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)م على السياسة البريطانية في بلاد الشام:

أ- خط همايوني (١٨ شباط ١٨٥٦)م:

صدر خط همايوني، وهو الخط الثاني بعد خط كلخانة، وعرف بالتنظيمات الخيرية، علماً أن هذا الخط جاء بعد مساعدة الدول الأوروبية بزعامة بريطانيا للباب العالي ضد روسيا، أصدره السلطان العثماني في ١٨ شباط ١٨٥٦م[٢]، وأهم ما جاء فيه:

١ً- إلغاء نظام الالتزام، والقضاء على الرشوة والفساد.

٢ً- المساواة في التجنيد بين المسلمين وغير المسلمين.

٣ً- معاملة جميع رعايا الدولة معاملة متساوية مهما كانت أديانهم ومذاهبهم.

٤ً- المحافظة على الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها رؤساء الملل غير الإسلامية.

٥ً- تمتع كل المواطنين بمواطنة عثمانية متساوية، وأن تصبح المسائل المدنية الخاصة بالرعايا المسيحيين من اختصاص مجلس مختلط من الأهالي ورجال الدين المسيحيين، يقوم الشعب بانتخابه بنفسه، وفتح معاهد التعليم أمام المسيحيين لتفتح أمامهم وظائف الدولة[٣].

٦ً- السماح للأجانب بامتلاك الأراضي في الدولة العثمانية[٤].

وكان من شأن الخط الهمايوني أن مهد الطريق إلى تأسيس مصارف أوروبية داخل ولايات الدولة العثمانية،بما فيها بلاد الشام، لتسهيل الإصلاح الاقتصادي[٥].

---

(١) صفوت، محمد مصطفى: المرجع نفسه، ص ٤٨-٤٩.

(٢) عويد، عدنان: التبشير بين الأصولية المسيحية وسلطة التغريب، دار المدى، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠٠٠ م، ص١٤٨.

(٣) الصلابي، علي محمد محمد: المرجع نفسه، ص٤١٩ .

(٤) القوانين العثمانية، دار الحمراء، بيروت، ١٩٩٠ م، ص٣٥ .

(٥) شيليشر، ليندا: المرجع نفسه، ص١٠١-١٠٢ .

ب- معاهدة باريس في ٣٠ آذار ١٨٥٦م:

في شباط ١٨٥٦م وضع البروتوكول المجسد لبنود المعاهدة بتمثيل خمس دول في فيينا، وفي ٣٠ آذار ١٨٥٦م تم توقيع معاهدة الصلح التي عرفت بمعاهدة باريس[١].

وأهم ما جاء فيها:

١ً- إعلان حرية الملاحة في نهر الدانوب، وتأليف لجنة دولية من الدول التي يمر في أراضيها لضمان سلامة الملاحة في النهر.

٢ً- تتمتع إمارات الدانوب (الأفلاق والبغدان) بالاستقلال الذاتي ضمن السيادة العثمانية[٢].

٣ً- اعتراف الدول الأوروبية بالخط الهاميوني الصادر عن السلطان في ١٨ شباط ١٨٥٦م، وهذا يعني تخلي روسيا عن المطالبة بحماية المسيحيين في الدولة العثمانية[٣].

٤ً- يعد البحر الأسود بحراً محايداً، ومياهه وموانيه مفتوحة لجميع السفن التجارية لجميع الدول.

٥ً- إعادة القاعدة القديمة للإشراف الدولي على المضايق بدلاً من سيطرة روسيا وحدها[٤].

وإذا كانت تلك هي النتائج الرسمية لحرب القرم فإن النتائج الأخرى التي ترتبت عليها لا تقل عنها أهمية، ومن أهم هذه النتائج:

١ً- أنذرت حرب القرم البريطانيين بضرورة جعل مواصلاتهم مع الهند أسرع مما كانت عليه، ولزوم تعزيز إمبراطوريتهم في وجه الخطر الروسي، فظهرت الدعوة إلى إنشاء سكة حديد تمتد موازية لنهر الفرات منذ عام ١٨٥٧م، غير أن المشروع لم يتحقق، لأن رئيس الوزراء اللورد بالمرستون أذعن لتأثير نابليون الثالث الذي عارض فكرة مد سكة حديد بريطانية في بلاد الشام، ولا يريد أن يغضب فرنسا التي آزرتهم في حرب القرم. غير أن أصحاب هذا المشروع لم تفتر عزيمتهم، بل ازدادوا قناعة

---

(١) Marriott ,J.A.R.: ibid ,p267.

(٢) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص٢٠٦.

(٣) الشناوي، عبد العزيز محمد: المرجع نفسه، ص٢٢٦-٢٢٧.

(٤) أبو حجر، جمال: المرجع نفسه، ص ٨٨-٩٠.

بأهميته الاستراتيجية والتجارية، فلما أثاروا دعوتهم إليه مرة ثانية في عامي (١٨٧١-١٨٧٢)م لم تقف في سبيلهم مشكلة جديدة سوى وجود قناة السويس التي افتتحت رسمياً عام ١٨٦٩م، وكان يظن أنها تقلل من أهمية السكة المقترح أنشاؤها في بلاد الشام[١].

٢ً- ارتفعت الأجور والأسعار ارتفاعاً جنونياً في أثناء حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)م، لما رافقها من التجنيد الإلزامي وماتلاه من ندرة اليد العاملة[٢].

٣ً- كانت نتائج حرب القرم كارثة على الدولة العثمانية، وبطبيعة الحال على ولاياتها بما فيها بلاد الشام، فلسد النفقات عقد الباب العالي أول قرض في عام ١٨٥٤م، وفرضت الدول الأجنبية وفي مقدمتها بريطانيا نوعاً من الحماية على الدولة العثمانية، وأملت على حكومة السلطان برنامجاً للإصلاحات فتح الطريق أمام تزايد تغلغل الرأسمال الأجنبي في الدولة العثمانية وولاياتها بما فيها بلاد الشام[٣] وبدا الاستثمار التجاري الأوروبي أمراً مسلماً به، أن لم يكن موضع ترحيب محلي، وأضحت أنماط أخرى من التغلغل المالي مصدراً للخلاف ولعل الاستثمار الأوربي المباشر في الأرض كان أكثر الموضوعات حساسية. والواقع أن وضع بلاد الشام في ذلك الحين كان انعكاساً لما تعانيه الدولة العثمانية برمتها من صعوبات مالية متفاقمة، ظهرت علاماتها الأولى إبّان حرب القرم، فحتى ذلك الحين كانت الحكومة العثمانية قد تجنبت الاعتماد على المصادر الأوروبية، إلا أن حرب القرم جعلت ذلك حاجة سياسية واقتصادية ملحة،[٤] وبدعم من الحلفاء تم الاتفاق في بريطانيا عام ١٨٥٤م على قرض بقيمة ثلاثة ملايين جنيه وبفائدة قدرها ٦%. كما أنها عقدت قرضاً آخر في العام التالي بقيمة خمسة ملايين جنيه، وتوالت القروض بعد ذلك بقرض جديد في عام ١٨٥٨م بقيمة خمسة ملايين جنيه أخرى[٥].

٤ً- كان لحرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)م آثار على الحركة التبشيرية البروتستانتية في بلاد الشام، فبعد صدور الخط الهمايوني في ٢٦ كانون الثاني ١٨٥٦م، أقرت

---

(١) زكي، صالح: المرجع نفسه، ص٤٩.

(٢) غزال، زهير: المرجع نفسه، ص٢٣٤-٢٣٥.

(٣) لوتسكي: المرجع نفسه، ص١٥٩.

(٤) شيلشر، ليندا: المرجع نفسه، ص١٠١-١٠٢.

(٥) يحيى، جلال: العالم العربي الحديث، ص٢٠٩.

المساواة في الحقوق المدنية لرعايا السلطان المسيحيين وضمن حريتهم في العبـــادة والتعبير[1] فكان انتصاراً للبروتستانتية ومزيداً من الحرية الدينية[2].

وفي ٣٠ آذار ١٨٥٦م، قرعت أجراس إرسالية نابلس، ولما ســـأل حـــاكم نـــابلس العثماني المطران البروتستانتي غوبات[3] (GOBAT) عن هذا الحـــادث ومســـوغاته، أجابه إنه فعل ذلك استناداً إلى ما جاء في خط همايوني، وبعد يومين رفعـــت الأعـــلام البريطانية على مبنى الإرسالية، مما أدى إلى إثارة شعور المواطنين في نابلس، فجرح أحد المسلمين، وقتل مسيحي في أعمال الشغب التي وقعت[4].

٥ً- لاقت تجارة تصدير الحبوب أثناء حرب القرم رواجاً فاق الحد، مرده الطلب على منتجات بلاد الشام نتيجة حرب القرم، وانعكس هذا الطلب في الارتفـــاع المـــذهل الذي طرأ على أسعار الحبوب في الأسواق العالمية، ففي بداية خمسينيات القـــرن التاسع عشر كان القمح الشامي متوفراً على الساحل بسعر زهيد بلغ خمسة جنيهات للطن الواحد، بينما بلغ متوسط سعر القمح في لندن ٩,٣ جنيهاً للطن الواحد عـــام ١٨٥٣م، ومع اندلاع حرب القرم ارتفعت الأسعار في لندن إلى ما يزيد عـــن ١٥ جنيهاً للطن الواحد في السنوات الثلاث التالية، واستجاب مصدرو الحبوب في بلاد

---

[1] محافظة،علي: العلاقات الألمانية الفلسطينية (من إنشاء مطرانية القدس الروتستانتية وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، لبنان، ط١٩٨١،١م ، ص٤٧-٤٨.

[2] كلداني، حنا سعيد: الـــمسيحيـــــة المعاصــــــرة في الأردن وفلسطين، عمان- الأردن ،ط١ ، ١٩٩٣ ، ص٣٤٩.

[3] غوبات: ولد صموئيل غوبات في٢٦ كانون الثاني١٧٩٩م في قرية صغيرة في منطقة جورا (Jura) الفرنسية التي ضمت بعد سقوط نابليون إلى كانتون برن السويسرية، درس في مدرسة القرية حتى بلغ سن الخامسة عشرة. وتربى في أحضان الكنيسة الإصلاحية في سويسرا. تدرب على التبشير في معهد بازل (Basel) وتعلم اللغة العربية في باريس على يد المستشرق الفرنسي دوساسي(De sacy) رحل غوبات إلى بريطانيا عام١٨٢٥م، حيث عينته جمعية المُرسلين الكنسية مبشراً في الحبشة. وقبل أن يتولى مهمته الجديدة دخل كلية اسلنجتون (Islington) للتدريب فيها لبضعة أشهر. وفي طريقه إلى مركز عمله الجديد، قضى غوبات ما يزيد عن ثلاث سنوات في زيارة لمالطا وبلاد الشام ومصر، ونقل من الحبشة إلى مالطا حيث شارك في ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية، وفي كتابة المنشورات التبشيرية التي كانت تصدرها مطبعة جمعية المُرسلين الكنسية، ولما انشئت الكلية البروتستانتية في مالطا عين نائباً لمدير الكلية، وبعد شهر واحد من افتتاح الكلية عام١٨٤٦م، تلقى غوبات دعوة من ملك بروسيا لتسميته مطراناً لأسقفية القدس البريطانية-البروسية المشتركة، وبقي على رأس عمله حتى وفاته عام١٨٧٩م. انظر: Tibawi. A. L, British Interests in Palestine , P86 -87

[4] Tibawi. A. L: ibid ,p115-116.

الشام لهذا الطلب على نحو جيد، وقدر تقرير تجاري بريطاني قيمة ما صدرته بلاد الشام وقبرص في عام ١٨٥٥م بنحو ١٦٩,٠٠٠ جنيه[١].

٦- أطلقت حرب القرم يد بريطانيا في توجيه سلسلة من الضربات إلى القوى المناهضة لسياستها ومصالحها الاستعمارية، ومن ذلك فإن هزيمة روسيا في حرب القرم أطلقت يد بريطانيا في القضاء على الثورة الهندية الكبرى في عام ١٨٥٧م، كذلك شنت بريطانيا حملة ضد بلاد فارس في عامي ١٨٥٧م و١٨٥٨م[٢].

ثانياً: حوادث لبنان عام ١٨٦٠م وانعكاساتها على السياسة البريطانية في بلاد الشام:

نظراً لكون الحوداث التي وقعت في جبل لبنان أم في دمشق عام ١٨٦٠م، استمدت مؤثراتها وأسبابها من معين واحد، يكمن في طبيعة العلاقة القائمة بين الدولة العثمانية والدول الكبرى بما فيها بريطانيا من جهة، وبين بريطانيا والدول الكبرى من جهة ثانية، فإن الباحث لن يخوض في أحداث الحرب الأهلية في لبنان ودمشق لجهة وقائعها المادية وتفاصيلها الفرعية، بل سيتناولها من حيث أسبابها ونتائجها، وما أعقبها من اجتماعات دولية ومقررات ساهم في وضعها الدبلوماسيون البريطانيون، وانعكست على السياسة البريطانية في بلاد الشام.

١- ثورة الفلاحين في كسروان عام١٨٥٨م ومقدمات أحداث عام ١٨٦٠م:

لم تكن الفترة الواقعة بين عامي (١٨٤٥-١٨٥٤)م حافلة بالأحداث المهمة في جبل لبنان، فقد جاء عدد من الباشاوات العثمانيين وذهبوا، وأصبح الأمير أمين أرسلان قائمقاماً عام ١٨٤٥م بدل أخيه الأمير أحمد أرسلان الذي طرده شكيب أفندي، كما أصبح المطران يوسف الخازن بطريرك الموارنة بعد وفاة البطريرك يوسف حبيش[٣]. لكن البطريرك والقائمقام كليهما توفيا في عام ١٨٥٤م، فخلف الأول بولس مسعد، وهو رجل نشط، شديد التعصب لدينه، ومبغض لرجال الإقطاع، إذ كان ينتمي إلى أسرة من عامة الناس[٤]. وعندما توفي الأمير حيدر أبي اللمع قائم المقامية المسيحية دبّ الخلاف بين الموارنة حول من يكون الخلف، فمنهم من رشح الأمير بشير عساف أبي اللمع

(١) شيلشر، ليندا: المرجع نفسه، ص٩٨.

(٢) نوار، عبد العزيز سليمان: التاريخ الحديث أوروبا منذ الثورة الفرنسية حتى الحرب الفرنسية البروسية، ص٣٧٥.

(٣) طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية،ص٨٨.

(٤) عمر، عبد العزيز عمر: المرجع نفسه، ص٣٧٠.

بتأييد من بريطانيا، ومنهم من رشح الأمير بشير أحمد أبي اللمع بتأييد من الفرنسيين والعثمانيين، ووافق الوالي العثماني وفيق باشا على تعيين الأمير بشير أحمد أبي اللمع[١]. ونقل البطريرك الماروني يوسف الخازن أنذاك إلى المستر مور قنصل بريطانيا العام في بيروت مقترحات أسرة الخازن الثلاثة بصدد حكم قائمقامية المسيحيين، وهي:

أ- أن يخلف الأمير إسماعيل أبي اللمع أباه الأمير حيدر شريطة أن يتخذ سكرتيراً إدارياً أحد مشايخ آل الخازن.

ب- أن يستلم القائمقامية شيخ خازني بعد إسماعيل أبي اللمع.

جـ- أن يحكم مقاطعجية الجبل مقاطعاتهم مباشرة تحت إشراف المشير دون حاجة للقائمقام[٢].

لكن قنصلي فرنسا وبريطانيا اتفقا غداة حرب القرم على ترشيح الأمير بشير أحمد أبي اللمع لمنصب القائمقامية، وصدر فرمان تعيينه من الأستانة في ١٣ آب ١٨٥٤م، وصرف النظر عن الأمير بشير عساف، لأنه على حد قول المستر مور نفسه، تنقصه الخبرة والمؤهلات الشخصية للحاكم[٣].

حاولت بريطانيا إقامة العراقيل بوجه بشير أحمد أبي اللمع فأشاعت بأنه موحّدي (درزي) المولد فوقع الخلاف بين الموارنة على الخَلَفِ، وحصلت الاضطرابات في القائمقامية المسيحية بين الفلاحين والمشايخ[٤]. أما القنصل الفرنسي فقد حاول إزالة الخلاف بين الأمير بشير ومناوئيه الذين أبوا أن يعترفوا بسلطته من المشايخ الإقطاعيين، وبخاصة آل الخازن، وحذرهم من الاختلاف والانقسام، لكن المشايخ لم يستمعوا إليه، وأصغوا إلى تحريض القنصل البريطاني، وساد الظّن أن موقف مشايخ الإقطاع هذا كانت تشجعه القنصليتان البريطانية والروسية[٥]. ويرجح البريطانيون الذين وقفوا إلى جانب المشايخ الموارنة أنهم كانوا يهدفون إلى توسيع شقة الخلاف

---

(١) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص٢٢٨.

(٢) ترحيني، محمد أحمد: المرجع نفسه، ص١١٣.

(٣) طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية، ص٨٩.

(٤) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص٢٢٨.

(٥) صليبي، كمال: المرجع نفسه، ص١١٦.

بين المشايخ الموارنة هؤلاء وحليفتهم التقليدية فرنسا. وهكذا بــدت فضــيحة التنــافس الاستعماري في تفريق اللبنانيين بأجلى صورها، إذ تناقض موقف لندن وبــاريس مــع سياستهما التقليديتين، فساند القنصل البريطاني الإقطاعيين ضد الثــورة، بينمــا ســاند القنصل الفرنسي الثائرين[١].

وعلى الرغم من أن بريطانيا وافقت على تعيين بشــير أحمــد، إلا أنهــا غيــرت موقفها، وعادت إلى تأيد منافسه بشير عساف، كما أيدت كــذلك آل الخــازن. وهكــذا اضطربت أحوال البلاد بين عامي (١٨٥٧-١٨٥٩)م، واجتمع فريــق مــن المشــايخ الخازنيين وغيرهم من المشايخ وأبناء الأمراء قرب نهر الكلب فــي ٥ أيــار ١٨٥٨م، واتفقوا على خلع الأمير بشير أحمد، وأدى النزاع بين بشير أحمد ومنافسه بشير عساف إلى توجيه ضربة قاضية إلى سلطة القائمقام[٢]، وأهم من ذلك حدثت في كسروان ثورة ضد المشايخ الخازنيين قام بها الفلاحون بقيادة طانيوس شاهين[٣]، ودعم الإكليــروس الماروني الفلاحين الخاضعين للظلم والإرهاق[٤]، حيث رأوا في ثورة المشــايخ علــى القائمقام مثلاً يحتذي به، واستعدوا للإغارة على أمــلاك المشــايخ وطــردوهم منهــا، وتفاقمت الفتنة، خصوصا بعد تردد إشاعة إطلاق البارود على طانيوس شاهين زعــيم الحركة، فانقض الفلاحون على مشايخهم في أمــاكن متعــددة، واغتصــبوا أملاكهــم، وحصروا ريعها في أيديهم، وقتلوا بعضهم، وفر معظم المشايخ الخازنين إلى بيــروت وما جاور كسروان، وامتدت الحركة من كسروان إلى المتن، وكــان لنجــاح حركــة الفلاحين في كسروان أثر واسع في جبل لبنان[٥]. وامتدت الثورة إلى لبنان الجنــوبي، حيث كان عدد كبير من الفلاحين الموارنة يعملون فــي أرضــي بعــض الموحــدين

---

[١] ترحيني، محمد أحمد: المرجع نفسه، ص١١٩.

[٢] عمر،عبد العزيز عمر: المرجع نفسه، ص٣٧١.

[٣] طانيوس شاهين :هو من قرية ريفون من كسروان، زعيم انتفاضة الفلاحين التي انطلقت من كسروان ضــد المشــايخ الإقطاعيين، بهدف إسقاط سلطة وامتيازات المشايخ الخازنيين، وهم في هذا يلتقون مع رغبات الإكليروس المــاروني ، وربما يرجع التأييد الذي لقيه الفلاحون من رجال الإكليروس إلى أن هذه الفئة الأخيرة نشأت في بيئة ريفية متواضــعة .انظر: عمر، عبد العزيز عمر: المرجع نفسه، ص٣٧٢.

[٤] ضو، أنطوان: المصدر نفسه، ج١،ص١٥.

[٥] حنا، عبدالله: المرجع نفسه، ص٢٤٧.

(الدروز) من الإقطاعيين، فاتخذت الثورة هناك مظهر الصــراع الطــائفي[1]. وقــد أسهمت الدولة العثمانية في بيروت وصراع الدول الأوروبية، وخاصة الصــراع بــين بريطانيا وفرنسا على النفوذ في بلاد الشام، في تحويل هذا الصراع الاجتمــاعي إلــى صراع طائفي وتأجيجه بغية كل منهم تحقيق أهدافه الخاصة[2].

في هذا الجو المشحون بالتناقضات، (وقد خلطت الأوراق في القائمقاميتن الدرزية والمسيحية على حد سواء) شبت نار الفتنة الطائفية في بيــت مــري بــين الموحــدين (الدروز) والموارنة في ١٥ آب ١٨٥٩م[3]. كان المتوقع منها أن تكون بداية لحــرب أهلية مدمرة، لكن تدخل المسؤولين العثمانيين وإجراء المصالحة بين الفريقين حال دون امتداد القتال بينهما، على الأقل حينذاك، إلا أن واقعة بيت ميري شكلت الشرارة الأولى للحرب الأهلية المدمرة التي نشبت عام ١٨٦٠م[4].

تعد حركة الفلاحين التي انطلقت من كسروان، واحــدة مــن الحركــات الوطنيــة التقدمية في نظر كثير من كتّاب التاريخ العربي، أما القنصل البريطاني مور فإنه يحط بشدة من قدر حركة فلاحي كسروان، إذ لم ير فيها إلا المساوئ، وتغاضى عن جوانبها الإيجابية كما يظهر ذلك في رسالته الموجهة إلى السفير البريطاني في الأستانة هنــري بولفر في ١٤ تموز ١٨٥٩م، حيث ذكر فيها :" أن قائد الثورة طانيوس شاهين ورجاله قتلوا النساء والأطفال، وأحرقوا ودمروا ممتلكات الأبرياء"[5].

لكن هذه الواقعة لم تكن مجردة من الأسباب والدوافع التي تراكمت عبر الماضيين القريب والبعيد، وهذه التراكمات يجب التفتيش عنها لسبر غور الماضــي بغيــة بيــان الواقع وإظهار الحقيقة.

---

(١) أنطونيوس، جورج :المرجع نفسه، ص١٢٣.

(٢) حنا،عبدالله: المرجع نفسه، ص٢٤٧.

(٣) ترحيني، محمد أحمد: المرجع نفسه، ص١٤٨.

(٤) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين ١٨٦١ــ ١٧٨٨م،ص٢٨٦.

(٥) الخازن, فيليب وفريد :المصدر نفسه، ج ١، ص٣٦٦.وانظر أيضا: نوار، عبد العزيز: وثائق أساسية في تاريخ لبنــان، ص٤٢٣-٤٢٤.

٢- أسباب حوادث لبنان عام ١٨٦٠م ودور بريطانيا فيها:

إن فهماً حقيقياً للحوادث التاريخية التي وقعت في جبل لبنان بين عـامي (١٨٤٠-١٨٦٠)م لا يمكن أن يكون إلاَّ في ضوء العلاقات بين الـدول الكبـرى، وخصوصـاً دولتي فرنسا وبريطانيا، و تركزت التناقضات البريطانية الفرنسية آنذاك في بلاد الشام ومصر، حتى أن بوجولا ورداً على ما قاله البطريرك: "إما يسود الدروز أو الموارنـة في جبل لبنان" قال:"إما تسود فرنسا، أو بريطانيا في سوريا"[١]. وهذا يؤكد بدون شـك أن الدول الأوروبية الكبرى كانت معنية بإشعال الحرب الأهلية في لبنـان، فمـن وراء ظهر المشايخ الموحدين (الدروز) والموارنة كان يقف العملاء البريطانيون والفرنسيون الذين كانوا يودون استغلال التناحر الدرزي ـ الماروني لغايات مغرضة. وقـد أكـد ممثل روسيا في اللجنة الدولية نوفيكوف في رسالة بعث بها إلى بيتربورغ أن التنـافس في بلاد الشام في السنوات الأخيرة بين بريطانيا وفرنسا قد تعاظم بقوة ملحوظة. كمـا أكد أن مسألة الموحدين (الدروز) والموارنة ينبغي البحث فيها بصفتها مسـألة تخـص تناقضات هاتين الدولتين الكبيرتين[٢]. وقد حاول الكولونيل روز أن يجد لـه أنصـاراً وأتباعاً في المناطق المسيحية، فدق باب البطريرك الماروني، وسعى إلـى المطارنـة مقدماً الهدايا وعارضاً المال والمساعدات، فأخفق عنده، لكنه لم يفشـل عنـد بعـض عائلات كسروان التي تشدها إلى البريطانيين روابط يرجع عهدها إلى عام ١٨٤٠م[٣].

اعتمدت سياسة لندن عبر رئيس وزرائها بالمرستون على التوازن الأوروبي مـن خلال الحفاظ على ما يسمى الوضع الراهن، وهذا لا يكون إلاَّ من خلال المحافظة على وحدة أراضي الدولة العثمانية وعدم تجزئتها أو اقتطاع أي جزء منها. في حـين كـان الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث يعمل جاهداً من أجل الاتفاق على تقسيم هذه الدولة العثمانية تمهيداً لبسط النفوذ الفرنسي على بـلاد الشـام، وكـان نـابليون قـد فـاتح الدبلوماسيين البريطانيين بأمر هذا التقسيم عام ١٨٥٧م[٤]. وخلال التنافس بين بريطانيا وفرنسا في بلاد الشام كانت بريطانيا تفتقد إلى الدعم الشعبي، لذلك عينـت الكولونيـل روز قنصلاً جديداً لها في لبنان، فتقرب من الطائفة المارونية، خاصة في الفترة التـي

---

(١) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين ١٨٦١ـ ١٧٨٨م، ص٢٨٩.

(٢) بانتيشينكوفا، مارينا: المرجع نفسه، ص٨٣-٨٤.

(٣) إسماعيل، عادل وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي،ج٣،ص٦٣.

(٤) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين ١٨٦١ـ ١٧٨٨م، ص٢٨٨.

كانت فيها فرنسا حليفة محمد علي باشا، ومدها بالسلاح، ووعد بتحقيق مطالبهم لــدى السلطان العثماني. لكن هذا التعاون بين بريطانيا والموارنة لم يستمر طــويلاً بســبب خشية رجال الدين الموارنة من البعثات التبشيرية البروتستانتية التي كانــت بريطانيــا تشجعها من أجل مد نفوذها في لبنان، فتحولت بريطانيا من التحالف مع الموارنة إلــى التحالف مع الموحدين (الدروز)[١]. وقد باشرت بريطانيا فعلا بانتهاج سياسة متفتحــة تجاههم منذ أن توسطت لدى محمد علي باشا عام ١٨٤٠م لإعادة أعيانهم المنفيين فــي مصر[٢]. فجندت بريطانيا عملاءها من أوساط الإقطاعيين الموحدين (الدروز)، وسعت إلى تعزيز وضعهم على حساب السكان المسيحيين، وقدم العملاء البريطــانيون الــدعم لتحضيرات الموحدين (الدروز) العسكرية، ومــدتهم بريطانيــا بكميــات كبيــرة مــن الأسلحة[٣].

رغم أن اللورد بالمرستون كان قد حاول أن ينفي التهم الموجهة إلــى بريطانيــا، وتحمل بشكل ضمني المسؤولية على فرنسا بقوله: "أذيع بين المسيحيين منــذ بضــعة أشهر شائعات تنذر بحدوث أمور كهذه في سوريا في فصل الربيع، ووزعت كمية مــن الأسلحة الأوروبية على الموارنة، فأنا لا أسأل من أين أتتهم ومن أعطاهم إياهــا، أنــا واثق بأنهم أُعطوا أسلحة"[٤]. كما أشار بالمرستون أيضا في مجلس العموم بتاريخ ١٧ آب عام ١٨٥٩م إلى اللجنة المارونية العليا في بيروت برئاسة المطران طوبيــا التــي قامت بمساع تهدف لإثارة الموارنة وطرد الموحدين (الدروز)[٥].

لكن بالمرستون لم يتمكن من جعل بريطانيا غير مسؤولة عن الحوادث الطائفيــة التي دارت رحاها في الجبل، باعتبار أن بريطانيا وقفت إلى جانب الموحدين (الدروز)، تماشياً مع مصالحها وهذا أكده الخطاب الذي ألقاه مونسل (Montsel) في مجلس العموم البريطاني بتاريخ ١٧ أب ١٨٦١م. وقد جاء فيه: "وضح لي من التدقيق فــي الســنين العشرين الأخيرة أن بريطانيا هي سبب ما جرى في سوريا، فقد سعينا إلى إبدال هيئــة

---

[١] الخنساء،أحمد: المرجع نفسه، ص٢١٦.

[٢] رستم،أسد :المحفوظات الملكية،ج٤، ص٤٧٤-٤٧٧ .

[٣] بانتيشينكوفا، مارينا: المرجع نفسه، ص٨٦.

[٤] ترحيني، محمد أحمد :المرجع نفسه، ص١٥٤.

[٥] الخازن, فيليب وفريد:المصدر نفسه، ج٢،ص٢٨٨-٢٩١.

الحكم في لبنان نكاية بفرنسا، ومعارضة لبعض دول أوروبا......... وعملنا على التفريق بين الموحدين (الدروز) والموارنة، وجعلنا لكل فريق زعيماً، وسلطاناً على الزعيمين باشا عثماني"[١]. كما أكد صاحب النظرية الماركسية كارل ماركس[٢]، على دور البريطانيين في تسعير أوار الحرب الأهلية في لبنان، حيث ذكر أن وزير خارجية بريطانيا العظمى اللورد بالمرستون قد زود الإقطاعيين الموحدين (الدروز) المشتركين في الأحداث بالسلاح[٣]. يضاف إلى دور الدول الأوروبية عجز الأرستقراطية العلمانية من القضاء على ثورة الفلاحين في القائمقامية، وخوف أصحاب الإقطاعيات الدرزية من انتشار الثورة بين الفلاحين الموحدين (الدروز) أسوة بالفلاحين الموارنة[٤]. واتهمت بعض المصادر الدولة العثمانية بإثارة الموحدين (الدروز) على المسيحيين، والمسيحيين على الموحدين (الدروز) قصد الانتقام من الطائفتين وإحكام قبضتهم على الجبل[٥].

ومختصر القول، يتبين مما سبق، أنَّ هناك سببين رئيسين أديا إلى الصراع الطائفي في لبنان عام ١٨٦٠م، الأول هو النظام الإقطاعي الذي هبت ضده جماهير فلاحيه واسعة، والثاني كان مرتبطاً بالسياسة الرجعية لحكومة الدولة العثمانية التي رغبت في بسط سلطتها المباشرة على ولاياتها بكل الأساليب، وبالنشاطات الابتزازية التي تقوم

---

(١) العقيقي،أنطوان ظاهر: ثورة وفتنة في لبنان،١٨٤١-١٨٧٣ م،شرح :إبراهيم ،يزبك يوسف ،مجلة الطليعة ،بيروت،١ط،١٩٣٩، ص٦٦.

(٢) كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣م): الفيلسوف الألماني السياسي والثوري، والأهم من ذلك كله أنه مفكر الاشتراكية، أسس الاشتراكية العلمية (التي تعرف الآن باسم الشيوعية)، ولهذا، يعد ماركس واحداً من أكثر المفكرين تأثيراً في كل وقت.ولد كارل ماركس في هاينريش (Heinrich) يوم٥ أيار١٨١٨م، ترعرع في عائلة من الطبقة المتوسطة في مدينة ترير(Trier)،ألمانيا. تلقى تعليمه في جامعات بون (Bonn) وبرلين(Berlin) . وفي عام ١٨٤٢م، أصبح ماركس رئيس تحرير لصحيفة سايتونج (Zeitung). كانت كتاباته في تسايتونج و انتقاد الأوضاع السياسية والاجتماعية المعاصرة جعلته في خلاف مع السلطات، وعام ١٨٤٣م اضطرت ماركس إلى الاستقالة من منصبه ، وبعد ذلك سرعان ما اضطر إلى التوقف عن النشر في صحيفة تسايتونج. ثم ذهب إلى باريس.وهناك،ونتيجة لمزيد من دراسته في الفلسفة والتاريخ والعلوم السياسية، تبنى المعتقدات الشيوعية. و في عام ١٨٤٤م. بدأ العمل لتوضيح مبادئ النظرية الشيوعية. انظر:Microsoft ® Encarta ® 2009. © 1993-2008 Microsoft Corporation. All rights reserved

(٣) بونداريفسكي:الغرب ضد العالم الإسلامي، ترجمة:الياس شاهين، د ار التقدم، موسكو، ط١،١٩٨٥م، ص١٧٩.

(٤) ترحيني، محمد أحمد: المرجع نفسه، ص١٥٤ -١٥٥.

(٥) الحداد، جرجي :البلاغ المبين في أصل حركة سنة الستين وجرائم المبشرين والمستعمرين، إعداد الكتاب للطبع: محمود موسى، دار المعالي، ط١،١٩٩١، ص٥٨.

بها الدول الأوروبية الكبرى وعلى رأسها بريطانيا، المتصارعة على الهيمنة في المشرق العربي، وخاصة بلاد الشام.

نتيجة لكل ما سبق ذكره، بدأت الفتنة على أثر حوادث اعتداء بين الفريقين جرت في أواخر عام ١٨٥٩م، قتل من جرائها بعض الأشخاص من الطائفتين المارونية والدرزية، وبدلاً من أن يعمل العقلاء على تهدئة الأمور، تركوها تستعر لغايات في نفوسهم، فما كاد ينتهي فصل الشتاء ويطل فصل الربيع عام١٨٦٠م حتى كان الفريقان على استعداد للتقاتل. وهكذا نشبت الحرب الأهلية في الجبل، وظلت نيرانها تسعر أربعة أشهر تقريباً في المتن والشوف ودير القمر وجزين وحاصبيا وراشيا وزحلة، وبلغ عدد ضحايا المجازر
١٢ ألف تقريباً[١]. وأصدر السلطان العثماني عبد المجيد[٢] في أول تموز ١٨٦٠م فرماناً كلف بموجبه فؤاد باشا وزير خارجيته ليتولى إخماد الفتنة في لبنان[٣].

٣- حوادث دمشق عام ١٨٦٠م:

إن ما حصل في دمشق ليس نتيجة طبيعية للحوادث والفتن التي حصلت في وقت سابق في جبل لبنان، بل هي فتنة تمتُّ إلى الأجواء العامة الداخلية التي عمت مجتمعات الدولة العثمانية وشعوبها، والأجواء الدولية الناتجة عن سياسات الدول الأوروبية وتدخلها في الشؤون الداخلية لهذه الدولة[٤]. ذكر القنصل البريطاني برانت أن السبب الرئيس في إيقاظ جذوة الفتنة أن أولاد المسلمين أخذوا يرسمون صورة الصليب في

---

(١) برجاوي، سعيد أحمد: المرجع نفسه، ص٢٤٤.

(٢) عبد المجيد الأول (١٨٢٣-١٨٦١) م: سلطان عثماني (١٨٣٩- ١٨٦١م) ، أحدث إصلاحات عرفت بالتنظيمات، رعى مسيرة التغريب تحت شعار الإصلاح والتحديث في الدولة العثمانية، حيث استحدث الباب العالي(رئاسة مجلس الوزراء) الذي أصبح يتولى مقاليد السلطة، ويقاسم السلطان نفوذه، في حكم الدولة، بينما أصبحت مشيخة الإسلام مجرد هيئة شورية.كان عبد المجيد الأول ضعيف البنية ، شديد الذكاء، مُدت في عهده أسلاك الهاتف، والقضبان الحديدية.انظر: ar.wikipedia.org/wiki/عبد_المجيد_الأول

(٣) نوار،عبد العزيزسليمان: وثائق أساسية في تاريخ لبنان، ص ٤٣٤-٤٣٧.وانظر أيضا: الخازن, فيليب وفريد :المصدر نفسه،ج٢، ص١٧٣-١٧٤.

(٤) غنام، رياض :المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني، ص٣٢٠.

الطرقات ويدوسونها ويهينون المسيحيين المارين[١]. فقبض عليهم (التفكجي باشي) وقيدهم بالسلاسل، وأكرههم على كنس الطرق، فهجمت الغوغاء وأنقذتهم، فاشتعلت الفتنة في دمشق في٩ تموز ١٨٦١م[٢]. وقد علّق مصدر عثماني على ما قام به الصبية بقوله: "إن هذه الإهانات لم تكن متأصلة لدى هؤلاء الصبية، لكن قد تكون من توجيه بعض القادة المحرّضين على إشعال الفتنة"[٣].

أحرق المشاغبون الحي الذي يقطنه المسيحيون، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وتدخل الأمير عبد القادر الجزائري[٤]، وقام بحمايتهم، وإنقاذ ما ينوف عن ألف شخص منهم بمعاونة عائلته[٥]. ووجهت الحكومة البريطانية بدورها الشكر للأمير عبد القادر الجزائري على حمايته للمسيحيين خلال الفتن الطائفية والحوادث التي جرت في دمشق[٦].

كما وقف أغوات الميدان ضد الفتنة، وسعوا جهدهم لحماية المسيحيين، أما أغوات الشاغور والأكراد فساروا مع التيار في الهجوم على الحي الغني، وشاركت في الهجوم على الحي الشرقي أعداد كبيرة من الحرفيين العاطلين عن العمل بسبب ضعف حرفهم أمام سيل البضائع الأوروبية التي كان يستوردها التجار المسيحيون، وشارك في الهجوم الفئات الاجتماعية من التجار والباعة المستاءين من المنافسة، والزعماء

---

(١) الخازن, فيليب وفريد :المصدر نفسه،ج٢، ص١٣٧.

(٢) علي، محمد كرد:المصدر نفسه.ج٦، ص٨٤.

(٣) Fawaz: Leila Tarazi ,An Occagion for war (civil conflict in Lebanon And Damascus in 1860) centr for Lebanon studies and I .B. Tauris publishers L0ndon Newyorke, p 8 – 9.

(٤) عبد القادر الجزائري (١٨٠٧-١٨٨٣ م) :عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى الحسيني الجزائري، :أمير مجاهد، من العلماء الشعراء البسلاء .ولد في القطينة (من قرى إيالة وهران بالجزائر)، وتعلم في وهران، وحج مع أبيه عام١٨٢٥ م، فزار المدينة ودمشق وبغداد.ولما دخل الفرنسيون بلاد الجزائر، بايعه الجزائريون وولوه القيام بأمر الجهاد، فنهض بهم، وقاتل الفرنسيين خمسة عشر عاماً، ضرب في أثنائها نقوداً سماها "المحمدية " وأنشأ معامل للأسلحة والأدوات الحربية وملابس الجند .وكان في معاركه يتقدم جيشه ببسالة عجيبة. ضعف أمره بعد أن قام سلطان المغرب عبد الرحمن بن هشام في مهادنة الفرنسيين، استسلم عام١٨٤٧ م، فنفوه إلى طولون، ومنها إلى أنبواز، حيث أقام فيها أربع سنوات وقليل، وزاره نابليون فسرحه، وشترط عليه أن لايعود إلى الجزائر، وأمر له بمبلغاً من المال يأخذه كل عام .فزار باريس والأستانة، واستقر في دمشق، وتوفي فيها.انظر: الزركلي، خير الدين: المصدر نفسه،ج٤، ص٤٥-٤٦.

(٥) برجاوي، سعيد أحمد: المرجع نفسه، ص٢٤٤.

(٦) الخازن, فيليب وفريد :المصدر نفسه،ج٢، ص٣٠٣.وانظر أيضا: نوار، عبد العزيز سليمان: وثائق أساسية في تاريخ لبنان، ص٤٥٦.

العسكريون المحليون المستاؤون من فقدان سيطرتهم السابقة، وسكان الأرياف بسبب فقرهم وعدم وجود أي وعي اجتماعي لديهم[١]. وتميز عمل المهاجمين بتوجيه ضرباتهم ضد المؤسسات الأجنبية، إذ كان الشعور المعادي لهم قوياً، فدمروا القنصلية الروسية، وأحرقوا أبنية قنصليات النمسا وبلجيكا واليونان والولايات المتحدة الأمريكية وهولندا[٢]. وجرى نهب المنزل الذي كانت تشغله القنصلية الفرنسية، في حين سلمت القنصلية البريطانية، والقنصلية البروسية، وهذا لا يعود إلى أنهما كانتا واقعتين خارج نطاق الحي المسيحي، فدار المقيم البريطاني كانت محروسة بفصيل من الجنود العثمانيين، وعندما حاصر المخربون مبنى القنصلية البريطانية صرخ أحدهم قائلاً: "إنها دار صديقة لنا"[٣]. وأشار القنصل الفرنسي بإصبع الاتهام إلى البريطانيين، وعدَّ "زعم" القنصل البريطاني بأن اندلاع أعمال الشغب لم يكن أمراً مدبراً مثير للشبهات. وتساءل:لماذا لم تتعرض القنصلية البريطانية للهجوم؟ لكن البريطانيين بينوا أن القنصلية البريطانية لم تتعرض للهجوم لمجرد أنها لم تكن تقع في الحي المسيحي. لقد كان هناك صلات وثيقة بين البريطانيين ومصطفى بك الحويصلي، الذي اضطلعت قواته شبه العسكرية بدور بارز في أعمال الشغب، واستناداً إلى القنصل الفرنسي فإن القنصل البريطاني وود كان عوناً للحواصلي في جمع ثروة طائلة واكتساب نفوذ كبير في حي باب توما في دمشق، حيث كان يقطن، ومع ذلك فمن العسير أن نتخيل الدافع وراء إثارة البريطانيين أعمال الشغب[٤].

وصلت أنباء حوادث جبل لبنان ودمشق إلى أوروبا، ووجدت لها صدى في أوساط الرأي العام، وبإزاء ما كان ينشر في الصحف من أخبار، وأكثرها كان يتصف بالمغالاة، قلق الرأي العام الأوروبي، وطالب بالتدخل الفوري لإيقاف المذابح المسيحية. وفي الخامس من تموز ١٨٦٠م تقابل مسيو توفنييل مع اللورد كولي (Cowley) السفير

---

[١] حنا، عبدالله: المرجع نفسه، ص٢٥٦-٢٥٧.

[٢] غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني، ص٣٢٣.

[٣] بانتيشينكوفا، مارينا: المرجع نفسه، ص١١٦-١١٧.

[٤] شيليشر، ليندا: المرجع نفسه،ص١١٦.

البريطاني في باريس وفاتحه بآراء حكومته، واقترح إرسال سفن حربية إلى مياه بـــلاد الشام وتشكيل لجنة خماسية دولية[١].

٤- الحملة الفرنسية عام ١٨٦٠م وموقف بريطانيا منها:

بذلت الحكومة الفرنسية جهداً كبيراً ونشاطاً إعلامياً موسعاً من أجل إعــداد حملـــة عسكرية وإرسالها إلى بلاد الشام، ونشرت المقالات في الصحف، بهدف إعداد الـــرأي العام الفرنسي ضد الدولة العثمانية، وإقناع الشعب الفرنسي بضرورة التدخل المسلح في الصراع الطائفي المشتعل في لبنان ودمشق. ووافق الرأي العام الفرنسي على الحملـــة، وخلافاً للصحافة الفرنسية تحدثت الصحف البريطانية علناً وصراحة، عـــن أغـــراض البعثة الفرنسية الاغتصابية، وكانت عمليات فضح الصحافة البريطانية للخطط الفرنسية بصدد بلاد الشام، يعود سببها إلى التناقضات الدولية بين فرنسا وبريطانيا[٢].حيث كانتا في صراع مرير في البحر المتوسط، لذلك كانت المعارضـــة البريطانيـــة للمشـــاريع الفرنسية متوقعة، واستمرت هذه المعارضة تتزايد مع الأيام[٣].

أعلن توفنيل أنّ الحكومة العثمانية عاجزة عن التخلص من الفوضى القائمة في بلاد الشام، وأن فرنسا تعتزم إرسال قوات عسكرية لتهدئة البلد، وإدراكاً منـــه أن إرســـال قوات فرنسية سيثير الاعتراضات الحازمة من طرف بريطانيا، فقد اقترح توفنيل القيام بخطوات مشتركة بريطانية وفرنسية ونمساوية. فتلقت الحكومة البريطانيـــة الاقتـــراح الفرنسي الرسمي بإرسال قوات عسكرية إلى بلاد الشام بتاريخ ١٨ تموز ١٨٦٠م، وقد تلقته لندن بعدم الارتياح، وأعلن بالمرستون، بعد الاطلاع على الاقتراح الفرنسي، أنـــه مريب جداً، وذكر قائلاً بسخرية: "ما إن يحتل الروس بلغاريـــا، ويصـــبح الفرنســـيون أسياداً في سوريا حتى تحل المسألة الشرقية بشكل رائع"[٤].

ظل بالمرستون ثابتاً على موقفه السلبي من الحملة الفرنسية لاحقاً أيضاً، حتى وإن اضطُرّت الحكومة البريطانية إلى الموافقة على إرســـال قـــوات فرنســـية إلـــى بـــلاد الشام.وأخذت الحكومة البريطانية تضغط بقوة كبيرة على الباب العالي كي يتخـــذ كـــل

---

[١] طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية، ص١٢٧،١٢٩-١٣٠.

[٢] بانتيشينكوفا،مارينا: المرجع نفسه، ص١٣٣-١٣٥.

[٣] العطار، نادر: المرجع نفسه، ص٢٢٠.

[٤] بانتيشينكوفا، مارينا: المرجع نفسه، ص١٤٨.

الإجراءات اللازمة لسحق الاضطرابات في أقصر مدة ممكنه. وجاء في الرسالة المؤرخة في العاشر من تموز التي بعثها رسل إلى بوليفير السفير البريطاني في الأستانة، ما يأتي: "إنه لأجل درء التدخل الأوروبي ينبغي على الدولة العثمانية بنفسها أن تعمل على إحلال السكينة والهدوء والنظام". وفي الوقت نفسه أرسلت الحكومة البريطانية إلى شواطئ بلاد الشام عدة بوارج رابطت في مالطا، من أجل مراقبة الأسطول الفرنسي[1].

اضطرت الحكومة البريطانية مكرهة على أن توافق على مبدأ التدخل المسلح شريطة أن يكون ذا صفة دولية لا فرنسية فحسب، ووفقاً لشروط يتفق عليها في أثناء انطلاق الحملة الفرنسية إلى وجهتها، وطلب اللورد رسل وزير الخارجية البريطانية من توفنيل وضع مسودة المشروع ليعرضه على الدول، واعترض رسل على مادة وردت في المشروع الفرنسي، وهي تحميل الباب العالي عبء نفقات الحملة، وطلب إلغاءها[2]. فأقر مجلس الوزراء البريطاني في ٢٥ تموز مبدأ إرسال حملة أوروبية إلى بلاد الشام وفق الشروط الثلاثة الآتية:

أ- أن يطلب فؤاد باشا تدخل الجنود، أي أن لا يلجأ إلى استخدامها إلا إذا عجز العثمانيون عن إعادة النظام والأمن.

ب- أن تُعقد اتفاقية بين الدول العظمى والباب العالي في أقرب وقت ممكن.

جـ- أن لا تدوم الحملة في بلاد الشام أكثر من ستة شهور[3].

والشروط واضحة لا تحتاج إلى تعليق، فقد أتاحت للدولة العثمانية الفرصة كي تعيد تنظيم لبنان دون أن تخشى تهديد الحراب الفرنسية، واطمأنت بريطانيا على أن جذور فرنسا لن تقوى في بلاد الشام خلال هذه الفترة الوجيزة، أما فرنسا فلم تجد بداً من قبول هذه الشروط، ودعت إلى عقد مؤتمر يحضره ممثلوا الدول الخمس الكبرى في باريس.

---

(1) المرجع نفسه، ص١٤٩.

(2) طربين، أحمد : أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية، ص١٣٣.

(3) ترحيني، محمد أحمد: المرجع نفسه، ص١٦٦.

أيدت روسيا مشروع إرسال قوات فرنسية إلى داخل ولايات الدولة العثمانية تأييداً كلياً. ورأى رئيس الوزراء البريطاني في اتفاق روسيا وفرنسا، على هذا الأساس قضية واقعية كلياً، وكتب برونوف أن بالمرستون يرى أن روسيا ستدعم فرنسا في بلاد الشام مقابل دعم فرنسا للمصالح الروسية في البلقان[١].

وافقت الدول المعنية على عقد مؤتمر في باريس بدعوة مـن الحكومـة الفرنسـية لإعطاء الصفة القانونية للحملة الأوروبية العسكرية، ووضع خطة التدخل في شـؤون بلاد الشام مع الحرص على عدم تجاوز حدود معاهدة بـاريس عـام ١٨٥٦م. وعقـد المؤتمر في أول آب ١٨٦٠م بحضور مندوبين عن الباب العالي والـدول الأوروبيـة، وقد مثل بريطانيا اللورد كولي[٢]. وانتهى المؤتمر في٣ آب بوضع بروتوكول من سبع مواد حددت بموجبها مواصفات الحملة وشروطها كما يأتي: "تشـكل حملـة عسـكرية أوروبية من اثني عشر ألف جندي، وتقدم فرنسا نصف جنود الحملة،يقوم قائد الحملـة لدى وصوله إلى بلاد الشام بالاتصال بفؤاد باشا للتفاهم معه على الوسـائل اللازمـة لإعادة الأمن. وتتعهد الدول الموقعة على الاتفاق بإرسال قوات بحريـة كافيـة إلـى الشواطئ الشامية، وإبقائها لتوطيد الأمن، ويتعهد الباب العالي أن يبـذل كـل جهـوده لتسهيل تموين هذه الحملة[٣]".

وتفيد الدراسة المعمقة لهذا البروتوكول القول: إنه يشكل نصراً دبلوماسياً لبريطانيا، لأنه حصر الحملة الفرنسية في إطار أوروبي، وحد من السلطة المعطـاة لقائـدها، إذ فرض عليه الاتصال بالوزير العثماني فؤاد باشا والتفاهم معه على ما يجب عمله، كما حدد عدد الجنود الفرنسيين في الحملة، لكنه لم يحدد عدد الوحدات البحرية التي سترسل إلى شواطئ بلاد الشام، ولا مدة بقائها، تاركاً بذلك لبريطانيا حرية مطلقة في إرسال ما تريد من أساطيلها وفقاً لمصالحها ولتطورات الأوضاع في المنطقة.

قررت الحكومة البريطانية منذ البداية، الامتناع عن المشاركة في الحملة، فهي لـم ترغب بإرسال قواتها المسلحة ضد الموحدين (الدروز)، لأن مثل هذه الخطوة يمكنهـا

---

[١] بانتيشينكوفا، مارينا: المرجع نفسه، ص١٥٩.

[٢] ترحيني، محمد أحمد: المرجع نفسه،ص١٦٦.

[٣] وثائق التدخل الأجنبي، ص٢٠ـ ٢١.

أن تهدد بفقدان الثقة لدى حلفائها مشايخ الموحدين (الدروز)، كما كان من المفيد للوزارة البريطانية في حالة إخفاق الحملة، أن يلقى الذنب كله على فرنسا. وقد سعت بريطانيا من خلال رفض المشاركة في الحملة كي تتصرف فرنسا في بلاد الشام باسم أوروبا بأسرها. مما يحد من دائرة نشاط القيادة الفرنسية. [١]

رست القوات الفرنسية على شواطئ بلاد الشام في ١٦ آب ١٨٦٠م بقيادة اللواء ماركيز بوفور دي اوبول .وفي نهاية المطاف وافقت بريطانيا على الحملة على الرغم من عدم الرغبة بالسماح لتدخل فرنسي في شؤون الدولة العثمانية، وفي سياسة بالمرستون انتصر المبدأ القائم على الحفاظ على علاقات ودية مع فرنسا، لاسيما أن فرنسا أبدت استعدادها لتقبل الحلول الوسطية، وكانت موافقة الوزارة البريطانية على توقيع البروتوكول قد أدت، على الفور، إلى رجحان الكفة في باريس لصالح بريطانيا[٢].

طرحت فرنسا مسألة ضرورة بقاء قواتها في لبنان لحماية المسيحيين على حدِّ ادعائها، فعارضتها بريطانيا بشدة[٣]. حيث رد دوفرين مندوب بريطانيا في اللجنة الدولية، بقوة على الطرح الفرنسي في جلسة اللجنة الدولية المنعقدة في بيروت في السابع عشر من كانون الأول ١٨٦٠م، بلهجة قوية قائلاً: "إن القوات الفرنسية لا تعمل إلا على خلق الفوضى في البلاد ونسف هيبة السلطان"[٤].

انتزع توفنيل من بريطانيا والدولة العثمانية الموافقة على عقد مؤتمر ثانٍ في ١٩ شباط ١٨٦١م، تم بعده التوقيع في التاسع عشرمن آذار ١٨٦١م على تمديد فترة الحملة من قبل جميع أعضاء المؤتمر[٥].

من جهته حاول نابليون الثالث تجاهل ما تم الاتفاق عليه بشأن موعد انسحاب الحملة، وإبقاء قواته في بلاد الشام، إلا أن بريطانيا والنمسا لم تسمح له بذلك، وطالبتا

---

(١) بانتيشينكوفا، مارينا: المرجع نفسه، ص١٦٨-١٧٠.

(٢) المرجع نفسه، ص١٧٠-١٩٠.

(٣) العطار، نادر: المرجع نفسه ،ص٢٢٠.

(٤) بانتيشينكوفا، مارينا: المرجع نفسه، ص١٥٨.

(٥) المرجع نفسه، ص٢٤٣.

بانسحاب القوات الفرنسية، وقبل الموعد الذي حدد للانسحاب أي قبل ٥ حزيران ١٨٦١، جلت الحملة الفرنسية عن لبنان في نهاية أيار ١٨٦١م عائدة إلى فرنسا[١].

٥- اللجنة الدولية ودور بريطانيا فيها:

اتفقت الدول الأوروبية على تأليف لجنة دولية تتمثل فيها: فرنسا وبريطانيا وبروسيا وروسيا، والدولة العثمانية، مهمتها السفر إلى بيروت وإعادة السلام إلى لبنان ودمشق[٢]. وقد انتظم عقد اللجنة الدولية في بيروت في الخامس من تشرين الأول١٨٦٠م، ومثل الباب العالي فيها محمد فؤاد باشا، وبريطانيا دوفرين (Duffrin)، وفرنسا بيكلار (Beclara) وروسيا نوفيكوف (Novikow)، والنمسا فيكبكر (Weckbekecr) وبروسيا رهيفوس (Rehfus)[٣]. وناقشت اللجنة في جلساتها التي بلغ عددها إحدى وخمسين جلسة، في بيروت اعتباراً من ٥ تشرين الأول ١٨٦٠م، ولغاية ٢٣ أيار ١٨٦٢م، المسائل والأمور الآتية:

أ- البحث في أسباب الحوداث وتحديد مسؤلية كل من زعمائها وإنزال القصاص بهم.

ب- تقدير الخسائر وإقرار التعويضات الملائمة للمتضررين من الحوادث.

جـ- إعادة تنظيم لبنان من الناحية الإدارية بشكل يكفل عدم تكرار المأساة في المستقبل[٤].

عينت الحكومة البريطانية اللورد دافرين وهو من الأشخاص الذين لا ينتمون، شكلياً إلى السلك الدبلوماسي، فهو إنسان من الأواسط الأرستقراطية في البلاد، عضو مجلس اللوردات، لكنه تبين أنه دبلوماسي ذو مؤهلات، ناهيك عن أنه زار بلاد الشام في السابق، وكان مشبعاً بالعدائية اتجاه الفرنسيين، ولعب دوراً بارعاً في عمل اللجنة[٥]، رحب الباب العالي بوجود اللجنة الدولية في بيروت، لأنه يشكل نوعاً من الرقابة الدولية على أعمال الحملة الفرنسية في بلاد الشام، ويمنع تجاوز فرنسا حدود مهمتها الموكلة إليها باسم أوروبا، وكان من البديهي أن اللجنة لو شاءت أن تنفذ مهمتها على الوجه

---

(١) لوتسكي: المرجع نفسه، ص١٦٤.

(٢) ضو، أنطوان :المصدر نفسه، ج١، ص١٩.

(٣) طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية، ص١٥٢.

(٤) العطار، نادر: المرجع نفسه، ص٢٢٢.

(٥) بانتيشينكوفا، مارينا: المرجع نفسه، ص٢٤٨.

الأتم، لوجدت أنه لا بد لها من أن تخرق سيادة السلطان، وتتدخل في شؤون الدولة العثمانية، لكن الضجة الكبرى التي صاحبت حوادث لبنان عام١٨٦٠م كانت قوية لدرجة أن بريطانيا نفسها التي يهمها أكثر من غيرها الحفاظ على استقلالية الباب العالي لم تجرؤ بادئ الأمر على معارضة التدخل الدولي في شؤون الدولة العثمانية رسمياً[١].

وجاءت اللجنة (كما ذكر سابقاً) من أجل البحث في ثلاث مسائل هي:

أ- مسألة المحاكمات والعقوبات:

لا يهم البحث تتبع إجراءات محكمة بيروت الخاصة، ولا ما دار في جلسات اللجنة من مناقشات طويلة حولها، لأنها ليست موضوع البحث، بقدر ما يهمه تتبع دور المندوب البريطاني فيها.

في الجلسة العاشرة التي عقدت في ١٤ تشرين الثاني ١٨٦٠م دعا فؤاد باشا أعضاء اللجنة إلى بحث المسائل المتعلقة بمعاقبة المشتركين والمسؤولين عن الأحداث، وكان أمام المندوب العثماني طريقتان للمحاكمة إحداهما عرفية، والثانية عادية أو قانونية، الأولى تأتي بنتائج سريعة، لكنها لا تتيح الوقت الكافي لتقديم الأدلة. ووجد المندوب البريطاني دوفرين في طريقة المحاكمات العرفية التي نالت استحسان أغلبية أعضاء اللجنة، خياراً مؤلماً، لكنه خيار لا مفر منه، إلا أن دوفرين كان يرى أن عليه لفت أنظار اللجنة إلى أنه بالنظر إلى التناقض بين الطريقتين، فإن اختيار طريقة المحاكمات العرفية يبطل تماماً العمل بالطريقة النظامية، مرتئياً، أنه إذا ما أنزل بالموحدين (الدروز) العقاب عرفياً، سيبدو وكأنه مستمد من مبدأ قتل العشر الهمجي، فمن الواجب حماية البقية من أي ملاحقات جديدة عن طريق إصدار عفو عام[٢].

ألقى المندوب الفرنسي التهم وتبعية كل الأحداث على الموحدين (الدروز) والموظفين العثمانيين الذين أسهموا فيها. لكن مندوب بريطانيا دوفرين دافع بحرارة عن الموحدين (الدروز)، واتهم المسيحيين بأبشع التهم، ولكي لا يظهر دوفرين بمظهر المدافع عن الموحدين (الدروز) ضد العدالة راح يتهم أيضاً دسائس العثمانيين وسياسة الباب العالي، لكن دوفرين في دفاعه عن الموحدين (الدروز) واتهامة الموظفين

---

(١) طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية، ص١٥٣.

(٢) الخازن, فيليب وفريد :المصدر نفسه،ج٣،ص٤١-٤٤.وانظر أيضاً: ضو، أنطوان :المصدر نفسه، ج١، ص٨٩-٩١.

العثمانيين كان حريصاً على أن يشيد بمقدرة فؤاد باشا وإدارته التي تعمل معه، وسعى جهده لاستعادة ثقة الرأي العام في سلوك الحكومة العثمانية، لأن موجة السخط العام على الإدارة العثمانية، وتزعزع ثقة المسيحيين بها وبمقدرتها على حمايتهم كانا في نظر المندوب البريطاني مسألة في غاية الخطورة، لأنها تعطي الدول دليلاً على صحة دعاوى فرنسا وروسيا في عجز الإدارة العثمانية التي تحاول بريطانيا حمايتها والمحافظة عليها[١].

من جهته ألف فؤاد باشا محاكم استثنائية في دمشق وبيروت، اقتصر دورها على رفع التقارير إليه، وليس إصدار الأحكام، كما شكل هيئة التحكيم العسكرية الملحقة التي نظرت في جرائم العسكريين العثمانيين أثناء الحرب. رفض المطارنة تلبية نداء فؤاد باشا بحجة أن الأمر ليس من صلاحيتهم، فتألفت عندئذ لجنة تحقيق قامت بالاستقصاءات اللازمة طيلة شهر كامل[٢]. رفعت في نهايته لائحة تضمنت أسماء٤٦٠٠ شخص من طائفة الموحدين (الدروز) مع بيان الجرائم التي اقترفها كل منهم[٣]. وقدم فؤاد باشا اللائحة إلى دوفرين مندوب بريطانيا، الذي رفعها بدوره إلى حكومته بغية تأليب الرأي العام البريطاني ضد المطارنة.

ثارت ثائرة دوفرين، ورأى في هذا دليلاً جديداً على رغبتهم في استئصال طائفة الموحدين (الدروز)، وعلى أثر اعتراض المفوّض العثماني أنقص عدد المطلوب إعدامهم من الموحدين (الدروز) إلى ١٢٠٠ شخص[٤]. وأخيراً طلب دوفرين أن يوافق المندوب العثماني واللجنة على المقترحات الآتية:

ً١- أن لا يدعى موحّد (درزي) للمثول أمام المحكمة العسكرية، إلاّ إذا كان متهماً بأنه قتل عن عمد رجلاً أعزل أو امرأة أو ولداً.

ً٢- أن لا يحكم على موحّد (درزي) بالموت، إلا بعد تحليف شاهدين عيانيين.

ً٣- أن يسقط من عدد الموحدين (الدروز) المراد إعدامهم عدد الذين قتلهم المسيحيون منذ وصول اللجنة إلى بلاد الشام، وعددهم ١٣٠٠ موحّد (درزي).

---

[١] طربين،أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية، ص١٥٦.

[٢] ضو، أنطوان :المصدر نفسه، ج١، ص٢٢.

[٣] حتي، فيليب: المرجع نفسه، ص٥٣٤.

[٤] انظر الملاحق، وثيقة رقم (٢٢)، ص٢٩٧.

ً ٤- أن يكون عدد الموحدين (الدروز) الذين يقضى بإعدامهم أقل من الذين أًعدموا في دمشق[١].

بادرت بريطانيا للدفاع عن محمييها من زعماء الموحدين (الدروز)، فأرسل السيد بولفر إلى اللورد رسل بهذا الخصوص رسالة جاء فيها: "فور تلقي رسائل اللورد دوفرين المنبئة بسلوك فؤاد باشا اتجاه الموحدين (الدروز) تعجلت بعرض المسألة على الباب العالي، فوعدني عالي باشا بأن يكتب إلى دولة المندوب العثماني ليسير وفقاً للعدالة وبترو، وأن لا يمد العقاب إلى كل طائفة الموحدين (الدروز) دون تميز حيفاً وظلماً"[٢]. وبفضل الجهود البريطانية في الدفاع عن الموحدين (الدروز) اتخذت المحكمة موقفاً متساهلاً للغاية من الإقطاعيين الموحدين (الدروز) زعماء المذبحة، وفي الحقيقة صدر الحكم على أحدعشرة شيخاً موحداً (درزياً) بالإعدام. واحتدم الجدل في صفوف أعضاء اللجنة بعد قرار المحكمة، فالمفوض دوفرين الذي كانوا يسمونه محامي الموحدين (الدروز) ناضل نضال المستميت من أجل إنقاذ المشايخ، وخاصة الشيخ سعيد جنبلاط، وهدد السفير البريطاني في الأستانة بقطع العلاقات الدبلوماسية فيما إذا تم تنفيذ الحكم بجنبلاط[٣]. لذلك فإن حكم الإعدام بحق سعيد جنبلاط استبدل[٤]. ومن بين الموحدين (الدروز) الآخرين الذين خضعوا للتحقيقات، صدر الحكم بالسجن على ٢٤٥ شخصاً منهم أو بالنفي لفترات مختلفة، ثم أعلنت الحكومة العثمانية، أن المنفيين يمكنهم العودة إلى أوطانهم بعد انقضاء فترة خمس سنوات من النفي، فالباب العالي لم يعتزم معاقبتهم بقسوة، ومثل هذه السياسة لقيت السند لدى الوزارة البريطانية، التي بذلت كل ما هو ممكن لإنقاذ الموحدين (الدروز)، أو للتخفيف في العقوبة[٥].

---

(١) طربين، أحمد، : أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية، ص١٥٩.

(٢) الخازن, فيليب وفريد:المصدر نفسه، ج٣،ص٢٧٥.

(٣) بانتيشينكوفا، مارينا: المرجع نفسه، ص٢٥١.

(٤) حتي، فيليب: المرجع نفسه، ص٥٣٤.

(٥) بانتيشينكوفا، مارينا: المرجع نفسه، ص٢٥٢.

وأخيراً، أجمعت اللجنة على أن لا يتجاوز عدد الذين يحكم علـيهم بالإعـدام مـن الموحدين (الدروز) الخمسين، وأن يطلق سبيل جميع السجناء الذين لا بيّنة ضدهم تثبت ذنبهم[١].

وباستثناء المفوض البريطاني دوفرين، لم يستطع أعضاء اللجنة الآخرون فـرض أي تأثير جوهري على قرار المحكمة، وانحصرت مشاركتهم في الجلسات على تقـديم النصح والمشورة.

واكتسب رأي دوفرين تأيّد غالبية أعضاء اللجنـة، لأن معظـم هـؤلاء كـانوا لا يرتاحون إلى وجود الحملة الفرنسية في بلاد الشام[٢].

وفي الجلسة الثالثة عشرة التي عقدت في يوم الاثنين ٢٦ تشـرين الثـاني١٨٦٠م، اقترح المندوب البريطاني دوفرين، ضرورة توجه اللجنة إلى دمشق، فـأقر أعضـاء اللجنة هذا الاقتراح، وقرر مندبو الدول الخمس العظمى الانتقال إلى دمشق من غير أن يحددوا مدة إقامتهم فيها[٣].

وأشار بعض أعضاء اللجنة الدولية في الجلسة التي عقدت بتـاريخ ١ آب١٨٦١م إلى مشاركة اليهود في أحداث دمشق، فذكر رهفيوس أنه يعرف عن بعض اليهود أنهم شاركوا في نهب الحي المسيحي، وفي بيع وشراء حاجات وأشياء نهبت مـن هنـاك. ومن جهته قال المندوب الروسي السـيد نوفيكـوف: "إن اليهـود اسـتغلوا الحـوداث والمواجهات بين المسلمين والمسيحيين، وإنهم لم يكونـوا غربـاء عمـا جـرى فـي دمشق"[٤]. وقد أرسل أعيان اليهود في دمشق رسالة إلى السـيد موسـى مونتيفـوري يلتمسون منه أن يمد يد العون لهم، ليحصلوا على أوامـر مـن الحكومـة البريطانيـة لقناصلها وقوادها في بلاد الشام ليساعدوهم، في مواجهة التهم الموجـه إلـيهم بشـأن أحداث دمشق عام١٨٦٠م[٥]. بينما أشار العقيد فريزر المكلف عن الحكومة البريطانية

---

(١) طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية، ص١٦١.

(٢) طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية، ص١٦١.وانظر: بانتيشـينكوفا، مارينـا: المرجـع نفسه،ص٢٥٢.

(٣) ضو، أنطوان :المصدر نفسه، ج١، ص١١١-١١٥.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٨٦-٣٨٧ .

(٥) الخازن, فيليب وفريد :المصدر نفسه،ج٢، ص٣٦٨-٣٦٩.

بدلاً من السيد دوفرين (الذي بدأ أعماله مع بداية انعقاد الجلسة الثلاثيين بتارخ ٩ تموز ١٨٦١م)، إلى أنه إذا كانت اللجنة لم تذكر اسم أي يهودي في لائحة الأشخاص الذين يستحقون الإعفاء، فهذا أمر طبيعي، لأن اليهود لم يؤثروا سلباً أو إيجاباً في مسرى الأحداث، وأن شارك بعضهم في هذه الأحداث، فإن المشاركة فردية، لا يتحمل مسؤوليتها "الشعب الأسرائيلي"[١].

ويبدو مما سبق أن البريطانيين كانوا يدافعون باستماتة عن اليهود في هذه الأحداث، كما أنهم دافعوا عن الموحدين (الدروز)، وهم في الحقيقة لم يدافعوا عن أحد، وإنما عن مصالحهم وحلفائهم في المنطقة، ولا ننسى أن هاتين الفئتين كانتا تشكلان الأرض الخصبة للنشاط التبشيري البروتستانتي البريطاني، وخاصة بعد فشلهم في استمالة الموارنة حلفاء فرنسا إليهم. فمن الطبيعي أن تبحث بريطانيا عن حليف لها في المنطقة لمواجهة الدول المنافسة لها والتي تملك حلفاء، ففرنسا تعتمد على الموارنة، وروسيا على الأرثوذكس.

ب- مسألة التعويضات:

كانت مسألة التعويضات على المتضررين الموضوع الأصعب نظراً لفداحة الخسائر التي مني بها لبنان، والضائقة المالية التي تواجهها الدولة العثمانية، ولم يكن إحصاء الخسائر دقيقاً وواضحاً، فانتهت اللجنة إلى تقدير الخسائر المادية بخمسين مليون قرشاً، ظلت المباحثات والمداولات مستمرة من ٥ تشرين الأول ١٨٦٠م، حتى كانون الأول ١٨٦٢م، من دون أن يحصل المتضررون على المساعدات أو التعويضات المطلوبة[٢].

لم يعمل البريطانيون على حماية الموحدين (الدروز) بالسعي لنزع مسؤوليتهم عن الحوادث التي جرت فحسب، بل بالحفاظ عليهم من أية أضرار مادية، وقد أثار هذا الأمر اعتراضات حادة من جانب المفوض الفرنسي، وأعضاء آخرين في اللجنة اقترحوا أن يقوم الموحدين (الدروز) بدفع تعويضات للموارنة عن الضرر الذي لحق

---

(١) ضو، أنطوان :المصدر نفسه، ج٢، ص٣٨٦-٣٨٧ .

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٢.

بهم[١]. لكن بفضل تكتيك مندوب بريطانيا دوفرين وفؤاد باشا، تحركت مسألة التعويضات للمتضررين ببطء، ففي أيار ١٨٦١م تقرر فقط تحديد الأضرار، وقررت اللجنة حساب مبالغ الأضرار بعد أن استلمت مبدئياً من السكان المتضررين قوائم تتضمن معلومات عن الأضرار التي لحقت بهم، وتطلّب هذا وقتاً غير قليل، ولم يتم تقديم التقرير النهائي بالأضرار والخسائر المادية في لبنان إلا بعد مرور عام[٢].

في الجلسة الثالثة عشرة التي عقدت في ٢٦ تشرين الثاني ١٨٦٠م، أطلع فؤاد باشا أعضاء اللجنة على مشروع قرار ينوي إصداره بغية تشجيع المسيحيين على العودة إلى الجبل، وبموجب هذا القرار، يلزم كل مكلف من طائفة الموحدين (الدروز) بتأدية كمية من الحبوب والحاجات الأولية تعادل قيمتها ١١٠٠ قرش[٣]. وعدا هذه الضريبة تقطع الأخشاب اللازمة للبناء من أشجار الموحدين (الدروز) دون تمييز[٤].

ذكر دوفرين في هذه الجلسة أنه تلقى أنباءً عن اقتدار دمشق المالي، تفيد أن هذه المدينة لا تستطيع أن تدفع أكثر من ٥٠ مليون قرش على مدى خمسة أشهر.و اقترح مندوب فرنسا بيكلار استيفاء نصف المبلغ خلال ثلاثة أشهر والباقي خمسة ملايين كل شهر.أيد دوفرين هذا الاقتراح بعد أن عدّل عليه بحيث أصبح المبلغ ٤٠ مليون قرش، يستوفى على مدى سبعة أشهر،٢٠ مليون في ثلاثة أشهر، وخمسة ملايين في كل شهر من الأشهر الأربعة الباقية[٥]. ومع ذلك كان تبيان الأضرار لا يحمل قيمة عملية، إذ تم إرسال الأوراق والحسابات التي جمعتها اللجنة إلى الأستانة كي توضع في أدراج النسيان، والمصير نفسه تعرضت له مسألة تعويض الأضرار التي لحقت بسكان دمشق[٦].

---

(١) حتي، فيليب: المرجع نفسه، ص٥٣٥.

(٢) بانتيشينكوفا، مارينا: المرجع نفسه، ص٢٥٣.

(٣) الخازن, فيليب وفريد :المصدر نفسه،ج ٣، ص٧٤-٧٦.

(٤) طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية، ص١٦٦.

(٥) الخازن, فيليب وفريد :المصدر نفسه،ج ٣، ص٧٦-٧٧.

(٦) بانتيشينكوفا، مارينا: المرجع نفسه، ص٢٥٤.

جـ- تنظيم إدارة لبنان:

بحثت اللجنة الدولية مطولاً في هذا النظام، وتعـددت الآراء، فألغـت أولاً نظـام القائممقاميتين الذي كان أحد أسباب الاقتتال والانقسام بين الطوائف، ومصدراً لازديـاد المشكلات بين الإقطاعيين وسواد الشعب[1].

حاول السفير البريطاني في الأستانة السير (هنري بلور) أن ينصح الباب العـالي كي يسبق مقررات اللجنة الدولية ويقترح على سفراء الدول مشروعاً بتنظيم جبل لبنان في حين اقترح السفير الفرنسي، إلغاء التقسيم إلى قائمقاميتين، وإعادة البلاد إلى وحدتها وجعلها ولاية مستقلة يحكمها حاكم ماروني، وقد رشحت يوسف كرم[2] لهذا المنصب، لكن اقتراح فرنسا لاقى مقاومة عنيفـة مـن قبـل العثمـانيين يعضـدهم فـي ذلـك البريطانيون[3].

وقبل أن تُقدم اللجنة الدولية على بحث مسألة تنظيم جبل لبنان، اجتهـد دفـرين أن يطرق الموضوع قبل أوانه، فكتب إلى السير بلور في ٣ تشرين الثاني١٨٦٠م تقريـراً عن الترتيبات التي يرى أنها أفضل ما يمكن التعويل عليها لتنظيم لبنان وسوريا، اقترح دوفرين أن تمنح سوريا نوعاً من الاستقلال الإداري، ويعهد بحكمها إلى رجـل يكـون بمأمن من نفوذ رجال الأستانة عليه، قادراً علـى الـتملص مـن وصـاية القناصـل الأوروبيين في ولايته، يأخذ راتبه من إيرادات الولاية بما يكفي لسد حاجاته، فلا يطمع في رشوة، وتضمن مدة ولايته لعدة سنوات، حتى يتسنى له معرفـة حاجـات الـبلاد، واشترط دوفرين أن ينتقى هذا الوالي بعد الاتفاق مع الدول الكبرى، وأهم ما جاء فـي مشروع دوفرين منح الوالي نوعاً من الاستقلال، بحيث تكون في سوريا قوة عسـكرية تعتمد في نفقاتها على موارد البلاد، واستقلال الولاية بشؤونها المالية علـى أن تـؤدي مالاً معيناً إلى الباب العالي[4].

---

(1) ضو، أنطوان :المصدر نفسه،ج١، ص٢٥.

(2) يوسف كرم: ولد في عام ١٨٢٣ م بقرية أهدن من أسرة مشهورة، توصل إلى مرتبة الشيخ الإقطاعي في حياة والده بطرس كرم، ولفت إليه الأنظار عام ١٨٥٥ م في أثناء نزاعه مع أخيه الأكبر على لقب مشيخة أهدن الإقطاعية، وبمحاولته التدخل في ثورة كسروان عام ١٨٥٩ م، وأخيراً بمحاولته الفاشلة في نجدة زحلة عام ١٨٦٠ م، واشتهر بالنقي والتعفف .انظر: طربين، أحمد: لبنان منذ عهد المتصرفية، ص٢.

(3) حتي، فيليب: المرج نفسه،ص٥٣٥-٥٣٦.

(4) طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية،ص١٩٤.

واقترح دوفرين تعيين فؤاد باشا حاكماً عاماً على سوريا، لأنه يتمتع، حسب رأيه، بهيبة كبيرة لدى الدول الأوروبية. وكان الغرض الأساسي من هذا المشـــروع إعاقـــة تقوية نفوذ فرنسا في لبنان، لكن مع كل ذلك، كان بالنسبة إلى راسل خطر للغاية، ففي رسالته التوجيهية إلى السفير البريطاني في الأستانة كتب الوزير ما يأتي: "ينبغي أن لا توضع سوريا في موضع الإقليم المتميز عن أقاليم الدولة العثمانية الأخرى من حيـــث علاقاتها مع السلطان". ثم ذكر رسل أن سوريا إذا نالت حريتها الإدارية فهذا سيشـــكل مثالاً بالنسبة إلى الأقاليم الأخرى بحيث يمكن أن يبدأ الاستياء العـــام ضـــد الســـلطان، إضافة إلى هذا أدركت الخارجية البريطانية أن فكرة إنشاء ولاية مستقلة فـــي ســـوريا ستؤدي إلى اعتراضات جدية من جانب السلطان العثماني، وبالفعل كتب الباب العـــالي إلى سفيره في لندن بتاريخ التاسع من كانون الثاني ١٨٦١م ما يـــأتي: "إن المشـــروع الذي ينص على قيام دولة مستقلة في سوريا يستحيل قبوله"[١].

تضمن مشروع دوفرين الذي يقضي بإنشاء دولة مستقلة سوريا، وتقسيم الجبل إلى قسمين، قسم يبقي القائمقامية المسيحية قائمة كما كانت في السابق، ويرتئي تعيين القائم مقام عليها من قبل والي صيدا، في حين يعهد بإدارة القسم الجنوبي من الجبل إلى حاكم عثماني، ويحكم كسائر أنحاء ولاية سوريا، ثم ما لبث المندوب البريطـــاني أن أدخـــل بعض التعديلات على تنظيم جبل لبنان، فاقترح تشكيل حكومـــة فيـــه مماثلـــة لســـائر حكومات السناجق العثمانية، وتعيين حاكم مسيحي عليه يحمل لقب باشـــا[٢]. وأخيـــراً وضع اللورد دوفرين المبادئ التي يقوم عليها مشروع تنظيم الحكم في سوريا وجبـــل لبنان، وهي:

١- سلامة كيان الدولة العثمانية.

٢- جعل فوائد التدخل الأوروبي تشمل جميع مسيحيّي سوريا.

٣- تطبيق مبدأ جمع طوائف الولاية وعناصرها المختلفة تحت حكم واحد بـــدلاً مـــن تفريقها.

---

(١) بانتيشينكوفا، مارينا: المرجع نفسه، ص٢٦١-٢٦٣ .

(٢) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني، ص٣٧٤ .

٤ً- تنظيم شؤون سوريا المدنية والمالية والعسكرية على وجه مخالف لباقي ولايات الدولة العثمانية.

٥ً- توحيد الباشويات المختلفة في الولاية تحت إدارة حاكم عام يعينه الباب العالي وتوافق عليه الدول الأوروبية.

٦ً- إلقاء تبعة حفظ الأمن والهدوء وحسن الإدارة على حاكم عام الولاية أمام أوروبا.

٧ً- بسط نفوذ هذا الحاكم على كامل الولاية التي هو مسؤول عن أمنها.

٨ً- جعل الإدارة في جبل لبنان على غرار سائر باشويات الولاية بحيث لا يستطيع الحاكم المسؤول أن يختبئ وراء أحد مرؤوسيه في حالة عصيان، وبحيث لا يبقى أي مسوّغ للحسد قد يحمله على التأمر ضد سلطة أدنى منه لشلها.

٩ً- مساواة المسيحيين سكان الولاية في نظر القانون بالمسلمين فيما يختص بامتلاك الأراضي وأداء الشهادة، وغير ذلك.

١٠ً- تأليف جيش مختلط يجند من المسلمين والمسيحيين دون تميز[١].

١١ً- تشكيل شرطة بحيث تكون المحافظة على النظام داخل كل قبيلة ومذهب وطائفة موكلة لأبناء الملة أنفسهم.

١٢ً- إدارة بلدية على أساس الحكم الذاتي لكل القضايا المدنية والدينية وغير السياسية في كل منطقة وداخل كل قبيلة ومذهب أو طائفة.

١٣ً- إيفاد ممثلين سياسيين من قبل الدول الخمس لدى حكومة سوريا المحلية، يخضعون لتعليمات واحدة، ويتمتعون مؤقتاً بحق التدخل الجمعي في القضايا المتصلة بإدارة الولاية.

١٤ً- إلغاء النظام الإقطاعي من كل أنحاء الولاية.

١٥ً- تمنح ضمانات عادلة للسكان غير المسحيين الذين تتأثر مصالحهم بوجود سلطة مسيحية.

١٦ً- جعل جبل لبنان باشوية مع إبقاء حدوده القديمة وتولية سلطة مسيحية عليه.

١٧ً- تبقى الأنظمة التي توضع وفقاً لهذه الشروط مرعية لمدة خمس سنوات على الأقل، وتعد مؤقتة.

---

[١] طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية،ص٢٠٢-٢٠٣.

استصوبت حكومة لندن مشروع دوفرين الأصلي، وأرسل اللورد رسل في ١٥ كانون
الأول ١٨٦٠م إلى سفراء بريطانيا في باريس وبترپورغ وفينا وبرلين صورة من المشروع ليُطلعوا عليه حكوماتهم ، ويبلغوها موافقة بريطانيا على نظام الحكم الذي جاء فيه، حتى إذا عول عليه، ترى أن يعين والي سوريا بمعرفة الدول الخمس[١].

كانت فرنسا تعمل على إعادة الإمارة الشهابية كنظام سياسي لجبل لبنان مع تنصيب حاكم عليها من الأسرة الشهابية المسيحية. فعارضت بريطانيا المشروع الفرنسي، وعدت أن نجاحه يجعل من جبل لبنان معقلاً يلجأ إليه جميع مسيحيّي سوريا، ويعطي فرنسا نفوذاً ثابت القدم في المنطقة، ويؤول بالضرر على الموحدين (الدروز) والروم الأرثوذكس، وكانت تسعى إما إلى تقسيم الجبل إلى ثلاث قائمقاميات درزية ومارونية وأرثوذكسية، أو إنشاء نظام موحد دعاه دوفرين متصرفية، ويقضي هذا النظام بإعادة توحيد جبل لبنان برئاسة حاكم مسيحي من خارج لبنان وغير ماروني يثق بنزاهته وأخلاقه[٢].

كان اقتراح دوفرين إنشاء قائمقامية ثالثة للسكان الأرثوذكس، يرتبط بحاجات سياسية مهمة، وهي استمالة روسيا، وتحطيم التعاون الفرنسي ــ الروسي القائم منذ بداية الأحداث[٣]. لكن الفرنسيين أدركوا صلابة الموقف البريطاني وصعوبة إقناع المسؤولين البريطانيين بتغيير موقفهم من الأمراء الشهابيين، فرشحوا يوسف كرم بدلاً من مجيد الشهابي، لكن الدبلوماسية البريطانية ودوفرين محركها أعادت طرح مشروعها الوحدوي القديم مع ترشيح حاكم مسيحي، إنما ليس من السكان المحليين، وكان القرار النهائي بهذا الشأن قد انتقل من اللجنة الدولية في بيروت إلى سفراء الدول الأوروبية الخمس في الأستانة، حيث انتقل أعضاء اللجنة الدولية إلى الأستانة لمتابعة المناقشات مع السفراء الأوروبيين هناك[٤].

---

(١) طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الأسرة الشهابية،ص٢٠٢-٢٠٣.

(٢) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني، ص١٨٣-١٨٤ .

(٣) بانتيشينكوفا، مارينا: المرجع نفسه، ص٢٦٤.

(٤) غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني، ص٣٨٦ .

وبعد اتصالات حثيثة ومناقشات مستفيضة طوال تلك الفترة، وانعقاد ثلاثة اجتماعات للسفراء والصدر الأعظم عالي باشا، كان أخرها اجتماع ٩ حزيران ١٨٦١م. توصل ممثلوا الدول إلى اتفاقيات نهائية حول النظام السياسي لجبل لبنان، وتم التوقيع على البروتوكول القاضي بأن يكون حاكم جبل لبنان مسيحياً يُعطى لقب مشير، مقره دير القمر، يختاره السلطان، وقد تم اختيار داوود باشا[١] لهذا المنصب. ونص النظام أيضاً على تأسيس مجلس من أثني عشر عضواً يمثلون المجموعات الدينية الكبرى، وتقسيم جبل لبنان إلى ست نواح أو قائمقاميات، يتولى كل واحدة منها وكيل إداري من الوجوه التابعة للعقيدة الدينية السائدة في الناحية المعنية، كما نص النظام على إنشاء المجالس القضائية وإلغاء الامتيازات الإقطاعية[٢].

رابعاً- تشيسني ومشروع الخط الحديدي البريطاني في وادي الفرات:

في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومع ازدياد النفوذ الروسي في إيران والدولة العثمانية، وتعاظم خطره المزعوم على سلامة الهند، تجدد اهتمام بريطانيا بالمشروع الذي اقترح إنشاء خط حديدي بريطاني في وادي الفرات، فدعي تشيسني للمشاركة فيه[٣]. وقام بمسح شامل من أجل التحقق من أفضل نقطة لمرور الخط من خليج أنطاكية عبر وادي الفرات، وكانت النتيجة مشجعة[٤].

لقد ضرب البريطانيون في تحقيق مشروعهم هذا على وتر الخوف من تسرب النفوذ الروسي، والثروة العظيمة الكامنة في وادي الفرات، والتوسع المنتظر في

---

(١) داوود باشا: هو كرابيت آرتين داوود باشا، ولد في الأستانة عام ١٨١٨م من أبويين أرمنيين كاثوليكيين، نشأ وترعرع فيها، وتلقى علومه الثانوية في كلّية أزمير الفرنسية، ثم التحق بمعهد الحقوق الشاهاني، وأتقن في الوقت نفسه عدداً من اللغات منها الألمانية= =والفرنسية وألم مؤخراً بالعربية إلماماً بسيطاً ليفهم موظفيه في جبل لبنان، والتحق بالسلك الدبلوماسي، وتدرج فيه حتى أصبح في منتصف القرن التاسع عشر قائماً بالأعمال في برلين، حيث استفاد من إقامته لنشر كتاب عن أصول القانون الألماني، انتخبته أكاديمية العلوم في برلين عضواً شرفياً، ومنحته جامعة فيينا لقب دكتور في الحقوق عام ١٨٥٣ م. ثم عاد إلى وزارة الخارجية في الأستانة، وفي عام ١٨٥٧م عين ناظراً عاماً للمطبوعات، ثم ناظراً عاماً للتلغراف .و قيل: إن داوود باشا تصفح نظام متصرفية جبل لبنان عام ١٨٦١ م لأول مرة على ظهر السفينة التي أقلته إلى بلاد الشام، وكثيراً ما سُمع يقول: إنه لولا فوات الأوان لرفض المهمة .وصل داوود باشا إلى بيروت أوائل تموز ١٨٦١ م، واحتفى به فؤاد باشا حفاوة فائقة، وقدمه إلى مندوبي الدول الأوروبية، ثم سلمه فرمان تعيينه في حفل كبير جرى في ضواحي بيروت. انظر طربين، أحمد: لبنان منذ عهد المتصرفية، ص١٥-١٦.

(٢) ضو، أنطوان:المصدر نفسه، ج٢، ص٥٦٣-٥٦٧.

(٣) اريلاند. فيليب ويلارد: العراق دراسة في تطوره السياسي، ترجمة جعفر خياط، دار الكشاف، بيروت، لبنان،١٩٤٩، ص٢١.

(٤) محمد، صالح خضر: المرجع نفسه، ص٢٩.

التجارة مع الشرق، وسهولة إنجاز المشروع من الوجهة الهندسـية، وتـوافر المـواد الإنشائية في بلاد الشام[١]. إلا أن المشروع فشل، لأنه يتطلب ضـمانات ماليـة مـن الحكومتين العثمانية والبريطانية، فلم يجرؤوا على التنفيذ نظراً لعـدم وجـود الرغبـة والقدرة على منح تلك الضمانات[٢]. حيث تراجع اللورد بالمرستون بصـورة فجائيـة، وسحب مؤازرة الحكومة البريطانية للمشروع[٣].

في عام ١٨٦٢ ذهب تشيسني إلى عاصمة الدولة العثمانية من أجل الحصول على تنازلات جديدة لنظام السكك الحديدية، إلا أن محاولاته مره أُخرى أحجمت بخجل مـن جانب الحكومة البريطانية[٤].

بالإضافة إلى مشاريع السكك الحديدية كانت هنـاك محـاولات بوسـاطة السـفن البخارية، جرت لإيجاد بديل عن خط بغداد- دمشق البري في عام ١٨٧٠م، حين بـدأ نقل البضائع بين بغداد ومسكنة بوساطة السفن عبر نهر الفرات، ومن مسـكنة كانـت البضائع تنقل براً إلى حلب، حيث تستغرق الرحلة النهرية من مسكنة إلـى بغـداد ٣٠ ساعة، بينما تستغرق الرحلة في الطريق المعاكس لمجرى النهر تسعة أيام[٥].

وكان هناك فكرة بريطانية لفتح طريق بحري يمرّ بفلسطين، بواسطة قناة من البحر المتوسط تبتدئ من مدينة حيفا، فتملأ وادي الغور ثم تتصل هذه القنـاة بالعقبـة علـى البحر الأحمر، لكن العقبة الكبيرة التي اعترضت هذه الفكرة النفقات التقديرية الباهظـة لهذا المشروع[٦].

وفي عام ١٨٧١م عاد الأمل مرة أخرى إلى تشيسني لتحقيق مشـروعه وفكرتـه القديمة التي كانت في الماضي، حيث عيّن من قبل لجنة تابعة لمجلس العموم البريطاني لدراسة الأسس الموضوعة لنظام السكك الحديدية في وادي الفرات، وقد قدرت الكلفـة بـ ١٠ ملايين جنيه إسترليني[٧]. وبالرغم من أنه كان قد بلغ الثانيـة والثمـانين مـن

---

(١) لونكرك، المستر ستيفن هيمسلي: المرجع نفسه،ص٢٦٩.

(٢) مجموعة من الباحثين: تاريخ العراق المفصل،ص١٢.

(٣) اريلاند. فيليب ويلارد: المرجع نفسه،ص٢٢.

(٤) http://en.wikisource.org/wiki/Chesney,_Francis_Rawdon_(DNB00)

(٥) رافق، عبد الكريم :بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام)، دمشق، سوريا، د، ن،ط ،١٩٨٥م، ص١٢٢.

(٦) علي، محمد كرد: المصدر نفسه،ج ٥، ص١٤٧.

(٧) مجموعة من الباحثين: تاريخ العراق المفصل، ص١٣.

العمر، إلا أنه بدا وكأنه أقوى من أي وقت مضى، فحضر اجتماعات اللجنـــة، وقـــدم شهادته القيمة، لكنه لم يعش ليرى التقرير، حيث توفي في ٣٠ كانون الثـــاني١٨٧٢م[١] في منزله في مورن.[٢] إلا أن الحكومة البريطانية لم تدعم المشروع، لأن قناة السويس افتتحت، وطرحت بعد ذلك مشاريع أخرى لم تأبه لها الحكومة البريطانية، وخاصة بعد ما احتلت مصر عام ١٨٨٢م[٣].

خامساً: أثر مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م على السياسة البريطانية في بلاد الشام:

انتهز الكساندر الثاني[٤] قيصر روسيا (١٨٥٥-١٨٨١)م فرصة اندلاع حرب عام ١٨٧٠م بين فرنسا وبروسيا، وتحرك دبلوماسياً، وطالـــب الـــدول الكبـــرى بتعـــديل النصوص التي وردت في معاهدة باريس عام ١٨٥٦م، والخاصة بمســألة المضـــايق والبحر الأسود. فتقدم إلى الدول الكبرى الموقعة على معاهدة باريس بمذكرة مؤرخـــة في ٣١ تشرين الأول ١٨٧٠م، وأردفها بـــأخرى مؤرخـــة فـــي أول تشـــرين الثـــاني ١٨٧٠م[٥]، قرر فيها أن معاهدة باريس قد وضعت روسيا في مركز سيء. وكان لهذا التصرف الروسي وقع سيء للغاية في الدوائر البريطانية، وتدخل المستشار الألمـــاني بسمارك[٦]، واقترح عقد مؤتمر دولي لإعادة النظر في النصـــوص الخاصـــة بمســألة

---

(١) http://en.wikisource.org/wiki/Chesney,_Francis_Raw don_(DNB00)

(٢) مورن: تقع سلسلة جبال مورن في الجزء الجنوبي من داون بإيرلندا الشمالية. وتمتد مسافة ٢٤ كم بين كارلنجفورد لـــو وخليج دندروم، في البحر الإرلندي. انظر الموسوعة العربية العالمية، ج٢٤، ص٣٤٦.

(٣) محمد، صالح خضر: المرجع نفسه، ص٣٠.

(٤) ألكساندر الثاني (Alexander I I):(١٨١٨-١٨٨١) م: قيصر روسيا بين عامي (١٨٥٥ـ١٨٨١م)، في عهده تم التخلـــي عـــن نظام الرق والعبودية، وقام بجملة من الإصلاحات في مجال ملكية الأرض، والمجال العسكري، ومجالات أخـــرى .كـــرس جـــلّ اهتمامه منذ نهاية سبعينيات القرن التاسع عشر للقضاء على الثوار، وفي عهده أُلحقت مناطق القوقاز وكازاخستان وقسم من آســـيا الوسطى بالدولة الروسية. تعرض خلال حياته لعدة محاولات اغتيال نجحت آخرها عام ١٨٨١ م. انظر :القـــاموس الموســـوعي الكبير، ص٣٢. (باللغة الروسية) .

(٥) الشناوي، عبد العزيز محمد: المرجع نفسه، ص٢٢٩.

(٦) بسمارك :الأمير أتو فون بسمارك (١٨١٥-١٨٩٨ م): سياسي ألماني، أول مستشار لألمانيا (١٨٧١- ١٨٩٠)م، ولـــد في الأول من نيسان في مقاطعة ماجدبورج في مدينة (شون هاوزن-براندنبورغ) الواقعة فـــي ألمانيـــا الشـــرقية، درس القانون، ومارس المحاماة عام ١٨٣٥ م، خدم في الجيش، وكان قد انتخب عضواً في البرلمان البروسي عـــام ١٨٤٧ م، مثل بلاده في روسيا أولاً وبعدها في فرنسا، أُستدعي إلى بروسيا عام ١٨٦٢ م ليصبح رئيساً للوزراء، ووزيراً للشؤون الخارجية، خاض ثلاثة حروب لتوحيد ألمانيا، الأولى ضد الدانمارك، والثانية ضد النمســـا عـــام ١٨٦٦ م، والثالثـــة= =الحرب الفرنسية-البروسية بين عامي (١٨٧٠-١٨٧١ م)، ونجح في تحقيق الوحدة الألمانية، أصبح مستشاراً للـــرايخ الثاني للإمبراطورية الألمانية الجديدة، عقد الحلف الثلاثي مع النمسا، وهنغاريا، وإيطاليا، قام ولهلم الثاني الـــذي أصـــبح

المضايق في البحر الأسود، وكان بسمارك يريد مكافأة روسيا لأنها التزمت الحياد في أثناء حرب السبعين بين فرنسا وبروسيا، وانصاعت بريطانيا لرأي المستشار الألماني، وعقد مؤتمر في لندن في الفترة الواقعة بين ١٧ كانون الثاني و١٣ آذار ١٨٧١م أسفر عن عقد معاهدة جماعية بين الدول الكبرى في الثالث عشر من آذار ١٨٧١م عرفت باسم معاهدة لندن، وتقرر فيها إلغاء النصوص الخاصة بتحديد القوات البحرية في البحر الأسود[١].

تسنى لروسيا بعد عقدين من حرب القرم، أن تنظم أجهزتها الاقتصادية والعسكرية، وأن تبسط سلطانها على معظم مناطق آسيا الوسطى، وعادت إلى سياستها التقليدية في البلقان، فأنشأت الجامعة الصقلبية لتضع في كنفها صقالبة أوروبا الأرثوذكس، وبتحريض من روسيا شق هؤلاء عصا الطاعة على السلطان، وأعانتهم، فأحدثوا الفتن العديدة منذ عام١٨٧٠م، يشجعهم انهيار فرنسا ومصاعب الدولة العثمانية المالية واضطراب أحوالها الداخلية في آخرعهد [٢]السلطان عبد العزيز[٣]. ولما جلس السلطان عبد الحميد[٤] على العرش كانت نيران الثورة متقدة في جميع بلاد الروم، وكانت الخزينة الحكومية فارغة[٥]. ثم إن هذه الثورات أذكت نار الحرب ما بين روسيا والدولة العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨)م، واستطاعت جيوش القيصر أن تتقدم في يسر باتجاه الأستانة، وفي أثناء حكم السلطان عبد الحميد، ازداد التنافس على المصالح والنفوذ حدة وبروزاً بين الدول الكبرى التي تعد نفسها وريثة الدولة العثمانية. كما أنه

ملكاً عام ١٨٨٨ م بطرد بسمارك، لأنهة كان يغار من شهرته، وبعد أن تقاعد أشرف على ممتلكاته في فريدريك زور، توفي عام ١٨٩٨ م. انظر: الموسوعة العربية العالمية، ج٤،ص٤٢٠.

(١) الشناوي، عبد العزيز محمد: المرجع نفسه،ص٢٣٠.

(٢) إسماعيل، عادل، و خوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٤، ص٤٠ .

(٣) عبد العزيز(١٨٣٠ــ ١٨٧٦م): سلطان عثماني (١٨٦١-١٨٧٦م)، تولى الحكم بعد أخيه عبد المجيد، وفي عهده تفجرت ثورة في جزيرو كريت ، وفُتحت قناة السويس عام١٨٦٩م أمام الملاحة الدولية، وصدرت مجلة الأحكام العدليّة، وقانون التجارة البحرية، وزار أوروبا، وضع أول دستور مدني، خلع عن العرش ثم قتل. انظر: الصلابي، علي محمد محمد : المرجع نفسه، ص٤٣٥.

(٤) السلطان عبد الحميد الثاني: ولد عام١٨٤٢م، تسلم الحكم عام١٨٧٦م، أعلن الدستور، أدخل إصلاحات عسكرية واقتصادية وسياسية، وقد اقترن اسمه بالجامعة الإسلامية، انقلبت عليه جمعية تركيا الفتاة (جون ترك)، نفي إلى سالونيك مدة ثلاث سنوات ثم نقل إلى الأستانة، حيث بقي تحت الحراسة المشددة حتى أواخر أيامه، توفي عام١٩١٥م، ودفن في ضريح السلطان محمود إلى جانب عمه السلطان عبد العزيز .انظر: حليم، إبراهيم بك: المصدر نفسه، ص٣٦٩-٣٧٢.

(٥) العظمة، عبد العزيز: المرجع نفسه، ص٣٣٧.

أصبح من الجلي أن "الرجل المريض" لا يمكن شفاؤه، وهذا على نقيض ما كانت الوزارة البريطانية برئاسة أبردين (Aberdeen) تأمله، ولم يعد سقوط الدولة العثمانية أمراً بعيد الاحتمال. ففي الرابع من شهر كانون الثاني عام ١٨٧٦م قال اللورد أُودو رسل (Odo Russeil) سفير بريطانيا في برلين في ملاحظاته السرية إلى وزير خارجية ألمانيا: "إن بريطانيا قد تخلت كلياً عن سياستها التقليدية نحو الدولة العثمانية[١].

وفي ٢٣ كانون الأول ١٨٧٦م عقد مؤتمر في الأستانة بمشاركة الدول الكبرى وبدعوة من وزير خارجية الدولة العثمانية صفوت باشا كانت الغاية منه الضغط على السلطان بوجوب الإسراع في اتخاذ إجراءات إصلاحية ملحة[٢]. فأسفر هذا المؤتمر عن ولادة دستور جديد[٣]. أعقب ذلك بروتوكول لندن الذي وضعته ست دول في ٣١ آذار ١٨٧٧م أكد فيه الموقعون على تحسين وضع المسيحيين في الدولة العثمانية. لم تتمكن الدول من إرغام السلطان على قبول الاقتراحات التي وضعتها في مؤتمر الأستانة في ٢٣ كانون الأول ١٨٧٦م، وبما أنه قد تعذر على هذه الدول الوصول إلى عمل موحد[٤]. أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية، وتقدمت جيوش القيصر في يسر باتجاه الأستانة[٥].

اغتنمت بريطانيا تقدم جيوش القيصر باتجاه الأستانة، لتبسط سلطانها التام على الدولة العثمانية وتبدو لناظر السلطان عبد الحميد الثاني بمظهر الذائد عن دولته، فبعثت بأسطولها إلى الدردنيل لحماية عرشه، وهددت روسيا بالدخول في الحرب إلى جانب الدولة العثمانية إذا ما دنت جيوشها من الأستانة[٦].

حاول القيصر بالطرق الدبلوماسية إرضاء بريطانيا على حساب الدولة العثمانية، فاقترح عليها احتلال مصر لقاء تسوية الأوضاع في البلقان بما يتلاءم ومصلحته، لكن

---

(١) زين، زين نور الدين: المرجع نفسه، ص٣٨-٣٩.

(٢) التونسي، مردخاي شملة: مفاوضات المؤتمر المنعقد بالأستانة في المسألة الشرقية، سنة ١٢٩٣-١٢٩٤، مطبعة الدولة التونسية، ط١، ١٢٩٥هـ(١٨٧٨ م)، ص٣.

(٣) زين، زين نور الدين: المرجع نفسه، ص١٣٦.

(٤) المرجع نفسه، ص٤١.

(٥) وسلينغ، هنري: تقسيم إفريقيا أحداث مؤتمر برلين وتوابعه السياسية، ١٨٨٠-١٩١٤، ترجمة: ريما إسماعيل، الدار الجماهيرية، مصراتة، ط١، ٢٠٠١ م.ص٤٥.

(٦) إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٤، ص٤١.

الحكومة البريطانية رفضت المساومة، لأنها لا تريد أن يصل النفوذ الروسي إلى المياه الدافئة، مما يشكل خطراً على خطوط مواصلاتها في البحـــر المتوســـط، وســـارعت بريطانيا إلى تعزيز وجودها العسكري في المنطقة، مما جعل الحكومة الروسية تطلـــب من سفيرها في لندن الاتفاق مع الحكومة البريطانية على عدم امتـــداد حـــدود الدولـــة البلغارية إلى بحر إيجة، وهذا يعني إبعاد النفوذ الروسي عن مياه البحر المتوسط[١].

وحيال هذا التشدد في موقف بريطانيا، حمل القيصر الكساندر الثاني علـــى إنهـــاء الحرب، فعقد في ٣ آذار ١٨٧٨م مع السلطان[٢] معاهدة سان ســـتيفانو[٣]، وحصـــدت روسيا من خلالها ثمار هذا النزاع القصير الأمد، لكن المثمر جداً، فقد حصـــلت علـــى امتداد كبير لأراضيها على حساب العثمانيين[٤].

جاءت معاهدة سان ستيفانو في صالح روسيا، لذا لم تعجب الدول الأوروبيـــة بمـــا فيها بريطانيا، بل جعلتها تتخوف من عواقبها، وأسفر الأمر إلى عقد مؤتمر أوروبـــي في برلين في ١٣ حزيران ١٨٧٨م. ذلك لأن روسيا لم تكن على اســـتعداد للمجازفـــة بحرب ضد بريطانيا وضد النمسا، فجاء التعديل الذي أدخلته معاهدة برلين المعدلة على معاهدة سان ستيفانو في صالح الدولة العثمانية وفي صالح بريطانيا[٥].

ولما كانت معاهدة سان ستيفانو لم تقترن باعتراف بريطانيا وألمانيا، فقـــد دعـــت هاتان الدولتان إلى عقد مؤتمر ينعقد في برلين من أجل مراجعة هذه المعاهدة وإعـــادة النظر فيها، وبالتالي من أجل تسوية الحرب العثمانية ــ الروســـية ووافقـــت روســـيا مضطرة على هذه الدعوة، وفي ١٣ حزيران ١٨٧٨م عقد المؤتمر في مدينة بـــرلين[٦] برئاسة بسمارك (Bismarck)، وبعد عدة جلسات جرت فيها المناقشات الطويلـــة بـــين الدول العظمى المشاركة في أعمال المؤتمر، تم الاتفاق على توقيع معاهدة برلين فـــي ١٣ تموز ١٨٧٨م وتحتوي على ٦٤ مادة[٧] وفيما يأتي خلاصة ما جاء فيها:

---

(١) الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص٢٦٦.

(٢) إسماعيل، عادل وخوري، أميل:السياسة الدولية في الشرق العربي،ج٤، ص٤١ .

(٣) سان ستيفانو: بلدة صغيرة على بحر مرمرة.انظر حسون، علي: المرجع نفسه، ص٢٣٤.

(٤) وسلينغ، هنري: المرجع نفسه، ص٤٥.

(٥) زين، زين نور الدين: المرجع نفسه، ص٤١.

(٦) العظمة، عبد العزيز: المرجع نفسه، ص٣٣٨ .

(٧) برجاوي، سعيد أحمد: المرجع نفسه، ص٢٦٢.

١- ضم البوسنة والهرسك إلى النمسا.

٢- منح الصرب ورومانيا والجبل الأسود استقلالاً تاماً[١].

٣- تقدمت حدود اليونان قليلاً إلى الشمال مع العلم أن اليونان لم تدخل موضوع القتال، ولم تشمل معاهدة سان ستيفانو أي جزء منها.

٤- ضم مدن قارص وباطومي إلى روسيا.

٥- ضم مقاطعة دوبروجيه وبعض الجزر إلى رومانيا ومنحها الاستقلال التام[٢].

٦- منح بلغاريا استقلالاً ذاتياً على أن تدفع جزية سنوية للسلطان العثماني وإعادة ولاية مقدونيا إليها.

٧- منح الروملي الشرقية (بلغارية الجنوبية) استقلالاً ذاتياً بشرط تعيين حاكم مسيحي عليها. ومنح جزيرة قبرص لبريطانيا.

٨- يعلن الباب العالي رغبته في منح حرية الاعتقاد الديني، والحفاظ على الحقوق السياسية والمدنية والدينية للجميع، وتعترف الدولة العثمانية بحق القناصل في حماية رعاياهم[٣].

وقّع معاهدة برلين كلٌّ من مندوبي الدول الآتية: ألمانيا، والنمسا، والمجر، وفرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا، وروسيا، والدولة العثمانية، أما اليونان فقد حضرت المؤتمر دون اشتراكها فيه[٤].

أيدت معاهدة برلين التي عقدت في ١٣ تموز ١٨٧٨م النصوص التي لم تتعرض للإلغاء أوالتعديل في معاهدة باريس الموقعة عام ١٨٥٦م، وفي معاهدة لندن عام ١٨٧١م، وعلى ذلك لم تأت معاهدة برلين بجديد على نظام عبور السفن التجارية والحربية والملاحة في البحر الأسود[٥].

كان قبول الدول الكبرى الاجتماع في برلين اعترافاً ضمنياً بالمركز السياسي الممتاز الذي أصبحت تشغله ألمانيا ومستشارها بسمارك في أوروبا، وقد اجتمع

---

(١) الهاشمي، عبد المنعم: المرجع نفسه، ص٢٣٩.

(٢) الصلابي،علي محمد محمد: المرجع نفسه، ص٤٥٨.

(٣) الدسوقي، محمد كمال :المرجع نفسه،ص٢٥٩.

(٤) برجاوي، سعيد أحمد: المرجع نفسه، ص٢٦٣.

(٥) الشناوي، عبد العزيز محمد: المرجع نفسه، ص٢٣١.

المؤتمر في الظاهر لإعادة النظر في معاهدة سان ستيفانو، لكن في الواقع كان من أجل تسجيل الاتفاقيات التي تمت بين روسيا وبريطانيا، وبين روسيا والنمسا بخصوص معاهدة سان ستيفانو[١].

وكان التعديل الذي جرى على معاهدة سان ستيفانو كان لصالح الدولة العثمانية وبريطانيا، وقد لعب دزرائيلي[٢] رئيس الوزراء البريطاني دوراً رئيساً في هذا المؤتمر، فاستطاع تقليص مساحة الدولة البلغارية الكبرى حتى يبعد النفوذ الروسي عن المياه الدافئة، وعقد اتفاقية سرية في ٤ حزيران ١٨٧٨م مع السلطان العثماني نصت على منح بريطانيا جزيرة قبرص[٣] مقابل أن تدافع بريطانيا عن الأراضي العثمانية، إذا حاولت روسيا التوسع في الأناضول، واحتلال قبرص ما هو إلا مقدمة لاحتلال مصر وبلاد الشام والسيطرة على قناة السويس نظراً لارتباط مصالح بريطانيا التجارية بها، إذ أن افتتاح قناة السويس أمام حركة الملاحة الدولية عام ١٨٦٩م، كان أحد العوامل الرئيسة التي دفعت بريطانيا إلى احتلال قبرص كقاعدة للأسطول البريطاني التي تتحكم استراتيجياً بشواطئ بلاد الشام ومصر[٤].

كان بإمكان فرنسا أن تمانع هذه العملية بوصفها القوة الأكبر في البحر المتوسط، لذلك كان من اللازم أن تحصل فرنسا على تعويض على حساب الدولة العثمانية طبعاً، وظهر الحل لهذه المشكلة في إمكانية حصول فرنسا على تونس[٥].

عندما رجع اللورد بيكو نسفيلد (Pico Nasphilld) إلى لندن من مؤتمر برلين ألقى في مجلس العموم البريطاني خطاباً في ١٨ تموز ١٨٧٨م تضمن عرضاً صريحاً للمسألة الشرقية، أوضح فيه بصورة خاصة حساسية فرنسا وشكوكها بالنسبة للمصالح

---

(١) صفوت، محمد: مؤتمر برلين وأثره في البلاد العربية، ص٢٦.

(٢) بنجامين دزرائلي (Benjamin Disraeli) ١٨٠٤-١٨٨١م : سياسي بريطاني ،رئيس الوزراء عام (١٨٦٨) م و(١٨٧٤-١٨٨١م) اشترى حصة مصر في قناة السويس عام ١٨٧٥م. انظر: بعلبكي، منير: المرجع نفسه، ص٢٥.

(٣) قبرص: جزيرة في الركن الشمالي الشرقي من البحر المتوسط، تقع على بعد ٦٤ كم جنوبي تركيا، و١٠٠ كم غربي سوريا، تتمتع قبرص بطبيعة خلابة، ينتمي نحو ٨٠ % من سكانها إلى أصول يونانية يعيشون في جنوب غربي قبرص، والبقية إلى أصول تركية ويعيش معظمهم في شمال شرقي قبرص. نالت استقلالها عام١٩٦٠ م بعد أن خضعت لحكم بريطانيا، منذ عام ١٨٧٨ م .عاصمتها نيقوسيا.انظر: الموسوعة العالمية، ج ١٨، ص ٥٨-٦٠.

(٤) زين، زين نور الدين: المرجع نفسه، ص ٤٢. وانظر أيضاً :الخنساء، أحمد: المرجع نفسه، ص٢٦٧.

(٥) وسلينغ، هنري: المرجع نفسه، ص٤٦.

البريطانية في الشرق. وقال اللورد بيكو نسفيلد: "لقد آن لنا أن نحول دون نشوب الحرب بين روسيا والدولة العثمانية،...... كما أنه لنا أن نضع حداً لمخاوفنا بالنسبة إلى الهند..... ولهذا فإننا قد استعضنا عن ذلك باتخاذ تدابير مباشرة بيننا وبين الدولة العثمانية بالنسبة إلى قبرص. لقد تحاشينا احتلال مصر، لعلمنا أن فرنسا شديدة الحساسية عندما يكون الأمر متعلقا بمصر.... كذلك تحاشينا احتلال بلاد الشام للسبب نفسه......."[١].

وقد غيرت الظروف التي مرت بها الدولة العثمانية السياسة التقليدية البريطانية اتجاهها، فهي لم تثبت في نظر بريطانيا صلاحيتها للبقاء، ولم تعمل على تحسين حال رعاياها المسيحيين، ولم تستفد من الفرصة التي أتاحها لها صلح باريس عام ١٨٥٦م في إصلاح شؤونها وتوطيد دعائم ملكها، وكانت حملات جلادستون[٢] (Gladstone) زعيم المعارضة في مجلس النواب البريطاني من العوامل المهمة التي أطاحت بالسياسة التقليدية البريطانية، وخاصة بعد حركة القمع التي قام بها الباب العالي في بلغاريا، فكتب عدة مقالات أهمها "الفضائع البلغارية" (The Bulgarian horros). حمل فيها على العثمانيين وسياستهم حملة شعواء، وشعرت الحكومة البريطانية من المحافظين أنها لم تعد تستطيع الدفاع عن السياسة التقليدية القديمة، فأعلن داربي (Darby) وزير

---

(١) زين، زين نور الدين: المرجع نفسه، ص٢٢٣ .

(٢) وليم غلادستون (١٨٠٩-١٨٩٨م) William Gladstone : كان لأربع مرات رئيساً للوزراء بريطانيا (١٨٦٨-١٨٩٤م)، يعد واحد من أهم القوى السياسية المهيمنة في بريطانيا خلال عهد الملكة فيكتوريا. زعيم الحزب الليبرالي بعد عام ١٨٦٧. ولد وليم غلادستون في ليفربول(Liverpool)، وهو نجل جون غلادستون(John Gladstone)، التاجر من أصل اسكتلندي. نشأ وليم في منزل أتقياء الدين الإنجيليين ، بعد أن درس في مدرسة إيتون(Eton)، أصبح موقر الجامعة في كنيسة المسيح في جامعة أكسفورد(Oxford).وهناك، اختار السياسة بدلا من الكنيسة، لكنه حافظ على قناعات دينية قوية طوال حياته. في عام ١٨٣٩م تزوج من كاثرين(Catherine)، التي أنجبت له ثمانية أطفال. انتخب للمرة الأولى ممثلاً عن حزب المحافظين في البرلمان في عام ١٨٣٢م، ، وكان أول خطاب له الدفاع عن الرق في جزر الهند الغربية، وكان مدافعاً قوياً للكنيسة البريطانية. في عام١٨٤٣م أصبح رئيسا لمجلس التجارة في حكومة المحافظين برئاسة السيد روبرت بيل(Robert Peel). دعم بيل من أجل ترسيخ مبدأ التجارة الحرة .أصبح بين عامي (١٨٤٦-١٨٥٩ م) معزولاً سياسياً.. خلال هذا الوقت تغيرت وجهات نظره من المحافظة إلى الليبرالية. وقال انه يقبل بضرورة الحرية الدينية، بما في ذلك قبول اليهود في البرلمان. كما أعرب عن تأييده للقضية القومية والوحدة الايطالية، والتي جعلت منه قوة معنوية في جميع أنحاء أوروبا. وفي عام ١٨٥٩م انضم الى الحزب الليبرالي، وشغل منصب= =وزير الخزانة قي وزارة بالمرستون(Palmerston). اقترح في عام ١٨٦٦ م تعديل على قانون الانتحاب من أجل توفير فرصة الاقتراع للطبقة العاملة، لكن اقتراحه فشل فاستقالت الحكومة. انظر : Microsoft ® Encarta ® 2009. © 1993-2008 Microsoft Corporation. All rights reserved.

الخارجية البريطانية، أن الحكومة لا تستطيع التدخل ضد روسيا للدفاع عن العثمانيين. لكن موقف بريطانيا اتجاه روسيا وأطماعها لم يتغير، واتخذت فيما بعد موقفاً حاسماً إزاء كل من روسيا والدولة العثمانية، بعد أن تولى سولزبري (Saulzibri) وزارة الخارجية بعد استقالة داربي في عام ١٨٧٨م، وكان سولزبري يمقت الدولة العثمانية مقتاً شديداً ولم يؤمن أنه في الإمكان النهوض بها مرة أخرى كقوة حقيقية يعتمد عليها لذلك رأى أن الحل المناسب يكمن في تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية ، ووضع حدٍ نهائيٍ للسياسة البريطانية التقليدية نحو الدولة العثمانية[١].

وهكذا نجحت السياسة البريطانية في إفشال المحاولة الروسية الثانية بعد حرب القرم لحل المسألة الشرقية لصالحها في شنها حرب (١٨٧٧-١٨٧٨)م، ولكن في الوقت ذاته فقدت الدولة العثمانية الجزء الأكبر من ممتلكاتها الأوروبية[٢].

وأخيراً بعد دراسة تطور السياسة البريطانية في بلاد الشام بين عامي (١٨٤١-١٨٧٨م) يمكن تسجيل النتائج التالية:

١- عد البريطانيون أن نظام شكيب أفندي نصراً لهم، إذ أنهم أبعدوا الشهابيين نهائياً عن الحكم، وأعطوا الموحدين (الدروز) حكماً ذاتياً خاصاً بهم، فاستمرار نظام القائمقاميتين برأيهم يعد فشلا للسياسة الفرنسية الرامية إلى توحيد إدارة جبل لبنان في كيان سياسي موحد تحت سلطة الأمراء الشهابيين، وبدأت بعد ذلك العلاقة واضحة بين بريطانيا والموحدين (الدروز)، وبين فرنسا والموارنة، وكأن الأولى حامية للموحدين (الدروز) والثانية حامية للموارنة، لكن الحقيقة أن كلاً منهما كانت تعمل على تدعيم مصالحها لا حباً بالفرقاء المحليين، وإنما تأكيداً للمصلحة الذاتية لكل من الدولتين العظيمتين آنذاك.

٢- لم تسجل معاهدة باريس عام ١٨٥٦م انتصاراً سياسياً لدولة على أخرى، ولم تضع حلولاً جذرية لأهم المشكلات الدولية، وسبب هذا أن الحرب لم تبدل شيئاً من أوضاع الدول الكبرى، فظلت مصالحها وأهدافها متضاربة،وانتهى مع الحرب تعاونها وتفاهمها، وبقيت أحكام معاهدة باريس قائمة على علاقاتها، ودستوراً للعلاقات الدولية

---

(١) عمر، عمر عبد العزيز: المرجع نفسه، ص٤٤٥.

(٢) زين، زين نور الدين: المرجع نفسه، ص٤١-٤٢.

حتى عام ١٨٧٨م. ولم تتطرق الدول الأوروبية في معاهدة باريس إلى قضية الأماكن المقدسة في فلسطين التي كانت السبب الظاهر للنزاع بين روسيا وفرنسا، ثم تطور ليصبح بين روسيا والدولة العثمانية التي ساندتها بريطانيا وفرنسا.

٣- خرجت بريطانيا منتصرة في حرب القرم بعد أن أبعدت الخطر الروسي عن الأستانة والبلقان . وخلال حرب القرم وبعدها لم يعد في الإمكان خلق تحالف قوي بين روسيا والنمسا، وبالتالي تركت روسيا النمسا بعد ذلك لتواجه أزمتها مع القوى الوطنية القومية الثائرة دون تعضيد من جانب روسيا، الأمر الذي كان له أثره في نجاح الحركات القومية في إيطاليا وألمانيا بعد حرب القرم.

٤- تعد حركة الفلاحين في كسروان عام ١٨٥٨م واحدة من الحركات الوطنية التقدمية، وهي ثورة شعبية، لكن أصحاب الضمائر الخربة والنفوس الضعيفة، استطاعوا تحويل مسارها من حركة اجتماعية إلى حركة طائفية تركت آثارها السيئة على المجتمع اللبناني، فانحدر الشعب اللبناني بفعل الطائفية والاقتتال باسمها، والخصام الديني أبشع أنواع الخصومات وأشدها عنفاً، لأنه يميت في النفوس العواطف الإنسانية، ويثير في الدهماء الغرائز الوحشية، ومتى اشتعلت ناره فإنه يترك في أعماق القلوب رواسب خبيثة قتاله لا يزيلها التحضر والتثقف إلا بمقدار، وبعد قرون. والشعوب المتخلفة، لا يستثيرها شيء ولا يعميها شيء كما يستثيرها ويعميها التعصب الديني متى استيقظ وفتح أبواب الشر، وهنا قد أيقظته الدسائس البريطانية والفرنسية، ولم تكن الدولة العثمانية بمنأى عنه، فتفسخ بفعله شعب كانت عناصره متآخية متعاونة، حريصة على كرامتها، غيورة على حريتها وتقاليدها، فضيعت كل هذا، وأورثت حفدتها ومن سيأتي بعدهم أحقادا وضغائن لا تهدأ اليوم إلا لتنفجر غداً، وتكرسها الأنظمة والدساتير والتدابير الحكومية، عهداً بعد عهد، ويغذيها المغامرون وذوو الضمائر الخربة جيلاً بعد جيل لتُعبّد لهم السبيل إلى الجاه والنفوذ والسلطة والمال.

٥- سعت بريطانيا بكل الوسائل إلى منع فرنسا من إرسال حملة عسكرية إلى بلاد الشام، لكنها لم تنجح، إلا أنها استطاعت حصر الحملة الفرنسية في إطار أوروبي، وذلك من خلال توقيع الدول الأوروبية الكبرى والدولة العثمانية، في ٣ آب على بروتوكول من سبع مواد حدد بموجبها مواصفات الحملة وشروطها، ويعد هذا

البروتوكول نصراً دبلوماسياً لبريطانيا، لأنه حصر الحملة الفرنسية في إطار أوروبي، وحد من السلطة المعطاة لقائدها، إذ فرض عليه الاتصال بالوزير العثماني فؤاد باشا والتفاهم معه على ما يجب عمله، كما حدد عدد الجنود الفرنسيين في الحملة، لكنه لم يحدد عدد الوحدات البحرية التي سترسل إلى شواطئ بلاد الشام، ولا مدة بقائها تاركاً بذلك لبريطانيا حرية مطلقة في إرسال ما تريد من أساطيلها وفقاً لمصالحها ولتطورات الأوضاع في المنطقة.

٦- عكست قرارات اللجنة الدولية التي شكلتها الدول الأوروبية، وشاركت فيها الدولة العثمانية، لوقف الحرب الأهلية عام ١٨٦٠م في بلاد الشام، وتقديم التعويضات للمتضررين، ومحاكمة المتهمين، في واقع الأمر ميزان القوى، الذي كان سائداً آنذاك بين الدول الأوروبية، وعكست حالة تدخل هذه القوى في بلاد الشام، قبل الحرب وخلالها، ودعم كل دولة منها لطرف ضد طرف آخر حقيقة أنها مستعدة لفعل كل شيء من أجل مصالحها، بصرف النظر عن حالة ووضع السكان المحليين بطوائفهم المختلفة، وفي الحلول التي توصلت إليها اللجنة، لأن مأساة الشعوب نتيجة الحرب الأهلية ومعالجتها لم تكن غاية اللجنة، وإنما كانت مطية للدول الأوروبية من أجل التدخل في شؤون العباد والبلاد، غير أن الأمر الأكثر خطورة، والذي تكرس في الحل الذي توصلت إليه اللجنة بشأن تنظيم إدارة لبنان، تمثل في ظاهرة التقسيم على أساس طائفي، وتكريس التجزئة في لبنان، حيث أقرت اللجنة نظام عام ١٨٦١م، الذي استبدل نظام القائمقامية بالمتصرفية، وقسم هذا النظام لبنان إلى سبع قائمقاميات .وإن أوجد نوعاً من المساواة بين الطوائف، لكنه في الوقت نفسه، زاد التجزئة والانقسام في لبنان، وترتبت عليه أثار سياسية خطيرة على مستقبل المنطقة وتطورها السياسي لا زال لبنان يعاني منها إلى اليوم.

٧- أحرزت بريطانيا نصراً مؤكداً، فبتحركها المرن ودفاعها عن مواقفها ومحاولاتها زرع الشقاق، داخل أعضاء اللجنة الدولية، وخاصة حلف الخصوم المتمثل في روسيا وفرنسا، نجحت في إبعاد الخطر الرئيس بالنسبة إليها، أي رؤية لبنان تحت وصاية فرنسا، والحفاظ على لبنان ضمن حدود الدولة العثمانية كان منسجماً مع أغراض سياسة بريطانيا التقليدية. وفي أغلب الأحيان حصل دوفرين على تأييد غالبية

أعضاء اللجنة، لأن معظم هؤلاء لا يرتاحون إلى وجود الحملة الفرنسية في بلاد الشام، وباستثناء المفوض البريطاني دوفرين، لم يستطع الأعضاء الآخرون في اللجنة فرض أي تأثير جوهري على قرارات اللجنة، وانحصرت مشاركتهم في الجلسات في تقديم النصح والمشورة.

٨- شكل مؤتمر برلين نقطة مهمة في تغيير السياسة البريطانية اتجاه الدولة العثمانية، حيث بدأت تتخلى عن سياستها التقليدية في المحافظة على بقاء الدولة العثمانية، وفي الوقت نفسه تريد أن تحافظ على مصالحها في المنطقة، وأن تقف في وجه الأطماع الروسية، ولو كان ذلك على حساب تقسيم الدولة العثمانية وفق ما يتماشى مع السياسة البريطانية في الحفاظ على التوازن الدولي. وأبرز مؤتمر برلين أول حضور سياسي على الساحة الدولية لألمانيا ومستشارها بسمارك، ونجحت السياسة البريطانية في التصدي لروسيا، وإفشال محاولتها الثانية بعد حرب القرم لحل المسألة الشرقية لصالحها عندما خاضت حرب عام (١٨٧٧-١٨٧٨)م ضد الدولة العثمانية، لكن في الوقت ذاته فقدت الدولة العثمانية الجزء الأكبر من ولاياتها الأوروبية، إلا أنها أنقذت مرة أخرى من الانحلال والانهيار التام، غير أن مشكلة الساعة أصبحت السؤال الخطير: كيف يتسنى للعثمانيين أن يحتفظوا بدولتهم؟ وهذا السؤال أصبح الشغل الشاغل لسياسة بريطانيا الخارجية بعد عام ١٨٧٨م.

الفصل الرابع

البعثات التبشيرية البروتستانتيّة (البريطانيّة) وأثرها على السياسة البريطانية في بلاد الشّام بين عامي (١٧٩٩-١٨٧٨م)

الفصل الرابع

البعثات التّبشيرية البروتستانتيّة (البريطانيّة) وأثرها على السياسة البريطانية في بلاد الشّام بين عامي (١٧٩٩-١٨٧٨م)

أولاً: الجمعيات البروتستانتيّة (البريطانيّة) ودورها السّياسيّ والثّقافيّ والدّينيّ في بلاد الشّام:

١- جمعية المُرسلين الكنسية عام ١٧٩٩ م (C.M.S. Church Missionary Society).

٢- الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود (جمعية لندن اليهودية).

(the Jews London Society for Promoting Christianity amongst):

ثانياً: تأسيس مطرانيّة القدس البريطانيّة ــ البروسية المشتركة عام ١٨٤١م:

١- محادثات لندن بين بريطانيا وبروسيالإنشاء الأسقفية حزيران ١٨٤١م.

٢- المواقف البريطانية من إنشاء مطرانيّة القدس البريطانيّة ــ البروسية المشتركة.

٣- قانون مطرانيّة القدس البريطانيّة ــ البروسية المشتركة ٦ تشرين الأول ١٨٤١م.

ثالثاً: مطرانيّة القدس البريطانيّة ــ البروسية المشتركة ودورها السّياسيّ والعلميّ والدينيّ بين عامي (١٨٤٢-١٨٧٨م):

١- مطرانيّة القدس البريطانيّة ــ البروسية المشتركة ودورها السّياسيّ والعلميّ والدينيّ بين عامي (١٨٤٢-١٨٤٥م).

٢- مطرانيّة القدس البريطانيّة ــ البروسية المشتركة ودورها السّياسيّ والعلميّ والدينيّ بين عامي (١٨٤٥- ١٨٥٣م).

٣- مطرانيّة القدس البريطانيّة ــ البروسية المشتركة ودورها السّياسيّ والعلميّ والدينيّ بين عامي (١٨٥٣- ١٨٧٨م):

أ- مدارس الأسقفية.

ب- جمعيات الإرسالية.

رابعاً: نتائج التّبشير في بلاد الشّام.

البعثات التّبشيرية البروتستانتيّة (البريطانيّة) وأثرها على السياسة البريطانية في بلاد الشّام بين عامي (١٧٩٩-١٨٧٨م):

يجد الباحث في الديانة المسيحية أن التبشير بالمسيحية واجب علـــى المســـيحيين، ويفرض عليهم القيام به في المجتمعات والبلاد التي لم تكن مسيحية، لكن إذا نظرنا إلى تاريخ التبشير المسيحي في البلاد العربية، بما فيها بلاد الشام، نجد أن المـــؤرخين قـــد اختلفوا في تحديد التاريخ الذي دخل المبشرون فيه إلى تلك البلاد، وتتلخص الآراء فيما يلي:

قيل: إن لويس التاسع[١](Louis IX) حاول تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلـــى حملات صليبية سلمية. وهناك رأي يقول:إن التبشير المسيحي بدأ في الربع الأول مـــن القرن الرابع عشرالميلادي، أما الرأي الثالث فيقول أصحابه: إن مراكز التبشير بـــدأت عملها في جزيرة مالطا في أواخر القرن السادس عشر، ثم انتقلت إلـــى بـــلاد الشـــام عام١٦٢٥م، وكان نشاطها في هذه المرحلة محدوداً[٢].

وهناك من يرى أن الولايات المتحدة الأمريكية أُسّست في عـــام ١٨١٠م جمعيـــة المجلس الأمريكي لمديري الإرسالية الخارجية ــ الأمريكان بورد (American Board Mission of Commissioners for foreign) وهي، أقدم جمعية إرسالية في الولايـــات المتحدة الأمريكية، وانخرطت في عضويتها عدة كنائس بروتستانتية أمريكيـــة. وفـــي عام ١٨١٩م أوفدت مُرسَلين للعمل في بلاد الشام، هما بلينـــي فيســـك (Pliny Fisk) وليفي بارسونس (Levy Parsons). وكانت مهمتهما الإقامة في القدس، والعمـــل علـــى التبشير بالمذهب البروتستانتي في الأوساط اليهودية والأرثوذكسية والمارونية، إلا أنهما لمسا جفاءً لا حد له، ما لبث أن انقلب إلى عداء بغيض واضطهاد شديد. مكـــث ليفـــي

---

(١) لويس التاسع Louis IX : ولد فى فرنسا في ٢٥ نيسان ١٢١٤م. ملك فرنسا من عام ١٢٢٦ م تحت وصـــاية أمـــه بلانكا دو كاستيا(Blanca de Castilla). ابن الملك لويس الثامن. حارب انجلترا و انتصر عليها. قاد الحمله الصـــليبيه السابعه على مصر(١٢٤٧ – ١٢٥٠م). فأسر في المنصورة عام ١٢٥٠ م، و جاء إلى عكا مع زوجته مرجريـــت دو بروفنس (Marguerite de Provence)، قاد الحمله الصليبيه الثامنه عام ١٢٧٠م، و نزل فى تونس، أصيب بالطاعون و توفى فى تونس في٢٥ آب ١٢٧٠م. اشتهر لويس التاسع بالورع و التقشف و الإيمان الكبير،حولـــه بابـــا الكاثوليـــك بونيفيس الثامن (Boniface VII) إلى قديس عام ١٢٩٧م بعد وفاته، فعرف باسم سانت لويس (القديس لويس). انظر: http://arz.wikipedia.org/wiki/%D9%84%D9

(٢) البساطي،أحمد سعد الدين: التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية، مكتبة الإيمان، القاهرة، ط١٩٨٩،١،ص١٦-١٨.

بارسونس في فلسطين حتى عام ١٨٢١م، ثم سافر إلى الجزر اليونانية ولَحِقَ بصديقه فيسك، وفي الفترة القصيرة التي قضياها في فلسطين قاما ببعض الاتصالات مع اليهود، والمسيحيين الأرثوذكس والموارنة، ووزّعا بسخاء نسخاً من الكتاب المقدس على الحجاج المسيحيين القادمين إلى فلسطين(١).

وقد حرصت بريطانيا على أن تحمي الإرساليات التبشرية البروتستانتية، سواء كانت هذه الإرساليات بريطانية أم أمريكية، أم ألمانية(٢).

بلغ النشاط التبشيري المسيحي في بلاد الشام أوجه في القرن التاسع عشر، بعد سيطرة محمد علي باشا عليها في عام١٨٣١م، حيث هيّأ المناخ المناسب لنمو الإرساليات التبشيرية المسيحية، فمنذ بداية دخوله إلى بلاد الشام وجه بياناً إلى السلطات المدنية والدينية في فلسطين يطلب منها رفع القيود عن المسيحيين واليهود، سواء كانوا مقيمين في البلاد أو الزوار الأجانب منهم(٣).

ونظراً إلى الدور الكبير الذي أدته الدول الأوروبية، وخصوصا بريطانيا، في فرض الانسحاب من بلاد الشام على محمد علي باشا، وإعادتها إلى الحكم العثماني، فقد زاد تبعاً لذلك تدخلها في شؤون الدولة العثمانية عامة، وفي بلاد الشام خاصة، ومما ساعدها على ذلك الضعف الذي أصاب الدولة العثمانية في المجالات الإدارية والاقتصادية والعسكرية والسياسية والمالية، وفي الواقع فإن الباب العالي أصدر فرمانات التنظيمات تحت ضغط الدول الأوروبية، وبينما كانت المصالح الاقتصادية والاستراتيجية تملي على دول أوروبا سياستها في بلاد الشام، فإنها وجدت في الأقليات الدينية وحقوقها المدنية الذريعة للتدخل في شؤون الحكم العثماني، في العاصمة العثمانية كما في الولايات(٤).

---

(١) رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز، ص٢٢٧.وانظر: كلداني، حنا سعيد: المرجع نفسه،ص٢٨٧-٢٨٨.

(٢) فروخ، عمر، وخالدي، مصطفى: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ط١٩٥٧،٢،ص١١٨.

(٣) رستم، أسد:الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا،كلية العلوم والآداب ، بيروت، ١٩٣٣م،ج١،ص٨٧-٨٩.

(٤) شوفاني، الياس: الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى سنة١٩٤٩م، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م. ص٢٧٩.

ولما كان التبشير في حقيقته الجوهرية مظهراً من مظاهر الصراع الأوروبي في إيجاد مرتكزات سياسية واقتصادية وقواعد اتصال وتواصل بين الدول الأوروبية والسكان المحليين في بلاد الشام عبر قناصل هذه الدول[١]، فقد كانت المصالح البريطانية لا تقل أهمية عن تلك الخاصة بالفرنسيين، إلا أنها لم تستند إلى فئة من السكان نظراً لضعف العنصر البروتستانتي في بلاد الشام، لذلك عملت بريطانيا على إيجاد طائفة بروتستانتية تستطيع من خلالها التدخل في الشؤون الداخلية في بلاد الشام[٢]، فامتطت التبشير لهذه الغاية، مما أدى إلى ازدهار الحركة التبشيرية في بلاد الشام في القرن التاسع عشر، علماً أن حركة التبشير البروتستانتية ظهرت في الأساس في ألمانيا في القرن السادس عشر، على إثر الحركة الإصلاحية التي قادها مارتن لوثر[٣] (١٤٨٣-١٥٤٦)، فعمّ التيار البروتستانتي الإصلاحي أوروبا. فالكنيسة البروتستانتية أصلاً كنيسة إصلاحية أوروبية، عالجت وبحثت في قضايا المجتمع والكنيسة في الغرب. ولم تُمثّل الكنيسة البروتستانتية في الدولة العثمانية تمثيلاً رسمياً، فلم تكن من ضمن الملل التي اعترفت بها الدولة العثمانية، وقد أمّ المرسلون من مختلف الكنائس البروتستانتية البلاد التابعة للدولة العثمانية، بما فيها بلاد الشام، بصفة شخصية،أو مبعوثين من بعض الجمعيات البروتستانتية الإرسالية. وفُقِدَ التنسيق بين مختلف التيارات البروتستانتية، التي توجهت إلى بلاد الشام[٤].

وكان النشاط البروتستانتي في بلاد الشام، محصوراً ومتعثراً، بسبب العقبات العديدة التي واجهته، وأولها وأهمها معارضة الحكومة العثمانية لهذا النشاط، والعراقيل الرسمية التي كانت تضعها في طريقه. غير أن سيطرة محمد علي باشا على بلاد الشام، وما تبعها من عوامل في القرن التاسع عشر ذكرت سابقاً، هيّأ المناخ المناسب

---

[١] زهر الدين، صالح: التبشير وأثرة في جبل لبنان، رسالة الجهاد، طرابلس، ليبيا، ط١، ١٩٨٦م، ص٢٩.

[٢] غنام، رياض: المقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر دراسة وثائقية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، بيسان، بيروت،لبنان، ط١، ٢٠٠٠م،ص٢٢٤.

[٣] مارتن لوثر: (Martin Luther) (١٤٨٣-١٥٤٦) راهب ألماني تزعم حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا،درس القانون ،ثم تحول عنه ودخل ديراً للرهبان الأوغسطينيين،وفي عام ١٥١٧ م احتج على البابا لبيعه صكوك الغفران ،وعلق على أبواب كنيسة القلعة القضايا الخمس والتسعين الشهيرة ،غضبت عليه سلطات الكنيسة ،وعندما تلقى قرار حرمانه من البابا أحرقه علانية ، ويعرف المذهب الديني المرتكز على تعاليمه باللوثرية .انظر :غربال،محمد شفيق : الموسوعة العربية الميسرة ، ج ٢ ، ص١٥٧١.

[٤] كلداني،حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٢٨٥.

لنمو الإرساليات المسيحية، وأسفر هذا المناخ المناسب على الصعيد البروتستانتي عن لَمِّ شمل الجمعيات البروتستانتية المختلفة، وتوحيد جهود الحكومتين والكنيستين البريطانية والبروسية، لتكوين أسقفية بروتستانتية مشتركة في القدس عام ١٨٤١م[١].

أولاً: الجمعيات البروتستانتيّة (البريطانيّة) ودورها السّياسيّ والثّقافيّ والدّينيّ في بلاد الشّام:

ساعدت النهضة الإنجيلية البروتستانتيّة[٢] التي شهدتها بريطانيا في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر على إيجاد أجواء من القناعة التامة بقرب حدوث الظهور الثاني للسيد المسيح، وعلى وجه الخصوص عدت الرواية البروتستانتية أن هذا الظهور سيكون أسهل إذا ما تم تنصير اليهود المقيمين في بلاد الشام، وكذلك اليهود المقيمين في الخارج، وتوطينهم في الأرض المقدسة فلسطين، وقد جرى تأطير هذه الحمى الدينية من خلال الجمعيات التبشيرية، ومن مظاهر التعبير عن ذلك، تأسيس جمعية التبشير الكنسي (C.M.S.). في ١٢ نيسان ١٧٩٩م. وكذلك الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود (جمعية لندن اليهودية). (London Society for Promoting the Jews Christianity amongst في ١٥ شباط ١٨٠٩م[٣].

١- جمعية المُرسلين الكنسية عام ١٧٩٩م (Church Missionary Society (C.M.S.):

أسّس القس الأنكليكاني كلافام سيكت (Calapham Sect) عام ١٧٩٩م جمعية المرسلين

---

(١) محافظة، علي: العلاقات الألمانية- الفلسطينية ، ص ٣٧-٣٨ .

(٢) البروتستانتية: اسم يطلق على بعض الطوائف والفرق المسيحية .وهي وليدة حركة الإصلاح الديني المعروفة في أوروبا، وكلمة البروتستانت كلمة لاتينية معناها المحتج، وقد استخدم لأول مرة عام ١٥٢٩م حينما احتج بعض الألمان على محاولة الكنيسة الكاثوليكية الحد من نشاط اللوثريين .ثم أطلق الاسم بعد ذلك على جميع الطوائف والفرق المسيحية التي اختلفت مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وخرجت عليها. يعيش معظم البروتستانت في أوروبا وأمريكا الشمالية. والبروتستانتية مذهب عدد من الدول بما في ذلك الدنمارك وبريطانيا والنروج والسويد .كما أن للبروتستانتية اثراً قوياً في التاريخ الثقافي والسياسي لتلك الدول. يشترك البروتستانت مع الكاثوليك والأرثوذكس في الاعتقاد بإله واحد ذي ثلاثة أشخاص يكونون جميعاً الثالوث: (الأب والابن والروح القدس)، لكنهم يختلفون عن كل من الكاثوليك والأرثوذكس فيما يختص بالعلاقة بين اللّه والإنسان، وقد أدى هذا بدوره إلى اختلافهم بشأن طبيعة الإيمان والفضل الإلهي وسلطة الكتاب المقدس. حيث يعارض البروتستانت معتقد الكاثوليك في الخلاص عن طريق الإيمان والعمل الصالح، ويركز البروتستانت على الإيمان-فحسب-طريقاً للخلاص. انظر:الموسوعة العربية العالمية، ج٤، ص٣٦٨ .

(٣) الحاج، بدر: المرجع نفسه، ص٥٥-٥٦.

الكنسية، فَعُدّت منذ تأسيسها جمعية تابعة للكنيسة الأنكليكانية[1]. وشعار الجمعية وهدفها نشر معرفة الإنجيل بين الوثنيين، ولذا عُرِفَت أيضاً باسم جمعيــة المُرســلين الكنســية لإفريقيا والشرق[2]. وأصبحت مالطا في عــام ١٨١٥م، مركــزاً لجمعيــة المرســلين الكنسية، ومنها انطلقت إلى بلاد الشام في عشرينيات القرن التاسع عشر، لعدة أســباب هي:

أ- حماسة مرسلي جمعية المرسلين الكنسية للاتصال بالكنائس الشــرقية وإطلاعها على التــعالــيم الإنجــيلية. وأشهرهم كليردو نــودي (Cleardo Nody)، وطرحــت الجمعية عدة اقتراحات للعمل في بلاد الشام، ونموذج الجمعية في نشاطها هــذا كــان مجمع نشر الإيمان.

ب- حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشــام (١٧٩٨-١٨٠١)م، وفضــل بريطانيا في التصدي لها، مما شجع المرسلين على اتباع خطــوات الجــنود، فصــار حــوض البــحر المتوسط منطقة نفوذ للمرسلين.

جــ- منافسة الكنيسة الكاثوليكية[3].

---

(١) الكنيسة الانكليكانية: وتسمى أيضاً الأسقفية، وقد كانت تابعة للكنيسة الكاثوليكية ثم انفصلت عنها سنة ١٥٣٤م، وقد مهــد لهذا الانفصال شخص يدعى "جون ويكلف" أما السبب المباشر فهو توبيخ البابا للملك هنري الثامن ملك إنجلترا، فــأعلن الانفصال رسمياً .هذه الكنيسة رفضت سلطة البابا على كنيستهم على أن تحتفظ بطابعها الكاثوليكي، والطقوس والتقاليــد القديمة بعد تنقيتها، وهذه الكنيسة نشأت أولاً في بريطانيا، ثم حملوها معهم إلى المستعمرات التي أنشأوها فــي أمريكــا، وكندا، وأستراليا.. حيث كان هنري الثامن قد تزوج من كاترين الأراغونية التي لم تلد له سوى ابنة واحدة هي مــاري التي أصبحت فيما بعد الملكة ماري تودور. والحال هذه، كان هنري الثامن يتمنى، من أجل استمرارية السلالة الحاكمة، أن يرزق بوريث أوعدة ورثة ذكور. لكن كاترين رفضت الإنفصال، مما سبب نزاعاً بين هنري الثــامن وابــن اخيــه شارلكان. بيد أن البابا كليمان السابع رفض الطلاق عام ١٥٢٩م. على الرغم من أنه كان يتساهل عند الضرورة. وبعــد تردد استمر طويلاً، قرر هنري الثامن الإنفصال عام ١٥٣١م، بعد حصوله على دعم الجامعات الإنكليزيــة والبرلمــان. وكردة فعل على قرار الفصل البابوي، يدعو الملك، في تشرين الثاني ١٥٣٤ م، على التصويت على مرسوم السيادة: لقد أصبح هنري الرئيس الأعلى للكنيسة في انكلترا واستأثر بكل السلطة فيما يتعلق. بالنظام فيها. على هذا الأساس يكــون الملك قد تحول إلى انفصالي .انظر: بيرنجيه، جان،وكونتامين، فيليب ودوران، ايف وراب، فرنسي، : موسوعة تــاريخ أوروبا العام ترجمة :وجيه البعيني، مراجعة أنطوان الهاشم، منشورات عويــدات، بيــروت-بــاريس، ط١، ١٩٩٥ م، ج٢(منــذ بدايــة القــرن الرابــع عشــر وحتــى نهايــة القــرن الثــامن عشــر)، ص٢٩١-٢٩٢. و انظرأيضــاً \mhtml:file://C:\Users\KHLEEL\Desktop: (مــــــــوجز تــــــــاريخ انشـــــــــقاق الكنائس).mht!http://www.ebnmaryam.com/vb/t9732.html.

(٢) كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٢٩١.

(٣) Tibawi. A. L, British Interests in Palestine.ibid, p 20-22

حيث عد أنصار هذه الكنيسة تمركز المبشرين البروتستانت وامتداد نفوذهم في بلاد الشام تحدياً لتاريخهم العريق، مما أذكى نار الخلاف بينهم، وعلى مرأى من الناس في كثير من الأحيان، وقد تجلى هذا الصراع في إحراق الكتب الدينية في الساحات العامة، كما حدث في دير القمر[١].

بعثت جمعية المرسلين الكنسية وليم جويت (William Jowett) من مالطا إلى بلاد الشام في أواخر العقد الثالث من القرن التاسع عشر، ليقوم بعدة جولات فيهـا، وكـان الغرض من جولاته هذه: "البحث عن أفضل الوسائل للتبـشـير بالمسـيحية مـن خـلال الكـنائـس الشـرقية فمـن مالطا، ترتب على جويـت أن يقـوم بالاتصـال بجميع الكنائس المسيحية، وأن يقوم جويت بزيارة الحكـام والقناصـل والشخصـيات الكنسية والرحّالة، والاتصال بهم لتكوين منظمات محلية، إنْ أمكـن، لتوزيـع الكتـب المقدسة، وأنْ يحضّر لإنشاء مطبعة في مالطا، ويدرس لغات الشرق. زار وليم جويت عدة مدن في بلاد الشام، وأحسن الأحبار الشرقيون استقباله، واستبشروا بقدومه خيراً، لكن إلى حين[٢]. حيث لقي مقاومة عنيفة من الأرثوذكس، اللذين رأوا فـي المرسـلين البروتستانت تهديداً خطيراً لوحدة كنائسهم، كذلك رأت فيهم الدولة العثمانية بوادر تسلل استعماري، بالإضافة إلى صفتهم التبشيرية، فقاوموهم[٣].

وخشي الموارنة والكاثوليك من أن يقبل أتباعهم على البروتسـتانتية، فاستصـدروا فرماناً، من الباب العالي، يمنع توزيع الكتب المقدسة في ولايات الدولة العثمانيـة بمـا فيها بلاد الشام[٤]. وهدد البطريرك الماروني بحرمان كل ماروني يتعاون مع المرسلين البروتستانت، بل عمل أكثر من ذلك، فعندما أعلن المعلم أسـعد الشـدياق[٥] اعتناقـه

---

(١) زهر الدين، صالح: المرجع نفسه، ص١٣.

(٢) كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٢٩٢ .

(٣) غرايبة، عبد الكريم: المرجع نفسه، ص١٢٣.

(٤) كلداني،حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٢٩٢.

(٥) أسعد الشدياق: هو الشقيق الأكبر لأحد رواد النهضة العربية أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤–١٨٧٧) بعد انتقال أسعد إلـى البروتستانتية دبر له بعض المتعصبين من أقربائه بالاشتراك مع بعض رجال الدين الموارنة المتزمتين مكيدة أدت إلـى إلقاء أسعد في السجن حيث مات فيه دون أي ذنب .انظر: ريجنكوف، م، سيميليانسكايا، أ:المصدر نفسه،ص٦٢.

المذهب البروتستانتي، استدعاه البطريرك ليرده إلى مارونيته، وبعد أن عجز عن ذلك سجنه حتى مات في سجنه[١].

واجهت جمعية المرسلين الكنسية البروتستانتية معارضة شديدة من جانب الكنيستين الأرثوذكسية[٢] والكاثوليكية، كما واجهت لا مبالاة السكان المحليين وعدائهم في بعض الأحيان، فقد حدث أول صدام مع الروم الأرثوذكس في السلط في نيسان ١٨٥١م، إذ ثارت الأكثرية الأرثوذكسية من مسيحيي المدينة على الأقلية البروتستانتية، فأغلقت المدرسة الإنجيلية البروتستانتية وطردت معلّمها. ووقع حادث العنف الثاني في الناصرة في شباط ١٨٥٢م، عندما هاجم الكاثوليك مدرسة جمعية المرسلين الكنسية البروتستانتية، وحطموا أثاثها، وجرحوا المبشرين الذين كانوا فيها. ووقع حادث العنف الثالث في مدينة نابلس حينما هاجم الروم الأرثوذكس دار الإرسالية التبشيرية البروتستانتية في تشرين الثاني١٨٥٣م، وطردوا المصلين من أتباعها[٣].

دخل عمل الجمعيات البروتستانتية في بلاد الشام طوراً جديداً بإنشاء الأسقفية البريطانية ــ البروسية المشتركة في القدس عام١٨٤١م، لتكون مركزاً بروتستانتياً لإصلاح الكنائس الشرقية عامة، ولتنصير اليهود خاصة[٤]، غير أن هذا التطور الجذري في الوجود البروتستانتي في فلسطين لم يتحقق بهمة الجمعيات وحدها، بل بدعم الحكومتين البريطانية والبروسية.

تضاءل نشاط جمعية المرسلين الكنسية البروتستانتية على أثر إنشاء أسقفية القدس المشتركة البروتستانتية، وتعيين أسقف في جبل طارق، وأجبرت الصعوبات المالية التي ألمت بالجمعية على بيع مطبعتها، إلا أنه في عام١٨٤٥م لاح في الأفق أمل جديد للجمعية، إذ صرح اللورد اشلي ايرل اوف شافتسبري (Earl of Shaftesbury) عن رغبته في تبني مشاريع الجمعية، ففتحت تحت رعايته الكلية البروتستانتية في مالطا لإعداد المرسلين من أهل البلاد للعمل في بلاد الشام، فعين صموئيل غوبات نائباً

---

(١) حتي، فيليب: المرجع نفسه، ص٥٥٣.

(٢) انظر الملاحق، وثيقة رقم (٢٣)،ص٢٩٨.

(٣) محافظة،علي: تاريخ الحركة الفكرية في عصر النهضة الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن،الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧ م،ص٤١.

(٤) فروخ، عمر،وخالدي، مصطفى:المرجع نفسه، ص١٨١.

لرئيس الكلية، وبعد شهر واحد من افتتاح الكلية عام ١٨٤٦م تلقى دعـوة مـن ملـك بروسيا لتسميته أسقفاً في القدس[١]. ومن الطبيعي أن تلقى جمعية المرسـلين الكنسـية البروتستانتية الدعم من غوبات الذي بدأ حياته الإرسالية بالعمل مع جمعية المرسـلين، ورأى فيها حليفة قوية، فعزم على استدعائها إلى بلاد الشام، وخطوة غوبات الجديـدة تتوافق مع ما أقرته الدولة العثمانية بحق اعتناق المسيحيين من رعاياها للبروتسـتانتية عام١٨٥٠م، وصدر فرمان بهذا الشأن مؤرخ في ٦ تشرين الثاني١٨٥٠م[٢].

تقاسمت الجمعيات البروتستانتية مناطق العمل والنفوذ في الشرق، فنالـت جمعيـة لندن اليهودية حصّتها في فلسطين. ولما بدأت جمعية المرسلين الكنسية البروتسـتانتية التابعة لبريطانيا عملها في بلاد الشام عام ١٨٥١م، رأت أنه من المناسب أن يصير إلى اتفاق ودّي على مناطق العمل. فجرى اتفاق بين البورد الأمريكي للكنيسة الجمهوريـة البروتستانتية، وجمعية التبشير للكنيسة الأسقفية البروتستانتية، أن يقتصر عمل مرسلي البورد على سوريا ولبنان، ويترك القسم الجنوبي، أي فلسطين، كمنطقة عمل لجمعيـة التبشير للكنيسة الأسقفية[٣].

وفي أيار١٨٥١م عقد ممثلو الجمعية مؤتمراً في القدس، برئاسة غوبات، وتقرر أن تعمل جمعية المرسلين الكنسية البروتستانتية في جنوب بلاد الشام (أي في فلسـطين). وتناسى هذا القرار جمعية لندن اليهودية، وأطلق العنان لجمعية المرسلين الكنسية لتفتح مدارسها ومراكزها في فلسطين والأردن.واستعملت الجمعية أساليب غوبات وغيره من المرسلين في التقرب من المواطنين عن طريـق توزيـع نسـخ الكتـاب المقـدس، والاجتماعات وقراءة الكتاب المقدس، وتقديم وجبـات الطعـام والملابـس للطـلاب، وخدمات طبية، ورواتب مغرية لموظفيها[٤].

كان لجمعية المرسلين البروتستانتية دور بارز في إنشاء المدارس البروتستانتية في جنوب بلاد الشام منذ عام١٨٥٠م، فقد أنشئت مدرسة صهيون الداخلية للصـبيان عـام

---

(١) كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣٣٤.

(٢) محافظة،علي: العلاقات الألمانية–الفلسطينية، ص٤٧.

(٣) كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٢٩٣.

(٤) المرجع نفسه، ص٣٤٧–٣٤٨.

١٨٥١م، ومدرسة يومية للبنات عام١٨٧٠م، ومدرسة صهيون الداخلية للشـــباب عـــام ١٨٧٥م[١].

كما أنشأت الجمعية مدارس مماثلة في بيت لحم، وبيت جالا، واللد، والرملة، ويافا، ونابلس، والسلط، وعجلون، وأربد وغيرها من المدن والقرى في جنوب بـــلاد الشـــام، وكان لهذه الجمعية أربع مدارس في غزة، إثنان للصبيان، وإثنان للبنات[٢].

٢- الجمعية اللندنية لنشـــر المســـيحية بـــين اليهـــود (جمعيـــة لنـــدن اليهوديـــة) (the Jews London Society for Promoting Christianity amongst):

انبثقت الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود، عن جمعيـــة لنـــدن الإرســـالية (London Missionary Society)، التي أسست عام ١٧٩٥م. وذلك بـــأن شـــرع أحـــد أعضاء هذه الجمعية وهو جوزيـــف صـــموئيل فـــري (Joseph Samuel Frey) عـــام ١٨٠١م بالعمل على هداية اليهود ودعوتهم إلى المسيحية[٣]. وأسفر عن تأسيس جمعية لندن اليهودية، والتي سميت أيضاً جمعية لندن لنشر المسيحية بـــين اليهـــود[٤]. وقـــد استقلّت عن الجمعية الأم عام ١٨٠٨م، وشرع أعضاؤها في ترجمة كتاب العهد الجديد (الإنجيل) إلى اللغة العبرية لتوزيعه في مراكزها المنتشرة في بريطانيـــا.وفـــي عـــام ١٨١٢م، طُرِحَت فكرة التبشير بين اليهود المقيمين خـــارج بريطانيـــا. وفـــي كـــانون الأول١٨١٢م أرسل كليردو نودي (Klirdo Noudi) رسالة إلى جمعية لندن اليهوديـــة يدعوها فيها إلى ممارسة نشاطها في الشرق. ولمّا وصل نودي إلى لندن، وكان مقيماً في مالطا، اقترح العمل على تبشير اليهود في الشرق بما في ذلك المقيمين فـــي بـــلاد الشام[٥].

ولم تكن فكرة نودي هي الأولى، فقد سبقه الكاتب البريطـــاني جيـــــمس بيشـــينو (James Bicheno) الذي نشر عام ١٨٠٠م كتاباً بعنوان: أزمة الأمـــم وبعـــث الأمـــة اليهودية (cRisis of All Nations Restoration of Jewish)،دعا فيه إلى تجميع يهـــود

---

(١) ياغي، عبد الرحمن: المرجع نفسه، ص٦٣.

(٢) محافظة،علي: تاريخ الحركة الفكرية في عصر النهضة، ص٣٩-٤٠.

(٣) كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٢٨٨.

(٤) محافظة،علي: تاريخ الحركة الفكرية في عصر النهضة، ص٢٠.

(٥) كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٢٨٨.

العالم في فلسطين، تحقيقاً للتنبؤات التوراتية، وسعياً إلى حل الأزمات التي تجتاح الدول المسيحية والدولة العثمانية[١]، وقد كتب جيمس بيشينوعام ١٨٠٠م: "فليستخدم حكّام هذه البلاد (بريطانيا) نفوذهم لدى الباب العالي كي يتخلى الأتراك (العثمانيون) عـن ذلـك الجزء من ممالكهم الذي طرد منه اليهود ويعيدونه إلى أصـحابه الشـرعيين. وبـذلك يؤدون عملاً لا مثيل له في سماحة النفس، ويعملون ما بوسعهم، على الأقل، للحيلولـة دون وقوع العواقب المتوقعة، والتي لو حدثت سوف، تكـون وخيمـة جـداً بالنسـبة لحكومتنا وتجارتنا[٢]. ولقيت آراء بيشينو صدى واسعاً في بريطانيا، وأعيدت طباعـة كتابه السابق الذكر عام ١٨٠٧م[٣].

وجدت هذه الفكرة استحساناً كبيراً فـي بريطانيا، ودعم ممثل جمعية المرسـلين الكنسية البروتستانتية في مالطا وليم جويت (William Jowett) فكرة نودي. وفي عـام ١٨٢٠م، أرسـلت جمعية لنـدن اليهوديـة الـقس السويسـري ملخيـور تشـودي (Melchoir Tschoudy) لزيارة بلاد الشام، وبدأ بـتعلّم اللغتـين العربيـة والعبريـة، والاطلاع على أحوال اليهود وتقاليدهم وعاداتهم[٤]. ولم تسفر مهمته الاستطلاعية عـن نتائج باهرة، لكنه مهّد الطـريق لغيره مـن مرسـلي جمعيـة لنـدن اليهوديـة وأهمهم جوزيف ولف (Joseph Wolf) ولم يأتِ ولف إلـى القـدس "ليبشـر اليهـود بالإنجيل، بل ليعرض على المسيحيين من مختلـف الكنـائس الاتصـال بالمسـيحيين البروتستانت البريطانيين، وذكر ولف أنّ عدد اليهود في القدس سبعمائة عائلـة، وهـم يتشوقون لكلمة الله، وقام جوزيف ولف بتوزيع نسخ من الإنجيل عليهم، وعمّـد أحـد اليهود، وغادر القدس إلى مصر في ٢٢ تشرين الأول ١٨٢٢م، بعد أن قضـى فيهـا أربعة أشهر. وعاد ولف إلى بلاد الشام في زيارة ثانية في ٢٥ نيسان ١٨٢٣م. وفـي تموز١٨٢٣م، زار مراكز تجمع اليهود والمسيحيين. ثم انطلق في رحلة طويلـة إلـى العراق. وفي عام ١٨٢٩م، عاد إلى بلاد الشام في زيارة ثالثة، لكنه وجد الأحوال قـد

---

(١) حجار، جوزيف: المرجع نفسه، ص٢٢٨.

(٢) ملف وثائق فلسطين مجموعة وثائق وأوراق خاصة بالقضية الفلسطينية من عام ٦٣٧ إلـى ١٩٤٩ م، وثيقـة رقـم١٠، ص٤١.

(٣) محافظة،علي: العلاقات الألمانية – الفلسطينية، ص٩٥.

(٤) Tibawi. A. L, British Interests in Palestine , p7

تغيّرت، والاستقبال اللطيف الذي حظي به من يهود بلاد الشام لم يجد منه شيئاً، "بل كان عليه أن يواجه مقاومة عنيفة من قبل اليهود والمسيحيين الأرثوذكس"[١].

تجدر الإشارة هنا إلى أن الطب كان من أهم وسائل وميادين المبشرين، عن طريق تقديم الخدمات الصحية، في إقامة المشافي والمستوصفات والعيادات الطبية التبشيرية[٢]. فقد جاء الطبيب المبشر جورج دالتون (George Dalton) إلى بلاد الشام في ١٦ كانون الأول ١٨٢٥م، لكنه توفي بعد شهر، ولم يفعل دالتون الكثير أو أي شيء يذكر، كغيره من المرسلين البروتستانت. وهو ما جاء إلى بلاد الشام إلا حباً بالتبشير لا بالتطبيب[٣].

ويعود سبب إخفاق المبشرين البروتستانت في بلاد الشام، إلى العقبات الكثيرة التي واجهتهم، وأهمها:

أ- معارضة الحكومة العثمانية للنشاط التبشيري والعراقيل الرسمية التي كانت تضعها في طريقهم[٤]. فقد صدر عام ١٨٤٤م فرمان عثماني يمنع استمرار وتداول الكتب الدينية المطبوعة في أوروبا، لأنها مصدر الخلاف والاضطراب والفتن بين صفوف الشعب[٥].

ب- أثارت الحركة التبشيرية البروتستانتية، منذ البداية خصومة الكنيسة المارونية، وقد بلغ قلق الكنيسة المارونية من ظهور المبشرين البريطانيين البروتستانت في بلاد الشام، إلى درجة أن البطريرك الماروني في جبل لبنان منع أتباعه من إرسال أولادهم إلى المدارس البروتستانتية، وأصدر أمراً بإحراق الأناجيل المضللة[٦]. على حد قوله.

جـ- حرص الفرنسيون على دعم الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية الموالية لهم، وخوض معارك عنيفة مع المرسلين البروتستانت التابعين لبريطانيا، فعقد

---

(١) كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٢٨٩.

(٢) البساطي،أحمد سعد الدين: المرجع نفسه ،ص٢٢١.

(٣) فروخ، عمر،وخالدي، مصطفى:المرجع نفسه،ص٦١.

(٤) محافظة،علي: العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص٣٧.

(٥) Tibawi. A. L, British Interests in Palestine , p10–

(٦) عتريسي، طلال: البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان ،د.ت،ط ،ص ١٦٧.

الفرنسيون مؤتمراً طائفياً لكافة الإرساليات والطوائف المعارضة للإرساليات الإنجيلية البروتستانتية البريطانية والأمريكية في عام ١٨٢٧م، واتخذ قرارات صارمة بحقهم.

د- رفض بشير الثاني تقديم أي ضمانات لهؤلاء المبشرين البروتستانت في صراعهم مع الإرساليات الكاثوليكية التابعة للفرنسيين[١].

أما جون نكلسون (John Nicolayson) فقد استطاع أن يحقق بعض النجاح في القدس، واستقرّ فيها، وعاصر إنشاء الأسقفية الأنكليكانية،زاول نشاطه طيلة عشر سنوات في القدس بين اليهود تحت إشراف جمعية لندن اليهودية[٢]، والتحق بجورج دالتون في القدس، وتزوج أرملته بعد وفاته، وقام بعدة رحلات في بلاد الشام زار خلالها بيروت ودمشق وطبريا وصفد. وحتى عام١٨٣٣م، لم تلقَ مشاريع نكلسون الإرسالية نجاحاً باهراً في الأوساط اليهودية[٣].

لكن سيطرة محمد علي باشا على بلاد الشام في عام١٨٣١م. ساهمت في إنجاح مشاريعه، فمنذ بداية الحملة المصرية وجه القائد العام لها بياناً إلى السلطات المدنية والدينية في بلاد الشام يطلب منهم رفع القيود عن المسيحيين واليهود، سواء كانوا مقيمين، أو زواراً أجانب[٤]. فطرح جون نكلسون عام ١٨٣٣م فكرة إنشاء كنيسة تكون بمثابة مكان عبادة ومركز تبشيري لليهود، وتمنّى الحصول على مطبعة يوزع إنتاجها الأدبي على اليهود، وسعى إلى فتح مدرسة لليهود تكون الألمانية لغة التدريس فيها[٥].

وفي عام ١٨٣٦م، سافر نكلسون إلى بريطانيا للعمل على تحقيق بعض مشاريعه، وعاد إلى فلسطين عام ١٨٣٧م، ولحق به أربعة يهود تنصروا ووضعوا أنفسهم في

---

(١) ضاهر، مسعود: المرجع نفسه. ص٢٩٧.

(٢) النعيمي، أحمد نوري: الدولة العثمانية واليهود، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط١،٢٠٠٦ م. ص٣٢.

(٣) Tibawi. A. L, British Interests in Palestine, p14

(٤) رستم، أسد: الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، ج١، ص٨٧-٨٩.

(٥) Tibawi. A. L, British Interests in Palestine, P14

خدمة إرساليته.ومنذ تلك الحقبة ازداد عدد مرسلي جمعية لندن اليهودية المنضمين إلى نكلسون في القدس[١].

وفي ٢٣ كانون الثاني ١٨٣٨م قام نكلسون بشراء قطعة أرض في جبل الزيتون لبناء هيكل عبادة أنكليكاني[٢] وهذا يعني أن مشروع القدس كان من الأهداف الرئيسة للجمعية اليهودية اللندنية، والتي تتضمن الحصول على قطعة أرض في القدس لبناء كنيسة عليها تلبية لحاجات اليهود الذين اعتنقوا المسيحية[٣]. وفي عام ١٨٣٩م عمّد أفراد عائلة روزنتال (Rosental) اليهودية، فَعَدّ عمله هذا إنجازاً باهراً .أرسى نكلسون في القدس قاعدة العمل الإنجيلي البروتستانتي، وفي بريطانيا ازدهرت جمعية لندن اليهودية وتعاظم نفوذها بانضمام عدد من الشخصيات الكنسية والسياسية إلى عضويتها، وغدت الجمعية جهازاً رئيساً في الكنيسة الأنكليكانية، وأخذ نكلسون ورفاقه يقيمون الصلاة يومياً باللغة العبرية في بيت استأجروه في القدس، ويوم الأحد تُقام الصلاة بالعبرية والإنكليزية والألمانية والعربية[٤]. وقادت الحرية التي تمتّع بها نكلسون إبان حكم محمد علي باشا لبلاد الشام، والدعم البريطاني له إلى منزلق خطير، حيث بدأ بحفر الأساسات على الأرض التي اشتراها في جبل الزيتون في ٢٣ كانون الثاني ١٨٣٨م، مخالفاً بذلك القوانين العثمانية[٥]. ورغم مساندة الحكومة البريطانية لطموحات نكلسون أوقف الباب العالي مشروعه. أمّا إنجازاته فقد شكلت القاعدة التي ستقوم عليها الأسقفية الأنكليكانية لاحقاً، واُنتخب الأسقف من جمعية لندن اليهودية، وشكّل نكلسون ورفاقه نواة الإكليروس الأنكليكاني البروتستانتي في القدس.

قاوم زعماء اليهود في الغرب سياسة جمعية لندن اليهودية، وشجّعوا الاستيطان اليهودي ــ اليهودي تجاه الاستيطان اليهودي ــ المسيحي. وتمّت هذه المقاومة بإنشاء مؤسّسات موازية للمؤسّسات البروتستانتية تحمي اليهود في فلسطين من الإغراءات

---

(١) كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٢٩١.
(٢) حجار،جزيف: المرجع نفسه، ص٢٢٨.
(٣) النعيمي، أحمد نوري: المرجع نفسه،ص٣٢.
(٤) كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٢٩١.
(٥) حجار، جوزيف: المرجع نفسه، ص٢٢٨.

السخية التي تقدمها الأسقفية. وعمل موسى مونتيفوري[1] ــــ أحــد زعمــاء اليهــود البارزين في بريطانيا ــ كي يحتفظ اليهود بعقيدتهم اليهودية وحمــايتهم مــن الدعايــة البروتستانتية، فبعد زيارة قام بها إلى بلاد الشام قبل جلاء محمد علــي باشــا عنهــا، ضغط موسى مونتيفوري على الحكومة البريطانية، لتدعم هجرة يهود أوروبا وشــراء الأراضي في فلسطين والاستيطان عليها، وعمل موســى مونتيفــوري علــى إنشــاء مؤسسات خيرية ومدارس لهم، وتعليم أبنائهم الصناعات المهنية، لكي تكوّن لهم أساساً اقتصادياً تجعلهم يقاومون محاولات إغرائهم وتنصيرهم[2].

وكرّست جمعية لندن اليهودية جهودها. في عهد الأسقف ألكسندر[3]، وبلــغ عــدد اليهود المتنصرين قبل عصر الأسقفية بضعة أشخاص، أما في عصر الأسقفية، فبلــغ أحياناً عدد المشتركين في صلاة الأحد أربعين يهودياً.

ولم ترحّب الأوساط اليهودية بدعوة ألكسندر، بل حرَمَت مَنْ تعامل معه[4]. أما في عهد الأسقف غوبات، فقد فقدت الجمعية دورها الأساسي في الأسقفية، لميل غوبــات

---

(١) موسى مونتيفوري: ولد عام١٧٨٤م في ليفورن (Livourne) ونجح في حياته كرجل أعمال يهودي. أصبح نبيلاً بسبب صلة النسب بأسرة روتشيلد في بريطانيا. انسحب في عام ١٨٢١ م من أعمال التجارة وكرس حياته للأعمال الخيريــة الاجتماعية المتعلقة باليهود، قام بعدة زيارات لفلسطين بين عامي(١٨٢٧–١٨٧٥ م). انظر: محافظــة،علي: العلاقــات الألمانية–الفلسطينية، المرجع نفسه،ص٩٦.

(٢) كلداني،حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣٢٩ ــ٣٣.

(٣) ألكسندر:ولد الكسندر عام ١٧٩٩م في بلدة شونلونكه(Schonlonke) في مقاطعة بوزنام (Poznam) من أعمال بروسيا، وانحدر من عائلة يهودية متدينة، فقد كان والده حاخاماً، وترعرع ألكسندر في كنف عائلتــه حســب أصــول الشــريعة الموسوية. وعن عمر يناهز ستة عشر عاماً امتهن ألكسندر التعليم، فدرّس العلوم التلمودية واللغة الألمانية. ولمّــا بلــغ العشرين من عمره سافر إلى بريطانيا، وكان اطلاعه على الدين المسيحي ضعيفاً، وفي بريطانيا عمل حاخاماً في مدينــة نورفيش ثم في بلايموث، وفي عام ١٨٢١م عقد قرانه على الآنسة دبوره ليفــي(Levi Deborah)اليهوديــة المتدينــة. احتكَّ ألكسندر بمبشري جمعية لندن اليهودية،). فأخذ يتردد على الكنيسة، فأقالته رئاسته من وظيفة الحاخام. وقَبِل َســر المعمودية عام ١٨٢٥م، وتبعته زوجه وأطفاله الستة بعد فترة وجيزة لنيل العماد. وكان تنصّر ألكسندر حديث الساعة في جمعية لندن اليهودية، وفي عام١٨٤١م، تمَّ انتخاب ألكسندر أُسقفاً للقدس، ونال السيامة الأسقفية يوم الأحــد ١١ / ١١ / ١٨٤١م في قصر ليمبث، مقر رؤساء أساقفة كنتربري، بوضع أيدي رئيس الأساقفة الدكتور هولي(Dr.Howley) فعلى مسيرة يوم عن القاهرة في الصحراء، وافته المنية دون سابق إنذار أو مرض في ليلة ٢٢ تشرين الثاني. وصُلي علــى رفاته في القاهرة، ثم نُقِلَ إلى القدس في ٦ كانون الأول فوصلها في العشرين منه، ودفن في المقبرة البريطانية.انظــر: حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣١١ ــ ٣١٢.

(٤) المرجع نفسه، ص٣١٩.

إلى جمعية المرسلين الكنسية، التي أعطت الأولوية للعمل بين المسيحيين العرب على حساب اليهود[١].

كان التنافس شديداً بين الإرساليات التبشيرية المسيحية، في إنشاء المدارس وخاصة في المدينة المقدسة، فقد بدأت الإرساليات التبشيرية البروتستانتية بإنشاء مدرسة الأبرشية للبنين (The Diocesan Boys school) عام ١٨٤٧م، التي تطورت بعد ذلك وأصبحت مدرستين، إحداهما للصبيان والأخرى للبنات. كما أنشأت مدرسة إعدادية للبنين وأخرى إعدادية للبنات تحمل الاسم نفسه إعدادية الأبرشية (The Diocesan Preparatory) وبعدها أنشئت مدرسة جمعية يهود لندن للبنين والبنات (The London Jewish socity School)[٢].

في أعقاب فتنة الشام عام١٨٦٠م، أنشئت مدرسة الأيتام السورية، وكانت تعلم اللغات، وبعض الحرف مثل صناعة الخزف والحدادة والنجارة وغيرها، وكان هدفها القيام بالدعاية الدينية، وتربية الأطفال المسيحيين الذين أصبحوا يتامى نتيجة حوادث عام١٨٦٠م[٣]. وأخيراً ينبغي ذكر الجمعية اللندنية للتطوير الاجتماعي والديني للنساء في بلاد الشام، والتي كان لها فروع في مناطق عديدة من بلاد الشام[٤]. حيث أدرك المبشرون مقام المرأة في الأسرة، فوجَّهوا اهتمامهم إلى التأثير عليها، وجعلوا يبشرون في مشافي النساء، وكذلك أرسلوا الطبيبات المبشرات إلى البيوت والقرى للاتصال مباشرة بالنساء واستخدام نفوذ المرأة في الوصول إلى أهدافهم، ولما جاء المبشرون إلى بلاد الشام كان العلم بين الرجال قليل الانتشار، أما بين النساء فكان أقل انتشاراً.وأدرك المبشرون أن هذه الحالة لا يمكن أن تدوم، وأن المرأة ذات أثر في التربية أكثر من الرجل، فأولوها اهتماماً عظيماً، وفتح المبشرون أول مدرسة للبنات في الدولة العثمانية عام١٨٣٠م، وكان اهتمام المبشرين بالمدارس الداخلية للبنات أشد، وقالوا: "أن التبشير يكون أشد حبكاً في مدارس البنات الداخلية، لما يكون فيها من الأحوال المؤاتية التي

---

[١] المرجع نفسه، ص٣٥٢.

[٢] محافظة،علي: العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص ٣٨-٣٩.

[٣] انظر الملاحق،وثيقة رقم(٢٤)،ص٢٩٩.

[٤] بانتيشينكوفا، مارينا: المرجع نفسه، ص٥٩-٦٠.

تجعل الصلة الشخصية بالطالبات أوثق، ولأنها تنزعهن من نفوذ حياة بيتية غير مسيحية"[١].

ثانياً: تأسيس مطرانيّة القدس البريطانيّة ــ البروسية المشتركة عام ١٨٤١م:

١- محادثات لندن بين بريطانيا وبروسيا لإنشاء الأسقفية في حزيران ١٨٤١م:

في صيف عام ١٨٤١م، وقبل أن تنتهي مفاوضات الدول الأوروبية الكبرى في لندن إلى وضع التسوية النهائية في بلاد الشام، أرسل ملك بروسيا فردريك وليم الرابع (Friedrich WilhelmIV)[٢] مستشاره البارون كريستيان شارل بنزون[٣] (ChristianCharles Bunsen) إلى بريطانيا لإجراء اتصالات مع المسؤلين في الحكومة البريطانية والكنيسة الأنكليكانية حول فكرة إنشاء أسقفية بروتستانتية مشتركة في القدس[٤]. وزوّد الملك فردريك مبعوثه الخاص بتعليمات حول مهمته، مؤرخة في ٨ حزيران ١٨٤١ م،عرضها بنزون على الحكومة البريطانية، وملخصها ما يلي:

أ- المستشار الدكتور بنزون مفوّض فوق العادة.

ب- يجري التنسيق بين الطرف البروسي والحكومة البريطانية، ورئيس الكنيسة الأنكليكانية رئيس أساقفة كنتربري، وأسقف لندن رئيس الإرساليات البريطانية الخارجية.

---

(١) فروخ، عمر ،و خالدي، مصطفى:المرجع نفسه،ص٦٤،٨٦-٨٧.

(٢) فردريك وليم الرابع(Friedrich Wilhelm IV) (١٧٩٥-١٨٦١ م): ملك بروسيا (١٨٤٠-١٨٦١م)، الذي حاول توحيد الولايات الألمانية تحت الحكم البروسي. كان ابن فريدريك وليم الثالث، ولد في برلين في ١٥ تشرين الأول ١٧٩٥م. أعطى مؤشرات على أن تصبح مملكته ليبرالية من خلال زيادة حرية الدين، وتخفيف الرقابة على الصحافة، وعندما اندلعت الثورة في بروسيا في آذار١٨٤٨م، انضم إلى مطالب شعبه في بدايتها، رفض التاج الإمبراطوري التي عرضت عليه من قبل البرلمان في فرانكفورت، عرف بكرهه للأنظمة الدستورية بعد أن تعرض لجلطات دماغية في عام١٨٥٧م، وأصبح في عام ١٨٥٨م مختلاً عقليا، فبقي تحت وصاية شقيقه، الذي وصل الى العرش عندما فريدريك وليم توفي في٢ كانون الثاني١٨٦١م.انظر: Microsoft ® Encarta ® 2009. © 1993-2008 Microsoft Corporation. All rights reserved.

(٣) كريستيان شارل بنزون (ChristianCharles Bunsen) :ابن جندي هولندي عاش في إمارة فالديك (waldeck)الألمانية. درس اللغات الكلاسيكية في جامعة غوتنجن، وفي معهد اللغات الشرقية في باريس. ثم التحق بالسلك السياسي البروسي حتى بلغ رتبة وزير مفوض في روما، وأصبح بعد ذلك مستشار لملك بروسيا. انظر: محافظة،علي: العلاقات الألمانية-الفلسطينية،ص٣٨.

(٤) المرجع نفسه، ص٣٨.

جـ- هل تقبل الكنيسة البريطانية التي تملك على جبل الزيتون داراً، وقد بدأت في بناء كنيسة في الموقع عينه، أن تمنح كنيستها الشقيقة، أي الكنيسة الإنجيلية البروتستانتية الوطنية البروسية، مركزاً أخوياً مماثلاً في الأرض المقدسة؟

د- اتحاد الكنيستين (البريطانيونية والبروسية) له تأثير على الشعور الوطني في كلا البلدين.

هـ- لن تستطيع البروتستانتية أن تحصل على اعتراف بوجودها في الشرق، وخاصة في الأرض المقدسة، وأن تنتشر وتثمر، إلاّ إذا قدّمت نفسها، وعملت في هذه البلاد ككيان واحد، أُسوة باليهودية والكنائس اللاتينية والرومية والأرمينية في الشرق. فإذا أراد المسيحيون البروتستانت المطالبة بالاعتراف بكنائسهم المختلفة بصورة منفردة، (أي الكنيسة الأنكليكانية والإنجيلية واللوثرية والإصلاحية...) فقد تتردد الحكومة العثمانية في تلبية طلبهم.

و- يميل بعض المسيحيين المحليين في أرمينيا وبيروت والقدس إلى اعتناق المذهب البروتستانتي، ويحول دون ذلك إخفاق المرسلين في حمايتهم. فالحكومة العثمانية لن تمنح الحماية والاعتراف لجماعات بروتستانتية متفرقة، بل لطائفة واحدة متحدة، وتتمتع الكنائس القديمة بهذا الامتياز، لأنها متحدة وتقوم على النظام الأسقفي المتّبع منذ العصر الرسولي. [١]

ز- الفرصة مواتية، لما لبريطانيا وبروسيا من صلات جيدة بالدولة العثمانية، للحصول على اعتراف بالكنيسة البروتستانتية، والسماح لها بالعمل بحرية أُسوة بالكنائس الأخرى. فلماذا لا نغتنم هذه الفرصة السانحة؟ سيقاضينا الرب والأجيال القادمة، فعلينا نبذ الخلافات والعمل على اتحادنا.

حـ - تعاني فلسطين من التعددية الطائفية والكنسية، أما نحن فعلينا أن نتقدم متحدين إلى فلسطين ونشهد لإيماننا المسيحي، ونمد أيادينا متصالحين متصافحين فوق مهد الفادي وقبره، وننسى خلافاتنا القديمة.

---

[١] كلداني،حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣٠١-٣٠٢.

ط- لا مانع لدينا أنْ يلتحق القساوسة البروسيون بالكنائس الأنكليكانية خارج بريطانيا، ويقبلوا السيامات[1] المطلوبة في الكنيسة الأنكليكانية.

ي- مركز الكنيسة الأنكليكانية في جبل الزيتون هو منطلق حركة الوحدة الإنجيلية (البروتستانتية)، والدولة العثمانية أرض محايدة نستطيع منها الانطلاق في حركة وحدوية بروتستانتية عامة.

ك- لا تتضمن هذه الوحدة ضياع استقلال كنيسة بروسيا أو التضحية به، فالوحدة لا تمنع التنوّع الذي جعله الله بين الشعوب واللغات. فكل أمّة لها ميزاتها وتاريخها ودورها الخاص في ملكوت الله، فالشعب البروسي مستعد للانضمام إلى هذه الوحدة مع الحفاظ على استقلاليته وخصائصه.

ل- نقطة الانطلاق باتجاه هذه الوحدة هي تكوين أسقفية في القدس، والمبادرة بيد الكنيسة الأنكليكانية، وستكون هذه الأسقفية نواة آمال كبيرة.

م- سيكون مقر الأسقفية في جبل الزيتون، وحدود صلاحيات الأسقف هي الأرض المقدسة.

ن- يسمح جلالة الملك للكنسيين البروسيين العاملين بين اليهود المتنصرين الناطقين بالألمانية الانضمام إلى الأسقفية وقبول السيامات الأنكليكانية.

لاقت مهمة بنزون تجاوباً إيجابياً في الأوساط البريطانية، وسارع بنزون إلى الاتصال بالشخصيات البريطانية وبأصدقائه،و كان على بنزون أنْ يفاوض في آن واحد الكنيسة والوزارة البريطانية، فقد تداخلت السلطتان بهذه القضية الدينية ـ السياسية، وكلتاهما مهتمتان بالنفوذ الروحي والاقتصادي والسياسي لبريطانيا[2].

شرع بونزن فور وصوله إلى لندن في ١٩ حزيران ١٨٤١م في التفاوض مع الحكومة البريطانية ورئيس أساقفة كانتربري الدكتور وليام هالي (DR .William Howley) وأسقف لندن الدكتور شارلز جاك بلومفيلد (Charles Jacges Blommfeld) بصفته المسؤول الأول عن الرهبان الأنجيليكان خارج بريطانيا، والأسقف الأول في بريطانيا بعد رئيس أساقفة كانتربري، دامت هذه المفاوضات حوالي عشرين يوماً،

---

(١) السيامات:الرسامات والإجراءات التي تتبع عند إسناد مهمة لرجل الدين وفق طقوس الكنيسة الأنكليكانية.

(٢) كلداني،حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣٠١-٣٠٢.

وانتهت بموافقة الحكومة البريطانية ورئيس أساقفة كانتربري على المقترحات البروسية من حيث المبدأ(١). وتوجت هذه المفاوضات باتفاق ملك بروسيا فريدرك الرابع وملكة بريطانيا فكتوريا عام ١٨٤١م على إيجاد كنيسة متحدة في القدس، تعترف لأسقف كانتربري بالسلطة العليا، ويتناوب البريطانيون والبروسيون إشغال مطرانيتها، ويساهم الملكان بدفع نفقاتها(٢). وأن يكون تعيين أول أسقف من قبل ملكة بريطانيا. وتعبيراً عن اهتمام ملك بروسيا بهذه الاتفاقية، تبرع بملغ قدره مئة ألف تال(٣) من ماله الخاص لوقفه على الأسقفية الجديدة، ووعد بتقديم الأرباح السنوية لهذا المبلغ في بداية كل عام لتغطي نصف الرواتب السنوية للقساوسة، أما بالنسبة إلى بريطانيا فقد طرحت اكتتاباً عاماً بمبلغ عشرين ألف جنيه استرليني، ودفعت جمعية يهود لندن ثلاثة آلاف جنيه منه(٤).

٢- المواقف البريطانية من إنشاء مطرانيّة القدس البريطانيّة ــ البروسية المشتركة:

عُرِفَ عن اللورد بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا لامبالاته بالأمور الدينية، فاستعان بخبرة اللورد اشلي (Eshly) المقرب من الجمعيات البريطانية.أما الأمر الذي دفع بالمرستون إلى تبنّي مشروع الأسقفية، فيعود إلى الاعتبارات السياسية والمالية والاقتصادية لتقوية نفوذ بريطانيا في بلاد الشام(٥). ومن أجل ذلك حثّ بالمرستون المفاوضين على الاسراع والتوصل إلى نتائج مُلزِمَة للطرفين المتفاوضين البريطاني والبروسي، "لئلا يُتيح لخليفته التراجع". فتمّ توقيع الاتفاق بين ممثلي الكنيسة الأنكليكانية ومبعوث ملك بروسيا في ٦ آب١٨٤١م، ورُفِعَ نص الاتفاقية إلى بالمرستون. وما هي إلاّ أيام، حتى سقطت حكومة بالمرستون(٦).

بعث بالمرستون رسالة إلى السفير البريطاني في الأستانة في أيلول ١٨٤١م، أبلغة بنتائج المباحثات التي دارت بين البارون كريستيان شارل بنزون، وبين رئيس أساقفة

---

(١) Tibawi. A. L, British Interests in Palestine , P46.

(٢) غرايبة،عبد الكريم: المرجع نفسه، ص١٢٣ .

(٣) يساوي التال الواحد خمسة عشر ألف جنيه استرليني آنذاك.

(٤) محافظة،علي: العلاقات الألمانية – الفلسطينية، ص٤٠.

(٥) حجار، جوزيف: المرجع نفسه، ص٢٣٥-٢٣٦.

(٦) كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣٠٣.

كانتربري ورئيس الوزراء البريطاني حول أسقفية القدس، وبيَّن لــه أنــه لا ضــرورة للحصول على أذن خاص من الباب العالي لهذه الغاية، باعتبار أن الأسقف الذي سيعين في القدس، سيتمتع بحق الإقامة في أي جزء من ولايات الدولة العثمانية، كأي مــواطن بريطاني وباعتبار أن النشاط التبشيري الذي سيمارسه لن يتناول المسلمين في الدولــة العثمانية[١].

وما هي إلاّ أيام، حتى سقطت حكومة بالمرستون بعد حجب الثقة عنهــا، وشــكّل المحافظون وزارتهم بزعامة السيد روبرت بيل[٢] (Robert Peel). ولــم تكــن هــذه الوزارة مؤيدة لأسقفية القدس كوزارة بالمرستون،وكاد المشروع أنْ يُهمَل لولا تــدخّل السلطات الكاثوليكية البريطانية غير الموفق ضد المشروع، مما أثــار بشــدة الملكــة فيكتوريا لصالح قيام الأسقفية في القدس، وإلاّ لكــان بكــل بســاطة أُهمــالَ تحقيــق المشروع[٣].

أيّدت ثلاثة تيارات في بريطانيا مشروع الأسقفية، وهي:

أ- معارضو الحركة الــتراكتارية[٤] (Tractarianism) الذين اتجهوا إلى التضامن مــع الكنائس البروتستانتية الأخرى، وتقوية الفكر البروتستانتي في الكنيسة الأنكليكانيــة تجاه التيار الكاثوليكي الذي مثله التراكتاريون.

ب- القساوسة في الكنيسة الأنكليكانية العليا، الذين رأوا في مبادرة ملك بروسيا فرصة سانحة لبسط النظام الأسقفي في الكنائس البروتستانتية البروسية.

جـ- الجماعات المهتمة بالقضية اليهودية وتنصير اليهود.

أما المعارضون، فقد كان نيومان (Newman) على رأس التركتاريين المعارضــين للمشروع. وعارض بعض رجال الكنيسة الأنكليكانية المشــروع مثــل ولــيم بــالمر

---

(١) –Tibawi. A. L, British Interests in Palestine ,P48.

(٢) روبرت بيل (Robert Peel): (١٧٨٨-١٨٥٠م) سياسي بريطاني رئيس الوزراء (١٨٣٤-١٨٣٥ م) و(١٨٤١-١٨٤٦ م) أحدث عدد من الإصلاحات. انظر: بعلبكي، منير: المرجع نفسه، ص٦٨.

(٣) كلداني،حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣٠٣.

(٤) الحركة التراكتارية: اتجاه لاهوتي في الكنيسة الأنكليكانية قاده بعض القسس واللاهوتيين من مؤسسي حركــة أكســفورد (0xford Movement) ١٨٣٣-١٨٤٥ م يدعو هذا التيار اللاهوتي إلى إحيــاء التــراث الكــاثوليكي فــي الكنيســة الأنكليكانية. وكلمة تراكتارية (Tractarianism) مشتقة من (Tract) أي بيان أو منشور، فقد أقدم أعضاء الحركة على إصدار بيانات، ومنشورات تدعو إلى العودة للجذور الكاثوليكية. انظر: كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣٠٤.

(William Palmer)، لأنه تعدٍ على صلاحيات الكنائس القائمة آنــذاك فــي فلســطين. واعتقد الأنكليكانيون المتزمتون ومنهم وليم بالمر أنّ التعاون مع الكنيسة اللوثرية خطــأ فادح. لأنّ الكنيسة البروسية لا يجوز عدّها كنيسة حقيقية، فإكليروسها مجموعــة مــن الوعاظ والرعاة ينتمون إلى لوثر وكالفن، وليس لهم جذور رسولية، فهم هراطقة[١].

٣- قانون مطرانيّة القدس البريطانيّة ــ البروسية المشتركة فــي ٦ تشــرين الأول ١٨٤١م:

لم تكن النيّات الطيبة المتبادلة بين رجال السياسة والدين في كــل مــن بريطانيــا وبروسيا كافية لإخراج الأسقفية الأنكليكانية إلى حيّز الوجود. فالمعنيون بأمر الأســقفية في بريطانيا بحاجة إلى صدور قانون في البرلمان البريطاني لتحقيق مشروعهم عمليــاً في فلسطين، إذْ إنّ رسامة أسقف في بريطانيا لا تتمّ إلاّ بعد الحصول علــى إذن مــن الملك، ثمّ مصادقته على تعيين الأسقف، وعلى الأسقف أنْ يؤدي قسم الــولاء للعــرش البريطاني. أما القانون الصادر عام ١٧٨٦م، فلم يعالج الحالة الــواردة فــي أســقفية القدس. فالقدس غير تابعة للتاج البريطاني، وليس فيها كنيسة أنكليكانية محليــة ترشــح أحد أبنائها للرسامة الأسقفية. والأسقف المتوقع لن يكون إذاً من أبنائها، بل بــالأحرى سيحمل الجنسية البريطانية، ولذلك حتى يتمكن رئيس أساقفة كنتربري من رسامة أحــد الرعايا البريطانيين يجب تعديل قانون عام ١٧٨٦م. فقدم رئــيس أســاقفة كنتربــري التماساً بهذا الشأن لتعديل القانون في ٣٠ آب ١٨٤١م إلى مجلس اللوردات. وفــي ٦ تشرين الأول صدر القانون بعد التصويت عليه في مجلس العموم.وقد عُــرِفَ القــانون بقانون أسقفية القدس، مع أن كلمة القدس لم ترد فيه[٢].

وفي أثناء ذلك سعت الهيئة الكنسية البريطانية إلى اختيار الرجل المناسب ليتــولى منصب مطران القــدس، وعــرض الأمــر علــى الدكتــور ألكســندر مــــاك كــــول(ALexandar MC Caul)، فاعتذر عن قبول المنصب وقال: أنــه يجــب أن يعتلي كرسي المطرانية أحد المنحدرين من نسل إبراهيم، ولقي هذا الاقتــراح صــدى

---

[١] المرجع نفسه، ص٣٠٤-٣٠٥.

[٢] المرجع نفسه، ص٣٠٦.

جيداً في نفوس كافة المسؤولين البريطانيين، فوقع الاختيار على المبشر ميشيل سلمون ألكسندر (Micheal silmon ALexandar)، وهو عضو في جمعية لندن اليهودية[١].

وحسب قانون أسقفية القدس الصادر في٦ تشرين الأول١٨٤١م، قدم رئيس أساقفة كنتربري التماساً إلى ملكة بريطانيا لإجازة الرسامة. فصدر الإذن الملكي في ٦ تشرين الثاني١٨٤١م، وأهم ما جاء فيه:

أ- يذكّر الإذن بالقانون الصادر عام١٧٨٦م، والمعدّل عام١٨٤١م.

ب- تمنح الملكة فيكتوريا الإذن بتكريس الأسقف لرئيس الأساقفة.

جـ- لا تنحصر حدود الأسقفية وممارسة سلطات الأسقف الروحية بالقدس، بل تشمل بلاد الشام والعراق ومصر والحبشة، وتحتفظ الملكة بحق تعديل هذه الحدود فيما بعد، إذا دعت الضرورة[٢].

حمل ألكسندر رسالة من رئيس أساقفة كنتربري موجهة إلى بطاركة الشرق وأساقفته، ثم نقل وأفراد أسرته ومرافقوه على البارجة البريطانية إلى بيروت، حيث توقفت لتأخذ القنصل البريطاني العام الكولونيل هاف روز (Hugh Rose)[٣] لمرافقة الأسقف إلى القدس، وأرست البارجة في يافا، ودخل الأسقف والقنصل العام البريطاني إلى القدس على رأس كوكبة من الفرسان في احتفال مهيب في٢١ كانون الثاني١٨٤٢م[٤].

ثالثاً: مطرانيّة القدس البريطانيّة ـ البروسية المشتركة ودورها السّياسيّ والعلميّ والدينيّ بين عامي (١٨٤٢- ١٨٧٨م):

١- مطرانيّة القدس البريطانيّة البروسية المشتركة ودورها السّياسيّ والعلميّ والدينيّ بين عامي (١٨٤٢-١٨٤٥م):

قاد الأسقف ميشيل سلمون ألكسندر مطرانية القدس في سنوات وجودها الأولى، كان همه منصباً، في بداية الأمر على بناء كنيسة أنجيلية (البروتستانتية) في المدينة

(١) Tibawi. A. L, British Interests in Palestine, P41.

(٢) كلداني،حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣٠٨.

(٣) محافظة،علي: العلاقات الألمانيةـ الفلسطينية، ص٤١.

(٤) غرايبة، عبد الكريم: المرجع نفسه، ص١٢٣.

المقدسة، غير أن السلطات المحلية قاومت بشدة كل مسعى في هذا الصدد، وأوقفته السلطات العثمانية، فبادر إلى بناء مسكن خاص به يمكن استعماله كنيسة مؤقتة، فأُوقِفَ العمل به أيضاً[١].

وجّه الأسقف ألكسندر دعوته إلى اليهود، وكرّست جمعية لندن اليهودية جهودها. وازداد عدد اليهود المتنصرين في عهده، ولم ترحّب الأوساط اليهودية بدعوة ألكسندر. وتكوّن الإكليروس الأنكليكاني من مرسلي الجمعيات المختلفة التي وجدت في فلسطين قبل إنشاء الأسقفية، والمرسلين الذين جاء بهم ألكسندر،أو التحقوا به فيما بعد. فوضع مرسلو جمعية لندن اليهودية أنفسهم تحت تصرف الأسقف[٢].

حَرِصَ ألكسندرعلى التعاون مع القنصل البريطاني للنظر في مسائل، كبناء كنيسة للأسقف، وانضمام اليهود إلى البروتستانتية، فقد أوقف العثمانيون مراراً مشروع بناء الكنيسة، مما جعل الأسقف ألكسندر يتوجه إلى القنصل يونغ (Yonng) فلم يجده متعاوناً، فرفع القضية إلى القنصل العام في بيروت الكولونيل روز (Rooz). فأبحر ألكسندر ويصحبه نكلسون إلى بيروت وفي جعبته هدفان:

١- الحصول على فرمان عثماني لبناء الكنيسة.

٢- الاعتراف بالبروتستانتية ملّة رسمية[٣].

حذّر روز الأسقف ألكسندر من خطورة وصعوبة تحقيق أهدافه. فقد يثير حفيظة الطائفة اليهودية والقنصل الروسي في القدس، وهي حامية اليهود من أصل روسي، لكن ألكسندر أصرّ على متابعة القضية أمام البرلمان البريطاني في ربيع عام ١٨٤٣م، وتبنى بالمرستون وبيل مواقف الأسقف.وأخيراً لم ينجح في مسعاه، إذ صدرت تعليمات إلى القنصل في القدس جاء فيها: "كن حذراً من بسط حمايتك على أولئك الأشخاص الذين قد ينضمون إلى رعية الأسقف ألكسندر، وعدّهم من التبعية البريطانية"[٤]. فتبنى

---

(١) –Tibawi. A. L, British Interests in Palestine , P61.

(٢) كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣١٩-٣٢١ .

(٣) الملة: جماعة تتألف من المواطنين المحليين لا من الأجانب خاضعة للباب العالي، لها ديانة محددة، ولاتنتمي إلى أصل عرقي واحد، وتكوّن وحدة سياسية اجتماعية مستقلة. انظر: كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص١٠.

(٤) Tibawi. A. L, British Interests in Palestine ,ibid P 70- 71.

كل من الأسقف والقناصل سياسة متناقضة، وتمسكت الحكومة البريطانية بسياستها، ولم تستجب لرغبات الأسقف.

أما بالنسبة لنشاط الأسقف ألكسندر خلال هذه السنوات، فقد تركز علـى الأوسـاط اليهودية في فلسطين، وبلغ عدد اليهود الذين تنصروا حتى وفاته واحداً وثلاثين فـرداً، وقد أنشأ لهم منزل المهتدين (The House of Converts) الذي أصبح بعد فتـرة كلّيـةً تسمى الكلّية العبرية (The Hebrw College) تم افتتاحها في أيـار ١٨٤٢م، وكانـت بمثابة مركز لتدريب أعضاء الإرسالية التبشيرية الأنكليكانية البروتستانتية، يعلم فيهـا اللاهوت واللغات الإنكليزية والألمانية والعبرية والحساب والموسيقى والترجمة[١].

وأنشأ الأسقف ألكسندر المدرسـة الصـناعية (The School of Industry) التـي افتتحت عام ١٨٤٣م، فكانت مأوى للمتنصرين الجدد، يتناولون فيـه الغـذاء الكامـل، ويقيمون فيه، ويتدربون على الحرف اليدوية مثل النجارة وحفر الخشـب والخياطـة، واشتهرت مدرسة الصناعة بتجليد الكتب، ونحت خشب الزيتـون وصـناعة الهـدايا التذكارية، التي كانت تُصَدَّر إلى بريطانيا. ولإعداد المرشحين للكلية العبرية والمدرسة الصناعية أسس الأسقف ألكسـندر منـزل المبتـدئين (The Enguirers House) عـام ١٨٤٣م، ليتلقوا فيه التعليم الديني والتدريب الأولي على الحرف، وكـان المرشـحون يقيمون في هذا المنزل، ويتناولون الطعام فيه، وأوجد ألكسندر مخزناً للكتاب المقـدس من أجل توزيعه باللغات العربية والعبرية واليونانية والإنكليزية والألمانية. كمـا أنشـأ مركزاً للخدمة الطبية يحتوي على عيادة صغيرة وصيدلية[٢].

أما بالنسبة لبناء الكنيسة، فسعت الحكومة البريطانية بكل جديـة للحصـول علـى فرمان بنائها وتلبية أمنية الأسقف، وقد صارت هيبة التاج البريطاني في الميزان أمـام المواطنين في فلسطين. فحصلت بريطانيا على فرمان يتيح بناء مكان عبادة في أيلـول ١٨٤٥م، ففسّر الحاكم العثماني في فلسطين عبارة مكان عبادة بأنه إذن بناء مكان عبادة تابع للقنصلية، وليس كنيسة رسمية راعوية كالتي باشر الأنكليكان ببنائهـا منـذ أيـام نكلسون. فكان على السفير البريطاني في الأستانة أن يقوم بجولة جديدة من المفاوضات

---

(١) محافظة،علي: العلاقات الألمانية–الفلسطينية، ص٤٢.

(٢) –Tibawi. A. L, British Interests in Palestine ,P75 -76.

وتفسير العبارات وتحليلها، وحصل أخيراً على ترخيص بناء الكنيسة، التي لـم يفـرح ألكسندر بإقامة الصلاة فيها، إذ وافته المنية في ١٨٤٥/١١/٢٢م، فيكون ألكسندر بذلك قد ترأس الأسقفية الأنكليكانية مدة أربع سنوات، أرسـى خلالهـا قواعـد المؤسسـات الأنكليكانية في فلسطين[١].

٢- مطرانيّة القدس البريطانيّة البروسية المشـتركة ودورهـا السّياسـيّ والعلمـيّ والدينيّ١٨٤٥-١٨٥٣م:

بعد وفاة الأسقف ميشيل سلمون ألكسندر عام ١٨٤٥م، أشرف على إدارة شـؤون الأسقفية نكلسون، ودامت فترة إشرافه حوالي سنة، من ٢٢ تشرين الثاني ١٨٤٥م، إلى ٣٠ كانون الأول ١٨٤٦م[٢]. لكن بوفاة الأسقف الكسندر صار لبروسيا الحق بتعيـين خليفة له حسب الأتفاق الموقع عام ١٨٤١م بين بريطانيا وبروسيا، فاختار ملك بروسيا فريدريك الرابع في آذار ١٨٤٦م المرسل صموئيل غوبات، الذي كان يشـغل آنـذاك منصب نائب مدير الكلية البروتستانتية في مالطا، ووُسِّمَ غوبات مطراناً للقـدس فـي بريطانيا في احتفال ديني مهيب، ونُقل كسلفه ببارجة بريطانية من الأسطول البريطاني، إلى فلسطين، فوصل إلى القدس في ٣٠ كانون الأول ١٨٤٦[٣]م.

دخلت أسقفية القدس عهداّ جديداً بتسلم غوبات مهام منصبه، فزاد نفوذ القساوسـة الألمان على حساب البريطانيين، وتحول غوبات من هداية اليهود للمسيحية إلى نشـر البروتستانتية بين المسيحيين المحليين الـذين ينتمـون إلـى الكنيسـتين الكاثوليكيـة والأرثوذكسية، وشملت صلاحيات غوبات الأسقفية مناطق شاسعة، وتابع سير العمـل الإرسالي في بلاد الشام ومصر والحبشة، وهي المناطق التي عمل بهـا سـابقاً. لكـن سيقتصر البحث على الحديث عن بلاد الشام التي وصل إليها الأسقف الجديد الذي لم ير في منصبه تمثيلاً للكنيسة الأنكليكانية لدى الطوائف الشرقية، بل أسـقفاً محليـاً زاحـم

---

[١] كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص ٣٢٤ .

[٢] المرجع نفسه، ص٣٣٥ .

[٣] Tibawi. A. L, British Interests in Palestine,P88 - وانظـر أيضـاً:محافظـة،علي: العلاقـات الألمانيـة-الفلسطينية، ص٤٣-٤٤ .

الكنائس القديمة على أمتيازاتها وصلاحياتها الروحية، فأحدث بذلك تغييراً جذرياً في هدف إنشاء الأسقفية في القدس[١].

بدأ غوبات خطته بإنشاء مدارس الكتاب المقدس لأطفال اليهود والمسيحيين والمسلمين، وركز جهوده على إنشاء المدارس لأبناء العرب في بلاد الشام، وخاصة في جنوبه، واعترضته عقبات عديدة في تنفيذ حطته، إذ وجد نفسه في صراع مع كنيسة الروم الأرثوذكس، والكنيسة الكاثوليكية. والطائفة اليهودية، والسلطات المدنية والدينية الإسلامية، وجمعية يهود لندن التبشيرية، والقنصل البريطاني[٢].

أبدى بطريرك الروم الأرثوذكس والإكليروس التابع له بروداً نحو غوبات منذ وصوله إلى القدس، حتى أنهم لم يبادلوه المجاملات الاعتيادية، وكان إكليروس هذه الكنيسة من اليونان، أما رعاياها فمن العرب سكان البلاد الأصليين، واتخذ الإكليروس اليوناني كافة الاحتياطات للحيلولة دون وصول أي عربي إلى مركز ديني مرموق، لذلك نشأ مع الزمن نفور شديد بين الإكليروس اليوناني وبين الرعايا العرب، ولذلك كانت الطائفة الأرثوذكسية مرتعاً خصباً للنشاط التبشيري البروتستانتي[٣].

لكن الكنيسة الأرثوذكسية ردت بعنف على التبشير الإنجيلي (البروتستانتي)، فحدث الصدام الأول بين الأرثوذكس والإرسالية الإنجيلية في السلط في نيسان ١٨٥١م، إذ ثارت الأكثرية الأرثوذكسية من مسيحي المدينة على الأقلية البروتستانتية، فأُغلقت المدرسة الإنجيلية، وطردت معلمها، وحصل حادث أخر في مدينة نابلس حينما هاجم الروم الأرثوذكس الإرسالية في تشرين الثاني ١٨٥٣م، وطردوا المصلين من أتباعها[٤].

ازعج نشاط غوبات داخل الطائفة الأرثوذكسية القنصل الروسي بازيلي، فراح يكيل التهم لبريطانيا والمرسلين الإنجيليين، الذين تمكنوا من أن يخرجوا الناس عن دينهم، ويجعلوهم يعتنقون البروتستانتية عن طريق دفع الأتاوات والإعانات النقدية، وعلى حد قول بازيلي: "إن هؤلاء المبشرين لم يحرزوا أي نجاح غير الخلافات في عائلات

---

(١) كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣٣٣-٣٣٦.

(٢) - Tibawi. A. L, British Interests in Palestine , P90

(٣) محافظة،علي: العلاقات الألمانية-الفلسطينية، ص٤٥.

(٤) محافظة،علي: تاريخ الحركة الفكرية في عصر النهضة، ص ٤١ .

الطوائف المسيحية الأخرى،...... احتفلوا بإدخال زائف لما يفوق علـــى مئـــة أســـرة أرثوذكسية في ملتهم، صحيح أن هذه الأسر توقفت عن زيارة كنيســـتها،........ لكـــن كانوا يؤدون خفية عن معلميهم كل طقوس دين أبائهم"[١].

ولاقى غوبات مقاومة عنيفة من الكاثوليك الذين جمعوا الكتب المقدسة ومنشـــورات الإنجيليين (البروتستانت)، واحرقوها علناً في احتفال كبيـــر، وحتـــى بلـــغ بالرهبـــان الكاثوليك عدائهم للإنجيليين بأن لفتوا نظر الناس أثناء حرق الكتب إلى الشياطين التـــي تطايرت مع شرر النار حسب زعمهم[٢].

أما في الأوساط اليهودية، فكانت حصيلة أعمال غوبات محدودة جـــداً، وتعـــرض لهجوم شديد من الطائفة اليهودية التي اتهمته بكراهية اليهود، وكذلك قاومتـــه جمعيـــة يهود لندن التي تراجع نشاطها التبشيري بين اليهود، بسبب منافسته لها[٣].

أما عن طبيعة العلاقة بين غوبات وبريطانيا، فقد نصح غوبات بعد تسلمه مهامـــه في القدس الحكومة البريطانية بالتعامل مع سكان بلاد الشام على أساس طائفي، ولـــيس كأمة واحدة، وشجع الحكومة على تبني القضية البروتستانتية في المشرق، كما يراهـــا هو أرضاً صلبة يمكن لبريطانيا أن تبني عليها نفوذها في الدولة العثمانية وولاياتها بما فيها بلاد الشام[٤]. فأغاظت تصرفات غوبات ونشاطه التبشيري القنصـــل البريطـــاني روز بسبب استعداء كافة الطوائف المسيحية في بلاد الشـــام، فـــاعترض[٥]. رغـــم أن القنصل روز كان له نشاط تبشيري ديني، لكن ليس بين الطوائف المسيحية، وإنما كان يمارس نشاطه التبشيري في أوساط الموحدين (الـــدروز)، ويقـــول أحـــد معاصـــري الكولونيل روز: "إن نشاطه في الحقل الدرزي لم تكن أســـبابه سياســـية فحســـب، وإن بعضها كان دينياً، ذلك أن تبشير الإنجيليين في لبنان كان لابد له من حمايـــة شـــعبية، وخصوصاً في الشوف والمتن وراشيا وحاصبيا". وبالفعل فـــإن الموحـــدين (الـــدروز) قدموا للإرساليات البروتستانتية في هذه المناطق مساعدات قيمة، إذ مكنوها من الإقامة

---

(١) بازيلي، قسطنطين: المصدر نفسه ، ص٣٤١-٣٤٢ .

(٢) غرايبة، عبد الكريم: المرجع نفسه، ص١٢٤.

(٣) محافظة،علي: العلاقات الألمانية-الفلسطينية، ص٤٧.

(٤) كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣٤٣.

(٥) Tibawi. A. L, British Interests in Palestine, p193.

فيها على الرحب، وفتح مدارس تبشيرية دون مضايقات، وكانت هذه الإرساليات علـــى اتفاق مع الكولونيل روز لكسب الموحدين (الدروز). وجعلهم يعتنقون البروتستانتية[١]. وفي ١٣ أيلول ١٨٤٨م، أشارت الخارجية البريطانية على غوبات عن طريق قنصـــلها في القدس إلى ما يلي: "على الأسقف الأنكليكاني أن يمتنع عن التـــدخل فـــي اعتقـــاد المسيحيين المحليين"[٢].

أحرج غوبات رئاسة الكنيسة الأنكليكانية في بريطانيا لتحرشه بالكنائس الشـــرقية، فقد أسست أسقفية القدس لهداية اليهود وليس المسيحيين المحليين، والكنيسة الأنكليكانية تكن الاحترام والتقدير لهذه الكنائس، وتسعى إلى قيام علاقات ودية معها، أما غوبـــات فقد استثمر سنواته الأولى في بلاد الشام لإنشاء مدارس إرسالية، وتكوين شبه رعايـــا انكليكانية من أبناء الكنائس الشرقية[٣]. وعلى الرغم من المقاومة العنيفة التي واجههـــا غوبات، فقد استطاع أن يبسط حمايته على أفراد الطائفة البروتستانتية، كما استمر فـــي فتح المدارس حتى بلغ عددها ٢٥ مدرسة، وتضم ألف طالب[٤].

انطلق غوبات من القدس إلى الأرياف والمـــدن يؤســـس ويقـــيم نـــواة الطوائـــف البروتستانتية، ففتح المدرسة الرعوية في القدس عام ١٨٤٧م، وفتح فـــي ١٠ تشـــرين الثاني ١٨٤٧م مدارس الدياكونـــيس (Diakenissen Schoole)، ومدرسة مماثلة فـــي نابلس في ١٠ أيلول ١٨٤٨م[٥]. واشترت الكنيسة مقبرة على جبـــل الزيتـــون، وتـــابع غوبات نشاطه في نابلس والسلط وغيرها من المدن. وتؤكّد إحصـــائية هشـــلر لعـــام ١٨٥٢م نمو الكنيسة الأنكليكانية وازدهارها في عهد غوبات، كما هو مبين في الجدول التالي[٦]:

---

(١) إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٣،ص٢٩.

(٢) Tibawi. A. L, British Interests in Palestine .P96

(٣) كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣٤٤.

(٤) محافظة،علي: العلاقات الألمانيةــ الفلسطينية، ص٤٦.

(٥) –Tibawi. A. L: British Interests in Palestine,P 93

(٦) كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣٤١-٣٤٢ .

العدد	الصنف
٥	المبشرون الأوروبيون
٦	– المعاونون العلمانيون الأوروبيون
٩	– المعلمون اليهود والعرب
١٣١	– الطائفة العربية واليهودية
٣٤	– متناولو الشركة الأفخارستيا
٣	– المـــــــدارس
٢٩١	– الطـــــــــلاب
٤	الكادر الطبي (المستوصف والمشفى)
٤٥٧	– نزلاء المشفى
٥١١٣	مرضى العيادة الخارجية
٢٧١٣	– معاينة المرضى في البيوت

واصل غوبات جهوده من أجل بناء كنيسة أنجيليكانية في القدس، فـتم لــه ذلــك ودشنها في ٢١ كانون الثاني ١٨٤٩م. غير أن النصر المهم الذي حققه غوبـــات هـــو اعتراف الحكومة العثمانية بحق اعتناق المسيحيين من رعاياها للمذهب للبروتســتانتي بعد أن اعترفت الدولة العثمانية في عام١٨٥٠م بالطائفة البروتستانتية كملة من الملــل المسيحية داخل الدولة[١]. وصدر فرمان بهذا الشأن في ٦ تشرين الثاني١٨٥٠م، أتـــاح المجال للمسيحيين من الطوائف الأخرى اعتناق المذهب البروتستانتي، وتحرروا مـــن الخوف والعقوبات المختلفة التي كانت تهددهم بها كنائسهم[٢].

٣– مطرانيّة القدس البريطانيّة ــ البروسية المشتركة ودورها السّياســيّ والعلمــيّ والدينيّ بين عامي (١٨٥٣–١٨٧٨م):

دخلت بريطانيا وفرنسا في حرب القرم إلى جانب الدولة العثمانية ضـــد روســـيا. ودارت رحى هذه الحرب في شبه جزيرة القرم، ومن وجهة نظر البروتستانتية في بلاد

(١) محافظة،علي: العلاقات الألمانية – الفلسطينية، ص٢١.

(٢) –Tibawi. A. L: British Interests in Palestine,P 104

الشام، فإن احتمال انتصار روسيا سيشكل ضربة للوجود البروتستانتي في المشرق العربي، أما انتصار الدولة العثمانية بمساعدة حلفائها فسيكون انتصاراً للبروتستانتية ومزيداً من الحرية الدينية لها[١]. وانتصر الحلفاء في حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)م، فتركت هذه الحرب آثاراً إيجابيةً على الحركة التبشيرية البروتستانتية في بلاد الشام، فقد صدر خط همايون في ٢٦ كانون الثاني ١٨٥٦م. فكان انتصاراً للبروتستانتية ومزيداً من الحرية الدينية، جعلت الأسقف غوبات يقرع أجراس إرسالية نابلس في ٣٠ آذار ١٨٥٦م، ويرفع على مبناها الأعلام البريطانية. وكانت حصيلة هذه الحقبة من تاريخ أسقفية القدس، اتجاه الأسقفية إلى المسيحيين العرب على حساب هداية اليهود إلى المسيحية. وصارت البروتستانتية ملّة أسوة بغيرها من الملل المسيحية. وظهرت جمعيات جديدة للعمل في الأسقفية على حساب جمعية لندن اليهودية، واستقلّ غوبات مالياً باعتماده على عدة مصادر لتمويله: كالهبات الفردية، وصناديق التمويل البريطانية، وأهمها صندوق أبرشيَّة القدس الإرسالي(Jerusalem Diocesan Missionary Fund)، الذي أُسّس في بريطانيا عام ١٨٥٢م لتمويل مشاريع الأسقفية[٢].

في عام ١٨٥٦م أنشأ غوبات مدرستين في القدس الأولى للصبيان، وتضم ٤١ صبياً، والثانية للبنات وتضم ٤٤ بنتاً، ومدرسة في بيت لحم، ومدرسة في نابلس تضم ستين صبياً وأربع بنات، ومدرستين في يافا، إحداهما للصبيان، وتضم ٢٨ صبياً، والأخرى للبنات، وتضم ٥٣ بنتاً . وبلغ مجموع التلاميذ في هذه المدارس ٢٦٠ تلميذاً. وفتح غوبات مدارس الكتاب المقدس في بيت لحم وبيت جالا واللد والرملة ويافا ونابلس والسلط وغيرها، وكان معظمها بمعلم واحد، وتراوح عدد تلاميذها بين عشرة وخمسة عشر تلميذاً[٣].

خلال هذه الفترة ازداد عدد المدارس، وهي على نوعين: النوع الأول، يتبع مباشرة للأسقف، والثاني، مدارس خاصة بالجمعيات تحت إشراف الأسقف، وهذه الجمعيات بريطانية وألمانية وأمريكية.

---

(١) كلداني،حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣٤٩.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٥٠.

(٣) محافظة،علي: العلاقات الألمانية-الفلسطينية، ص٤٩.

أ- مدارس الأسقفية:

بلغ عدد مدارس الأسقفية في القدس عام ١٨٦٠م سبع مدارس هي:

- المدرسة الراعوية الإبتدائية ــ ذكور.
- المدرسة الراعوية الإبتدائية ــ إناث.
- المدرسة الراعوية الإعدادية – ذكور.
- المدرسة الراعوية الإعدادية – إناث.
- مدرسة الشمّاسات الألمانيات ــ إناث.
- مدرسة جمعية لندن اليهودية ــ ذكور.
- مدرسة جمعية لندن اليهودية ــ إناث.

أمّا المدارس الأربع الأولى، فعبارة عن مدرسة واحدة، وهي التي أُسِّسَت عام ١٨٤٧م، لكنها قُسّمت إلى أربعة فروع، والمدرستان الأخيرتان في الواقع هما مدرسة واحدة بفرعين. أمّا خارج القدس فمن الصعب حصر عدد المدارس لتعدد حالات إغلاقها وفتحها لعدم تمكن غوبات من تمويلها أو لمعارضة السلطات العثمانية على قيامها، وأهمّ المدارس التي استمرت في تأدية خدماتها هي مدارس: بيت لحم، وبيت جالا، واللد، والرملة، ويافا، ونابلس، ورفيديا، والزبابدة، وبرقين، وشفا عمرو، والسلط. وتراوح عدد طلاب هذه المدارس عادة بين ١٠–٥٠ طالباً. وقام شخص واحد بدور المدير والمعلم، وهذه المدارس عادة للذكور، وليست للإناث. وقد تحوّلت بعض مدارس غوبات ومدارس الجمعيات لفترة قصيرة إلى مياتم وملاجىء للأطفال اللبنانيين على أثر أحداث لبنان عام ١٨٦٠م. وبدأ العمل في بناء كنيسة الناصرة عام ١٨٦٢م، ودشّنها غوبات في الأول من تشرين الأول ١٨٧١م(١).

اتصف التعليم في المدارس البروتستانتية بتدني مستوى المعلمين الأكاديمي والمهني، واضطر الأسقف غوبات إلى التخلي عن معظم هذه المدارس لمؤسسات تبشيرية بريطانية وألمانية، بسبب العجز المالي الذي كانت تعاني منه(٢). ففي عام ١٨٧١م، تنازل غوبات عن مدارسه للجمعيات البروتستانتية العاملة في الأسقفية،

---

(١) –Tibawi. A. L: British Interests in Palestine,P158

(٢) محافظة،علي: العلاقات الألمانية–الفلسطينية، ص٤٩.

ليخفف العبء المالي الذي ترتب عليه: فتنازل عام ١٨٧١م عن مدرستي بيت لحم وبيت جالا لجمعية برلين الإرسالية، وتنازل عام ١٨٧٣م عن مدرستي شفا عمرو والسلط لجمعية المرسلين الكنسية، وفي عام ١٨٧٦م تنازل عن بقية مدارسه لهذه الجمعية، لكنه احتفظ بمدرسة القدس الراعوية بفروعها الأربعة، ثم تنازل أخيراً عن الإشراف عليها لجمعية المرسلين الكنسية عام ١٨٧٧م، وكانت أفضل مدارسه وأقربها إلى قلبه[١].

ب- الجمعيات الإرسالية العاملة في الأسقفية:

تعدُّ جمعية لندن اليهودية أقدم الجمعيات الإرسالية في فلسطين، وفي عصر غوبات فقدت الجمعية دورها الأساسي في الأسقفية لميل غوبات إلى جمعية المرسلين الكنسية، وفيما يأتي أهم الجمعيات البريطانية الإرسالية العاملة في الأسقفية:

- جمعية المرسلين الكنسية: كان لجمعية المرسلين الكنسية ثلاثة أهداف مرحلية مترابطة هي: أولاً افتتاح المدارس، ويؤدي إلى الهدف الثاني وهو نشر الروح الإنجيلية في الكنيسة الأرثوذكسية لتقوم بدورها في تنوير الشرق وهذا الهدف الثالث. وقد نجحت الجمعية في تحقيق هدفها الأول نجاحاً جيداً، وفي الهدف الثاني نجاحاً متوسطاً، بينما أخفقت في تحقيق الهدف الثالث. وفي نهاية المطاف عملت الجمعية من خلال مدارسها ومرسليها بين المسيحيين.

- جمعية نهضة التربية النسائية في الشرق: وللجمعية مدرسة كبيرة في الناصرة ومدارس صغيرة في القرى.

- إرسالية طابيتا الاسكتلندية (Scottish Tabeetha Mission) كان للإرسالية مدرسة في يافا عرفت بمدرسة أرنوط، نسبة لإحدى معلماتها والكر أرنوط (Walker Arnott)[٢].

سارت الحياة الراعوية في الكنيسة الأنكليكانية جنباً إلى جنب مع المدارس التي أسّسها غوبات، وتبنتها جمعية المرسلين الكنسية. وغدت الرعايا العربية واقعاً ملموساً اعترف به غوبات في رسالته الراعوية الأخيرة عام ١٨٧٧م: "تنقسم طائفتنا إلى ثلاثة

---

[١] كلداني، حنا سعيد:المرجع نفسه، ص٣٥١ .

[٢] المرجع نفسه، ص٣٥٢-٣٥٣ .

أقسام لاختلاف اللغات الناطقة بها: ففي القدس يرأس الطائفة الألمانية الدكتور رانيكه (Reinicke) من برلين، وتتكون الطائفة البريطانية من اليهود المتنصرين، وهم برعاية جمعية لندن اليهودية، والطائفة العربية برعاية جمعية المرسلين الكنسية" واقترح جيمس فين (Jamis Vien) القنصل البريطاني في القدس بناء كنيسة خاصة للطائفة العربية، وتمّ بناء هذه الكنيسة عام ١٨٧٤م، وعُرفت بكنيسة مار بولس. في ٣ كانون الأول ١٨٧٤م احتفلت الطائفة الأنكليكانية المتعددة الجنسيات بالذكرى الخامسة والعشرين لتسلم غوبات مهامه الأسقفية في القدس. وشارك البريطانيون والألمان واليهود والعرب في الاحتفال، وبلغ الأسقف آنذاك الثانية والسبعين من عمره، وبقي على رأس عمله حتى عام ١٨٧٩م. وفي أيار ١٨٧٨م أصيب بوعكة صحية في سويسرا، وكان في زيارة لأبنائه وأحفاده وأصدقائه، فعاد إلى القدس في ١٠ كانون الأول ١٨٧٨م[١]، وهو يعاني آثار الجلطة، وتوفي في ١١ أيار ١٨٧٩م. وبعد وفاة غوبات نصب جوزيف باركلي[٢] (Joseph Barclay) الإرلندي الأصل أسقفاً في ٢٥ تموز ١٨٧٩م، وبقي حتى وفاته في ٢٢ تشرين الأول ١٨٨١م[٣].

فتح موت باركلي الباب على مصراعيه لنزاع دبلوماسي بين ألمانيا وبريطانيا حول مطرانية القدس. فقد جاء دور ملك بروسيا لاختيار المطران الجديد، وبعد مفاوضات طويلة رأت الحكومة الألمانية أنه لابد من إعادة النظر في اتفاقية عام ١٨٤١م، والتي أصبحت لا تتناسب والأهمية الكبرى التي اكتسبتها ألمانيا في أوروبا منذ عام ١٨٧١م. إلا أن رئيس أساقفة كانتربري رفض تقديم أي تنازلات للألمان، فأعلن القيصر الألماني ويليلم الأول (wilhelmi) الانسحاب من الأسقفية رسمياً في ٩ تشرين الثاني ١٨٨٦م[٤].

رابعاً: نتائج التّبشير في بلاد الشّام:

---

(١) المرجع نفسه، ص-٣٥٦- ٣٥٨-٣٥٩.

(٢) جوزيف باركلي (Joseph Barclay): إرلندي الأصل كان مبشراً في جمعية لندن اليهودية في الأستانة، ثم نقل رئيساً لبعثتها التبشيرية في القدس، وأصبح المسؤول الأول في كنيسة المسيح فيها .انظر: محافظة، علي: العلاقات الألمانية- الفلسطينية، ص٥٠.

(٣) غرايبة،عبد الكريم: المرجع نفسه، ص ١٩٨، ص١٢٤.

(٤) محافظة،علي: العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص٥١.

١- استغلت الدول الأوروبية بما فيها بريطانيا، مسألة التبشير بكل وسائله وتجلياته من أجل تحقيق أغراضها، في إيجاد بنى اجتماعية تقوم على الطائفية والمذهبية والقبلية. فعبر التبشير استطاعت أن توجِدَ في الدولة العثمانية ما سمي بـ "مسألة القوميات" في الولايات العثمانية، حيث حققت الدول الأوروبية بما فيها بريطانيا عبر هذه المسألة هدفين أساسيين، هما:

أ- ربط الأقليات الدينية بالاتجاه العام للسياسة الأوروبية في المنطقة، وجعل هذه الأقليات مراكز ارتكاز لها لتمرير مشاريعها في المنطقة.

ب- تشجيع الفكر الوطني والقومي بين القوميات الخاضعة للدولة العثمانية، وهدفها من ذلك ليس حباً بتلك القوميات، وتحقيق المساواة بينها ونشر العدالة بين أبنائها، بقدر ما هو موقف انتهازي أرادت من خلاله تجزئة الدولة العثمانية وإضعافها من الداخل[١].

٢- شهدت بلاد الشام في القرن التاسع عشر تطوراً أساسيا ترك نتائج سياسية واجتماعية وثقافية مهمة في البلاد كلها، وكانت المبادرة في هذا المجال للبعثات التبشيرية الأوروبية والأمريكية التي أسست المدارس والمطابع[٢] غير أن النظام التعليمي الذي ساد خلال تلك الفترة كان قائماً على أساس التقسيم المللي الطائفي للسكان، ولذلك ساهم في تعميق الهوة بين المواطنين بدلاً من خلق الشعور الوطني الواحد، وأدت مدارس البعثات التبشيرية إلى فوضى فكرية عجيبة، لأن كلاً منها يعتمد على النظام التربوي السائد في البلد الذي تنتسب إليه، لذلك وجدت أنظمة تعليمية بريطانية وفرنسية وأمريكية وإيطالية وألمانية وروسية، فكان هذا الخليط المتناقض عاملاً في تفشي فوضى تربوية كبيرة، صحيح أن العديد من هذه المدارس كان يدعو إلى التسامح الديني والقومي، لكنها، وبسبب اختلاف أهدافها وفلسفاتها التربوية، ومناهجها التدريسية لم تخدم الثقافة العربية بمقدار ما عززت الولاء لثقافات وإيديولوجيات غريبة ومتنافرة[٣].

---

(١) عويد، عدنان: المرجع نفسه، ص٥١-٥٢.

(٢) الحاج، بدر: المرجع نفسه، ص١٧.

(٣) محافظة،علي: تاريخ الحركة الفكرية في عصر النهضة، ص٥٣.

٣- إذا كان للتبشير كل هذه النتائج السلبية على الدولة العثمانية عموماً، ومنها بلاد الشام على وجه الخصوص، فإن للتبشير نتائج إيجابية تركت آثارها عند بعض المفكرين العرب النهضويين الذين احتكوا بالحضارة الغربية، وتعرفوا على الفكر الغربي وبخاصة السياسي، فكان من نتائج هذا الاحتكاك، الوصول إلى رؤى وأفكار كشفت لهم حقائق كثيرة لم يكن بمقدورهم كشفها والتعامل معها بعقلانية، ويأتي في مقدمة هذه الحقائق تحطيم تلك التصورات "المقدسة" عن السلطان العثماني وعظمته، وكذلك كشف آلية عمل الدولة العثمانية، وتعريتها أمام حضارة الغرب ونموذج دولته، مثلما كان لها أيضاً الدور الكبير في تحريض الفكر القومي ودفعه إلى الأمام باتجاه العلمانية بعد فشل ستار الرابطة الإسلامية الذي تبنته الدولة العثمانية ومحاولتها المتاجرة به لاستمرار الدولة التي أصبحت على حافة الانهيار. وأخيراً تعرية دور الطائفية وكشف أبعادها وعيوبها أمام الحركة القومية العربية الوليدة، والدعوة إلى موقف عربي أصيل عبّر عنه العديد من الكتاب العرب النهضويين مسلمين ومسيحيين، مثل الكواكبي الذي حذر من مغبة الطائفية قائلاً: "دعونا يا هؤلاء ندبر شأننا، نتفاهم في القضاء، ونتراحم بالإخاء .... دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تتحكم في الأخرى فقط". أما فارس النمر المسيحي العربي فقد خاطب أمته العربية لهذا الغرض ذاته قائلاً: "إن امتزاج الأمم من أقوى الوسائل الطبيعية لترقيتها...... وإذا كانت الأديان فرقت بينهم فيما مضى، فعلى زعمائها أن يزيلوا أسباب التفريق الآن"[(١)].

٤- عمد المبشرون إلى ترجمة الكتب العلمية والطبية إلى اللغة العربية، وتدريس هذه العلوم في كلياتهم باللغة العربية، وكان لهم دور في أغناء اللغة العربية بالاصطلاحات العلمية. واهتم المثقفون والمبشرون بنشر الأدب القديم، لاسيما المسيحي منه، واهتموا بدراسة الشعر الجاهلي، ونشروا المعلقات عام ١٨٧١م، كما توالى نشر دواوين امرئ ألقيس، وزهير بن أبي سلمى، وطرفة بن العبد، وحاتم الطائي.......... وعنترة بن شداد. واهتم المبشرون بأدباء صدر الإسلام، لاسيما العصر الأموي، ونشروا ديوان الخنساء، واشتد اهتمامهم بالشاعر الأخطل المسيحي. كذلك لقي العصر

---

(١) عويد، عدنان: المرجع نفسه، ص٥٤.

العباسي عناية حسنة، فقد نشر ديوان المتنبي أكثر من مره، كما نشرت أشـعار أبـي فراس الحمداني وأبي العتاهية وأبي نواس وأبي تمام وابن الفارض والمعري[١].

في ضوء دراسة البعثات التّبشيرية البروتستانتيّة (البريطانيّة) وأثرها على السياسة البريطانية في بلاد الشّام بين عامي (١٧٩٩-١٨٧٨م)، تم التوصل إلى النتائج التالية:

١- كان وضع بروسيا دون المستوى في الاتفاق المبرم بين بروسـيا وبريطانيـا حول إنشاء مطرانية بروسية ــ بريطانية مشتركة في القدس عـام ١٨٤١م، مقارنـة ببريطانيا، لكن رضي البروسيون به مؤقتاً، لأنهم عدّوه مدخلاً لعلاقاتهم الدينية بالدولة العثمانية، وخاصة بفلسطين، إذْ إنه حتى ذلك التاريخ لم يكن لهم موطئ قدم ملّي فـي فلسطين إلاّ المطرانية البريطانية البروسية المشتركة في القدس، التـي دخلـوا تحـت مظلتها. لأنها ستمكن الكنيسة الألمانية من رفع هامتها في القدس وتفتح أبوابها للمصلين حسب اعتقاداتهم وطقوسهم ،وستمكنهم هذه الأسقفية من افتتاح المشفى الألماني، وإنشاء المدرسة الألمانية في القدس، يوماً ما من أجل تنفيذ مخطط بروسي بريطـاني ضـخم حمله ميشيل سلمون ألكسندر إلى بلاد الشام.

٢- في غضون أربعة أعوام (١٨٤٢-١٨٤٥م) قاد المطـران ميشـيل سـلمون ألكسندر أسقفية القدس الأنكليكانية في سنوات وجودها الأولى. وتلمّـس طريقـه بـين المشقات والصعوبات التي خلقها الوضع السياسي والاجتماعي السائد في بلاد الشام في ظل الحكم العثماني، فقد كان عليه، أن يُخرِجَ إلى حيّز الوجود ما جاء فـي التقـارير والتوصيات والاتفاقيات بين بروسيا وبريطانيا. فـنظّم المجهـود الـديني البريطـاني والبروسي المبعثر في فلسطين من خلال الجمعيات والمرسلين في نظام أسـقفي، هـو الإطار الشرعي المعمول به في الكنائس الشرقية والمقبول لدى السـلطات العثمانيـة، على الرغم من أن هذه السلطات لم تعترف بالبروتستانتية كملّة، وعلى الصعيد السياسي فقد خدمت الأسقفية النفوذ البريطاني في بلاد الشام، وقدمت موضع قدم لبروسيا علـى الساحة العثمانية من خلال انضمامها إلى المطرانية. ولئن نجح ألكسندر في تنصير قلّة من اليهود، فإن هذا النجاح لا يساوي الجهد المبذول في سبيل ذلك.

---

[١] غرايبة، عبد الكريم: المرجع نفسه، ص١٩٨.

٣- تحول المطران غوبات من هداية اليهود للمسيحية إلى نشر البروتستانتية بين المسيحيين المحليين الذين ينتمون إلى الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، فغوبات مرسل جمعية المرسلين الكنسية البروتستانتيّة التي من أهدافها إصلاح الكنائس الشرقية والعمل على نهضتها، وهكذا تبنى غوبات سياسة جمعيته هذه، وأهمل بالتدريج هداية اليهود للمسيحية، فقرب إليه مرسلي جمعية المرسلين الكنسية، واستبعد جمعية لندن اليهودية، ونصح الحكومة البريطانية بالتعامل مع السكان في بلاد الشام على أساس طائفي، وليس كأمة واحدة، وشجعها على تبني القضية البروتستانتية في المشرق العربي. وأسفرت خطة غوبات الكنسية عن استفزاز الروم الأرثوذكس والكاثوليك، وأحرج رئاسة الكنيسة الأنكليكانية في بريطانيا لتحرشه بالكنائس الشرقية، فتدخلت الخارجية البريطانية في ١٣ أيلول ١٨٤٨م، وأشارت عليه عن طريق قنصلها في القدس بما يلي: "على الأسقف الأنكليكاني أن يمتنع عن التدخل في اعتقادات المسيحيين المحليين الدينية".

٤- جمع المطران غوبات حول شخصيته القوية عناصر الوجود البروتستانتي في بلاد الشام المكون من البريطانيين واليهود والعرب والألمان، ونسق بين الجمعيات الإرسالية البروتستانتية المختلفة، فصهر كل هذه العناصر في بوتقة واحدة، إلى حد أن الألمان اتهموه بأنه يميل إلى البريطانيين، واتهمه البريطانيون بأنه يميل إلى الألمان، فحقق بذلك الوحدة الكنسية البروسية البريطانية، لكن إلى حين، فما هي إلا بضع سنوات حتى أخذت ألمانيا تتذمر من وضعها المتدني في اتفاق عام ١٨٤١م، وتفجرت الوحدة التي رسم خطوطها بنزون وهولي رئيس أساقفة كنتربري في لندن، وانشقت الكنيسة الواحدة إلى كنيستين بريطانية وألمانية.

٥- أخفقت مطرانية القدس البريطانية البروسية المشتركة، والجمعيات التي تعاونت معها في تنصير اليهود، لكنها نجحت في تكوين أجسام مضادة بين اليهود، ضاعفت قوتهم ومناعتهم، وعلى صعيد آخر فقد لفتت الأسقفية نظر اليهود في أوروبا إلى الهجرة إلى فلسطين، وأنعشت الحُلم اليهودي القديم بـ "أرض الميعاد". وفي كلتا الحالتين، فإن تنصّر اليهود أو تشبثهم بيهوديتهم قد خدم النفوذ البريطاني في الشرق، فمنحتهم بريطانيا موقعاً مميزاً في سياستها المشرقية.

الخاتمة:

١- استخدمت بريطانيا شبح الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م وعلى بلاد الشام عام ١٧٩٩م، للسيطرة على المنطقة العربية ومواردها، بما فيها بلاد الشام، وكانت نقطة تحول كبيرة في السياسة البريطانية إزاء هذه المنطقة، فقد فتحت حملة نابليون على بلاد الشام عام ١٧٩٩م، في سجل بريطانيا الاستعماري صفحة جديدة، نقلوا بها علاقاتهم مع هذه البلاد من دوائر رجال الأعمال إلى دوائر رجال السياسة. وبدأ البريطانيون يتدخلون في شؤون بلاد الشام لتحقيق أهداف السياسة البريطانية في المنطقة، ويسعون لعزل كل من لا يوافق هوى ومصالح بريطانيا الامبريالية. لذلك أيدت بريطانيا بشير الشهابي الثاني ضد الجزار، وعد سميث الجزار عدواً للبريطانيين وللدولة العثمانية، ويبدو مما سبق أن بريطانيا تبنت الفكرة الآتية بأن من لا يكون معي فهو ضدي، حيث وقفت إلى جانب الشهابي ضد الجزار وهو الذي صمد وطرد الفرنسيين أمام أسوار عكا، أما الشهابي فكان متردد في موقفه، إن لم نقل مال إلى جاب نابليون، فلماذا كان هذا الموقف البريطاني من الجزار....؟ هل لأنه تقاعس عن تقديم المساعدات اللازمة للأسطول البريطاني العامل أمام السواحل المصرية الشمالية ؟ أم لأنها خبرت الجزار عن قرب وكثب، وعلمت أنه لا يمكن أن يكون جسر لتحقيق السياسة البريطانية، حيث رفض المفاوضات مع نابليون، وفضل الموت على الرضوخ للاحتلال الأجنبي.

٢- استغلت بريطانيا سيطرة محمد علي باشا على بلاد الشام وصراعه مع السلطان العثماني،فجعلت من هذا الصراع مسألة رئيسة أسبغت عليها صفة الصراع الدولي وربطتها مباشرة بأمن أوروبا والتوازن الأوروبي، متظاهرة بحرصها على وحدة ممتلكات السلطان وحفظ سيادته الشرعية بينما كانت تسعى في حقيقة الأمر تحت هذه المظلة للتسلل وتحقيق أطماعها في الدولة العثمانية عامة وولاياتها بما فيها بلاد الشام خاصة، فكان لها ما أرادت، حيث ضربت السلطان العثماني بواليه القوي محمد علي باشا بهدف إضعافهما معاً، غير أن وقوع السلطان في أحضان روسيا أقلقها، فسعت لوقف القتال وتوقيع معاهدة كوتاهية عام ١٨٣٣م. وعبرت بريطانيا عن قلقها حيال ازدياد النفوذ الروسي لدى الدولة العثمانية، بإرسال بعض البريطانيين إلى المنطقة بصفات مختلفة، لدراسة ومتابعة نتائج التحالف العثماني ـــ الروسي على

المصالح الاستراتيجية البريطانية في الشرق، ومن هؤولاء كان فرانسيس روودن تشيسني.

٣- هناك عدد من الباحثين عزا صمت بريطانيا في بداية الأزمة الناجمة عن سيطرة محمد علي باشا على بلاد الشام عام ١٨٣١م، بسبب أنها كانت تجاهد أزمة داخلية معقدة، وأنها كانت منهمكة بتعديل قانون الانتخاب ومكافحة الثورة الإيرلندية والمسألة البلجيكية، إلا أنه من خلال البحث وجد أكثر المصادر تؤكد أن بريطانيا لم تشغلها هذه الأمور عن مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية والعسكرية في مصر وبلاد الشام. بل إنها وقفت في بداية الأزمة موقف ترقب وانتظار الفرصة المناسبة لاختيار الجانب الأكثر قدرة على خدمة مصالحها، وحتى تحين تلك الفرصة كان عليها العمل لإبعاد السلطان عن الروس، لذلك تظاهرت بالحياد، ولم تختر جانب السلطان كما فعلت روسيا والنمسا، ولم تجاهر بدعمها لمحمد علي باشا كما فعلت فرنسا. وإن الباحثين كتبوا عن موقف السياسة البريطانية من مشروع محمد علي باشا في بلاد الشام بعد عام ١٨٣٣م أي بعد ظهور الخطر الروسي وتوقيع اتفاقية هنكار أسكلةسي، وأسبغوا هذا على موقف بريطانيا بشكل عام دون أن يميزوا بأن موقف بريطانيا في بداية الأزمة أي حرب الشام الأولى المؤيد لمحمد علي باشا في سيطرته على بلاد الشام، وموقفها المتغير في ما بعد وفقاً للظروف.

٤- لقد كانت اتفاقية هنكار أسكلة سي نقطة تحول في السياسة البريطانية التي ستقف بالمرصاد أمام كل محاولة من شأنها تقسيم الدولة العثمانية، أو فرض حماية عليها، فتغير موقفها اتجاه محمد علي باشا، حيث أيدته في بداية الأزمة، وكانت تهدف من ذلك إلى إضعاف الدولة العثمانية ومحمد علي باشا معاً، وبالتالي يبقى الباب العالي بحاجة بريطانيا مستبعدة أن تكون هناك صداقة عثمانية ــ روسية وهما في حالة عداء شبه مستمر لم يمض وقت قصير على انتهاء آخر حرب بينهما عام ١٨٢٩م.

وكذلك لم ترغب بإقامة دولة قوية بزعامة محمد علي باشا تسيطر على طرق تجارتها، إلا أن هذا ما قد حصل، فوقعت بين ناريين الخطر الروسي من الشمال وتدخله في شؤون الدولة العثمانية، ومحمد علي باشا الذي أدرك أن بريطانيا لن تسانده في مشروعه فأخذ يبحث عن حليف له فوجد ضالته في فرنسا، فضلاً عن ذلك جاء تحالف روسيا مع النمسا ليعقد الموقف ويشبك الأمور، إلا أن السياسة البريطانية كانت

حكيمة فلم تدخل في مجابهة مباشرة مع روسيا رغم إدراكها خطـر اتفاقيـة هنكـار أسكلة سي على مصالحها الاستراتيجية في المنطقة، فعملت بهـدوء ودهـاء لسـحب السلطان العثماني من تحت المظلة الروسية ليكون في فلك السياسة البريطانية.

٥- لم يكن التدخل الخارجي إلى جانب ثورات أهالي بلاد الشام ضد محمد علـي باشا السبب الوحيد لها، وإنما جاءت نتيجـة لعـدة تراكمـات اقتصـادية واجتماعيـة وسياسية، استطاعت بريطانيا استثمارها في الوقت الذي أرادته، وربما لـو اسـتطاع محمد علي باشا أن يكسب ود أهالي بلاد الشام ويتصالح معهم، ويحرص على رضاهم لكان بإمكانه أن يصمد أمام القوى الخارجية بزعامة بريطانيا ومخططاتها السياسية في المنطقة.

٦- لم ترض بريطانيا على المساعي الروسية في قيام مصـالحة بـين السـلطان العثماني ومحمد علي باشا من شأنه أن يحافظ على الوضع الراهن، ذلـك لأن الحـل السلمي يناهض المصالح البريطانية، ويلحق بها خسارة فادحة، فعمدت بريطانيـا إلـى دفع الأمور إلى قيام حرب الشام الثانية، وهذا ما يتوافق مع خدمة سياسـتها، فكانـت الرابح الأكبر في هذه الحرب، حيث أبطلت مفعول اتفاقية هنكار أسكلة سي من ناحية، وأجبرت مصر على الخروج من بلاد الشام والتقلص إلى حدودها القديمة مـن ناحيـة أخرى، وأقنعت كلاً من النمسا وروسيا وفرنسا بتوقيع اتفاقية المضايق في ١٣ تمـوز عام ١٨٤١م لتنظيم الملاحة في المضايق عن طريق النص على عدم السماح لمـرور السفن الحربية الأجنبية في مضيقي البوسفور والدردنيل . وحققـت بريطانيـا فـوزاً دبلوماسياً على فرنسا بإبعادها عن التسوية، واستطاعت أن تضع الدولة العثمانية تحت الوصاية الدولية بزعامة بريطانيا .

٧- نجحت الدبلوماسية البريطانية في الحفاظ علـى مصـالحها والقضـاء علـى خصومها، عندما استطاعت جر روسيا إلى حرب ضد الدولة العثمانيـة، مـن خـلال مؤامرة أثارتها فرنسا عام ١٨٥٣م، عندما حصلت فرنسا على مفتاح كنيسة المهد فـي بيت لحم، فتحولت هذه الأزمة الدينية إلى أزمة سياسية، استثمرتها بريطانيـا للقضـاء على الخطر الفرنسي والروسي في الوقت نفسه، لأن بريطانيا كانت تخشى من فرنسـا وروسيا على بلاد الشام، لكنها وجدت غايات روسيا أشد خطراً على مصالحها ومناطق نفوذها، وأن الموقف الفرنسي المعارض للمشاريع الروسية يسير فـي خـط السياسـة

البريطانية نفسها ولا يتضارب معها رغم تعدد الأزمات بين فرنسا وبريطانيا في أكثر من مكان، لكنهما اتفقتا في الدخول مع الدولة العثمانية ضد روسيا، في حرب القرم (١٨٥٣- ١٨٥٦م)، التي انتهت بهزيمة روسيا، وانتصار بريطانيا التي نجحت في إبعاد الخطر الروسي عن الأستانة والبلقان، والتوقيع على معاهدة باريس عام ١٨٥٦م، التي كانت بمثابة هدية لبريطانيا. والدول الأوروبية في معاهدة باريس لم تتطرق إلى قضية الأماكن المقدسة في فلسطين التي كانت السبب الظاهر للنزاع بين روسيا وفرنسا، ثم تطور ليصبح بين روسيا والدولة العثمانية التي ساندتها بريطانيا وفرنسا.و لم تسجل معاهدة باريس ١٨٥٦م انتصاراً سياسياً لدولة على أخرى ولم تضع حلولاً جذرية لأهم المشكلات الدولية، وسبب هذا أن الحرب لم تبدل شيئاً من أوضاع الدول الكبرى فظلت مصالحها وأهدافها متضاربة، وانتهى مع الحرب تعاونها وتفاهمها، وبقيت أحكام معاهدة باريس قائمة على علاتها ودستوراً للعلاقات الدولية حتى عام ١٨٧٨م.

٨- كانت أحداث عام ١٨٦٠م وتسوياتها سبباً في تقليل سلطة رجال الدين ورجال الإقطاع على الشعب في بلاد الشام، لكنها سمحت للدول الأوروبية بالتدخل في شؤون البلاد، وأدت إلى إحداث موجة من الوعي في أوساط الشعب العربي في بلاد الشام، وأدرك أبناء الطبقة المثقفة بشكل خاص، أبعاد الحرب الأهلية وأخطارها وآثارها المدمرة على مستقبل الأمة. ومدى خطورة الدور السيئ الذي تلعبه الدول الأوروبية في تكريس الطائفية، من أجل تحقيق مصالحها، ولو كان ذلك على حساب آلام الناس ومستقبل البلاد، وفتحت أحداث عام ١٨٦٠م أنظار الأهالي إلى خطر الاستمرار في حالة الجهل والتعصب، وضرورة الانتقال من الفكر الطائفي الضيق إلى الفكر القومي، وتعرية دور الطائفية وكشف أبعادها وعيوبها، والدعوة إلى موقف عربي أصيل عبر عنه العديد من الكتاب النهضويين العرب مثل الكواكبي الذي حذر من مغبة الطائفية قائلاً: "دعونا يا هؤلاء ندبر شأننا، نتفاهم في القضاء، ونتراحم بالإخاء...، دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تتكلم في الآخرة فقط.....".

٩- أسفرت الأزمات السياسية التي تعرضت لها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر عن مايسمى بـ عصر التسامح والمساواة العثماني، إذ صدر في الأستانة خط شريف كلخانة عام ١٨٣٩ م، وهمايون عام ١٨٥٦م، وأعلن الخطان مساواة رعايا

السلطان أمام القانون في الحقوق والواجبات، فكان هذان الخطان بادرة تحرر وإيجـاد أطر جديدة للعمل التبشيري على ضوء المتغيرات المستجدة، وهذه الخطوة لم تقم بهـا الدولة العثمانية بمحض إرادتها وإنما تحت ضغط الدول الأوروبية التي ((سـاعدتها)) في التغلب على الأزمات والحروب التي واجهتها لاسيما أزمتها مع واليها محمد علـي باشا، وحرب القرم، بريطانيا حاولت إيجاد موطئ قدم مللي لها في بلاد الشـام أسـوة بفرنسا حامية الكاثوليك وروسية حامية الأرثوذكس، وبعد فشلها في استقطاب الموارنة ركزت جهودها في العمل التبشيري بين الموحدين(الدروز) واليهود من أجل إيجاد ملة تنفذ بها ومن خلالها أهدافها السياسية والاقتصادية تحت ستار التّبشير والعباءة الدينيّـة. مستغلة حاجة الموحدين (الدروز) لحمايتهم وللوقوف معهم ضد الكاثوليك ومن ورائهـم فرنسا، والأرثوذكس ومن ورائهم روسيا.

١٠- كانت البعثات التبشيرية ومدارسها على المجتمع العربي نعمة ونقمة في آن واحد، تجلت أثارها الإيجابية بيقظة فكرية، وحركة تعليمية، وأسهمت في الإطلاع علـى منجـزات الحضارة الغربية، ونشرت الكتب الأدبية والتاريخية والتراثية واللغوية بالعربيـة، وأسسـت المدارس، إلا أنها لم تؤسس المدارس لتأخذ بيد الثقافة العربية وتقوي العرب في معتقـداتهم، بل أسست لمكافحة هذه الثقافة والمعتقدات فكانت النتيجة أن تزعزعت التربة تحـت أقـدام العرب، فانهارت اقتصادياتهم، وانتشرت الفوضى الفكرية في أوسـاطهم.. وأحـدثت هـذه البعثات التبشيرية انقلاباً، لكنه انقلاب اصطناعي فـي حيـاة العـرب ضعضـع حيـاتهم الاجتماعية، وعرقل الانقلاب الأصلي الذي يمكن أن يصلوا إليه بـالتطور السـليم . كمـا أسهمت هذه البعثات في تشتيت الفكر السياسي، والتغريب الروحي والثقافي للمواطن العربي وسلخه عن هويته وتاريخه، لقد كان لحملات التبشير دور كبير في العمـل علـى تجـذير استراتيجية التغريب، وخاصة في المجال الروحي الثقافي عمومـاً والتربـوي علـى وجـه التخصيص، لم يكن الهدف من التبشير هو نشر المسيحية النقية التي بشر بها السيد المسيح عليـه السلام، وهي مسيحية المحبة والعدالة والمساواة، إنما كان الهدف تحقيـق المصـالح الاقتصـادية والسياسية لبريطانيا من وراء المسيحية، ولابد من أن نشير إلى أن هناك مبشرين يحملون أهـدافاً نبيلة في عملهم كما يعتقدون، ويموتون دون أن يعرفوا أنهم كـانوا أدوات للسياسـة الاسـتعمارية لهذه الدولة أو تلك.

١١- لم تعمل السياسة البريطانية على الحفاظ على سلامة الدولة العثمانية، بل عملت على الحفاظ على مصالحها الاستيراتيجية والاقتصادية في المنطقة، فبريطانيا عندما تصدت لحملة نابليون على مصر وبلاد الشام، ليس من أجل الباب العالي، وإنما من أجل تأمين وسلامة طرق مواصلاتها البرية والبحرية إلى الهند، وبريطانيا بعد جلاء الحملة الفرنسية حاولت الاحتفاظ بهذه المنطقة، إلا أن صلح أميان عام ١٨٠٢م، وصلح تيليست عام ١٨٠٧م حال دون ذلك، وأيدت بريطانيا محمد علي باشا ضد الدولة العثمانية من أجل إضعافهما معاً، والحصول منهما على المزيد من التنازلات والامتيازات، ولم تحارب بريطانيا محمد علي باشا للحفاظ على استقلال وسلامة السلطان العثماني، بل للتصدي للخطر الروسي، وانتشال السلطان من أحضان روسيا، والقضاء على اتفاقية هنكار أسكلة سي. ولم يكن الأمر مختلف في حرب القرم ١٨٥٣- ١٨٥٦م، ولا في سياستها في مواجهة الحملة الفرنسية على بلاد الشام إثر حوادث لبنان عام ١٨٦٠م. واستمرت بريطانيا في التصدي للأخطار التي تهدد مصالحها في الدولة العثمانية عامة وبلاد الشام خاصة، ومنع تقسيمها بين القوى الأوروبية العظمى، أو اقتطاع إي جزء منها، حتى مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م، حيث بدأت تتخلى عن سياستها التقليدية في المحافظة على بقاء الدولة العثمانية، وفي الوقت نفسه تريد أن تحافظ على مصالحها في المنطقة، وأن تقف في وجه الأطماع الروسية ولو كان على حساب تقسيم الدولة العثمانية، وفق ما يتماشى مع السياسة البريطانية في الحفاظ على التوازن الدولي.

١٢ – البعثات التبشيرية كانت نقمة على المسيحيين في بلاد الشام أكثر من غيرهم ، حيث صنعت الحواجز والعقد الدينية الطائفية سواء بين الطوائف المسيحية نفسها أو بين الأخوة العرب المسيحيين والمسلمين ،الذين كانوا يعيشون بسلام ووئام وأمان ،حتى وصول هذه البعثات وازدياد تدخلها في شؤونهم ،فزرعت الأحقاد والأضغان،من خلال دعمها لطائفة ضد أخرى ،ليس من أجل نشر الدين المسيحي وإنما من أجل تحقيق مصالحها الاقتصادية والاستيراتيجية. وما يؤكد ذلك دعم بريطانيا للموحدين الدروز ضد الموارنة بعدما فشلت في استمالتهم ، وقيام البطريرك الماروني بسجن أسعد الشدياق.

المصادر والمراجع:

- الوثائق:

١- وثائق محفوظات مديرية الوثائق التاريخية بدمشق:

أ- سجل الأوامر السلطانية لولاية دمشق.

- سجل الأوامر السلطانية دمشق رقم ٤،وثيقة رقم ١٥١،صفحة ١٤٩، ١١ جمادة الأولى ١٢٤٧هـ.

- سجل الأوامر السلطانية دمشق رقم ٤،وثيقة رقم ١٧٤ صفحة ١٧١، ٢١ و٢٣ (ذا)١٢٤٧هـ.

ب- سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب:

- سجل الأوامر السلطانية حلب رقم ٢٧،وثيقة رقم ٦٩، صفحة ٤٥ تاريخ أواسط جمادة الأولى ١٢١٣هـ.

٢- الأرشيف العثماني، أرشيف اسطنبول (رئاسة الوزراء)،دوسية رقم ٧٨.

- المنشورات ذات الصبغة الوثائقية:

١- الخازن، فيليب وفريد: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان،مطبعة الصبر،جونية،لبنان ،١٩١١م،٣ج.

٢- القوانين العثمانية، دار الحمراء، بيروت،١٩٩٠م.

٣- أبو صالح، عباس: التاريخ السياسي للأمارة الشهابية في جبل لبنان ١٦٩٧-١٨٤٢م، بيروت، ط١،١٩٨٤م.

٤- إسماعيل، عادل، وإسماعيل، منير: الصراع الدولي حول المشرق العربي (الوثائق الدبلوماسية)، تقديم: إدغار بيزاني، سليم الحص، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، لبنان،١٩٩٠م.(تم استخدام ج١ من القسم الأول(الوجود الروسي في شرقي المتوسط ــ حملة بونابرت ــ محمد علي باشافي بلاد الشام)١٧٧١-١٨٣٢م،(٧ أقسام).

٥- أصف، يوسف بك: المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوروبية، ترجمة: يوسف بك أصف، المطبعة العمومية بمصر، القاهرة، ط٢،١٨٩٦م.

٦- بني هاني، خالد أحمد مفلح: تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصـــري ١٢٤٦-١٢٥٦هـــ (١٨٣١- ١٨٤٠م)، الأوائل دمشق، ط١، ٢٠٠٥م.
٧- رستم، أسد: المحفوظات الملكية المصرية ، بيروت،١٩٤٠-١٩٤٣م،٤ج.
٨- رستم، أسد :الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا،كلية العلـــوم والآداب،بيروت،ط١،١٩٣٣م،٥ج.
٩- ريجنكوف، م، سيميليانسكايا، أ: سوريا ولبنان وفلسطين في النصـــف الأول مـــن القرن التاسع عشر (مذكرات رحالة ــ تقارير علمية واقتصادية، ترجمة يوسف عطـــا الله، راجعه وقدم له مسعود ضاهر، دار النهار، بيروت، لبنان، ط١،١٩٩٣م.
١٠- ضو، أنطوان: حوادث١٨٦٠م في لبنان ودمشق لجنة بيروت الدولية، مختارات، بيروت، ط١،١٩٩٦م.
١١- غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشـــهابي الثـــاني ونظـــام القائمقاميتين ١٨٦١-١٧٨٨م، (دراسة وثائقية في تاريخ جبل لبنان السياسي)،بيســـان، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٨م.
١٢- غنام، رياض: المقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر (دراسة وثائقية فـــي التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي)، بيسان، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م.
١٣- ملف وثائق فلسطين (مجموعة وثائق وأوراق خاصة بالقضية الفلسطينية) من عام ٦٣٧ إلى ١٩٤٩م، وزارة الإرشاد القومي، موجودة في مكتبة الدراسات العليـــا كليـــة الآداب، جامعة دمشق، د.م،ت،ط،م.
١٤- نوار، عبد العزيز سليمان: وثائق اساسية من تاريخ لبنان، جامعة بيروت العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٤م.
١٥- هشي، سليم حسن: المراسلات الإجتماعية والاقتصادية لزعماء جبل لبنان خـــلال ثلاثة قرون (١٦٠٠- ١٩٠٠)،(وثائق تاريخية تنشـــر لأول مـــرة)، بيـــروت لبنـــان، ط٢،١٩٨١- ١٩٨٢م،٥ج.
١٦- وثائق التدخل الأجنبي، الوطن العربي في ظل الاحتلال العثمـــاني، د.م،ن، ط١، ١٩٧٥م.

- **المخطوطات:**

١- مخطوط الشيخ حسين الهجيري قصة حرب اللجاة.

المصادر:

١- الجبرتي،عبد الرحمن: تاريخ عجائب الآثار في التـراجم والأخبـار، دار الجيـل، بيروت، ط١٩٧٨،٢م.

٢- التونسي، مردخاي شملة: مفاوضات المؤتمر المنعقد بالأستانة في المسألة الشرقية سنة ١٢٩٣ و١٢٩٤هـ، مطبعة الدولة التونسية،ط١٢٩٥،١هـ(١٨٧٨م).

٣- الدمشقي، ميخائيل: تاريخ حوادث الشام ولبنان من سنة ١١٩٧ إلى سنة ١٢٥٧هـ (١٧٨٢-١٨٤١)م، عني بنشره وتعليـق حواشـيه ووضـع فهارسـه: الأب لـويس معلوف،د،ت،ط .

٤- الشاذلي، محمود ثابت: المسألة الشرقية (دراسة وثائقية عـن الخلافـة العثمانيـة ١٢٩٩-١٩٢٣م)، مكتبة وهبة عابدين، القاهرة.

٥- العقيقي،أنطوان ضاهر: ثورة وفتنة في لبنان١٨٤١ – ١٨٧٣م، شرح: إبـراهيم، يزبك يوسف،مجلة الطليعة، بيروت،ط١، ١٩٣٩م.

٦- بازيلي، قسطنطين: سورية وفلسطين تحت الحكـم العثمـاني، ترجمـة: طـارق معصراني، دار التقدم، موسكو، الاتحاد السوفييتي، ط١٩٨٩،١م. ملاحظة هناك ترجمة أخرى لـ ياسر جابر، دار الحداثة، بيـروت، لبنـان، ط١، ١٩٨٨م لا تختلـف فـي المضمون عن ترجمة طارق معصراني التي اعتمدها لكن تختلف فقط فـي عنوانهـا: سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي.

٧- بركات، داود: البطل الفاتح إبراهيم باشاوفتحه الشام، المطبعة الرحمانية بمصـر، د.ت،ط.

٨- حليم، إبراهيم بك: تاريخ الدولة العثمانية العلية (التحفة الحليميّة في تاريخ الدولـة العلية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة، مصر، ط٢٠٠٤،١م.

٩- لبيب، حسين: المسألة الشرقية، مجلة الهلال، مطبعة الهلال بمصر، ط١، ١٩٢١م.

١٠- ماركس، كارل: المسألة الشرقية حول القوميات العربية فـي الدولـة العثمانيـة، ترجمة عبدالله جوزيف، دار الحداثة، بيروت، عام ١٩٨٠م.

١١- مؤرخ مجهول: حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، نشر وتحقيق: أسد رستم، منشورات المكتبة البوليسية، ،د،ت،ط،٢ج.
١٢- مؤرخ مجهول: مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية (دراسات وثائق دمشق الشام)، تحقيق: أحمد غسان سبانو، دار قتيبة دمشق، ،د،ت،ط.

المراجع:

١- البساطي، أحمد سعد الدين: التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية، مكتبة الإيمان، القاهرة،ط١، ١٩٨٩م.
٢- البطريق، عبد الحميد: الجزيرة العربية في مفترق الطرق (١٨٠٠-١٨٤٠)م، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط١،٢٠٠٦م.
٣- الحاج، بدر، دمشق صور من الماضي ١٨٤٠ ـــ ١٩١٨، فوليوز، ط١، ٢٠٠١م.
٤- الحداد، جرجي: البلاغ المبين في أصل حركة سنة الستين وجرائم المبشرين والمستعمرين , دار المعالي، ط١،١٩٩١م.
٥- الخنساء،أحمد: تاريخ العلاقات الدولية (منذ الثورة الفرنسية ١٧٨٩ حتى الحرب العالمية الأولى)، د.م ، ن، ط١، ١٩٨٦م.
٦ - الدسوقي، محمد كمال: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٧٦م.
٧- الزين، سميح وجيه: تاريخ طرابلس قديماً وحديثا منذ أقدم الأزمنة حتى عصرنا الحاضر، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٩م.
٨- الشاهين، مازن: أحداث خالدة في تاريخ دير الزور، الناشر المؤلف، دير الزور، ط١، ٢٠٠٧م.
٩- الشناوي، عبد العزيز محمد: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الأنجلو مصرية، القاهرة،د،ت،ط.
١٠- الصباغ، ليلى: الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنيين السادس والسابع عشر،٢ج، مؤسسة الرسالة، ط١،١٩٩٨م.
١١- الصلابي، علي محمد محمد: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط٣، ٢٠٠٨م.

١٢- العزاوي المحامي، عباس: موسوعة تاريخ العراق بين إحتلالين، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م.
١٣- العطار، نادر: تاريخ سورية في العصور الحديثة (دور حكم السلاطين الفعلي في العهد العثماني ١٥١٦- ١٩٠٨م، مطبعة الإنشاء، دمشق، ١٩٦٣م.
١٤- الغنام، سليمان بن محمد: قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية (١٨١١-١٨٤٠)م في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا، تهامة، الكتاب العربي السعودي، ط١، ١٩٨٠م.
١٥- المقرحي، ميلاد: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الثانية، منشورات، الجامعة المفتوحة، طرابلس، ليبيا، ط١، ١٩٩١م.
١٦- النعيمي، أحمد نوري: الدولة العثمانية واليهود، الدار العربية للموسوعات، ط١، بيروت، لبنان ٢٠٠٦م.
١٧- أبو الحسن، علي: دور بريطانية في تهويد فلسطين العربية (أقذر دور في التاريخ)، دار الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م.
١٨- أبو فخر، فندي جدعان: انتفاضات الشام على مظالم محمد علي١٨٣١-١٨٤٠م، دار الينابيع، دمشق، سورية، ط١،٢٠٠٤م.
١٩- أبو فخر، فندي جدعان: سورية والصراعات الدولية ١٨٣١-١٨٤٠م محمد علي باشاوالحسابات الخاطئة،السويداء، سورية، ط١، ٢٠٠٠م.
٢٠- إسماعيل، حلمي محروس: تاريخ العرب الحديث، (من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى)، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، مصر، ١٩٩٧م.
٢١- إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي (من القرن السادس عشر إلى مؤتمر فيينا عام ١٨١٥م)، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م، ج١.
٢٢- إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩م إلى سنة ١٩٥٨، (من مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥م إلى معاهدة المضائق ١٨٤١م)، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، لبنان، ١٩٦٠م، ج٢.

٢٣- إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩م إلى سنة ١٩٥٨، (من معاهدة المضائق ١٨٤١م إلى فرمان ١٩ آذار ١٨٦٦م)، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، لبنان، ١٩٦١م، ج٣.
٢٤- إسماعيل، عادل، وخوري، أميل: السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩ م إلى سنة ١٩٥٨، (من فرمان ١٩ آذار ١٨٦٦ م إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ١١ تشرين الثاني ١٩١٨م)، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، لبنان، ١٩٦٤م، ج٤. ٦-
٢٥- برجاوي، سعيد أحمد: الأمبراطورية العثمانية (تاريخها السياسي والعسكري)، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
٢٦- ترحيني، محمد أحمد: الأسس التاريخية لنظام لبنان الطائفي، (دراسة مقارنة)، قدم له فؤاد شاهين، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د.ت،ط.
٢٧- جرار، حسني أدهم: أسرار حملة نابليون على مصر والشام، دار الضياء،عمان ١٩٩٠م.
٢٨- جبارة، تيسير، تاريخ فلسطين، دار الشروق، ط١، ١٩٩٨م.
٢٩- حجر، جمال محمود: القوى الكبرى والشرق الأوسط (في القرنين التاسع عشر والعشرون)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م).
٣٠- حداد، جورج: تاريخ أوروبا والمسألة الشرقية في الأزمنة الحديثة، وزارة المعارف، دمشق، سورية، ط٢، ١٩٤١م .
٣١- حريق، إيليا: التحول السياسي في تاريخ لبنان الحديث، الأهلية، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
٣٢- حسون، علي: الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٤م.
٣٣- حقي، إسماعيل: لبنان مباحث علمية واجتماعية، دار لحد خاطر،بيروت، ط٣، ١٩٩٣م.٢ج.
٣٤- حنا، عبدالله: حركات العامة الدمشقية (في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دار ابن خلدون، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

٣٥- خالدي، مصطفى وفروخ، عمر: التبشير والإستعمار في البلاد العربية (عــرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى اخضاع الشرق للاستعمار الغربي)، المكتبة العلميــة، بيروت، لبنان، ط٢،١٩٥٧م.
٣٦ - رافق، عبد الكريم: تاريخ العرب الحديث بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦-١٧٩٨م)، د، ن، دمشق، سوريا، ط٢،١٩٦٨م.
٣٧- رافق، عبد الكريم: بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشــام)، د، ن، ،دمشق، سوريا،١٩٨٥م.
٣٨- رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيــز، ١٨٠٤،١٨٤١،منشــورات المكتبــة البوليسية، بيروت، ١٩٥٦-١٩٥٧م. ٢ج.
٣٩- رستم، أسد: لبنان في عهد الأمراء الشهابيون (لبنان فــي عهــد الأميــر بشــير الثاني)، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
٤٠- زكار، سهيل: بلاد الشام في القرن التاسع عشر (روايــات تاريخيــة معاصــرة لحوادث عام ١٨٦٠م ومقدماتها في سورية ولبنان)، دار حســان، دمشــق، ســوريا، ط١،١٩٨٢م (١٤٠٢ هـ).
٤١- زهر الدين، صالح: التبشير وأثرة في جبل لبنان، رسالة الجهاد، طرابلس، ليبيا، ط١،١٩٨٦م.
٤٢- زين، نور الدين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي ســوريا ولبنان، دار النهار، بيروت،١٩٧١ م
٤٣- سمحات، قاسم: محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بــلاد الشــام ١٨٠٤ ـــ ١٨٥٠ م، د.م،ن،٢٠٠٥م .
٤٤- شريف، إبراهيم: الشرق الأوسط، دراسة الاتجاهات سياسة الاستعمار حتى قيــام ثورة ١٤ تموز١٩٥٨م في العراق، (-السلسة السياسية ٨-) -وزارة الثقافة والإرشــاد شركة دار الجمهورية، بغداد، العراق، ط١،١٩٦٥م.
٤٥- شعيب، علي عبد المنعم: المختصر في تاريخ مصر منذ أقــدم العصــور حتــى الاحتلال البريطاني، دار ابن زيدون،د.ت،ط،٣ج.

٤٦- شوفاني، الياس: الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتى سنة ١٩٤٩)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت،ط١٩٩٦،١م.

٤٧- صالح، زكي: مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٦٦م.

٤٨- صليبي، كمال: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار بيروت، ط١٩٨١،٥م.

٤٩- صفوت، محمد مصطفى: المسألة الشرقية ومؤتمر باريس، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، ط١، ١٩٥٨م.

٥٠- صفوت، محمد: مؤتمر برلين وأثره في البلاد العربية،جامعة الدول العربية، القاهرة، ط١٩٥٧،١م.

٥١- طربين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ منذ سقوط الاسرة الشهابية حتى ابتداء عهد المتصرفية ١٨٤٢-١٨٦١م (دراسة في التاريخ السياسي والاجتماعي)، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط١٩٩٠،٢م.

٥٢- طربين، أحمد: الوحدة العربية في تاريخ المشرق العربي المعاصر(١٨٠٠ـــ ١٩٥٨م)،د.ت،ط.

٥٣- طربين، أحمد: لبنان منذ عهد المتصرفية إلى بداية الانتداب١٨٦١ـــ ١٩٢٠ م (محاضرات ألقاها)، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، مصر،ط١٩٦٨،١م.

٥٤- ضاهر، مسعود: الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧ـــ ١٨٦١ م، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، ط١٩٨٦،٣م .

٥٥- عبد الرحيم، عبد الرحمن عبد الرحيم: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، جامعة الأزهر، دار الكتاب الجامعي، ط١٩٨٦،٤م.

٥٦- عبدو، محمد: نابليون في القاهرة، المكتبة التاريخية، دار الحوار، اللاذقية سورية ط١٩٨٥،١.

٥٧-عتريسي، طلال: البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان ،د.ت،ط،ن،م.

٥٨-علي، محمد كرد: خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت ط٢، ١٩٧١م،٦ج.

٥٩- عمر، عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، (١٥١٦، ١٩٢٢)م، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،ط١ ،١٩٨٥ م .

٦٠- عوض، عبد العزيز محمد: الإدارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤-١٩١٤)م، دار المعارف بمصر، د.ت،ط.

٦١- عويد، عدنان: التبشير بين الأصولية المسيحية وسلطة التغريب، (دراسة في قضايا النهضة)، دار المدى، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠٠٠م.

٦٢- غرايبة، عبد الكريم: سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠- ١٨٧٦م، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، ط١،١٩٦١-١٩٦٢م.

٦٣- غزال، زهير: الاقتصاد السياسي لدمشق خلال القرن التاسع عشر (بنى تقليدية في عصر رأس المال)، وزارة الثقافة السورية، دمشق، سوريا، ط١،٢٠٠٨م.

٦٤- غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري ١٨٣٢-١٨٤٠م، الدار التقدمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م .

٦٥- فارس، علي عبد الله: شركة الهند الشرقية البريطانية ودورها في تاريخ الخليج العربي، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، الأمارات، ط٢،٢٠٠١م.

٦٦- قدورة، زاهية مصطفى: تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٥م.

٦٧- كلداني، حنا سعيد: المسيحية المعاصرة في الأردن وفلسطين، عمان،الأردن،ط١، ١٩٩٣.

٦٨- لورنس، هنري، و جيليسبي، شارل، وجولفان، كلود، وترونيكر، كلود: الحملة الفرنسية في مصر بونابرت والإسلام، سينا للنشر، ط١،١٩٩٥م.

٦٩- مجموعة من الباحثين: تاريخ العراق المفصل، بيت الحكمة بغداد، ط١، ٢٠٠٢م.

٧٠- محافظة، علي: العلاقات الألمانية الفلسطينية (من إنشاء مطرانية القدس الروتستانتية وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، لبنان، ط١،١٩٨١م.

٧١- محافظة، علي: تاريخ الحركة الفكرية في عصر النهضة (الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م.
٧٢- محمد، صالح خضر: الدبلوماسية البريطانية في العراق، (دراسة تاريخية) ١٨٣١- ١٩١٤م، دار الزمان، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠٠٨م.
٧٣- مراد، محمد عدنان: تاريخ الاستعمار البريطاني في الوطن العربي، دار طلاس، دمشق، سوريا، ط١،١٩٨٩م.
٧٤- نوار، عبد العزيز سليمان: التاريخ الحديث (أوروبا منذ الثورة الفرنسية حتى الحرب الفرنسية البروسية ١٧٨٩-١٨٧١م، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر،١٩٨٥م.
٧٥- نعيسة، يوسف جميل: محاضرات في التاريخ العربي المعاصر، جامعة دمشق، ط١٩٩٧،١م.
٧٦- يحيى، جلال :العالم العربي الحديث، دار المعارف بمصر، ط١٩٦٦،١م.
المراجع الأجنبية المعربة:
١- اريلاند. فيليب ويلارد: العراق دراسة في تطوره السياسي، ترجمة جعفر خياط، دار الكشاف، بيروت، لبنان، ١٩٤٩م.
٢ - أنطونيوس، جورج: يقظة العرب (تاريخ حركة العرب القومية)، ترجمة: ناصر الدين الأسد، وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر،بيروت ــ نيويورك،ط١،١٩٦٢م.
٣- بولياك، ا، ن: الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة: عاطف كرم، دار المكشوف، بيروت، لبنان، ط١،١٩٤٨م.
٤- حتي، فيليب: تاريخ لبنان (منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة: أنيس فريحة، ونقولا زيادة، تحرير: جبرائل جبور، دار الثقافة، بيروت،لبنان، ط٣، ١٩٧٨م.

٥- حجار، جوزيف: أوروبا ومصير الشرق العربي (حرب الاستعمار على محمد علي باشاوالنهضة العربية، ترجمة بطرس حلاق، المؤسسة العربية للدراسـات، بيـروت، ١٩٧٦م.
٦- دولينا، نينل ألكسندروفنا دولينا: الامبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية، ترجمة: أنور محمد إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط١٩٩٩،١م.
٧- رنوفان، ببير: تاريخ العلاقات الدولية (القـرن التاسـع عشـر ١٨١٥-١٩١٤م، ترجمة: جلال يحيى، دار المعارف، الاسكندرية، مصر، ط١٩٨٠،٣م.
٨- شوفالييه، دومينيك: مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصـناعية فـي أوروبـا، ترجمة: عبدالله عاقوري، أحمد بيضون، دار النهـار للنشـر، بيـروت، لبنـان، ط١، ١٩٩٤م.
٩- شيلشر، ليندا: دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة: عمر الملاح، دينا الملاح، مراجعة عطاف مارديني، دمشق،مطبعة دار الجمهورية، ط١، ١٩٩٨م.
١٠- لوتسكي :تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، دار الفـارابي، بيروت، ط ١٩٨٠،٧م.
١١- لونكرك، المستر ستيفن هيمسلي: أربعة قرون من تاريخ العراق ترجمة: جعفـر خياط دار الكشاف، بيروت، لبنان، ط١٩٤٩،٢م.
١٢- وسلينغ،هنري: تقسيم أفريقيا أحداث مؤتمر برلين وتوابعـه السياسـية،١٨٨٠ ــ ١٩١٤، ترجمة: ريما إسماعيل الدار الجماهيرية ، مصراتة،، ط٢٠٠١،١ م .
١٣- يفسكي، بوندار: الغرب ضد العالم الإسلامي من الحملات الصليبية حتى أيامنـا، ترجمة: اليأس شاهين دار التقدم، موسكو، الإتحاد السوفييتي، ط١، ١٩٨٥م.

- الدراسات والرسائل الجامعية غير المنشورة:

١- البلخي، علي يوسف: ثورات حوران على حكم إبراهيم باشـا (١٨٣١- ١٨٤٠)م، رسالة ماجستير، بإشرف عبد الكريم رافق، جامعة دمشق، ١٩٨٤- ١٩٨٥م.
٢- النائب، محمد فراس: العلاقات السورية ــ البريطانية (وقائع وأفاق)، إشراف محمد سعيد فرهود، رسالة ماجستير، جامعة حلب، حلب، سوريا، ٢٠٠٣م.

٣- أبو فخر، فندي جدعان: بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا ١٨٣١- ١٨٤١م (دراسة في التاريخ الإداري والاقتصادي والاجتماعي والسياسي)، رسالة ماجستير، بإشراف: ذوقان قرقوط، جامعة دمشق.د،ت.

- **الدوريات:**

١- البلخي ــ علي يوسف: الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام (١٨٣١-١٨٤٠)م من خلال الوثائق العثمانية،(مجلة دراسات تاريخية، العددان التاسع عشر والعشرون، نيسان ــ تموز ١٩٨٥م).

٢- إسماعيل، حكمت: ظهور الوعي القومي في بلاد الشام من أواخر القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى،(مجلة دراسات تاريخية، السنة الرابعة والعشرون، العددان ٨٣ و٨٤، أيلول ــ كانون أول، ٢٠٠٣م).

٣- خوري، جورج: المصالح الاستعمارية البريطانية والحفاظ على الامبراطورية العثمانية، (مجلة دراسات تاريخية، العددان ٤١ و٤٢ السنة الثالثة عشر آذار ــ حزيران ،١٩٩٢م).

٤- صالح، محمد حبيب: الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر،(مجلة دراسات تاريخية، السنة العشرون، العددان ٦٧، ٦٨، كانون الثاني ــ حزيران، ١٩٩٩م).

٥- محمد، نجاح: من معطيات المسألة الشرقية العربية،(مجلة دراسات تاريخية، العددان ٧١، ٧٢ كانون الثاني ــ حزيران، ٢٠٠٠م).

الموسوعات:

١- الهاشمي، عبد المنعم: موسوعة تاريخ العرب، (عصر المماليك والعثمانيون)، دار الهلال ــ دار البحار، بيروت،ط١،٢٠٠٦م.

٢- بيرنجيه، جان وكونتامين، فيليب ودوران، ايف وراب، فرنسي: موسوعة تاريخ أوروبا العام: ترجمة: وجيه البعيني، مراجعة أنطوان الهاشم ، منشورات عويدات، بيروت ــ باريس، ط١، ١٩٩٥م.

٣- حسين، أحمد: موسوعة تاريخ مصر، الشعب، القاهرة، مصر، د.ت،ط،٣ج .

٤- غربال، شفيق:الموسوعة العربية الميسرة، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر،مصر، القاهرة، صورة طبق الأصل من طبعة ١٩٦٥م.

٥- مجموعة مؤلفين: الموسوعة العربية العالمية ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط١، ١٩٩٦م، ٣٠ج.

المعاجم:

١- البعلبكي، منير: معجم أعلام المورد،دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م.

٢- الزركلي، خير الدين: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت، ط١٤، ١٩٩٩م.

٣- اللحام، ماجد: معجم المعارك الحربية، دار الفكر دمشق، المطبعة العلمية، ط٢، ٢٠٠٠م.

٤- أبي الفداء، عماد الدين اسمعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء صاحب حماه: تقويم البلدان،، المحروسة، باريس، ١٨٥٠م، ص٢٩٨-٢٩٩.

٥- زيدان، جرجي: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، مطبعة الهلال بالفجالة مصر، ط٢ ،١٩١٠.

المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

1- Anderson.M.S-The east ern question (1774 – 1923)Newyork – Macmillan,1966 .
2- Fawaz: Leila Tarazi ,An Occagion for war (civil conflict in Lebanon And Damascus in 1860) centr for Lebanon studies and I .B . Tauris publishers L0ndon Newyorke.
3- f. rodkey: the turco – Egyptian question in the relations of England , France and Russia 1832 – 1841 , copyrich , 1944 .
4- Marriott ,J.A.R.: The Eastern Qusteion , oxford university .press 1956 .
5- Microsoft ® Encarta ® 2009. © 1993-2008 Microsoft Corporation. All rights reserved.
6- M. SABRY : L'EMPIRE GYPTIEN SOUS MOHAMED –ALILa QUESTION d'ORIENT.
7- Poole ،Sanley lane: Encyclopaedic History of World CIVIZATION ، VOL.14 Turkey .
8 - Tibawi . A . L,: A modern History of Syria: INCLUDING Lebanon and Palestine. London 1969 .
9- Tibawi . A . L: British Interests in Palestine,1800-1901. London1961 ,oxford University Press. ,p115-116.

10- WILLIAM, Miller: OTTOMAN EMil RI AND ITS SUCCESSORS 1801—1927 THE OTTOMAN EMPIRE 1801-1913 FRANK CASS& CO LTD.1966 .

11- Williams . Henry smith , the historians – history of the world. Reprinted in India 1987.

12- Большой энциклопедический словарь , Москва , научное издальство "Большая Российская энциклопедия . 2000г.

(القاموس الموسوعي الروسي الكبير، موسكو،٢٠٠٠ م)

المواقع الإلكترونية:

١- http://en.wikisource.org/wiki/Chesney,_Francis_Rawdon_(DNB0 0)-

٢- mht!http://www.ebnmaryam.com/vb/t9732.htmlmhtml:file://C:\Users\KHLE EL\Desktop\

(موجز تاريخ انشقاق الكنائس).

٣- http://gafsa.jeun.fr/t9430-topic.

٤- http://www.number-10.gov.uk/output/page154.asp

٥- **فرديناند دي ليسيبس** http://en.wikipedia.org/wiki/Ferdinand_de_Lesseps

٦- http://www.number-10.gov.uk/output/page154.asp

٧-- www.marefa.org/index.php/مراد الثالث

٨- forum.qalamoun.com/showthread.php?10483

٩- www.ibrigate.com/vb/showthread.php?t=94501

١٠- www.marefa.org/index.php/**محمود الثاني**

١١- نابليون الثالث www.marefa.org/index.php

١٢- *ar.wikipedia.org/wiki/**عبد_المجيد**_الأول*

١٣- www.marefa.org/index.php/ سليم الثالث .

١٤- http://arz.wikipedia.org/wiki/%D9%84%D9


الملاحق

ملحق رقم (١)إن هذه الوثيقة موجودة في أرشيف رئاسة الوزراء التركي في استانبول ومحفوظة بدوسيه رقم ٧٨.

إن هذه الوثيقة موجودة في أرشيف رئاسة الوزراء التركي في استانبول ومحفوظة بدوسيه رقم ٧٨

معروض بنده‌لریدر

انکلتره وکلاسی سکندریه‌یه نصب اولنمه اولارنه مصالح داخلیه‌لریله مشغول اولمقده هنوز باشلیجه برایشه
اولنمامش ایسه ده سیجه امور اجنبیه نظارتلرینه بالمستر ونده مقدم امور اجنبیه نظارتنده بولنمش اولدیغی لورد ابردین
جنابلری الیوم قولونیا نظارتی نصب اولنمقده مداوقاتنه واردیغم مذاکراته وجوابلرینه دائر مصاحبه اولندقده
مستروی موهی الیه کندیسی ودیگرلری یعنی وکلای سائره دولت علیه‌یه هر وجهله معاونه ایلمک محمد علی‌یه
بر وجهله یوقسه [illegible] جاریه دولت علیه طرفندن اول بابده مبادره اولنمیوب محمد علی پاشا ادیبی [illegible]
تقدیرجه دولت علیه جنابلرینه حقلی اثر برقاعده حقلی بولنوب جمیع دول اوروپا محمد علی‌یه معارض اولمقده‌لریله
استبعاد اولنمقده بحث ایلدیکم جزایر مصلحتنه دائر لقردی ایلدکم عطوفتلو رشید بک افندی بنده‌لری
فرانسه وکلاسیله ملاحظه مبادره ایلمک اوزره اولدیغی بیانه ابتدیکم مستروی موهی الیه بوندن دوره سنه
مقدم بزم وکلای دولت بولندیغی اثناده فرانسه دولتی جزایری دولت علیه‌یه رد ایدیجکنی بزه وعد ایتمش ایدی
اکر اول اثناده تخت اولنیوب منصب قالمش اولسایدی شمدیه قدر جزایر فرانسه‌لو دولت علیه‌یه [illegible]
رد ایتمش اولورلردی شمدی ایسه دوره سنه دنبرو حالی اوزره قالدی باقه‌لم نصل اولور دیمش ایسه ده
استحصالنه امید وار ایلدیکی [illegible] خصوصی [illegible] تاریخیله عطوفتلو صارم افندی بنده‌لری
[illegible] تحریر ایلدیکی [illegible] طرف [illegible] برادرانه [illegible] ورود ایتمش [illegible] اشعار و [illegible]
اوزره تحریر [illegible] جناب دولت [illegible]
[illegible] اولدیغی مقاصد [illegible] وکلای موجوده [illegible] لسانا [illegible] افاده اولنه هنوز مشغول
داخلیه‌لریله مشغول اولدقلری [illegible] استماعه وقوف اولنمقده ناشی فرانسوی الصباح بو خصوصده قلمه
اولنوب امور اجنبیه نظارتنده [illegible] جنابلرینه اعطا اولنمش اولمغله منظوری اولمق [illegible] ضمننده [illegible]
خاکپای دولتلرینه ملفوفاً تقدیم [illegible] بو طرفده [illegible] صدده مذکوره [illegible] عقیب
[illegible] قولینه [illegible] اولماقده [illegible] جنابلری [illegible] دولت علیه [illegible] وجهله [illegible]
اولمسه اولنمقده اما [illegible] اوزره موهی الیهک برقاعده طوبیه [illegible] استحصال ضمننده
صدده مذکوره [illegible] برنجی موهی الیه [illegible] بغداد والیسی طرفنه [illegible]
خاکپای دولتلرینه ارسال اولنمش [illegible] قولینه تحریر واشعار [illegible] اولنمقده بشقه محمد علی پاشا

ترجمة الملحق رقم (١)

إن هذه الوثيقة موجودة في أرشيف رئاسة الوزراء التركي في استانبول ومحفوظة بدوسيه رقم ٧٨.. ترجمة الوثيقة:

تقرير من قائد الجيش: مهما تكلمت عن الوضع والأمور التي تحدث ونتائج المعارك، فأن سفير بريطانيا عندما طلبنا منه التدخل في الأمر والمساعدة، لم أحصل منه على جواب، لأنهم (البريطانيون) لا يريدون إعطاء الجواب الشافي، ويتحججون بأنهم سوف يردون على طلبنا خلال يوم أو يومين، وأن الصدر الأعظم موجود على أطراف قونية ،وقريبٌ من (جينكان) الجسر الموجود على النهر حيث يجهز لمحاربة (إبراهيم باشا) وأن المعارك هناك بين كر وفر، وقد بعث السفير الفرنسي برسالة، وعلم من خلالها بهذا الوضع جميع الدول الأجنبية، حيث تم نشرها في الصحف، بأن إبراهيم باشاقد احتل هذا الموقع، وفي اليوم الثاني اتصل وزير الداخلية البريطاني المستر (بالمرستون) مع السفير الفرنسي، وأخبره عن الوضع وتم التباحث بخصوصها من حيث التوقيع على الاتفاق، وبعد ثلاث ساعات تم التوصل إلى مناقشة الرسالة التي أرسلتها الدولة العثمانية، والتي طلبت فيها المساعدة من البريطانين كما طلبت المساعدة من فرنسا، وطلبت التدخل السريع، ومضمون الرسالة أن عصيان إبراهيم باشا واحتلاله لمناطق من الدولة العثمانية وعدم تدخل بقية الدول وخاصة بريطانيا وفرنسا حيث وقفتا متفرجتان، وجهة هذا الكلام للسفير البريطاني، وقد أبلغ هذا لفرنسا وبريطانيا والدول الأوروبية الأخرى، وحاول السفير ورغّب بريطانيا بالتدخل في هذا الأمر، وبعد اتصالات لمدة ثلاث ساعات من المداولة قررت بريطانيا وفرنسا التدخل في وجه إبراهيم باشا وإيقافه ومساعدة الدولة العثمانية، بعد أداء اليمين لتقديم المساعدة، وقد زار السفير البريطاني مكتب السفير الفرنسي لمدة ساعتين، ثم رجع إلى مكتبه وطلب من بقية الدول الاجتماع بهم، حيث طلب منهم، إذ كان بالإمكان مساعدة الدولة العثمانية مادياً ومعنوياً وعسكرياً، وتم الاتفاق على المساعدة بحضور حسين باشا . حيث عرض الصدر الأعظم أن القوات العثمانية وعددها ثلاثون ألفاً يرابطون على في الحفر والطرقات، وتم إرسال وفد إلى الإسكندرية، وإخبار السفن الحربية هناك بالمستجدات وطلب منه السلطان زيارة بريطانيا ، وكانت مدة الزيارة خمسون يوماً،

للتباحث والاتفاق ولأنها الوضع من الجهة الثانية، وأن من مصلحة الدولتان إنهاء هــذا الوضع.

وقد عرضت روسيا على الدولة العثمانية المساعدة العسكرية مقابل بدل مالي، وأن هذا العرض من روسيا أزعج بريطانيا وفرنسا، حيث أقلق الدولتين بريطانيا وفرنسا، وأقدمتا الدولتان على مساعدة الدولة العثمانية خوفاً من النفوذ الروسي ودخوله إلى المنطقة، وقد طلب السلطان العثماني الإسراع بالتوقيع على الاتفاق مع روسيا وأن المساعدات ستصل في أقرب وقت وتسليم سفيرها هناك الجواب فوراً.

إن عدد من الأفراد والتابعين لإبراهيم باشا، ويدرسون في بريطانيا واســم أحــدهم محمد رفعت يقدمون على كتابة تقارير ومقالات في الجرائد مع التوقيــع علــى هــذه المقالات في بريطانيا وفرنسا، إن مثل هؤلاء عناصر فاسدة يحاولون تشــويه الدولــة والسلطة ولا يتهاونون عن كتابة أتفه الأمور مع تعظيمها، فعلى الدولتين منــع هــؤلاء عن كتابة المقالات المعادية للدولة ومنعهم لأنهم عناصر فاسدة يحاولون النيــل مــن سيادة الدولة وإبلاغ بريطانيا وفرنسا بمحاربتهم ومسائلتهم ونحن بانتظار الأوامر مــن أولى الأمر.

عند تعيين السفير البريطاني وفور تعيينه . وانشغالهم بالأمور الداخلية وحيث النظر في أمور المواطنين فأن اللورد بالمرستون، المكلف سابقا بالنظر فــي أمــور الأجانــب، واللورد آبردين السفير السابق الذي تم تعيينه في قولونيا (بولونيا) وعند الاجتماع بهــم تم التباحث في أمور مصر والجزائر قد أوضحوا أن محمد علي باشا الذي خرج عــن الطاعة وطالب بالاستقلال وحكم مصر سوف يحاولون قدر الإمكان مســاعدة الدولــة (العثمانية) وإيقافه، وعند التباحث في مثل هذا الأمر فإن أكثر الدول الأوروبية ســوف تعارض على امتلاك محمد علي باشالمصر والاستقلال بها.

قد عرض على رشيد باشا بأن فرنسا سوف تنسحب من أطراف الجزائر ومصــر عند اللزوم، وقد كانت وقعت على وثيقة بهذا المضمون،لكن السفير الفرنسي الذي قالها احتج على أن محمد علي باشاهو السبب منذ أربع سنوات، وسوف نرى ما سيحصــل بعد الآن، حيث ورد ضمن الشروط التي تم التوقيع عليها مع صادق أفنــدي مضــمون هذه الوثيقة برقم (ج تاريخ ٢٨) حيث كان الولاة يوقعون على الوثائق قــديماً،أما الآن

بعد كثرة الحوادث وانشغال الولاة بأمور المواطنين والاستماع إليهم أخذ الوقت، فإن إصدار مذكرة من الجهات العليا مرفقة باللغة الفرنسية هي من مصلحة الدولة لأن الوكلاء (السفراء) سيكون بإمكانهم الإطلاع على الأمور بأسرع وقت،وأرجوا إرسال مثل هذه الاتفاقيات إلى الدوق (وينغتون) وبقية الوكلاء في المملكة وإرسال صورة عن الاتفاق إلى مصر مع التهديدات وأن الضرائب التي كانت على مصر عليه أن يرسلها إلى العاصمة وعليه تأمين ذلك عن طريق والي بلغراد لكي يبلغة بها مع تحديد وإشعار الإستلام من قبل محمد علي باشا.

إن المطالبة باستقلال مصر بالكامل وعلى ما كان يقدم ثلث الإرادات منها للدولة قديماً وبموجب التقارير الموقعة معه على هذا ولهذا فإن عليه أن يقدم الوثائق بهذا الأمر إلى بريطانيا عن طريق السفراء وعلى السفراء إجراء الاتصال بدولهم إعلامهم عن الأوضاع في مصر وعلى محمد علي باشا الولاء والطاعة للدولة العثمانية وللسلطان، بهذا مع تقديم كفيلٍ بالتزامه، وأن يأخذ من القوة البحرية ويحاط بالقوة البحرية البريطانية، كما يجب أن يرسل إلى الدولة بأن محمد علي باشا قد وافق على هذه الشروط وهو قيد المراقبة والتنفيذ وعلى محمد علي باشا تقديم كفيلٍ بأنه لن يقدم على تسليح سفنه مجدداً، وعليه أن يحرر مثل هذه الوثيقة ويسلمها للمستر (ولرينه) مع كفالة بريطانيا وفرنسا وروسيا على هذا، ويجب أن يسلم نسخة الاتفاق والتعهد للسيد رشيد بك أفندي محدداً التاريخ والمباشرة بهذا لنتمكن من تنفيذ ما يترتب علينا اتجاه هذه المعاهدة.

كما أقام السيد (ولينغتون) مأدبة شرح خلالها مضمون الوثيقة للحضور من كافة الدول الموجودة بما فيه مسؤول الدولة، وقد تم التشاور مع سفير فرنسا .

وقدم الملحق العسكري العثماني مضمون هذه الوثيقة إلى السلطان العثماني فيما بعد مع طلب الإطلاع عليها وإصدار الأمر اللازم.

محمد نامق

في ١٩ ج/ ١٢٥٠ هـ

الملحق رقم (٢)

اتفاقية هنكار أسكلة سي

نص المعاهدة (١)

ان صاحب الجلالة والعظمة والقوة امبراطور وعاهل البلاد الروسية وصاحب الجلالة والعظمة والقوة امبراطور العثمانيين ، رغبة منهما في تثبيت السلام والصفاء اللذين تقوم عليهما العلاقات بين امبراطوريتيهما قد قررا توسيع مدى الصداقة الخالصة والثقة بينهما بعقد محالفة دفاعية .

وتنفيذا لهذا القرار اختار صاحبا الجلالة وعينا مفاوضيهما وهم .
عن صاحب الجلالة عاهل البلاد الروسية : اصحاب السعادة الكونت الكسيس اورلوف سفيره لدى الباب العالي وابولينا بوتينيف وزيره المفوض المطلق الصلاحية لدى الباب العالي .

وعن صاحب الجلالة سلطان العثمانيين : صاحب الفخامة اقدم وزرائه محمد خسرو باشا السرعسكر القائد الاعلى للجيوش النظامية والحاكم العام لمدينة الاستانة ، وصاحبا السعادة المشير احمد فوزي باشا قائد الحرس السلطاني ومحمد عاكف افندي رئيس الديوان .

وبعد ان تبادل هؤلاء المفاوضون اوراق اعتمادهم ووجدوها مستكملة الشروط وصحيحة الشكل اتفقوا على ما يأتي :

١ – يقوم بين امبراطور روسيا وامبراطور العثمانيين وبين امبراطوريتهما وشعوبهما في البر والبحر سلام وصداقة ومحالفة دائمة . وغاية هذه المحالفة الدفاع المشترك عن الدولتين ضد كل اعتداء يقع على أحديهما ، ويعد كل من العاهلين صديقه وحليفه بأن يتفاهما ويتفقا بدون تحفظ على كل ما يتعلق بتامين راحتهما وسلامتهما وبأن يقدم كل منهما للاخر كل عون مادي ومساعدة فعالة .

٢ – ان معاهدة التحالف الدفاعية الحاضرة تؤيد وتكرس حرفا حرفا معاهدة الصلح المعقودة في ادرنه في ١٤/٢ ايلول ١٨٢٩ والاتفاق الموقع في بطرسبورغ في ٢٦/١٤ نيسان ١٨٣٠ والتسوية التي تمت في الاستانة في ٢١/٩ تموز ١٨٣٢ .

٣ – عملا بمبدأ الدفاع المشترك عن النفس الذي هو القاعدة الاساسية لمعاهدة التحالف الحاضرة وتنفيذا للرغبة الصادقة في الحفاظ على استقلال الباب العالي التام يتعهد جلالة امبراطور البلاد الروسية في كل الظروف والحالات التي تقضي على الباب العالي بأن يطلب مساعدة روسيا البحرية والعسكرية ، بأن يقدم له برا وبحرا كل الوحدات والجيوش التي يجدها الفريقان المتعاقدان ضرورية وقد تم الاتفاق على ان تكون هذه الجيوش والوحدات التي يطلب الباب العالي نجدتها تحت تصرفه .

٤ – ان نفقات تموين الجيوش البرية والوحدات الحربية التي يقدمها احد الفريقين لمساعدة الاخر تكون على عاتق الفريق الذي يطلب المساعدة .

٥ ـ ان في نية كل فريق من الفريقين المتحالفين ان تستمر هذه المعاهدة الى ابعد حد ولكن ظروفا جديدة قد تطرأ فتقتضي ادخال بعض التعديلات عليها فتحسبا لهذه الظروف والتعديلات اتفق الفريقان على جعل مدة المعاهدة ثماني سنوات تبدأ في اليوم الذي يتم فيه توقيع صاحبي الجلالة عليها . وقبل ان تنقضي هذه المدة يتداول الفريقان ويتفاهمان على تجديدها وفاقا للظروف والاحوال .

٦ ـ يتم اقرار هذه المعاهدة من قبل كل من الفريقين العاليين ويجري تبادل وثائقهما في الاستانة وذلك بعد مضي شهرين على توقيعها او قبل ذلك اذا امكن .

وهذه الوثيقة المؤلفة من ستة بنود قد تم وضعها فيما بيننا على نسختين ذيلهما كل منا بتوقيعه وخاتمه عملا بالصلاحيات المطلقة المعطاة له واحتفظ كل من الجانبين بنسخة .

الاستانة ٢٦ حزيران / ٨ تموز ١٨٣٣ ٢٠ صفر ١٢٤٩

الامضاء : الكسيس اورلوف الامضاء : محمد خسرو

الامضاء : ا ـ بوتينيف الامضاء : احمد فوزي

الامضاء : محمد عاكف

٧ ـ مادة سرية مستقلة

قضت المادة الاولى من معاهدة التحالف الدفاعي المعقودة بين البلاط الامبراطودي الروسي والباب العالي بأن يقدم كل من الفريقين المتحالفين للاخر المساعدات المالية الاكثر فعالية لتأمين سلامة المملكتين ولكن صاحب الجلالة امبراطور البلاد الروسية . رغبة منه في ان لايثقل كاهل الباب العالي العثماني بتحميله أعباء هذه المساعدات ، لن يطلبها منه ويكتفي من حليفه باقفال مضيق الدردنيل أي بأن لا يسمح لاي سفينة حربية أجنبية ان تدخله لاي سبب من الاسباب .

ويكون لهذه المادة السرية المستقلة ذات القيمة والقوة اللتين لمواد المعاهدة وهي جزء منها له مثلها صفة الالزام .

كتب في الاستانة ٢٦ حزيران / ٨ تموز ١٨٣٣ ٢٠ صفر ١٢٤٩

الامضاء : محمد خسرو ـ احمد فوزي ـ محمد عاكف الامضاء : اورلوف

ا ـ بوتينيف

نقلاً عن وثائق التدخل الأجنبي، الوطن العربي في ظل الاحتلال العثمـــاني، د.م، د.ن، ط١، ١٩٧٥م. ص٧٣-٧٥.

وثيقة رقم (٣)

تتضمن المحفظة رقم ٢٤٧ أمر محمد علي باشا احتكار الحرير، وتشير المحفظة رقم ٢٣٣ إلى اعتراض القناصل في بيروت على فتح المراسلات، وتشير المحفظة رقم ٢٥٤ إلى مشاركة التجار المحليين مع الأجانب من أجل التهرب من الجمارك.

صُورة الوثيقة العَرَبيَّة رَقْم 40، محفظة رَقْم 233 عابدين/ 16 ذي القعدة سنة 1247هـ

اعترض القناصل الأُورُوبيُّون المُقيمون في بيروت على الأمر القاضي بفَتْح المُراسلات البهجة لحالة الحرب القائمة، لكون هذه الحرب بين دولة واحدة وأحد وُلاتها، وأنَّه لا علاقة لهم بها، وأنَّ ذلك يضرُّ بمصالحهم، كما يشرح الطَّريقة التي تَمَّ التَّعامل بها مع ملاَّ أفندي الشَّام، الذي مُنع -أوَّلاً- من النُّزُول إلى البرِّ بحُجَّة الكُورانتينا، ثُمَّ السَّماح له بالإقامة خارج مدينة بيروت لمُدَّة عشرة أيَّام، هُو ومَنْ معه من خاصَّته تحت الحراسة.

وثيقة رَقْم 24/267، محفظة رَقْم 254 عابدين/ بدُون تاريخ

من حنَّا بك إلى شريف باشا: لقد عمد التُّجَّار الأهلين إلى نظام المُشاركة مع تُجَّار الإفرنج، من أجل عدم دفع رُسُوم الجمارك الواجبة على تُجَّار الرَّعيَّة، أو أنْ يأخذ تُجَّار الإفرنج الأموال من الرَّعيَّة، ويُتاجروا بها، والحالة الثَّانية: بما أنَّ أكثر بضائع التُّجَّار الإفرنج يروح بَيْعها في الشَّام، فقد أقام كُلُّ تاجر من تُجَّار الإفرنج مخزنجيّاً أو كاتباً من الأهالي هُنا، وفي حال باع أحد التُّجَّار الإفرنج أحد التُّجَّار الأهالي في بيروت بضاعة ما، يقصد شحنها إلى الشَّام، اتَّفق معه على الشَّحن، على شرط عدم دَفْع أيِّ شيء لجُمرك الشَّام؛ حيثُ يأخذ التَّاجر تذاكر التَّخليص من جُمرك بيروت عن هذه البضاعة، على اعتبار أنَّها مُرسَلَة على حسابه إلى وكيله الموجود بالشَّام، ويُرسلها إلى هُناك، دُون أنْ يدفع الرَّسْم الجُمركي، وفي حال وصلت البضاعة إلى الشَّام، تُسلَّم إلى وكيل أو شريك التَّاجر الرَّعيَّة، وجامع القول: إنَّ إيرادات المواني الشَّاميَّة وجُمرك الشَّام قد أُصيبت بأضرار من جرَّاء هذه الحالة.

صُورة الوثيقة العَرَبيَّة رَقْم 86، محفظة رَقْم 247 عابدين/ 7 صَفَر سنة 1249هـ:

أمر من مُحَمَّد علي باشا: بمنع بيع الحرير إلى التُّجَّار، وكُلُّ مَنْ يُخالف ذلك من المُزارعين والتُّجَّار يلقى العقاب المُناسب، وتمَّ توزيع أفراد لمُراقبة طريق الجبل وغيرها، لمنع تهريبه، على أنْ يُباع جميع الحرير إلى الميري.

نقلاً عن بني هاني، خالد أحمد مفلح: تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري ١٢٤٦-١٢٥٦هـ (١٨٣١- ١٨٤٠م)، الأوائل دمشق، ط١، ٢٠٠٥م ص٤٣٤.

وثيقة رقم (٤)

تبين دور الدول الأوروبية بما فيها بريطانيا في تحريض أهالي بلاد الشام على الثورة.

مصدرها: محافظ عابدين - محفظة ٢٥٩ - ترجمة الوثيقة رقم ١٥٤ - ١
تاريخها: ٨ ربيع الثاني ١٢٥٦ هـ.

من: ميرميرانو رئيس رجال الجهادية ..
الى: حسن باشا الباشمعاون :

لقد أرسلت معاوني القائمقام على بك الى الأمير بشير في ٦ ربيع الثاني ١٢٥٦ هـ بقصد أخذ بعض المعلومات اللازمة عن الموقف الحاضر فعاد أمس الموافق يوم الأحد بتقرير كتبه عما رآه وبلغ سمعه هناك وبكتاب عربي من الأمير بطيه أوراق فاستنسخت صورة حرفية من ذلك التقرير وصور كتاب الأمير والأوراق التي بطيه فأرسلتها طي هذه العريضة مسلمة الى بريد خاص لرفعها الى أعتاب مولانا الجناب العالي للاطلاع عليها وقد ثبت الآن أن المعلومات التي تضمنها هذا التقرير وكتاب الأمير والأوراق التي بطيه تصدقني فيما ذهبت اليه من أن للاوربيين أصبعا في هذا الفساد سيما العبارات المذكورة في التقرير خاصة بذلك في محلها جدا ولا مجال للاعتراض عليها فكتبت سر الحضرة محمود بك محافظ بيروت أن يتجسس أحوال العصاة في الوقت الحاضر كما ينبغي في غاية التيقظ والانتباه وبدون أن يمكنهم من أن يشعروا بهذا التجسس لكي نقف على أحوالهم وقوفا تاما كما اني بذاتي سأسعى سرا أيضا في معرفة مبعث هذا الفساد وسانبئكم فورا وبدون تأخير بالاخبار الموثوقة التي سأتوصل اليها في هذا الشأن من بعد الآن. هذا وقد ضبطت أوراقا خاصة بنابلس والخليل والقدس وبلاد صفد وبلاد المغار وبيت الجن مما وزعه العصاة على الجهات في هذا التاريخ في سبيل العصيان ولما كان مضمونها واحدا فقد أرسلت الى دولتكم أيضا صورة منها طي هذه العريضة للاطلاع عليها.

حاشية:

مولاي :

يفهم من مضمون أوراق العصاة التي ضبطت أن للاستانة اصبعا في هذا الفساد كما للاوربيين اصبع فيه حيث أن ذلك المضمون يطابق تصميم الاستانة الذي اطلعنا عليه في كتابهم الذي عثرنا عليه في حرب نزيب ولما كان صورة ذلك الكتاب قد سلمت قبلا لعبدكم خسرو أفندي الترجمان الثاني فبالاطلاع عليها وعلى صورة أوراق العصاة هذه ستعلمون صدق هذا القول حيث أن كلا منهما يطابق الآخر في المضمون.

الارادة الصادرة اليه في ١٤ ربيع الثاني ١٢٥٦هـ. ١٥٤/٢٩-٢ **ليعلم أن** عباس باشا قد عين مع قوة كبيرة وأنه على وشك أن يغادر أرض مصر قاصدا بر الشام.

ختم
عبده سليمان

نقلاً عن أبو فخر، فندي جدعان:سورية والصراعات الدولية ١٨٣١-١٨٤٠م محمد علي باشا والحسابات الخاطئة،السويداء، سورية،ط١، ٢٠٠٠م، ص١٨٦.

وثيقة رقم (٥)

تشير هذه الوثيقة إلى قيام ثورة في كسروان والمتن، ودور الدول الأوروبية فيها لاسيما بريطانيا.

مصدرها: محافظ عابدين - محفظة رقم ٢٥٩
تاريخها: ١٦ ربيع ثاني ١٢٥٦هـ.
ورد في ٢٢ ربيع ثاني ١٢٥٦هـ.

من : محمد شريف (ختم) ..
الى : صاحب الدولة حسين باشا الباشمعاون الخديوي :

جاء فى كتابين واردين أخيرا الى عبدكم حنا بك من عبدكم المعلم بطرس كرامة كاتب حضرة الأمير بشير أن أهالى مقاطعتى كسروان والمتن فى الجبل اللتين ظهر منهما اضطراب أخيرا لا يزالون مصرين على طغيانهم وأن للافرنج يدا فى هذا الاضطراب فاستنسخت صورتيهما فى ورقة وارسلتهما اليكم طى هذه الافادة فارجوا تقديمهما الى الأعتاب السنية .

الارادة الصادرة اليه فى ٢٢ ربيع الثانى ١٢٥٦ هـ عـ ٣١.

ليعلم أن حكومة القاهرة قد آلت أن تقوم بتأديب هؤلاء العصاة وبتفهيمهم ما هى نتائج دوامهم على العصيان وصمودهم فيه حيث أرسلت عليهم أربعة آلايات ومدافع ودوابا محمولة على السفن وسترسل غدا الجنود الغير النظاميين مع عباس باشا وأمرت الباشا السر عسكر بابقاء الجند البالغين ألفا وخمسماية نفس الذين قدموا من بغداد الى الشام فيه وعدم ارسالهم الى جهة ما لأجل مقاتلة هؤلاء العصاة.

نقلاً عن أبو فخر، فندي جدعان: سورية والصراعات الدولية ١٨٣١-١٨٤٠م محمد علي باشا والحسابات الخاطئة، السويداء، سورية، ط١، ٢٠٠٠ م ، ص ١٨٨.

وثيقة رقم (٦)

مقتطفات من تقرير القنصل البريطاني في بيروت إلى السفير البريطاني في الأستانة عن الثورات في بلاد الشام.

(مقتطفات من تقرير القنصل البريطاني في بيروت
الى سفير بريطانيا في الاستانة *)

1838 No. 1

Beyrouth 11th January 1838

His Excellency
The Light Honorable Lord Ponsonby
Her majesty's ambassador
at the Porte.

My Lord

I have not had occasion to address your exellency since the 23rd Nov. By the Way of Alexandria.

Accounts have been received at this place of the massacre of 400 Egyptians troops in the Hauran by the Druzes who inhabit the mountains of Eastern Edumea.

One of the governors in the Hauran has also fallen a victim. The cause of this insurrection was the demand made by the goverment for conscripts. A strong force has been sent from Damascus and Hama against the insurgents - who will most probably retire on their approach to the desert.

The revolted Druzes inhabit the mountains which seperate the Hauran from the desert of Arabia.

About a thousand conscripts have within few days arrived at Beyrout from the adjacent places - they are chiefly boys many of them not more than 14 years of age ...

* الارشيف البريطاني ، F. O. 226 / 12

نقلاً عن أبو صالح، عباس: التاريخ السياسي للأمارة الشهابية في جبل لبنـــان ١٦٩٧-١٨٤٢م، بيروت، ط١، ١٩٨٤م، ص٤٣٥.

وثيقة رقم (٧)

اتفاقية بلطة ليمان في ١٦ آب ١٨٣٨م

المعاهدة (١)

التجارية والبحرية المبرمة بين الباب العالي ودولة بريطانيا العظمى . وقع عليها في بلطه ليمان حذاء الاستانة في ١٦ أغسطوس من عام ١٨٣٨ .

انه في خلال أيام الصفاء التي استمرت بحمد الله زمناً طويلا بين الباب العالي وملوك دولة بريطانيا العظمى أبرمت معاهدات رضي بها الباب

(١) ان المعاهدة التجارية المبرمة حديثاً مع الباب العالي انما هي ذيل للمعاهدات ويراد بالمعاهدات التجارية بوجه خصوصي ما أبرم منها بالطرق السياسية وانحصر موضوعه بالتجارة فقط الا ان الحال دعت الى ايجاد هذا الملحق بالنظر لتقدم التجارة الخارجية مؤخراً في الممالك المحروسة ونحن ذاكرون هنا المعاهدات التجاريه سواء أبرمت عام ١٨٣٨ أو عام ١٨٦١ وان يكن ما أبرم في عام ١٨٦١ هو الجاري العمل بموجبه الآن والباعث على ذلك ان المعاهدة المؤخرة أتت مفسرة لما تقدمها وان المؤخرة تضمنت كثيراً من نصوص المعاهدات المتقدمة ولم تنسخها ومن حيث ان المعاهدات المبرمة بين الدول الاخرى متحدة المعنى والمبنى يكفي الاطلاع على واحدة منها ليعلم ما اشتملت عليه البقية فلهذا اقتصرنا على ايراد المعاهدة المبرمة بين الباب العالي وانكلترا وفرنسا لأنهما الدولتان اللتان سبقتا بقية الدول في ابرام هذه المعاهدات وسننشر المعاهدة الروسية أيضاً المبرمة عام ١٨٣٨ لما جاء فيها من بعض الفروق ومن حيث ان اللغة الفرنساوية هي اللغة التي كانت مستعملة لدى الباب العالي كلغة رسمية وسياسية فلهذا كانت أغلب المعاهدات بالفرنساوية

العالي ووفاقات بوُدلت عليها تصديقات الدولتين ورتبت الرسوم الواجب دفعها على البضائع الصادرة من بلاد الدولة العلية والواردة اليها وبينت الحقوق والامتيازات والاعفاآت ومواجب التجار الانكليز الذين يتعاطون الاشغال التجارية ويقيمون في بلاد الدولة العلية

ومنذ عدلت المعاهدات لآخر مرة حدث تغييرات كثيرة في ادارة داخلية السلطنة العثمانية وفي صلاتها الخارجية مع الدول الاجنبية وغير ذلك من الاسباب

بند - ١ - كل الحقوق والامتيازات والاعفاآت الممنوحة لتجار الانكليز ولمراكبهم بموجب المعاهدات والاتفاقات الموجودة تثبت لهم الآن الا ما يبطله الاتفاق الحالي وقد تقرر بنوع خصوصي ان كل الحقوق والامتيازات والاعفاآت التي يمنحها الباب العالي والتي سيمنحها في المستقبل لرعايا دولة أجنبية ولمراكبها وكل ما يؤذن به لرعايا دولة أجنبية ولمراكبها يكون ممنوحاً ومأذوناً به لرعايا دولة انكلترا ولمراكبها ويتعاطونه بملء الحرية {١}

---

(١) ان منطوق هذه البند يشمل عليه موضوع البند الثانى ماخوذاً من مذكرة أرسلتها الوزارة العثمانية لسفير انكلترا فى ٢٧ أغسطوس عام ١٨٣٨ وهذا نصها

ان معنى فقرات البند الاول المطلوب ايضاحها ظاهر جلى فى البند الثانى الذى يليه لتعلق البندين ببعضهما ومع ذلك نكرر القول . بان التجار الانكليز يمكنهم حسب أحكام المعاهدة ان يبتاعوا من الممالك العثمانية كل أصناف البضائع وان يصدروها للخارج ان وافقهم تصديرها وذلك بعد دفع الرسوم المشترط دفعها فى المعاهدة واذا وجدوا بيعها فى داخلية البلاد العثمانية يوافق صالحهم فلهم ان يبيعوها متبعين بذلك شروط معاهدة التجارة الداخلية .

بند - ٢ - لرعايا دولة انكلترا ولمن ناب عنهم ان يشتروا من سائر انحاء الممالك العثمانية كل أصناف البضائع زراعية كانت أو صناعية بدون استثناء صنف وأحد منها { سواء كان ذلك للاتجار في داخلية البلاد أو في الخارج } ويتعهد الباب العالي صريحاً بالغاء كل أنواع الاحتكارات المضروبة على الحاصلات الزراعية والصناعية من حاصلات البلاد العثمانية وبالغاء الرخص التي كان يعطيها حكام البلاد لمشترى البضائع أو لتصديرها بعد مشتراها وعليه فكل الاجراآت التي تكون باعثاً لالزام رعايا حكومة انكلترا على طلب الرخصة المذكورة تعتبر مخالفة للمعاهدات والباب العالي يتعهد بمعاقبة الوزراء والضباط والمأمورين الذين يخالفون معاقبة صارمة بدون امهال وبالتعويض بوجه العدالة والانصاف على الرعايا الانكليز عما يلحق بهم من الاضرار والخسائر اذا أثبتوا ذلك .

بند - ٣ - عند ما يشتري التجار الانكليز أو نوابهم شيئاً من حاصلات البلاد العثمانية الزراعية أو الصناعية قصد بيعها في داخلية البلاد العثمانية يدفعون حين مشترى هذه الاصناف وحين بيعها أو حين التعامل بها على أي وجه كان الرسوم التي يدفعها في مثل تلك الاحوال الرعايا العثمانيون الذين يعاملون بالافضلية ممن يتجرون في داخلية البلاد من مسلمين وسواهم .

بند - ٤ - اذا اشترى الانكليز بعض حاصلات البلاد العثمانية الزراعية والصناعية قصد تصديرها فللتجار الانكليز ونوابهم نقلها معفاة من كل

أنواع الضرائب والرسوم الى الميناء على التصدير حيث يؤخذ عنها عند دخولها رسم قدره تسعة بالماية . وهذا الرسم يقوم مقام كل الرسوم الاخرى الداخلية

ثم انه حال التصدير يدفع عن البضائع المصدرة رسم قدره ثلاثة بالماية - كما هو جار الآن - ولكن البضائع التي تشترى من مواني التصدير بعد ان يدفع عنها رسم الدخول لا يؤخذ عنها الا رسم التصدير المنوه عنه أي ثلاثة بالماية .

بند - ٥ - ان الشروط التي بمقتضاها تسلم الفرمانات لمراكب الانكليز التجارية التي تمر في الدردانيل والبوسفور تحرر على الوجه الذي لا يسبب لهذه المراكب تأخيراً .

بند - ٦ - قررت الحكومة العثمانية ان الاحكام الواردة في هذا الوفاق يسري مفعولها في جميع الممالك الشاهانية أي تركية أوروبا وتركية آسيا ومصر وغيرها من البلاد الافريقية التي هي من ممالك الدولة العلية وتنفذ على جميع الرعايا العثمانيين مهما كانت صفتهم

وخلا ما تقدم فقد قررت الحكومة العثمانية ان لا تمنع سائر الدول الاجنبية عن تنظيم أحوال تجارتها على أساس هذا الوفاق .

بند - ٧ - من العوائد المرعية بين الباب العالي وحكومة بريطانيا العظمى { منعاً للصعوبة والتأخير في تثمين البضائع التي يصدرها الرعايا الانكليز الى بلاد الدولة العلية والتي يوردونها اليها } تعيين مندوبين ذوي

معرفة تامة باحوال البلادين التجارية وذلك بعد مضي كل أربع عشرة سنة لتنظيم تعريف يعمل بمقتضاه في خلال المدة المذكورة وعند انقضاء الاجل يعين كل من الفريقين مرخصين يعملون معاً لتحديد وتعيين مبلغ النقود التي يدفعها رعايا الانكليز بدل الرسم الذي قدره ثلاثة بالماية عن البضائع التي يوردونها الى بلاد الدولة أو التي يصدرونها منها

وعلى المندوبين المذكورين ان يعينوا طريقة عادلة لتقدير الرسوم الخارجية المقررة في هذه المعاهدة على البضائع العثمانية المعدة للتصدير . ويعينوا أيضاً أمكنة التصدير التي تكون أكثر موافقة لتحصيل الرسوم

ويجري العمل بموجب التعريف الحديث مدة سبع سنوات تمضي ابتداء من يوم التعيين وعند انقضاء الاجل يحق لكل من المتعاقدين ان يطلب تعديل التعريف واذا لم يطلب أحد المتعاقدين تعديله في خلال الاشهر الستة التي تمر بعد انقضاء السنوات السبع يظل العمل جارياً بمقتضى التعريف الاول في مدة سبع سنوات آخر ابتداء من انتهاء أجل السنوات السبع الاول وهكذا يكون على التوالي بعد مضي كل سبع سنوات

بند ـ ٨ ـ يختص هذا البند بعبارات التصديق على البنود المتقدم ذكرها

بنود اضافية

حيث ان بعض الصعوبات حدثت بين سفير ملك انكلترا ومرخص الباب العالي بسبب تعيين الشروط الحديثة المعقدة قاعدة يعمل بمقتضاها في ما يختص بتجارة البضائع الانكليزية التي تورد الى البلاد العثمانية أو التي تمر بها على وجه النقل • اتفق سعادة سفير ملك الانكليز ومرخص الباب العالي على ان يوقعوا على هذا الوفاق مستثنياً منه البنود الآتي ذكرها وحصل الاتفاق أيضاً على ان البنود المذكورة التي ارتضت بها الحكومة العثمانية تعرض على حكومة ملك الانكليز فان رضيت بها أدرجت بين أحكام المعاهدات النافذة والمبرمة حديثاً

أما البنود المنوه عنها فهي

بند ـ ١ ـ كل صنف من محصولات بريطانيا العظمى وايرلندا وملحقاتها وكل نوع من البضائع سواء كانت زراعية أو صناعية اذا كانت ملك تجار انكليز وشحنت على مراكب انكليزية أواذا نقلها الانكليز براً أوبحراً من بلاد أجنبية الى بلاد الدولة العلية يؤذن بادخالها الى جميع أنحاء السلطنة العثمانية بدون استثناء كما كان جارياً منذ القديم حتى الآن بعد ان يؤخذ عنها رسم قدره ثلاثة بالمائة باعتبار أثمان البضائع المذكورة

وعوضاً عن كل الرسوم الخارجية وغيرها من الرسوم المضروبة على البائع أو على علي المشتري كما هو جار الآن تقرر ان يدفع المورد بعد استلام بضائعه اذا باعها في محل استلامها أو اذ أرسلها من محل الاستلام لداخلية البلاد العثمانية لتباع هناك . رسماً محدداً قدره اثنان بالماية وبعد دفع الرسم المذكور تباع البضائع وتشترى في داخلية البلاد وتصدر ثانية الى الخارج بدون ان يضرب عليها رسم آخر مهما كان وكل البضائع التي يدفع عنها في أحد المواني رسم التوريد الذي هو ثلاثة بالماية يحق لمالكها ارسالها الى مينا أخر معفاة من كل رسم سواه . ولا يؤخذ عنها الرسم الثاني الا عند بيعها أو عند ارسالها من المينا الى داخلية البلاد

ومن المقرران حكومة جلالة ملك انكلترا لاتدعي لهذا البند وغيره من بنود هذه المعاهدة تأويلا فوق المعنى المتبادر للفهم ولا تعارض حكومة جلالة السلطان باستعمال حقوقها في الادارة الداخلية اذا كان استعمال هذه الحقوق لايضر بالامتيازات الممنوحة لرعايا دولة الانكليز ولمتلكاتهم بالمعاهدات القديمة والحديثة

بند - ٢ - لرعايا دولة انكلترا ولمن ناب عنهم ان يبيعوا ويشتروا بكل حرية في سائر انحاء السلطنة جميع أصناف البضائع الاجنبية التي تأتي الى بلاد الدولة العلية من الخارج واذا لم يكن دفع عن تلك البضائع الا رسم التوريد فعلى التجار من رعايا انكلترا ومن ناب عنهم ان يدفعوا عن البضائع المشتراة الرسم الغير اعتيادي وقدره اثنان بالمائة عند بيع

البضائع أو عند ارسالها الى الداخلية البلاد قصد بيعها وبعد ذلك تنقل البضائع المذكورة وتباع وتصدر معفاة من كل أنواع الرسوم واذا دفع عن البضائع الاجنبية الرسمان أعني رسم التوريد ورسم الدخولية المجدد يسوغ للانكليز حالتئذ ولوكلائهم ان يشتروها ويبيعوها ويصدروها الى حيث شاؤوا بدون ان يضرب عليها رسم ما .

بند – ٣ – لا يضرب رسم ما على البضائع الانكليزيه أعني الحاصلات الزراعية والصناعية والاشغال اليدويه وحاصلات البلاد الاجنبية سواء كانت زراعية أو صناعية اذا كانت مشحونة على مراكب انكليزيه ومرت في مضيق الدردانيل والبوسفور والبحر الاسود سواء كان مرورها على المراكب التي أتت بها أو انها نقلت الى سواها أو أرسلت لجهة أخرى قصد بيعها فانزلت من السفينة الشاحنة الى سواها في مدة معلومة لا تتجاوز حد الافراط في التأخير

وكل بضاعة يؤتى بها الى بلاد الدولة العلية لترسل منها الى بلاد أخرى أو تظل عند صاحبها موقوفة حتى يرسلها الى بلاد أجنبية لتباع فيها لا يدفع عنها الا رسم التوريد وقدره ثلاثة بالمائة ولا يدفع عنها رسم آخر

نقلاً عن: أصف، يوسف بك، المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوروبية، ترجمة: يوسف بك أصف، المطبعة العمومية بمصر، القاهرة، ط٢، ١٨٩٦م. ص٩٢-٩٩.

وثيقة رقم (٨)

نص معاهدة لندن ١٥ تموز ١٨٤٠م وملحق بالاتفاق الموضوع في لندن.

نص (١) معاهدة لندن ١٥ تموز ١٨٤٠

وهذه المعاهدة اتفاق بين بريطانيا وبروسيا وروسيا والنمسا وتركيا لاقرار السلام في الشرق.

لما كان جلالة السلطان قد توجه الى اصحاب الجلالة ملكة بريطانيا العظمى وايرلندا، وامبراطور النمسا ملك المجر وبوهيميا، وملك بروسيا، وامبراطور البلاد الروسية، يطلب العون والمساعدة فيما يعانيه بفعل عداء محمد علي باشا مصر من صعوبات وشدائد تهدد سلامة الامبراطورية العثمانية واستقلال عرش السلطان.

ولما كان اصحاب الجلالة المذكورين اوفياء للصداقة الخالصة القائمة بينهم وبين السلطان وراغبين رغبة صادقة في السهر على سلامة واستقلال الامبراطورية العثمانية تأمينا لاستقرار السلام في اوربا وملزمين بتنفيذ العهد الذي قطعوه على انفسهم في المذكرة الجماعية التي وجهها ممثلوهم في الاستانة الى الباب العالي في ٢٧ تموز ١٨٣٩ وبالحؤول دون سفك الدماء الذي ستسببه مواصلة الاعمال الحربية التي بدأت في سورية بين باشا مصر ورعايا جلالة السلطان.

فقد قرر اصحاب الجلالة وجلالة السلطان ان يعقدوا فيما بينهم اتفاقا لتحقيق الاهداف المبينة اعلاه وعينوا لوضع هذا الاتفاق مفاوضيهم الاتية اسماؤهم:

عن جلالة ملكة بريطانيا العظمى وايرلندا: صاحب المقام الجليل اللورد بالمرستون مستشار جلالتها في مجلسها الخاص وحامل وشاح الحمام العالي وامين الدولة الاول ووزير الخارجية.

وعن جلالة امبراطور النمسا وملك المجر وبوهيميا: البارون فيليب نومن حامل وسام ليوبولد من درجة قومندور وصليب الاستحقاق المدني ووسام البرج والسيف البرتغالي وصليب الجنوب البرازيلي وصليب القديس ستانيسلاس الروسي من الدرجة الثانية، مستشار البلاط والوزير المفوض المطلق الصلاحية لدى صاحبة الجلالة البريطانية.

وعن صاحب الجلالة ملك بروسيا: البارون هنري غليوم فون بيلو فارس النسر الاحمر من الدرجة الاولى وحامل الوشاح الاكبر من وسامي ليوبولد النمساوي ومملكة هانوفر، ووسامي القديس ستانيسلاس من الدرجة الثانية والقديس فلاديمير الروسي من الدرجة الرابعة، وقومندور وسام الصقر السكسوني، ومن امناء ومستشاري البلاد والوزير المفوض المطلق الصلاحية لدى صاحبة الجلالة البريطانية.

وعن صاحب المهابة والجلالة والقوة السلطان عبد المجيد امبراطور العثمانيين: شكيب افندي حامل (نيشان الافتخار) من الدرجة الاولى ومن كبار رجال الديوان الامبراطوري، والمستشار الفخري لوزارة الخارجية وسفير جلالته لدى صاحبة الجلالة البريطانية.

وبعد ان تبادل المفاوضون اوراق اعتمادهم ووجدوها صحيحة شكلا تم اتفاقهم وتوقيعهم على المواد التالية:

(١) عن كتاب السياسة الدولية في الشرق العربي- الجزء الثاني -اميل خوري وعادل اسماعيل- دار النشر للسياسة والتاريخ بيروت ١٩٦٠.

— ٧٦ —

١ ـ لما كان جلالة السلطان قد اتفق مع اصحاب الجلالة المذكورين على شروط التسوية التي ينوي جلالته أن يتكرم بها على محمد علي وهي الشروط المبينة تفصيلا في الوثيقة المستقلة الملحقة بهذا الاتفاق فان اصحاب الجلالة يتعهدون بتوحيد جهودهم والعمل متفقين لجعل محمد علي يتقيد بنص التسوية وروحها على ان يحتفظ كل منهم بحرية العملوفاقا للوسائل المتوافرة له.

٢ ـ اذا رفض باشا مصر قبول هذه التسوية التي ستبلغ اليه من قبل السلطان بالتعاون مع اصحاب الجلالة فان اصحاب الجلالة يتعهدون حالما يطلب منهم السلطان ذلك بأن يتخذوا التدابير المتفق عليها فيما بينهم لتنفيذ التسوية .

ولما كان السلطان قد دعا اصحاب الجلالة حلفاءه ان ينضموا اليه لقطع المواصلات البحرية بين مصر وسورية ومنع ارسال الجند والخيل والسلاح والذخائر والمؤن الحربية بمختلف انواعها من احد هذين الاقليمين الى الاخر فان اصحاب الجلالة يتعهدون بأن يعطوا فورا الاوامر اللازمة لقادة اساطيلهم في البحر المتوسط لتنفيذ طلب جلالته ، ويعدون أيضا بأن يقدم قادة اساطيلهم ، كل في مدى الوسائل التي بيده ، كل المساعدات الممكنة لرعايا السلطان المقيمين على ولائهم واخلاصهم لجلالته .

٣ ـ اذا قام محمد علي ، عقب رفضه الانصياع لشروط التسوية المذكورة بتوجيه جيوشه البرية وقواه البحرية نحو الاستانة فان اصحاب الجلالة ، عند اول طلب يقدم من قبل السلطان الى ممثليهم في العاصمة العثمانية ، يلبون هذا الطلب ويبادرون للدفاع عن عرشه متفقين متعاونين ولصون البوسفور والدردنيل وعاصمة السلطنة من كل اعتداء .

وقد اتفق اصحاب الجلالة على ان القوى التي يستعملونها لهذا الغرض ستبقى في مواقعها ومراكزها الدفاعية طول المدة التي يريدها السلطان، وعندما يرى جلالتهان وجودها لم يعد ضروريا فانها ستنسحب معا ويعود كل منها الى قواعده في البحر الاسود او البحر المتوسط .

٤ ـ اتفق اصحاب الجلالة اتفاقا صريحا على ان التعاون المنصوص عليه في المادة السابقة والذي يضع المضايق والعاصمة العثمانية بصورة موقتة تحت حمايتهم لصد كل اعتداء يأتي من جانب محمد علي لا يعتبر عند حصوله الا تدبيرا استثنائيا وضع ونفذ بناء على طلب صريح من السلطان لهذا الغرض فقط .

ومن المتفق عليه بينهم ايضا ان هذا التدبير لا يغير ولا ينقص شيئا من القاعدة القديمة التي وضعها الباب العالي وحرم دائما بموجبها دخول الدردنيل والبوسفور على جميع الوحدات الحربية الاجنبية والسلطان يعلن في هذا الاتفاق انه الا في الحالة المذكورة سابقا ، عازم عزما صادقا على الحفاظ في المستقبل على هذه القاعدة القديمة من سياسته ، وعلى عدم السماح لاية سفينة حربية اجنبية بالدخول الى مضيقي البوسفور والدردنيل كما يتعهد اصحاب الجلالة من جهتهم باحترام الارادة السلطانية وبعدم الشذوذ عن هذا المبدأ الذي قررته .

٥ ـ يتم التصديق على هذا الاتفاق وتبادل وثائقه في لندن خلال شهرين أو قبل ذلك اذا امكن.

كتب في لندن ١٥ تموز ١٨٤٠.

الامضاء : بالمرستون
نومن
بيلو
برونوف
شكيب

٩ ـ عقد مستقل (١)

ملحق بالاتفاق الموضوع في لندن

بين النمسا وبريطانيا وبروسيا وروسيا وتركيا في ١٥ تموز ١٨٤٠

في نية السلطان ان يجود على محمد علي بالتسوية المبينة فيما يلي وان يبلغه شروطها :
١ ـ يعد جلالته بأن يمنح محمد علي وأولاده وحفدته من بعده ادارة باشوية مصر وان يضع بيده مدى حياته ، مع لقب باشا عكا وحاكم قلعة ماربوحنا ، ادارة الجزء الجنوبي من سورية المبينة حدوده فيما يلي :

تمتد هذه الحدود على خط يبدأ عند رأس الناقورة على ساحل البحر المتوسط الى مصب نهر شيزبان على الساحل الشمالي لبحيرة طبريا ومنه على طول الساحل الغربي لهذه البحيرة فالشاطىء الايمن لنهر الاردن فالساحل الغربي للبحر الميت ومنه الى البحر الاحمر عند خليج العقبة شمالا ثم ينحدر غربا الى الساحل الغربي لهذا الخليج فالساحل الشرقي لخليج السويس وينتهي عند مدينة السويس .

والسلطان اذ يقرر هذه المنحة يشترط ان يقبلها محمد علي في مهلة عشرة ايام تبدأ يوم عرضها عليه في الاسكندرية بواسطة مندوب عن جلالته وان يسلم هذا المندوب حال قبولها رسائل الى قادة قواه البحرية والبرية يأمرهم فيها بالانسحاب فورا من بلاد العرب والمدن المقدسة الواقعة فيها ومن جزيرة كريت وقضاء اضنة وجميع الاراضي العثمانية الخارجة عن الحدود المبينة اعلاه .

٢ ـ اذا انقضت مهلة العشرة ايام المنصوص عليها في المادة السابقة بدون ان يقبل محمد علي التسوية المذكورة فان السلطان يلغي عرضه الخاص بباشوية عكا ويعطي محمد علي مهلة عشرة ايام أخرى لقبول أو رفض باشوية مصر الممنوحة له ولاولاده وحفدته من بعده على أن يرافق قبوله تسليم مندوب السلطان الاوامر الى قواده بالانسحاب على الوجه المبين فيما تقدم وبالرجوع الى الاراضي والموانيء المصرية .

٣ ـ ان الخراج السنوي الذي يترتب على محمد علي تقديمه للخزانة سيحدد بالنسبة الى الاراضي التي تكون ادارتها في يده سواء أقبل العرض كاملا في المهلة الاولى أم اكتفي بالعرض الثاني في المهلة الثانية .

٤ ـ على محمد علي سواء اقبل العرض الاول أم الثاني ان يضع الاسطول التركي بكامل عدته وسلاحه ورجاله بيد الوفد الذي سيأتي من قبل الباب العالي لهذه الغاية ، على أن يتم ذلك بحضور قادة اساطيل الحلفاء ولن يكون لمحمد علي اي حق بأن يحسم من قيمة الخراج الذي سيترتب عليه دفعه لخزانة الباب العالي المبالغ التي انفقها على الاسطول التركي في المدة التي كان فيها هذا الاسطول محتجزا في الموانيء المصرية .

٥ ـ كل المعاهدات التي عقدها الباب العالي وجميع القوانين التي سنها تكون نافذة ومعمولا بها في مصر وباشوية عكا . غير أن السلطان يقبل ، بشرط دفع الخراج المشار اليه فيما تقدم،

ان يقوم محمد علي وخلفاؤه من بعده باسم السلطان وبوصفهم ممثلين له بجباية المكوس والضرائب القانونية في الاقاليم التي تكون موضوعة بيدهم على أن يدفعوا جميع نفقات الادارة المدنية والعسكرية في هذه الاقاليم .

٦ — ان جميع القوى البرية والبحرية التي يجندها ويدفع نفقاتها باشا مصر وعكا تعتبر جزءا من قوى الامبراطورية العثمانية ومعدة لخدمتها .

٧ — اذا انقضت مهلة العشرين يوما بدون أن يقبل محمد علي التسوية التي تعرض عليه يصبح السلطان حرا بأن يسحب عرضه ويتخذ التدابير التي تناسب مصلحته وينصحه خلفاؤه باتخاذها .

٨ — يكون لهذه الوثيقة المستقلة قوة وقيمة كأنها نازلة حرفيا في الاتفاق المعقود بتاريخ هذا اليوم وسيتم ابرامها في لندن حال ابرام الاتفاق .

كتب في لندن بتاريخ ١٥ تموز ١٨٤٠

الامضاء : نومن
بالمرستون
بيلو
برونوف
شكيب

١٠ — بروتوكول سري وضعه في لندن بتاريخ ١٥ تموز ١٨٤٠ (١) مفاوضو النمسا وبريطانيا العظمى وبروسيا وروسيا

لما كان مفاوضو اباطرة وملوك النمسا وبريطانيا العظمى وبروسيا وروسيا والباب العالي العثماني قد وضعوا ووقعوا اتفاقا في هذا اليوم ، عملا بالصلاحيات المطلقة المعطاة لهم لاعادة السلام في الشرق .

ولما كان تبادل وثائق ابرام هذا الاتفاق لا يمكن ان يتم الا بعد مضي وقت نظرا لبعد المسافة بين المفاوضين الموقعين وعواصم بلادهم .

ولما كان المفاوضون على أتم ما يكون الاقتناع بأن الاوضاع في سورية والمصلحة الانسانية والاعتبارات السياسية الاوربية التي يحيطها ملوكهم وأباطرتهم بالعطف والاهتمام لا تسمح بتأجيل تنفيذ الاحكام المتفق عليها لاعادة السلام وتوطيده .

فقد اتفق المفاوضون على أساس الصلاحيات المطلقة المعطاة لهم على ان التدابير المنصوص عليها في المادة الثانية من الاتفاق يجب أن تنفذ في الحال وبدون انتظار تبادل وثائق الابرام .

ولهذا فان للسلطان أن يقوم فورا بتبليغ محمد علي العرضين المتفق عليهما في الوثيقة المستقلة الملحقة بالاتفاق الموقع عليه بتاريخ هذا اليوم .

نقلاً عن : وثائق التدخل الأجنبي. الوطن العربي في ظل الاحتلال العثماني، د.م. (د.ن)، ط١، ١٩٧٥م ،ص٧٦ – ٧٩.(موجودة في مكتبة الأسد في دمشق).

وثيقة رقم (٩)

رسالة من اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا إلــى الســفير البريطــاني فــي الأستانة بونسونبي بشأن السياسة البريطانية اتجاه فرنسا وحليفها محمد علي باشــا ٢٧ تشرين الأول ١٨٤٠م.

رسالة لورد بالمرستون (وزير خارجية بريطانيا)
الى المفوض البريطاني لدى بلاط السلطان العثماني لورد بونسونبي
بشأن السياسة البريطانية نحو مصر وازاء فرنسا

٣٠ شعبان ١٢٥٦ / ٢٧ تشرين اول – أكتوبر ١٨٤٠

حضرة اللورد

وصلني كتابك المؤرخ في (٧ تشرين الاول ١٨٤٠) وعرضته على جلالة الملكة ، فعليك اعلام الباب العالي ان الكونت واليفسكي ممثل فرنسا قد اراد بالكلمات التي جاءت في كتابك ، الارهاب واشاعة الذعر . وفي رأيي ان فرنسا لن تؤيد محمد علي بقوة السلاح لأنها بذلك تتعرض لحرب ضروس مع الدول الاربعة مع ان قواتها البرية والبحرية لا تملك القوة على ذلك ، لان اسطولها بكامله لا يضاهي قوة الاسطول الانكليزي وحده فما بالك إذا انضم اليه الاسطول الروسي ؟ اما القوات البرية ، فلا تملك منها إلا جيشها الذي تحتفظ به عادة ايام السلم ، رغم الحشود التي تقوم بها في الآونة الأخيرة ، وعليها أن تحتفظ بستين الف مقاتل في الجزائر فوق ذلك . لذلك فليس لدى فرنسا ولن يكون لديها في وقت قريب القوة الكافية لمجابهة القوات الالمانية والروسية معا. هذا وقد ضمنت لاوربا استقالة المسيو تيير وزملائه الوزراء ان فرنسا لن تشعل الحرب لمؤازرة محمد علي.

نقلاً عن: نوار، عبد العزيز سليمان: وثائق اساسية من تاريخ لبنان، جامعــة بيــروت العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٤م، ص٣٤٧.

وثيقة رقم (١٠)

اتفاق بين الموحدين الدروز والمسيحيين والتعهد بعدم الخيانة في أثناء الثورة اللبنانية ضد محمد علي باشا عام ١٨٤٠م.

التعهد الموقع بين طوائف جبل لبنان ومؤداه عدم الخيانة أو ضرر أي كان. وأن يكون الرأي واحداً والقول واحداً. وقد اشهدوا على عهدهم هذا القديس مار الياس. ١٨٤٠م.

محفوظات حافظ أبو مصلح ـ عبيه.

نقلاً عن غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين ١٨٦١-١٧٨٨م، (دراسة وثائقية في تاريخ جبل لبنان السياسي)، بيسان، بيروت، لبنان ، ط١، ١٩٩٨م، ص٤٢٥.

وثيقة رقم (١١)

شكوى أهالي جبل لبنان من مظالم إبراهيم باشا مقدمة إلى سعادة السر عسكر.

ملحق رقم (٩)

(صورة عن كتاب لاهالي جبل لبنان يشكون فيه مظالم ابراهيم باشا) *

[illegible]

* المصدر : الارشيف البريطاني . F. O. 226 / 70

نقلاً عن: أبو صالح، عباس: التاريخ السياسي للأمارة الشهابية في جبل لبنان ١٦٩٧–١٨٤٢م، بيروت، ط١، ١٩٨٤م، ٤٣٦.

توضيح للوثيقة رقم (١١)

جواب من اهالي جبل لبنان الى سعادة السر عسكر المعظم رقم ١٢ حزيران سنة ١٨٤٠ :

انه بمعلوم سعادته وجنابكم الظلم الحاصل على اهل البلاد من زيادة المطاليب وتكرار مضاعفتها ومن حين دخول هذه الدولة الى هذه الديار فأول من دخل بالطاعة هم اهالي الجبل وقاموا قدامها الى فتح الشام ومقابلة العساكر في حماه وطرابلوس وحين ظهرت العصاوه بلاد صفد ونابلس والنصيريه والمتاوله فقامت أهل الجبل مع سعادته حاربتهم وادخلتهم تحت الطاعة لهذه الدولة فترجح الامل ان ترتفع كافة المظالم عنهم فمجازاة لاتعابهم من بعد تطبيعهم هذه الايالات طلبت منهم السلاح ومن بعده النظام ومن جرا ذلك حصل جور تنسد عن سماعه الاذان حيث اتصل الامر بمسك الحريم واجرى عليهم عذابات مختلفة وتعلقهم بالاشجار وترتب عليهم مال الاعانة حتى الذين يموتوا ويقتلوا بالحرب قدام هذه الدولة تندفع اعانتهم وحين طلع معدن الفحم الحجري بالجبل حصل ترتيب [تشغيله] وتقديم لوازمه على الاهالي عن يد امرآ [و] بلو كباشيه متحولين وترتب اجره للفعلة والمكاريه لنقل الفحم لبيروت شي جزءي والتزمنا نحتمل كمالة الاجره وندفعها من كيسنا لهم ونقدم عواميد [وبرافيل] للمعدن وحسب فقط ربع ثمن عدآ عن اجرة نقلهم من القرا واذ ردنا نشرح عن [الحاله] فردا فهذا يطول بنا الشرح وذلك عدآ عن الضرب والعزاره والبهدله نسبة لاهالي مصر والاكلاف على الحواليه والامرآ والبلو كباشيه ومن حيث ابتدا رسم كورنتيناء للان حصل الزام على اهل الجبل يظمنوا كلس بثمن محدود منخفض جدا ويقدموه على دوابهم سخره وترتب ايضا مال جديد على الطواحين . اخذت المعلمين المعماريه لكولك بوغاز والي عكا وللكورنتينا رغما واعطوهم ربع اجره . وتراكمت علينا السخر من المدن والبر من كامل الجهات التي نخرج لها حتى من جر ذلك نزح عيال كثير من الجبل واتصلنا في الخراب والدمار لا ان لم عدنا نملك لا على مال ولا على اولاد ولا على دواب . لا ان اولادنا عمال يوخذوا نظام واغلال رزقنا لم يكفي المطاليب الفاحشه ودوابنا من كل جنس بالسخره القدمه حتى انه جملة هوّروا بقالهم وحمالهم من محلات المهالك وكثيرين صرفوها بالثمن الزهيد ونحن لا اشغال المعدن وللعسكريه ايضا لا ان من مدة حين حصل الحرب والظلم على اخوتنا اهالي حوران الذين هم فرعا من اعضانا عطانا سلاح وارسلنا لمحاربتهم فبقينا على [سنتين] فمات منا جمع كثير منهم في شدة السفر ومنهم [بالحرب] وتكلفنا ما بين مصاريف وتعطيل اشغال مقدار الفين كيس وحيث بالنتيجه مالنا راح وولادنا راحت وحريتنا فقدت ولم عدنا نملك على شيء والخلاصه صرنا [بالذل] المريع فالتزمنا للقيام لاجل رفع الظلم ولنطلب راحتنا وحريتنا فاان حصل الالتفات من اوليا الامور الى جانب الله ورفعوا الظلم عنا فنحن خاضعين وطايعين اوامرهم لا ان قيامنا ليس هو لاجل تولي ومعاطات الاحكام بل لاجل رفع الظلم الغير محتمل لا ان نحن لم صار لنا اقتدار ندفع سوى ميري واحده على ارزاقنا وجاليه واحده فاذا حصل قبول التماسنا برفع كامل المظالم المشروحه التي هي غايتنا نترجا بصك من سعادة افندينا الخديوي الاعظم على الوجه المشروح اعني يوخذ ميري واحده و ... واحدة وكافت المظالم والاشغال والسخر مرفوعه عنا وان يكون ذلك عن يد وكلا دولة فرانسا وانكلترا المعظمتين بواسطة قناسلهم بهذهالبلاد حتى اذا صار تااخير عن حفظ هذه الشروط يطلب ذلك منهما ونحن نبقا بجموعنا بالمحلات المجمعين بها لرجوع الجواب فاذا كان بالايجاب يرجع كل منا لمحله واذا لم حصل قبول فنحن مستعدين للموت اهون من الحال الذي حاصلين عليه فهذا شرح حالتنا اعرضناه والامر لاوليا الامور في ١١ ر اخر سنة ٥٦

عبيدكم

اهالي الجبل بوجه العموم

وثيقة رقم (١٢)

صورة عن بيان نابير لأهالي بلاد الشام يعدهم بالحرية والراحة والتقدم، مقابل تقديم المساعدة إلى جيوش الحلفاء بزعامة بريطانيا من أجل طرد محمد علي باشا من بلاد الشام.

(صورة عن بيان الكومودور نابيير لاهالي بر الشام وجبل لبنان) *

* المصدر : الارشيف البريطاني . F. O. 226 / 70

اعلام الى اهالي بر الشام أي سوريا

ان الممالك المعظمين وهم دولة الانكليز ودولة النمسا ودولة المسكوب ودولة بروسيا باتفاق مع الدولة العثمانية اتحد رايهم برفع حكومة محمد علي باشا عن سوريا وانا حضرت لهنا قدام من اصل العماره البحريه المعتبره لاجل رفع نقل نير حكومة المصريه عنكم

اهالي بلاد سوريا عندكم محقق الخط الشريف الذي انمنح من قبل السلطان عبد المجيد لاجل حفظ الحياه والمال الى رعاياه وجاري العمل بموجبه بكامل البلاد الخاضعه لدولته وبمقتضى ذلك الدول المعظمين قد اتفقوا لاجل انهم ينالوا لكم من السلطان عمل وترتيب طرايق التي تجعلكم حاصلين على تمام الراحه والحريه والنمو

اهالي جبل لبنان انتم ايضا الذين بنوع خصوصي كاينين تحت نظرنا باحوالكم انا اطلبكم ان تنهضوا وتلقوا عنكم ثقل نير الحكومه المصريه الذي ازعجكم عساكر وجبخانات وسلاح منتظرين حضورهم يوميا من محروسة اسلامبول ومن الان وصاعد مراكب الحربيه المصريين لم بقوا يتعدوا على شطوط البحريه ببلادكم

عساكر السلطانيه الذين بالخون اتخذتم من [محلاتكم] الى الارمال الحارة بمصر ومن بعده انرسلتم الى بر الشام اي سوريا نطلبكم باسم الدول المعتبرين ان ترجعوا تحت طاعة سلطانكم وقد وضعنا قبقين حربيه بقرب الكورنتينا اي الازاويت محل اقامتكم فاوضعوا ذاتكم تحت حمايتنا واذا احد من عساكر الباشا تجاسر ان يقرب لكم فيتلاشى وكل الذنوب الماضيه ستغفر وجامكياتكم المتاخره تندفع لكم من الخزينه السلطانيه كما ان [بامكان] كامل العساكر الذين يريدوا [ان يدخلوا] تحت السنجق السلطاني

من القبق الحربي الملوكي الانكليزي

باوارفول

نقلاً عن: أبو صالح، عباس:التاريخ السياسي للأمارة الشهابية في جبل لبنـــان ١٦٩٧-١٨٤٢م، بيروت، ط١٩٨٤،١م، ص٤٤.

وثيقة رقم (١٣)

رسالة من ريتشارد وود إلى الأمير بشير الشهابي الثاني يحثه على التعاون مع العثمانيين وبريطانيا، والتخلي عن محمد علي باشا.

رسالة ريتشارد وود إلى بشير الشهابي الثاني

٦ رجب ١٢٥٦ / ٣ سبتمبر – ايلول ١٨٤٠

« اصفي الشيم جلي الهمم وفير الجود والكرم سعادة الامير بشير الشهابي المحترم ادام بقاه .

غب الاستعطاف عن كريم الخاطر الشريف .

قبلا اعرضنا لسعادتكم عدا عن الاعراض الاول بما به الكفايه ، ومن حيث برهنا عن كيفية الامور المختصه بذات سعادتكم ، المبنيه على الحب والميل الكاين لنحو سعادتكم من قبل سعادة اوليا (امورنا) ، وتركنا الماده لحينما يحصل الاقتضي بوقته ، (ننتظر) ميل سعادتكم .

فالان قد حضر الوقت ، والعماره العثمانيه مع العساكر قد وصلوا بالسلامه لقبرص مصحوبين بالسلاح والجبخاناة والاستعداداة بالقوة الحربيه براً وبحراً وربما نهار غد يصلوا لهنا حيث انه حضر من اصلهم مركب لهنا قدام هذا . عدا عن المهمه الموجوده مع مراكب الانكليزيه هنا .

والامس حضرة لهنا من الاستانه العاليه فركاتا[١] انكليز دغري ، وبرفقتها حضر لسعادتكم فرمان شريف خاقاني عليد[٢] سعادة آلشي[٣] دولة الانكليز الذي منطوقه السامي تثبيت سعادتكم متولياً من قبل دولته على المقاطعاة جميعاً الذين تحت حوذة سعادتكم الآن . كما انه ممنوح به ايضاً صفو الخاطر [الملوكي] لنحو سعادتكم .

وكامل ما هو محتويه هذا الفرمان الشريف فهو مثبت اجراه حيث انه كاين بواسطة [الشي] دولتنا [المحترمه] . [وسعادة] الجناب كافلا

---

(١) فرقاطة ، وهي نوع من القطع البحرية حينذاك .

(٢) على يد .

(٣) اليلشي او إلجي بمعنى سفير .

٣٣٣

بموجب وظيفته من قبل الدولة الانكليزيه المعظمه لأجل كلما يحتويه هذا الفرمان المشار اليه بما يختص بصالح سعادتكم . ولم ارتضينا نوجهه الان خشيتاً من انه ينحاش[1] من احـــد او يفقد ، بل قصدنا نعرض عنه لسعادتكم لاجل ان [تبعثوا] معتمد معلوم لنسلمه اياه .

والاوفق ان يكون مصحوب بشرفه ايضا لأن الان صار مقتضي ان سعادتكم [ترموا] ميلكم في جهة الدوله العليه بكل حريه حيث ان هذه الدولة العثمانيه الان مشهور خاطرها لنحو سعادتكم ، ومحاطه بالاسعاف من الاربعة دول [القويين][2] باروبا لتأييد مرغوباتها .

فا اذاً لم بقي ادنا شبها التي توجب الخوف من ان محمد علي باشا يفوز بمرغوبه ضد كل هذه [القواة] الملوكيه فلا بد لكل ذكي الذي اخصهم سعادتكم ، يلاحظ قوة هذا الظرف ، وانه لا بد عن نفوذ ما قد حتموا برايهم به ذوي القواة الملوكيه المتحده .

ونظن ان يوافق سعادتكم اكثر الحصول علي الحريه وان تكون الاحكام منزها عن كل يد بل متصله من الباب الملوكي ومثبته تحت مناظرة اربعة ملوك الاقوياء باروبيا ، ولا تكون تابعـــه الى باشا الذي حاصل الخطر المبين الي التأخير وعـــدم النفوذ لا له ولا الي المتولين من قبله . وهذا الشرف مختص كما اعرضنا من البدايه بذات سعادتكم حسب الميل والحب ، وليس الي البلاد لانها صارة بحساب تحت طاعة واحكام الدولة (العثمانية) من حينما بقي رأى راي الملوك (على) ذلك . ولربما يكون بلغ سعادتكم ان دولة فرانسا مساعدة الي محمـد علي ومن جرا ذلك يحصل ادنا ريب انه ربما حكم المصري يفوز ، فهذا ولو فرضناه يكون محال . وذود عن ذلك ان هذه الدولة اشهرة خاطرها بعدم المقارشه [والتنزه] عن هذه

المادة والذي ياكد لسعادتكم ذلك فهو تفريق عمارة [1] دولة الانكليزيه بهذه النواحي وهنا وعلي الاسكندريه وازمير [وخلافه] فاو كان ادنه شبها من هذا القبيل فمن المعلوم كانة تبقي مجموعا عمارة الانكليزيه لمحافظة عمارة السلطانية والمهاة والعساكر التي وردة فا اذا هذا ولا بد [مبرهن] لسعادتكم عني . ومن اخبار مرسيليا مع مركب الاخير ومن الاسكندريه وخلاف جهات حضرة اخبارتنا في علي خط المستقيم كامل ما كان اشيع من قبل الحكم بهذه البلاد بمساعدة دولة فرانسا الامر المستحيل .

والخلاصة الان مقدمين هذا الاعراض مستوفي البيان لسعادتكم ، والامل ان لا تتأخروا باشهار الميـــل لجهة الباب الهمايوني وارسال معتمد لاجل نقدم صحبته الفرمان وراحة سعادتكم من كل الاخطار .

لا بل ان شاء الله يحصل التقدم والنفوذ لذات سعادتكم نظراً للغرضيه الكاينه من اوليا امورنا لنحو سعادتكم منزهـه عن كل غايه ، حيث لا يخال ان هذا الشرف بني لغاية ما لانه معلوم لدى سعادتكم ما هي قدرة وعزم الملوك المتحدين المشار اليهم والامل التشريف بالجواب مـع دوامنا بخاطركم واطال الله بقاكم

الداعي

في ٣ ايلول ١٨٤٠ الخاتم ريجار وود

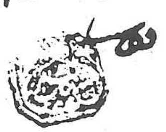
نقلاً عن: نوار،عبد العزيز سليمان: وثائق اساسية من تاريخ لبنـــان، جامعـــة بيـــروت العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٤م. ص٣٣٣-٣٣٥.

وثيقة رقم (١٤)

رسالة من الأمير بشير الشهابي الثالث إلى قنصل بريطانيا مور. يخبره فيها عن وضع وتحركات جيش إبراهيم باشا في بلاد الشام.

ملحق رقم (١٢)

(رسالة سرية من الامير بشير الثالث الى القنصل الانكليزي ن . مور) *



حاوي خير

من نحو المجد ابراهيم باشا باقي الشام مجمع عساكره وحاصل في ضيق من قبل الذخاير وأنفار عساكره متوارده بالانهزام يوميا وعساكرنا حايشته بقرب الشام نحو ثلاث ساعات قاطعين الوارد عنه ومن نحو حوران فلا يسلك له سبيل الا بسردله قويه وهو معمد على القيام بحين قدومنا اليه لانه لا يقابل عساكرنا كما جرت عادته وان حسن تفيدونا عن الصلح وكيف الواقع ومـا هي الشروط التي طالبها محمد علي صريحا لنكون على بصيره والسر محفوظ فلا يحصل ارتياب .

مكان « الختم »

بشير شهاب

* الارشيف البريطاني F. O. 226 / 70

ان تاريخ هذه الرسالة هو على الارجح عام ١٨٤٠ .

نقلاً عن أبو صالح،عباس: التاريخ السياسي للأمارة الشهابية في جبل لبنان ١٦٩٧-١٨٤٢م، بيروت، ط١، ١٩٨٤م،ص٤٤٣.

وثيقة رقم (١٥)

رسالة من القائد البريطاني نابير إلى قنصل بريطانيا في بيروت يطلب فيها منه توظيف أشخاص أذكياء من أجل الحصول على معلومات، والتعامل بمرونة مع أي تغيير ممكن أن يحدث.

Her Majesty's Ship Powerful
Beirut , 24th August 1840 .

Sir

As it is of the utmost importance that I shold be acquainted with the movements of the troops in the Neighbourhood of Beirut , and likewise of any batteries are thrownup ; I have to request that you will employ intelligent persons to procure information and communicate any change that may take place .

I am sir
Your most obedient servant
Commodore Charles Napier

Niven Moore
Her majesty's Consul
at Beirout

٤٤٢

نقلاً عن: أبو صالح،عباس:التاريخ السياسي للأمارة الشهابية في جبل لبنان ١٦٩٧-١٨٤٢م، بيروت ط١، ١٩٨٤م،ص٤٤٢.

وثيقة رقم (١٦)

فرمان منح محمد علي باشا ولاية مصر.

خط الشريف الهمايوني
ح محمد علي ولاية مصر
بطريق التوارث تحت شروط معلومة
مؤرخ في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١م الموافق ٢١ ذي القعدة سنة ١٢٥٦هـ

رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدات امانتكم وصدق عبوديتكم الشاهانية ولمصلحة بابنا العالى ، فطول اختباركم ومالكم من الدراية بأحوال البلاد المسلمة ادارتها لكم من مدة مديدة ، لايتركان لنا ريبا بأنكم قادرون بما تبدونه من الغيرة والحكمة فى ادارة شئون ولايتكم ، على الحصول من لدنا الشاهانى على حقوق جديدة فى تعاطفتنا الملوكية فتقدرون فى الوقت نفسه احساناتنا اليكم قدرها وتجتهدون ببث هذه المزايا التى امتزتم بها فى اولادكم ، وبمناسبة ذلك صممنا على تثبيتكم فى الحكومة المصرية المبينة حدودها فى الخريطة المرسومة لكم من لدن صدرنا الأعظم ، ومنحناكم فضلا على ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتى بيانها : متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية الى من تنتخبه سدتنا الملوكية من اولادكم الذكور ، وتجرى هذه الطريقة نفسها بحق اولاده وهلم جرا . واذا انقرضت ذريتكم الذكور لايكون لأولاد نساء عائلتكم الذكور حق ايا كان فى الولاية المذكورة . على ان حق التوارث الممنوح لوالى مصر لا يمنحه رتبة ولا لقبا اعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقا فى التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه وجميع إحكام خطنا الشريف الهمايونى الصادر عن كلخانه ، وكافة القوانين الادارية الجارى العمل بها أو تلك التى سيجرى العمل بموجبها فى ممالكنا العثمانية ، وجميع العهود المعقوده أو التى ستعقد فى مستقبل الايام بين بابنا العالى والدول المتحابة ، يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها فى ولاية مصر أيضا ، وكل ما هو مفروض على المصريين من الأموال والضرائب يجرى تحصيله باسمنا الملوكى ، ولكن لا يكون أهالى مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالى معرضين للمضار والأموال والضرائب غير القانونية ، يجب ان تنظم تلك الأموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية وربع الايرادات الناتجة من الرسوم الجماركية ومن باقى الضرائب التى تتحصل فى الديار المصرية يتحصل بتمامه ولا يخصم منه شيء ويؤدى إلى خزينة بابنا العامرة . والثلاثة الارباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بمصاريف التحصيل والأدارة المدنية والجهادية ، وبنفقات الوالى وبأثمان الغلال الملزومة مصر بتقديمها سنويا الى البلاد المقدسة مكة والمدينة . ويبقى هذا الخراج مستمرا دفعه من الحكومة المصرية بطريقة تأديته المشروحة مدة خمس سنوات تبتدىء من عام ١٢٥٧ أى يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ . ومن الممكن ترتيب حالة اخرى بشأنهم فى مستقبل الأيام تكون أكثر موافقة لحالة مصر المستقبلة ونوع الظروف التى ربما تجد عليها . ولما كان من واجبات بابنا العالى الوقوف على مقدار الايرادات السنوية والطرق المستعملة فى تحصيل العشور وباقى الضرائب ، وكان الوقوف على هذه الاحوال يستلزم تعيين لجنة مراقبة وملاحظة فى تلك الولاية ، فينظر فى ذلك فيما بعد ،

ويجرى ما يوافق ارادتنا السلطانية ، ولما كان من اللزوم أن يعين بابنا العالى ترتيبا لسك النقود لما فى ذلك من الأهمية بحيث لا يعود يحدث فيما بعد خلاف لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة ، اقتضت ارادتى السنية أن تكون النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنقود المضروبة فى ضربخانتنا العامرة بالاستانة ، سواء كان من قبيل عيارها أو من قبيل هيئتها وطرزها ، ويكفى أن يكون لمصر فى أوقات السلم ثمانية عشر ألف نفر من الجند للمحافظة فى داخلية مصر ، ولا يجوز ان تتعدى ولايتكم هذا العدد ، ولكن حيث أن قوات مصر العسكرية معدة لخدمة الباب العالى كأسوة قوات المملكة العثمانية الباقية فيسوغ أن يزاد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى موافقا فى ذلك الحين . على انه بحسب القاعدة الجديدة المتبعة فى كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية بعد ان تخدم الجند مدة خمس سنوات يستبدلون بسواهم من العساكر الجديدة ، فهذه القاعدة يجب اتباعها أيضا فى مصر . بحيث ينتخب من العساكر الجديدة الموجودة فى الخدمة حالا عشرون ألف رجل ليبتدئوا الخدمة فيحفظ منها ثمانية عشر ألف رجل فى مصر ، وترسل الالفان هنا لأداء مدة خدمتهم ، وحيث أن خمس العشرين ألف رجل واجب استبدالهم سنويا ، فيؤخذ سنويا من مصر اربعة آلاف رجل حسب القاعدة المقررة من نظام العسكرية حين سحب القرعة ، بشرط أن تستعمل فى ذلك مواجب الانسانية والنزاهة والسرعة اللازمة ، فيبقى فى مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندى من الجنود الجديدة ، والاربعمائة يرسلون إلى هنا ، ومن اتم مدة خدمته من الجنود المرسلة إلى هذا الطرف ومن الجنود الباقية فى مصر ، يرجعون إلى مساكنهم ولايسوغ طلبهم للخدمة مرة ثانية ، ومع كون مناخ مصر ربما يستلزم اقمشة خلاف الاقمشة المستعملة لملبوسات العساكر فلا بأس فى ذلك ، فقط يجب ان لا تختلف هيئة الملابس والعلائم التمييزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقى الجنود العثمانية وكذا ملابس الضابطان وعلائم امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها ، يجب ان تكون مماثلة لملابس ورايات وعلائم رجالنا وسفننا . وللحكومة المصرية ان تعين ضباط برية وبحرية حتى رتبة الملازم ، اما ما كان اعلى من هذه الرتبة فالتعيين إليها راجع لارادتنا الشاهانية . ولا يسوغ لوالى مصر أن ينشىء من الان فصاعدا سفنا حربية الا بإذننا الخصوصى ، وحيث ان الامتياز المعطى بوراثة ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة أعلاه ، ففى عدم تنفيذا أحد هذه الشروط موجب لإبطال هذا الامتياز والغاية للحال . وبناء على ذلك قد اصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكى كى تقدروا انتم واولادكم قدر احساننا الشاهانى ، فتعنون كل الاعتناء بإتمام الشروط المقررة فيه ، وتحمون أهالى مصر من كل فعل اكراهى ، وتكفلون امنهم وسعادتهم من الحذر من مخالفة أوامرنا الملوكية واخبار بابنا العالى عن كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم ..

عن الغنام، سليمان بن محمد: قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية (١٨١١-١٨٤٠) م في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا، تهامـــة، الكتـــاب العربـــي السعودي، ط١، ١٩٨٠م، ص١٦٣-١٦٤.

وثيقة رقم (١٧)

مذكرة بالمرستون إلى السفير البريطاني في الأستانة، بخصوص توطين اليهود في فلسطين، وأهمية ذلك من أجل أن يكون حائلاً بين محمد علي باشا أو من يخلفه، وبين تحقيق خطته في توحيد مصر مع بلاد الشام.

مذكرة بالمرستون الى سفير بريطانيا فى تركيا

بخصوص توطين اليهود فى فلسطين (*)

١١ اغسطس سنة ١٨٤٠

يقوم بين اليهود الآن المبعثرين فى كل أوربا شعور قوى بأن الوقت الذى ستعود فيه أمتهم الى فلسطين آخذ فى الاقتراب ... ومن المعروف جيدا أن يهود أوربا يمتلكون ثروات كبيرة ، ومن الواضح أن أى قطر يختار اعدادا كبيرة من اليهود أن يستوطنوه سيحصل على فوائد كبيرة من الثروات التى سيجلبها معهم هؤلاء اليهود .. فاذا عاد الشعب اليهودى تحت حماية ومباركة السلطان فسيكون فى هذا حائلا بين محمد على ومن يخلفه وبين تحقيق خطته الشريرة فى المستقبل .

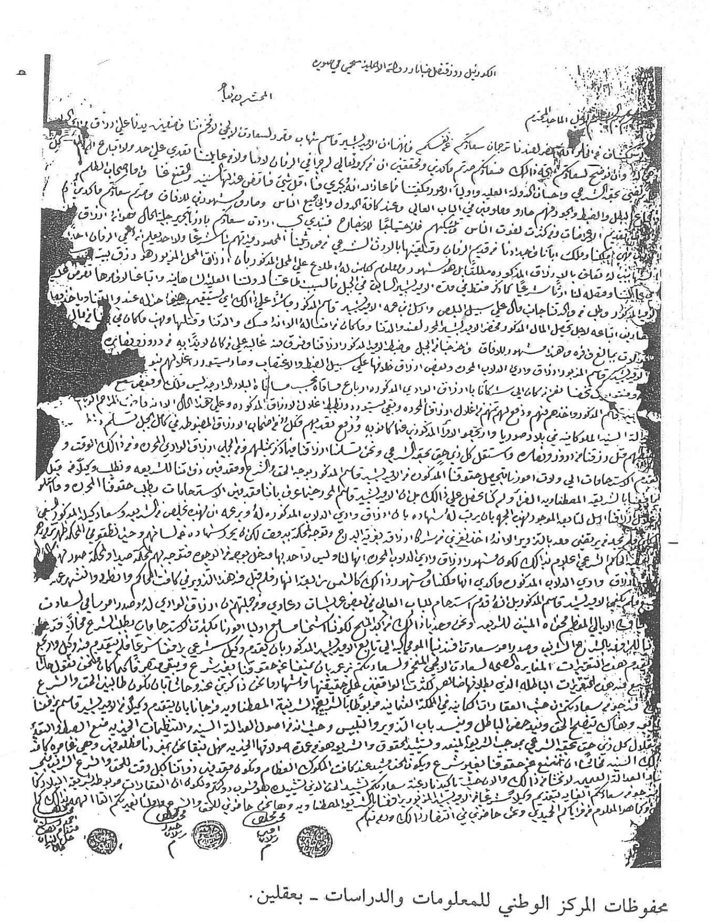
وحتى اذا لم يؤد هذا التشجيع الذى سيقدمه السلطان لليهود لم يؤد بالفعل الى استيطان عدد كبير منهم فى حدود الامبراطورية العثمانية الا أن اصدار قانون من هذا النوع سيعمل على انتشار روح الصداقة تجاه السلطان بين جميع يهود أوربا ، وسترى الحكومة التركية فى الحال كم سيكون مفيدا لقضية فلسطين أن يكسب أصدقاء مفيدين فى كثير من الأقطار بقانون واحد بسيط كهذا .

ملف وثائق فلسطين (مجموعة وثائق وأوراق خاصة بالقضية الفلسطينية) من عام ٦٣٧ إلى ١٩٤٩م، وزارة الإرشاد القومي، ص٤٧- ٤٩.(موجودة في مكتبة الدراسات العليا كلية الآداب،جامعة دمشق)

الوثيقة رقم (١٨) فصل ثالث

رسالة من الأمراء حيدر أحمد وأمين أرسلان إلى القنصل البريطاني روز بشأن عقارات أغتصبها منهم الأمير بشير الشهابي الثالث (بشير قاسم الشهابي).

رسالة من الأمراء حيدر أحمد وأمين أرسلان إلى القنصل البريطاني روز بشأن
عقارات أغتصبها منهم الأمير بشير الشهابي الثالث (بشير قاسم الشهابي)



محفوظات المركز الوطني للمعلومات والدراسات ـ بعقلين.

نقلاً عن :غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين ١٨٦١- ١٧٨٨م، (دراسة وثائقية في تاريخ جبل لبنان السياسي)، بيسان، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٨م، ص٤٣٣.

رقم الوثيقة (١٩)

رسالة من الأمير بشير قاسم إلى المشايخ الخازنيين بشأن اجتماع يعقد لتقرير الأموال الأميرية.

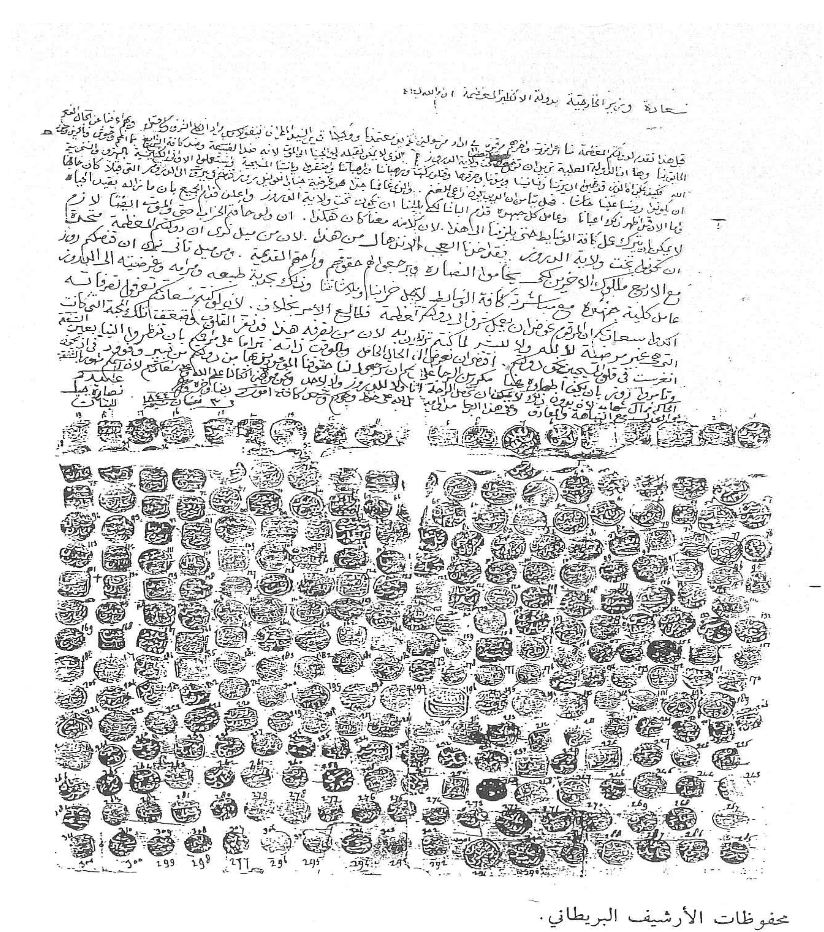
رسالة من الأمير بشير قاسم إلى المشايخ الخازنيين بشأن اجتماع يعقد لتقرير الأموال الأميرية

محفوظات المركز الوطني للمعلومات والدراسات ـ بعقلين.

نقلاً عن:غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين ١٧٨٨-١٨٦١م، (دراسة وثائقية في تاريخ جبل لبنان السياسي)، بيسان، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٨م،ص٤١٤.

رقم الوثيقة (٢٠)

استرحام مقدم من مسيحيي جبل لبنان إلى وزيرخارجية بريطانيا لعدم وضعهم تحت حكم الدروز واتهام القنصل روز بالتحيز عام ١٨٤٤م.

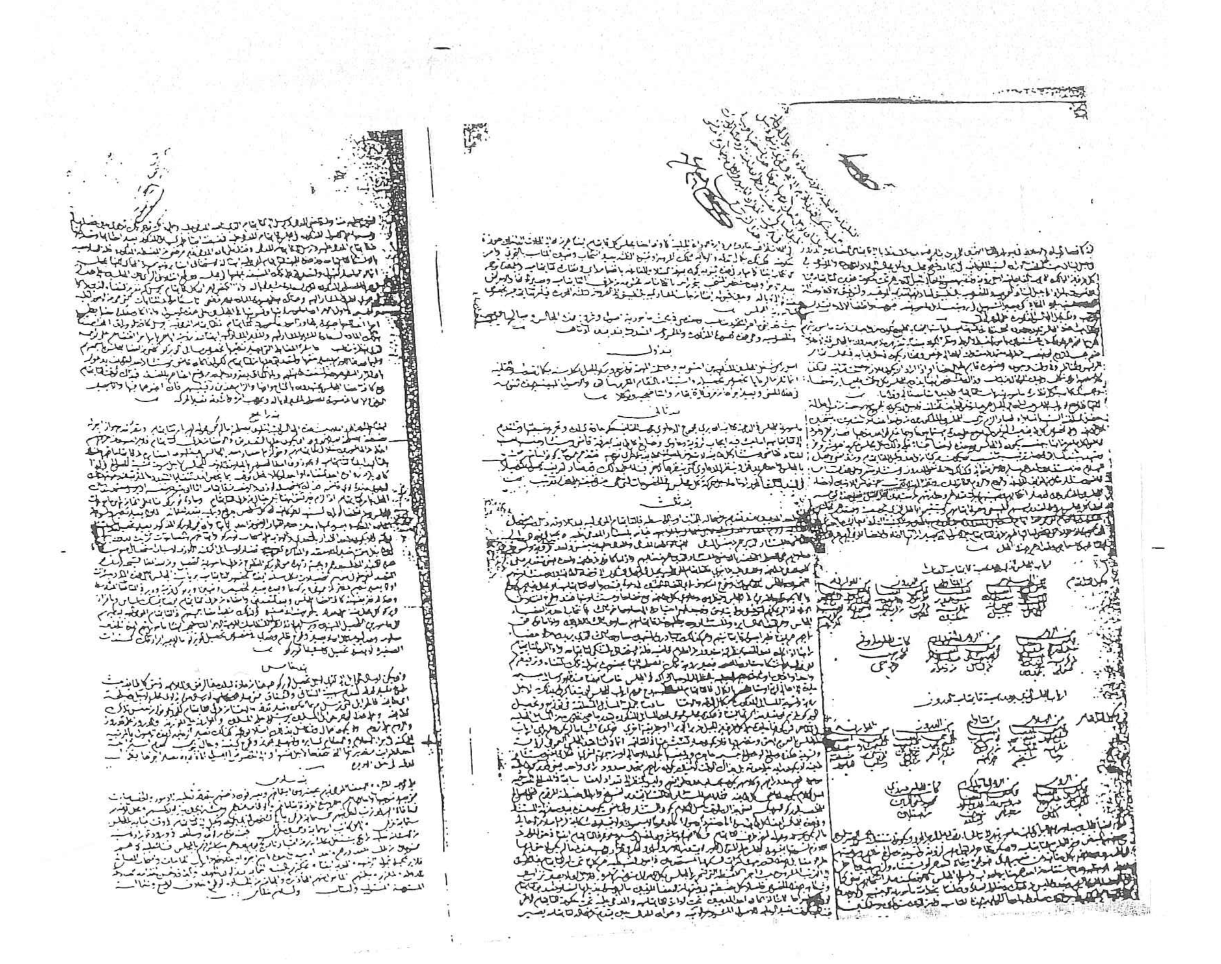


محفوظات الأرشيف البريطاني.

نقلاً عن: غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل حكم بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين ١٧٨٨-١٨٦١م، (دراسة وثائقية في تاريخ جبل لبنان السياسي)، بيسان، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٨م، ص٤٣٤.

رقم الوثيقة (٢١)

تنظيمات شكيب أفندي



محفوظات المديرية العامة للآثار في بيروت

الوثيقة رقم (٢٢)

تخفيض عدد المطلوب إعدامهم من الدروز(الموحدين) من ٤٦٠٠ إلى ١٢٠٠

تخفيض عدد المطلوب إعدامهم من الدروز من ٤٦٠٠ إلى ١٢٠٠

L'indépendance belge du 11 février contient à l'article revue politique, le passage suivant relatif aux affaires de Syrie : ... « Des journaux anglais ont affirmé que les évêques chrétiens du Liban ayant été interrogés par Fuad Pacha sur la question de savoir combien sur 6,000 Druses mâles qui habitent cette partie de la Syrie, il convenait d'en mettre à mort en expiation des massacres commis sur les maronites, ces dignes pasteurs auraient fixé à 4,600 le nombre des exécutions indispensables. Le fait était tellement monstrueux que nous n'y avons pas cru et que le monde et quelques feuilles cléricales ont eu beau jeu à le contester.

Cependant il n'était que trop vrai. Lord John Russell l'a attesté à la Chambre des Communes, dans sa séance du huit février, sur la foi d'un rapport de Lord Dufferin et d'un document signé par les évêques eux mêmes. Il a ajouté que ce n'était qu'à grand peine que Fuad Pacha et les commissaires avaient obtenu que le chiffre des exécutions fut réduit à 1200 comme minimum des Druses à massacrer légalement.

Si les sentiments des chrétiens du Liban correspondent à ceux de leurs évêques comme cela n'est que trop probable, ne peut on conclure que ces gens là ne méritent guère les sympathies du monde civilisé que l'on a essayé d'éveiller en leur faveur.

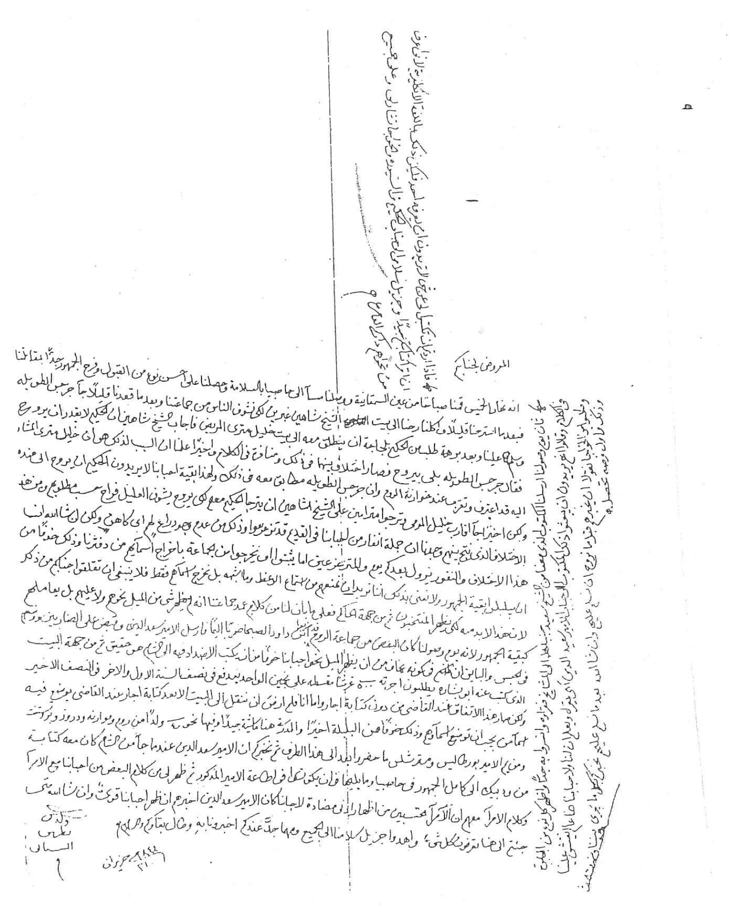
Sans doute c'est un devoir et une obligation pour l'Europe de les mettre à l'abri des atteintes de leurs ennemis, mais c'en est un aussi de les empêcher de commettre les mêmes crimes si, à leur tour ils devenaient assez forts pour cela. En dehors de ces obligations l'Europe ne doit rien à ces populations, et il y aurait folie à abandonner à de pareilles sectes qui déshonorent le christianisme auquel elles prétendent appartenir, le soin de se gouverner elles mêmes et surtout de gouverner les tribus qui ne sont pas de leur religion.

محفوظات المديرية العامة للآثار في بيروت

(وثيقة رقم ٢٣)

رسالة من بطرس البستاني حول نشاط المبشــرين البروتســتانت وموقــف الــروم الأرثوذكس منهم حزيران ١٨٤٤م.

رسالة من بطرس البستاني حول نشاط المبشرين البروتستانت وموقف ا
الأرثوذكس منهم حزيران ١٨٤٤ م



محفوظات المركز الوطني للمعلومات والدراسات ـ بعقلين.

نقلاً عن: غنام، رياض:المقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر (دراسة وثائقية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي)، بيسان، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م،وثيقــة رقم ٣٣،ص٣٦٩.

وثيقة رقم (٢٤)

رسالة من البطريرك بولس مسعد إلى المطران طوبيا عون حول جمع أيتام كاثوليك لتربيتهم على الطريقة البروتستانتية مؤرخة في ٢٦ كانون الأول١٨٦٠م.

رسالة من البطريرك بولس مسعد إلى المطران طوبيا عون حول جمع أيتام كاثوليك لتربيتهم على الطريقة البروتستانتية مؤرخة في ٢٦ كانون الأول ١٨٦٠ م.

محفوظات البطريركية المارونية.

نقلاً عن :غنام، رياض: المقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر (دراسة وثائقية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي)، بيسان، بيروت، لبنان، ط ١ ، ٢٠٠٠م، وثيقة رقم (٣١)، ص٣٦٦.